

مَنْ اصْدَارَتْ

دار الثقافة
محمد الأمين العمودي
لولاية الوادي



بشير خلف

الأعمال عبد الملك مكي

قصص

بشير خلف

الأعمال غير الكاملة

مجموعات قصصية

1. أخاديد على شريط الزمن

2. القرص الأحمر

3. الشموخ

4. الدفء المفقود

5. ظلال بلا أجساد

عنوان الكتاب : الأعمال غير الكاملة

المؤلف : الأستاذ بشير خلف

عدد الصفحات : 505

المقاس : 24x16 سم

الطبعة : مطبعة الرمال

العنوان : ولاية الوادي - الجزائر

الهاتف : 032 14 93 39

0557 97 44 43

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى 2015

رقم الإيداع القانوني: 2015-659

ردمك : ISBN 978-9947-0-4265-6

تصدير

لعل أول دافع إلى قراءة رواية ، أو قصّة هو تحقيق مُتعة السرد، إذ إن لدى الإنسان بصورة عامة دافعاً كامناً يمكن أن نسميه مجازاً غريزة السرد ، فكلُّ منّا يؤدّ أن يروي قصة ، أو يحكي خبرة عاشها، أو سمعها وانفعل بها ، أي إن لدى الإنسان دافعاً أساسياً لتفريغ شحنة الانفعال ، والخبرة ، والمعرفة التي يكتسبها في موقف ما ؛ كما أن لدى الإنسان ميلاً إلى الحديث عن خبرته في شكل سرد ، أو حكاية ، فإن لديه أيضاً ميلاً إلى سماع حكاية الآخرين عن خبراتهم . ولعل السرّ الكامن في هذين الدافعين اللذين هما في الواقع دافعٌ واحدٌ، يكمن في متعة عيش التجربة سرّداً، رواية ، قصّة ، سماعاً، قراءة من غير جُهدٍ ولا معاناة ، أو بقدرٍ أقل من الجهد ، والمعاناة.

فإذا كانت تقنية الحكّي في القصة الطويلة تعتمد على الشخصوص في الأداء الدرامي للحدث، وإذا كانت تقنية التمثيل في المسرحية تعتمد على الحوار والجملة المسرحية في الأداء الدرامي للحدث ، فإن القصة القصيرة اعتمدت ومنذ لحظتها الأولى على تقنية السرد التي تتخذ من الراوي أداة لعرض تفاصيل الحدث الدرامي ؛ حيث يختفي الكاتب تماماً خلف الراوي الذي يقوم بسرد الحدث الدرامي في تنامٍ معتمدا الكثافة التعبيرية، ووحدة العرض والمشهد .

ومنذ نشأة تقنية السرد وحتى يومنا هذا لم تستطع القصة القصيرة مع تشعباتها الحديثة ، أن تتخلص من أسلوب السرد، وإن كانت قد نجحت في تطوير

أسلوب السرد ذاته كالشعرية، وتكثيف اللغة مع تطوّر الحقب الزمانية، والمبتكرات الحضارية المتنوعة، والتغيّرات الفكرية والاجتماعية.

وإذ نحن ننجذب إلى السّرد ، وسحر القصة القصيرة التي لا تزال تحتلّ مكانتها المتميّزة في فضلاء الإمتاع الحكيم؛ فإننا نضع بين يدي القارئ الكريم " الأعمال غير الكاملة " من القصص القصيرة للكاتب القاص بشير خلف أصيل هذه الولاية ، تضمّ خمس مجموعات قصصية تبدأ بأوّل مجموعة له " أخايد على شريط الزمن " ، وتنتهي بالمجموعة الخامسة " ظلال بلا أجساد " قصص تشخّص يوميات الإنسان الجزائري منذ بداية السبعينيات حتى ما بعد منتصف العقد الأوّل من القرن الواحد والعشرين ، فيها من متعة السّرد وجماليات المكان والزمان ، وسحر الخيال ، بقدر أو أكثر ما فيها من مرارة الألم ، ومعاناة الواقع الاجتماعي الذي عاناه الإنسان الجزائري، ولا يزال..

لا ريب أنّ القارئ سيستخلص أن العديد من أشكال المعاناة ، والإذلال ، والفقر، والاحتقار الاجتماعي مثلما كانت في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي لا تزال تتكرّر إلى أيّامنا هذه.

إنّ دار الثقافة محمّد الأمين العمودي بالوادي وهي تتبنّى هذا المنجز الإبداعي السّري ، وتعمل على طبعه ونشره لتأمل أن يلقي القبول والرّضى من الجمهور المهتمّ بالإبداع السّري سيّما القصصي.. والله الموفّق .

محمد حامدي

مدير دار الثقافة . الوادي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن القصة القصيرة وكما أثبت النقاد، وحتى مبدعوها أنها جنس أدبي عصيّ، وليس الكل بقادر على تطويع هذا الجنس الأدبي الإبداعي الجميل، بكل ما تعنيه كلمة الإبداع في أبعادها السردية، واللغوية، والجمالية، ومن هنا أرى أن القصة القصيرة في الجزائر بقدر ما توجهت الأنظار إلى الرواية كجبة فضفاضة تسمح للمبدع أن يصبّ فيها ما تجمّع لديه، وأنها بنت المدينة المدللة، ونتاج الحياة المعاصرة بكل عنفوانها، وزخمها، وكموضة معاصرة يلهث الكل وراءها؛ فإني أعتبر القصة القصيرة نتاج اللحظات السريعة في حياتنا التي تفاجئنا، كما أنها الوجبة الجميلة الشهية لدقائق قد نسرقتها من يومياتنا المتشنجة، نتماهى فيها مع حدثٍ قد نغفل عنه، فيقدمه المبدع، أو تقدمه المبدعة في حلة جميلة تعيد لنا توازننا الذي نفتقده في مرّات عديدة.

والقصة القصيرة بقدر ما هي فضلاء داخلي للتحاور مع الذات فإنها فضلاء آخر رحبٌ تسمح برصد الظواهر الاجتماعية، وسلوكيات الفرد، وهي جنس أدبي يعبر عن البسطة في حيواتهم اليومية العادية؛ ذلك الرصد الذي يأتي من الكاتب المبدع؛ إذ يفتح له مساحات إبداعية هائلة، يشكّل عليها، وفيها رؤاه تجاه العالم

وتجاه الآخر.. ثم إن القصة وخاصة القصيرة بقدر ما هي جموحة وصعبة المراس ، فإن ترويضها ، وتطويعها فيه مُتعةٌ .

أجد نفسي أكثر طلاقة وحرية ، ومصادقية في القصة ؛ لأنها فضاء حرٌ نسبيا يسمح لي بالتعبير عما يحيش في نفسي تجاه عوالم متعددة من الانفعالات الداخلية ، والتحاور مع الذات تفريفا لشحنات من الضروري للإنسان المبدع أن يصبّها في قوالب إبداعية فنية ؛ وإلاّ شعر بالفناء .

ارتباطي بالقصة القصيرة بدأ منذ أوائل السبعينيات من القرن الماضي من خلال ولوج هذا الجنس الأدبي السّردي الجميل الذي كانت الصحافة الوطنية المعرّبة حينذاك في الجزائر لا يخلو عددٌ منها ، إضافة إلى مجلة " آمال " الشهرية التي خصّصتها وزارة الثقافة للشباب ، حيث احتضنت أعمالهم القصصية والشعرية ، وساعدتهم على الظهور على الساحة الأدبية الجزائرية ، وأغلبهم تألّقوا وصاروا قامات لها مكانتها في المشهد الثقافي الجزائري ، والعربي ؛ بل حتى الدولي.

تشكّلت تجربتي ضمن تجارب العديد من كتاب القصة في تلك المرحلة ، وهي أسماء بعضها توقّف عن الكتابة ، وبعضها الآخر واصل وأعطى للثقافة الجزائرية الكثير ، أسماء فرضت نفسها في الساحة الثقافية العربية والعالمية .

إن مرحلة السبعينيات هي من أهم المراحل الثقافية ، والفكرية في تاريخ بلادنا ، وهي مرحلة مضيئة طُرحت على ساحتها الكثير من القضايا الفكرية ، والاجتماعية ، والأدبية ، والفنية المعاصرة.

وأنا واحدٌ من هؤلاء الذين فتحت لهم مجلة " آمال " قلبها ، فكانت أول قصة لي تصدر بها في العدد 22 في شهر فيفري 1972 بعنوان " الأبي " لتتوالى قصصي فيما بعد في العديد من الصحف العربية كصحيفة النصر التي عُرِبت سنة 1972 وصحيفة الشعب اليومية ، وصحيفة الشباب ، وغيرها ، وفي مجلة " الثقافة " التي كانت تُصدرها وزارة الثقافة، ومجلة " الرؤيا " لاتحاد الكتّاب الجزائريين ، ومجلة " الأديب " البيروتية " ، ثم صدرت لي أول مجموعة قصصية سنة 1977 عن وزارة الثقافة بعنوان : " أحاديث على شريط الزمن " ، ثم مجموعة " القرص الأحمر " سنة 1986 عن المؤسسة الوطنية للكتاب، ثم مجموعتا : " الشموخ " و " الدفء المفقود " عن الجاحظية في إطار نشر مشترك ، ثم المجموعة الخامسة " ظلالٌ بلا أجساد " عن وزارة الثقافة سنة 2007 في إطار الجزائر عاصمة للثقافة العربية .

إنّ القارئ لهذه المجموعات الخمس سيلاحظ من أول قصة بالمجموعة الأولى إلى آخر قصة من المجموعة الأخيرة أن هذه القصص بطبيعة الحال تؤرّخ لمسار كاتب قصّة ، وتكشف التطور الذي طرأ على تقنياته الإبداعية ، وأسلوب كتاباته السردية

في القصة القصيرة ، ومعالجته لمضامين قصصه من حيث المضامين ، والأسلوب الفني ، وطريقة توظيف اللغة ، وسيكتشف القارئ أنّ مضامين القصص في أغلبها تعالج قضايا المجتمع الجزائري ، والتحوّلات التي طرأت في جميع المجالات .

كما أنّ القارئ سيكتشف أنّ مضامين القصص التي تعرّضت لمعاناة الإنسان الجزائري من: بيروقراطية ، وحقرة ، وتهميش ، ومحسوبة ، ورشوة ، وفساد مالي ، واختلاسات ، وإقصاء الشباب المتعلّم من تبوؤ المسؤولية في المؤسسات ، والإدارات ، وحتىّ التوظيف في المناصب العادية ، أو البسيطة ، وتشبّث الكثير من المسؤولين الكبار السن ، والعديمي التخصّص بمناصب المسؤولية ، وغيرها من الأمراض الاجتماعية التي زرعت اليأس والإحباط لدى الإنسان الجزائري ، وأفقدته الثقة في وطنه .

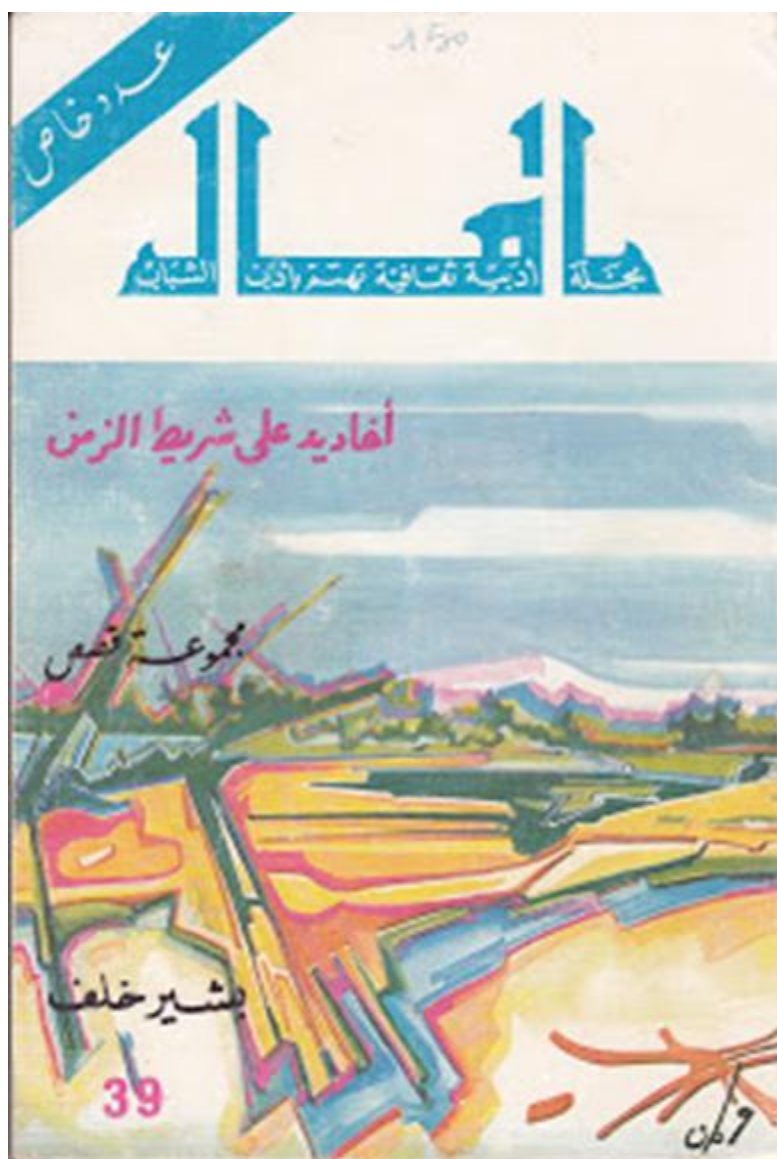
وما أشبه الليلة بالبارحة إذ أغلب تلكم الأمراض السالفة الذكر لا تزال تنخر جسم هذا الوطن الغالي ، وإنّ كان البعض منها اختفى سطحيا ؛ إلّا أنّه لا يزال متجذّرا في عمق الإدارة ، وسلوك العديد من المسؤولين ، وصُور الظلم الاجتماعي ، والاقتصادي .. هذه القصص في تقديري بقدر ما هي نصوصٌ إبداعية أدبية ؛ فإنّها نصوصٌ تاريخية .

إنّ ما دفعني إلى جمعها في إطار " المجموعة غير الكاملة " أولاً أن تكون مجموعة المجموعات تضمّ كل النصوص القصصية التي كتبها منذ سنة 1972 إلى

سنة 2007 ؛ ثانيًا من شجّعني على ذلك الأستاذ الفاضل محمد حامدي مدير دار الثقافة محمد الأمين العمودي بالوادي على تصفيفها ، وتنسيقها ، وإعدادها إلى الطبع الذي تكفّلت به دار الثقافة بقرارٍ منه ؛ مما يجعلني أتقدّم بجزيل الشكر والامتنان إليه ، وهو الذي منذ أن نُصّب على رأس دار الثقافة فتح قلبه ، وذراعيه لمثقفي الولاية ، ومبدعيها في تقديم المساعدة والتشجيع لهم ، والتكفل بطبع أعمالهم .

قمار في : 31 / 01 / 2015

بشير خلف



آمال

مجلة أدبية ثقافية .. تصدرها

وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر

— مجلة تهتمّ بأدب الشباب —

السنة التاسعة

عدد 39 : ماي - جوان 1977

كلمة العدد

مواصلة لسياستها الهادفة إلى تشجيع الأقلام الشابة، وإفساح المجال واسعا أمام المواهب الناشئة تخصص آمال عددها هذا لقاص شاب هو بشير خلف ليلتقي مع قرائها في مجموعة «أخايد على شريط الزمن».

وقد سبق لآمال أن خصصت أعدادا سابقة تناولت الرواية والنقد والقصة، ولا يسعها اليوم إلا أن تكرر دعوتها في أن يتحمل كتابنا ومثقفونا مسؤولياتهم .

أولا: لكي نُبقي للثقافة قدسيّتها، ونقطع الطريق في وجه المتطفلين على ثقافتنا .

ثانيا: لكي نعبد ، بالتالي الطريق أمام النشء الذين طففوا ينهلون من منابع الثقافة الفياضة دونما خلفيات وبنقة لا تحدها عُقد ، فنعيد بذلك لثقافتنا مجدها.

ونأمل ألا يظل هذا النداء أنينا في قاع بئر سحيق.

آمال

إهداء

إلى تلك السواعد القوية الملتحمة بالأرض .. إلى الوجوه السمراء التي
لفحتها أشعة الشمس وهي منكبة على التربة الطيبة تسقيها عرقها الغزير ،
وتزرعها قوة وعطاء .. تبعث فيها النماء والخير والبركة .. لملايين الأفواه المفتوحة ..
.. إلى أولئك وهؤلاء .. أهدي هذه المجموعة .. «أخاديد على شريط الزمن» ..

خلف بشير

قمار في : 05 - 06 - 1977

حصاد السنين

- 1 -

كان يدفع السيارة الهرمة بيد ، يساعده في ذلك ثلة من الأطفال ، ويمسك بالأخرى مقودها كادت السيارة أن تعود إلى الوراء دائسة أحد الأطفال حينما اعترضوها ربوة.

نقد الأطفال دريهمات قليلة أسكتت ثورتهم ، هدأت من غضبهم ، ثاروا عليه ، إذ رأوه ارتقى على الأرض جانب السيارة خائر القوى ، ونوبة من السعال متواصلة صادرة عن صدر يرسل أنفاسا ولدت صوتا داخليا مشروخا ، اقترب الميكانيكي منه مستعرضا عضلات مفتولة ، كاشفا عن صدر تحتل غابات كثيفة من شعر فاحم ، عيناه تضحكان بجث.

— أصبحت هرما يا عم كسيارتك ، فلتبحث عن سيارة جديدة ، تجتاز بك هذه المرحلة ، ما دمت مدمنا على السياقة ، ثم ما لبث أن قصد مقهى مجاورا وارتمى على كرسي جانب طاولة في زاوية بعيدة ، مسح بعينه جوانب المقهى ، تفحص وجوه الحاضرين ، شعر براحة منعشة تسري في خلاياه وهو يجرع فنجان قهوة مركزة ساخنة أحضره النادل.

- 2 -

حول طاولة منزوية غير بعيدة عن طاولة جلس جانبها شيخ هرم راح في غفوة جلس شابان راح أحدهما يمتص سيجارة بنهم غريب متتابع ، وثانيهما اشتغل

بطلالة صفحة الإعلانات في جريدة يومية ثم ما لبث أن طواها ووضعها على الطاولة مخاطبا صديقه :

— كفاك تفكيرا يا صديقي .. أنهيت دراستك العالية ، وصرت مهندسا في صناعة البترول ، وأنت ولا شك سعيد هذه الأيام فقد اتصلت باستدعاء الخدمة الوطنية ، تمنيت كثيرا أن تؤديها ، ولكن في قلب الصحراء .

— أنا خائف يا صديقي ..

— ممّ الخوف ؟

— الخوف أن يؤثر مناخ الصحراء القاسي على صحتي ، ويعود ذلك على عملي ، وبالتالي الفشل فيما يراودني من أحلام.

— ألم تقل لي مرات كثيرة إنك فوق الصعوبات كيفما كان نوعها ؟ وكم أنت فخور بصحتك أمانا وزرعت المقولة في نفوسنا حتى أصبح نداؤنا المفضل إليك « يا صاحب صحة الثيران » . ثم إن ليلي بحبها العظيم الذي يهدر كنهر يبعث النمل والحياة فيك ، يضع ستارا بينك وبين المتاعب والعراقيل في أداء مهمتك.

— أخشى أن يتوقف النهر عن الجريان ، طالما أنني لم أتقدم إلى أهلها طالبا يدها.

— سوف لا يمانع ذووها في ذلك ، ما داموا يسايرون ويتابعون ما نشأ بينكما من حب مدة دراستكما معا، علاوة على ذلك ليلي مصممة على الاقتران بك.

— من أنبأك بهذا ؟

— ليلي نفسها .. أقسم لك.

— لي موعد معها في هذه الطاولة ، مساء اليوم ، دقائق قليلة وتصل.

— متى أديت الخدمة الوطنية، بل الخدمة العسكرية يا عم ؟

— أديتها مضاعفة خلال الحرب الكونية الثانية ..

أخذوك مرغما ، حينما داهمك في رقعتك الأرضية الصغيرة جنود مسلحون رفقة دليل يحسن لغتهم من أبناء جلدتك .. أنبأك أن الضيوف الواقفين أمامك من جنود فرنسا الحرة .. في دخيلة نفسك لحظتها رددت : فرنسا الحرة .. أية فرنسا ؟ هل فرنسا أخرى .. أم المعروفة لدى العالم ؟ وأسعفك شريط الذكريات .. فردد لسانك خبرا مفاده : أن الألمان دخلوا باريس منتصرين بعد هجومات كاسحة..

طلب الضيوف منك أن تنضم إليهم جنديا حرا .. أبديت الرفض. حجتك البقاء مع والدتك الوحيدة .. والشيب غزا رأسها ..بينما أنت لا تؤمن بالبقاء ، فالحرب نهر عظيم في فيضانه يحطم كل شيء .طالبوك بإظهار الوثائق الثبوتية .. كنت تفتقر إليها يا عم .. أخذوك معهم بالقوة .. والدتك تشبث بقائدهم مستعطفة إياه أن يرحم أمومتها . أمر جنوده أن يحملوك من أطرافك كشاة يحملها جلادها إلى المجزرة .. رفعوك عاليا لتسقط داخل سيارة عسكرية.

عدت يا عم يوم حصدوا زهور بلادك برشاشاتهم .. واحرقوا سنابل القمح الذهبية في بلادك ، ماذا كان حصادك ؟ خمس رصاصات موزعة على جسمك .. أخطرها التي تؤلمك هذه اللحظة ، تعلن ثورتها بين الحين والآخر.. عدت ونياشين البطولة والشجاعة أوشام ذات لون أخضر تستقر في صدرك الغاضب الآن وفي يدك المعلنة ناقوس الخطر وجيوش الألم تغزوها ..

عدت يا عم ، غلتك بذلة عسكرية عتيقة مخضبة بدمك الزكي .. بينما كنت تقطع الحقول والبساتين المهجورة ، فمك تحلب وأنت تتخيل صحن الكسكس

الحر الماهرة في إعدادة والدتك .. السماء حزينة يومها .. أسراب الغربان الناعبة
وجدتها مرتعا لائقا بها .. لوحة رائعة لوالدة تستقبل ابنها الوحيد العائد من
الحرب الضروس .. تزغرد فرحة بعودته منتصرا .. محملا بالهدايا الثمينة من مدن
الضفة الأخرى .. واستقبلك يا عم بقايا كوخ ، لم تبق منه غير كومة من الحجارة لا
زلت تذكرها . كيف تنساها وقد جلبتها بنفسك من مجرى الوادي القريب ؟ كمية
أولى ، تضاف إليها فيما بعد كميات أخرى بغية بناء حجرة خاصة بك .. إعدادا
لزواجك يومها .. زواجك الذي كانت ترجو والدتك أن يتم قبل رحيلها.
مسحت بعينيك المنطقة ، لاحت لك من بعيد معالم قبر .. اقتربت .. كانت
ترتمي غير بعيد لويحة أبلها القدم ، وعليها آثار كتابة كادت أن تزول :
«هنا تنام النومة الأخيرة المرحومة خديجة والدة إبراهيم ، ماتت حزنا على ابنها
الغائب».

- 4 -

دخلت المقهى فتاة ، فارعة الطول ، ذات جمال ساحر وفتنة دافئة .. وأنوثة تبدو
للناظر لذيدة .. بريق أخاذ ينبعث من عيني سوداوين .. كانت ترتدي أثوابا تدل
على أناقة وذوق يحسن الاختيار .. تتدلى حقيبة جلدية من يدها.
— عادل أنظر .. إنها أقبلت في الموعد المحدد.
— أهلا ليلي .. انتظرناك منذ أكثر من ساعة ..
— ألم آت في الوقت المتفق عليه ؟
— بلى ..
— ليلي ، عادل ، أعذراني أود الذهاب قصد قضاء بعض الشؤون الخاصة بي.

— لك ما تريد .. مع السلامة ، شكرا لك أيها الصديق.

سحرته العينان السوداوان .. أبحر في ليلهما القاتم .. كانت التيارات المائية تشده إليها .. تجذبه إلى أعماق الأعماق .. جرعت القهوة الساخنة .. وجرع الجمال الفتان .. امتص الرحيق .. نهل التفاح من الخدين ، امتصّ كرز الشفتين الناضج.

— أخبرت والديك بتخرجي .. وذهابي إلى الخدمة الوطنية عما قريب ؟

— نعم ، عمتهما الفرحة .. معتبرين نجاحك نجاحي ..

— يعني هذا ، أنهما يعلقان آمالا عريضة .. ع — .. علي .

— كيف لا يعلقان أهمية كبيرة عليك ، وأنت الساعد الأيمن لي في دراستي ؟ ثم إن والدتي سعيدة برؤيتك ، كي تتحدث في قضيتنا.

— هل أبوك موافق على الزيارة ؟

— ستجده أول من يستقبلك في مدخل البيت.

— حسنا ، متى تكون الزيارة ؟

— الأمر متروك لك.

طوقها بيده القوية من خصرها .. وشلال من شعر فاحم انسدل على كتفه .. غادرا المقهى .. ذابا في أمواج من الخلائق بين مدّ وجزر في الشارع الرئيسي .. هبت نسمة منعشة حملت معها شذى عطر ذا نكهة خاصة بعث النشاط في الجالسين .. أيقظ روح الشباب في الشيوخ.

— 5 —

— أصبحت هرما يا عم كسيارتك ، فلتبحث لك عن سيارة جديدة ، تجتاز بك هذه المرحلة ، فوجئت بصاعقة حارقة تنزل عليك .. لم تكن تفكر فيها .. من الصعب

عليك يا عم أن تستغني عن رفيقة أحبيتها كحبك لنفسك .. رافقتك في السراء والضراء .. استقبلت غضبك بالصبر .. ورضاك بالغبطة .. كنت تود أن تسمع عرضاً غير هذا .. كلمة أحسن تمس جانبا آخر من حياتك القاحلة الجذباء تكون السيارة مكملة له.

غادرت المدينة ، آخذاً الطريق الوعرة ، ثأراً لسيارتك من الإهانة القاسية التي كانت عرضة لها .. ما نسيت أن تصعد ربوة عالية قريبة كادت أن تهزمك .. ارتقيتها كصاروخ عابر للقارات دون أن تنجح إلى اليمين. أوشكت أن تصطدم بسيارة فارهة من آخر طراز قذف بها في موضرة السيارات .. اجتازك السائق الشاب ، خلف وراءه سيلا عارما من الشتم .. علقت بذهنك آخر عبارة حاولت ازدرادها فما أفلحت يا عم :

— عجزت تتوسط الطريق .. كان عليك أن تكون خارجه .

ضغطت على الحرك أكثر، تحرراً من مدينة يسري العيلاء في مفاصلها .. أنفاس نتنة خانقة .. حارقة .. تطلقها .. فمها بالوعة شرهة ، تلتهم زهوراً نظرة طيبة .. وتقذف بها بعد ذاك مجردة من النضارة والطيبة .. لاحت لك عن يمينك وعن شمالك زرابي مفروشة أبدعت يد الإله في صنعها. تُحدّ بجبال كللت هاماتها بألوان دكناء .. يتلوى تحت سفوحها نهر تنساب مياهه زرقاء صافية .. مخلوقات بشرية انزعت هنا وهناك منحنية الظهور .. بسواعد مفتولة تحيل التربة غداء لذيداً.

رفعت يا عم رجلك قليلاً عن الحرك .. أدت ناظريك إلى الأفق الجميل .. أبهرتك الطيور في علوها وهبوطها. ارتمت على البساط الأخضر منتشية بأنعام

الرعاة .. غير بعيد عنها طفلٌ حافٍ يرتدي قميصا باليا مشقوق الظهر والكتف ،
يعدو وراء ثور هزيل متمرد .. سرعان ما غير اتجاهه ولكز الطفل بقرنيه .. تركه
كتلة . لحث في المرأة سيارة صغيرة تلتصق بك من الخلف .. داهم سمعك صوت المنبه
.. توسطت الطريق موحيا إليه أن يتمتع بالطبيعة الرائعة .. السائق شاب وسيم
الطلعة .. كاشف عن صدر مليء .. يرتدي قميصا بنصف كم ، تجاوره فتاة ..
خصلات من شعر فاحم كانت تنحدر على جيد مرمرى .. مستقرة تحت قمتين
غاضبتين .. بين لحظة وأخرى يخطف قبلة سريعة من ثغر كرزي .. ثم اجتازتك
السيارة يا عم .. ضغط الفتى اللعين على محركها بقوة الشباب .. ودعك بنظرة
المتحدي .. أحسست بالألم.

- 6 -

في مدخل بلدتك انحشرت داخل طابور سيارات واقفة .. تنتظر شغور
الطريق المشغولة التي احتلها موكب عظيم جمع رجال القرية وشبانها وشاباتنا ..
تتقدمهم فرقة بلباس تقليدي في رقصات وغناء فلكلوري .. جناح الموكب الأيمن
خيل تصهل امتطئها فرسان ارتدوا برانس وعمامات يطلقون البارود .. الجناح
الأيسر فرقة نسائية في أغان فلكلورية .. تتوجها زغاريد صاعدة إلى عنان السماء ..
الجميع في طريقهم إلى بيت العروس ، مرّ الموكب ، خلت الطريق ، سنفونية وراءك
تدعوك إلى التقدم ، رجلك بعيدة عن المحرك ، آخر سيارة من الطابور أخرج
صاحبها رأسه وقال لك :

— عليك اعتزال السياقة يا جد .. سكين حادة أدمت فؤادك .

الموكب قادم بالعروسة إلى بيتها الجديد .. أشرطة زينت السيارة الأولى ..
باقات من الورود استقرت داخل زاوية منفرجة ، على قاعدتها ، بدت عروسة
انسدل على وجهها ستار رقيق هفهاف يبين خلفه فتاة تشربت عناصر الطبيعة
الصفافية .. تجري في عروقها دماء الريف.

- 7 -

من صراع مع الأرض كان كيس من الشعر ينام في كوخك ، جرة من
الزيت.. دنٌ مليء بالزيت ، دريهمات قليلة لبعض المبيعات الأخرى ابتعت بها
ملابس نسوية ساعدك في اختيارها إمام الناحية ، حصيلة عام في صراعات مع التربة
، في ساحة المسجد رفع عشرة رجال أيديهم إلى السماء يتصدرهم الإمام يباركون
زواجك من زوجتك الراحلة .. أرملة علي صديقك .. لفظ أنفاسه وأنتما عائدان
بعد الحرب بفعل لغم .. أتوا بها إلى كوخك تحيط بها نساء خمس تتقدمهن زوجة
الإمام عشتما حياة سعيدة أكثر من عشرين عاما .. رحلت عنك يا عم ، تركتك
وحيدا تجوب الطرقات ، تجتر شريط الذكريات ، تبتلع الاهانات تتلقى الشتم ..

أفقت من غفوتك ، كان الليل قد أسدل ستاره القاتم على الناحية ، عقربا
الساعة اقتربا من السابعة ليلا ، تحركت في اتجاه بيتك وأنت توجل المفتاح في فتحة
القفل ، أصوات لقطات بارود صعدت إلى السماء مدممة ، وبينهما كان الأرق
يؤرقك أواسط الليل .. تناهي إلى سمعك صوت طلقة بارودية ، تبعها زغاريد حادة
متواصلة تعلن عن ميلاد أسرة جديدة تضاف إلى المجتمع.

عندما تُخنق الفضيلة

ذات يوم وقعت في أطراف بلدتنا حادثة غريبة وبالضبط في الحد الفاصل بين بلدتنا والقرية المجاورة ، وبالتحديد العثور على طفل صغير حديث العهد بالولادة ، عُثر عليه غير بعيد عن حاشية الطريق ، ملفوفا بعناية في غطه قطني ، قال بعض الناس في البلدة أيامها :

— إن مصدر الوليد القرية المجاورة ، شاع الخبر، ورددته الألسن .. البعض منها في استغراب ودهشة ، والبعض الآخر في شماتة وتشفٍّ ، ولأذ أكثر سكان القرية إلى الصمت ، كأن الموضوع لا يهمهم ، أو أن ما يتردد بعيد عنهم كل البعد.

حدث ذلك صباح يوم ربيعي ، جوه لطيف وشمسه مشرقة وسماؤه صافية ، هبت نسيمات منعشة دغدغت وليدا رأى النور ، منذ ساعات قليلة ، عثرت عليه بادئ ذي بدء ثلاث بنات غادرن القرية في طريقهن إلى أحد المعاهد في بلدتنا ، استرعى نظرهن غطه قطني أبيض ناصع ، بدافع فضولي اقتربن من الغطاء ففوجئن بطفل صغير جميل الطلعة ، حديث الولادة ، وما أسرع ما التأم جمعٌ من أطفال آخرين مارين أيضاً، مما جلب أنظار سائقي السيارات الذين توقفوا لمعاينة ما حدث ، وتطوع أحدهم لأخذه إلى مستشفى المدينة المجاورة ، تعلقن إحدى البنات الثلاث بالطفل وامتنعت عن إعطائه لأي كان ، واستعطفن السائق أن يسمح لها بأخذه ما دام لم يرزقها الله بأخ ، غير أن السائق الذي شجعه أحد الممرضين من ركابه نهر البنت وافتكه منها ، ودخل به إلى السيارة وانطلق كالسهم في اتجاه المدينة ...

وسرعان ما تفرق الجمع وذهب كل إلى غايته ، وتحملت البنت على نفسها ،
واتجهت بدورها إلى غايتها رفقة صويحاتها ، ولكن كانت تتألم حزينة كسيرة النفس
عادت إلى المنزل وحكت لأُمها ما حدث ، وأردفت :

— نعم يا أُمي ، كان يشبهني إلى حدٍّ بعيد ، لو رأيته لأُعلنت دون تردد أنه أخٌ لي .
— بعيد الاحتمال أن يكون أخ لك ، لكن لو حملته إلينا لقمنا بتربيته ، ولوضعت
كل خبرتي في تنشئته ، وإعداده للحياة.

وسرح الفكر بعيدا بالأم التي راحت تستعرض شريط حياة أختها ليلي
الشابة التي راجت حولها خلال الشهور الأخيرة إشاعات غير مشرّفة تسيء إلى
القيم والأخلاق. وما يردده الناس من أخبار وجودها مع هذا .. وذاك .. وما أكثر ما
رأوها في آخر ساعة من الليل تحتضن أحد الشبان في جولة ليلية عبر الشوارع أو
خارجة من آخر عرض سينمائي .. غير أن الأخت - الأم - طمأنت نفسها بأن ما
تسلكه أختها ناتج عن نزوات الشباب .. وسحابة لا تلبث أن تزول .. واستبعدت
أن تتورط أختها في مستنقع الرذيلة ، تتمرغ في بركة الفسق والفجور ، وقد عهدت
في أختها طوال السنوات السابقة حُسن السلوك ، والرزانة العقلية ، وعدم
التسرع في أي سلوك ، سيما في علاقاتها بالرجال . أضناها التفكير رغم أنها
مطمئنة إلى تصرف أختها بالرغم مما يشاع عنها.

إلا أن ما حيرها لماذا انقطعت عن زيارة الأسرة منذ أشهر وهي ليست
ببعيدة وكم راسلتها عن طريق زوجها راجية منها أن تزورها وهي الأخت الوحيدة
لديها ، والإرث الوحيد الذي تركه الوالدان الراحلان.

ثم ما علاقة العثور على الطفل بتصرف الأخت ؟ وإن صحَّ انتسابه إليها - لا قدر الله - أفلا يُختار غير جانب القرية لوضعه ؟ وضواحي المدينة أين تسكن ليلى شاسعة جدا ، ومتى حدث ذلك ؟ أفي الليل ؟ .. لا .. لا يمكن إطلاقا .. وأحست بصداع شديد يسري في رأسها والتف خط متين من الشك داخل دماغها .. حاولت إزالته فما أفلحت .. أجهدت نفسها في تمزيقه وتفثيته والالتقاء به بعيدا ، فما نجحت ..

لم تشأ أن تشارك الغير تفكيرها . فما تفكر فيه عبءٌ ثقيل رأت أن تنوء به وحدها . راودتها نفسها أن تعرض الموضوع على زوجها الذي عرفت فيه دوما الزوج الحنون المضحى دون كلل في سبيل سعادتها وسعادة بناتها ، إلا أنها عدلت نهائيا مشفقة عليه من عواقب التفكير في مشاكل كهذه ، ما أغناه عنها ، وحينما لاحظ عليها بوادر المرض الذي عمل على تيبس بشرتها النضرة ، وشحوب وجهها ، وتغير سحتها وإهمالها لنظام البيت وعزوفها عن الطعام ، اشتدت به الحيرة وعزم أن يأخذها إلى الطبيب ، ولكنها رفضت ذلك مُوهمة إياه ، بأنه صداع خفيف ، ينتابها بين الحين والآخر ، سرعان ما يزول.

اشتغل الناس في بلدتنا بهذا الموضوع أكثر من غيره في الأيام التالية ، وخاض فيه الجميع وأتعبوا به عقولهم .. ونادرا أن تجد جماعة من الرجال لم يتطرق أفرادها في أحاديثهم نهارا وأسمارهم ليلا له ..ولا يخلو زقاق من حلقة من النسء اتخذن الموضوع مادة لقضاء الوقت .. بل تعدى البعض ممن تربطهم بعض القرابة ببعض العائلات في القرية إلى استعراض أسماء الأرامل والعوانس والفتيات اللاتي

أصبحن في زهرة العمر .. ويتوقف الشريط لحظات عند هذه أو عند تلك من اللاتي كثر القيل والقال عنهن ، وفي الأخير لم تستقر الشبهة في واحدة بعينها. مرّت الأيام وكانت حوادثها كفيّلة بأن تُنسي الناس موضوع الوليد ، كي تزامنها مواضيع أخرى قابلة للنقاش والتحليل بطرافتها ، أو غرابتها ، أو جدتها ، وما أسرع ما ينصرف الناس إلى كل جديد ، أو حادث غريب ، أو موضوع طريف. ونُسي الحادث ، ولعله تبخر من عقول الأكثرية ، واحتفظ بمعالم باهتة في عقول البعض الآخر، إلّا من شخص واحد ، ما من يوم يمر إلّا ويطفو الموضوع على السطح أكثر ، ويتشكل تشكيلا جديدا ، وتطول أبعاده ، ويأخذ في قياس هذه الأبعاد وتلك المسافات ، تلکم هي الأخت الكبرى - الأم - التي أهملت نفسها وأسرتها وبيتها وفقدت نضارة أنوثتها، ولم يعد همها غير كشف الحقيقة والتوصل إليها مهما كانت النتيجة ، رغم أنها جازمة أن أختها بريئة مما حدث.

هذه الأخت التي فقدت الأب وعمرها لم يتجاوز الثماني سنوات في حادث مؤلم داخل مقلع للحجارة انهار عليه كهفٌ حجري بطول أربع مترات ، فريق كامل من العمال جند لإزالة الطبقة التي غمرته وأدت بالتالي إلى وفاته ، وتركت جسمه في أبشع صورة . والتحقّت الأم بالأب بعد عامين فقط ضحية مرض قلبي ألزمها الفراش لأكثر من سنة ، ولم تجد ليلي غير أختها الكبرى التي صارت زوجة منذ سبع سنوات ، فعوضتها ما حرّمته من الوالدين الراحلين ، فكفلتها واعتنت بها عناية الأم بابنتها الوحيدة ، فكانت رحيمة بها عطوفة عليها تفرح لفرخها ، وتزيل عنها حزنها ولم تمض إلا أيام قليلة حتى عاد البشر والسرور إلى الأختين وكادتا أن تنسيا ما حل بهما.

وفاء لعهد قطعته الأخت على نفسها أمام أمها قبل رحيلها بوقت قصير أن تساعد ليلي على إكمال تعليمها وأن تكون خير عون لها في إتمام دراستها ، كانت أكبر مشجع لها ، ووفرت لها كل ما هي في حاجة إليه ، بل خصصت لها غرفة في جو هادئ مريح يسمح لها بالمذاكرة والمطالعة. واجتازت مرحلتي التعليم الأولى والثانية دون صعوبة ، ودون تخلف ، وحينما وصلت إلى أبواب مرحلة التعليم الثانوي ، تعرضت الأخت الكبرى لامتحان عسير جدا وصعب : يوم جاءتها بالملف الذي كان يشتمل على وثيقة تحدد ثلاث حالات للطالب ، الإقامة بالثانوية ، أو الإقامة بها نهارا فقط أو عدم الإقامة ، واستعرضت ميزانية الأسرة ، وهل باستطاعتها دفع تكاليف الذهاب والجيء يوميا إلى المدينة المجاورة والغذاء ؟ لا ، ميزانية الأسرة عاجزة على أن تفي بهذا .وفي حالة الإقامة الدائمة ، هل تطمئن عليها هناك ؟ وعزمت ان تستشير الزوج الذي عارض بشدة ، وحينما وضحت له مقدار مصاريفها اليومية والأسرة مجبورة على دفعها ، أيد إقامتها بالثانوية.

بعد سنوات ثلاث تخرجت بدرجة ممتازة ، وكانت الجائزة الأولى من نصيبها كعاداتها ، وأقامت الأخت حفلة كبرى حضرتها جل نسل القرية فأفرغت كل منهن ما ادخرته جعبتها من أغان رائعة لأيام كهذه .. وزغاريد لحفلات وأفراح كهذه ، وكان باع الأخت أكبر من الكل ، إذ كثرت المرات التي أغمي عليها وهي ترقص وتغني وسط ميدان الحفل .. كانت ليلي تتصدر الحفل بطلعتها البهية ، وبجسمها المليء ، وشبابها الفائر ، وأنوثتها الساحرة وجمالها الأخاذ .. أكثر من واحدة من الأمهات جلست قربها مبهورة بهذه الحديقة الفيحة ، تمنى كل واحدة أن تكون زوجة حلالا لابنها.

وانفضَّ الجمع ، وانتهى الحفل ، وأخذ بريق الحفل ينطفئ ويتوارى ، ومرت الأيام وأوشكت العطلة الصيفية على الانتهاء ، وأعلنت ليلي أختها أنها غير راغبة في مواصلة تعليمها ، وأنها تنوي التوظيف في سلك التدريس ، وصعقت الأخت لهذا القرار ولكن دون جدوى .. ودخلت ميدان التدريس فكان عملها في المدينة المجاورة ، المدينة التي نهلت منها العلم ، وارتشفت منها ينابيع المعرفة ..

كانت الصعوبات في البداية، وبمرور الأيام والتآلف مع العمل زالت المتاعب وحلَّ جو من الارتياح غمر الجميع ، إلا أنه لم يطل ففاجأت ليلي أختها بقرار الإقامة بالمدينة ، بمنزل قريب من مكان العمل مع إحدى الزميلات ، اتقاه متاعب التحول اليومي ، وتحاشيا لمعاكسات الشبان في الطريق ، وعارضت الأخت الكبرى بشدة ، لكنها انهارت أخيرا واستسلمت للقرار الذي تحمس له الزوج.

انتقلت ليلي إلى المدينة ، وعزمت على أن تزور القرية وتقضي مع أسرتها عطلتها الأسبوعية ، وكانت بحق وفيه بوعدها طوال شهور امتدت إلى الخمسة ، ثم أخذت تقلل من ارتياد القرية ، مما أحدث حيرة وقلقا لدى الأخت ، ورجت من الزوج أن يبحث عن السبب ، فكان يطمئنها ويؤكد لها رؤيته لها ، ولم يهدأ بالها ، وانتظرت الزيارة ، ولكن الأيام تلاحق بعضها البعض ، وحلت عطلة الربيع .. ولم تأت .. ذهب الزوج مستوضحا ، وعاد آخر الليل معلنا أنه لم يرها وأن المنزل أبوابه مغلقة ، وانقطعت أخبارها عن الجيران لمدة أيام ، حتى الزوج الذي كانت تلتجئ إليه كي يبحث ويسأل ، صار يعود في ساعات متأخرة لكثرة أعماله .. ووصل الصبر إلى حدوده ، وتحملت على نفسها دون إعلام أحد ، خلال قيلولة أحد الأيام

وانتجعت إلى المدينة ، والشوارع خلت إلا من بعض المارين القلائل هنا وهناك ،
راحوا يقون رؤوسهم بمظلات كبيرة من أشعة الشمس الحارة .
ولم تجد صعوبة في الاهتداء إلى الحي الذي تقيم به ليلي ، إذ أن السائق
أوصلها إلى المنزل مباشرة ، ودقت الباب بعنف ، فتحت ليلي وأطلت منقوشة
الشعر، ووجهه مطلي بالمساحيق ، وجسم تحت قميص شفاف كشف عما تحته
بوضوح تام ، ومعالم الفجور تعلن عن نفسها ، ولم تصدق كلتاها ما رأت ووجتها
وغابت الكلمات ، دفعت الباب بعنف فاستقبلتها صور لأجسام عارية في وضعية
فاضحة تزين الجدران .. كانت الغرفة مفتوحة .. من بعيد لاح لها سرير في إحدى
الغرف ، أدركت أنها بيت النوم .. كصاروخ تتأجج النار داخله .. والوقود يحترق فيه
، جرت إليها .. وحينما دخلت لم تصدق ما رأت .. وجحظت عيناها ، وتسمرت في
مكانها لتتألم مغمى عليها .. كان الزوج الطيب الكريم ينام في السرير عاريا تماما.

السِرّ

كان بيتنا الذي بني على الطريقة التقليدية في ملك أبي مذ رأيت نور الحياة ، بنه الجد وأمضى القسط الأكبر من حياته فيه ، وولد أبي فيه وعاش إلى أن لقي ربه .. لذلك كانت والدتي - حفظها الله - تتعصب لكل فكرة معناها أن تغادر بيتنا العزيز هذا ، أو على الأقل أن تعمل يد البناء فيه وأدواته لتصلح من عضلاته الهرمة أو تدخل عليه شعاعا من الإصلاح على الطريقة العصرية ، حتى أنني كنت أضطر نتيجة ثورة الغضب التي تجتاحني وباستمرار إلى التكور في إحدى زوايا الغرفة الأحسن من مثيلاتها القليلات .. أنقل الطرف عبر شقوق الجدران الهرمة المحيطة بي ، بحثا عن حشرات حلا لها أن تتخذها مسكنا لائقا بها .. أو تقدم من خارج الغرفة في عملية استطلاعية .. أو بحثا عن طعام . وإذا ما أعياني البحث ولم يحالفني الحظ في اكتشاف إحداها فإني أستسلم لنوم عميق .. أما إن أفلحت في اكتشاف البعض منها بواسطة خشخشة تحدثها أهتز لها رعبا في بعض الحالات .. حيث تعقبها عقرب فتية صفراوية اللون وبحجم لا يستهان به مما يدفع بي إلى إطلاق سائي للريح - لم أصرخ صراخا حادا تهتز له أرجاء المكان - أستنجد بوالدتي التي من حياتها الطويلة وخبرتها في هذا الميدان لم يرهبها الموقف ، لم يرعها منظر الحشرة الخطرة فما أسرع ما تتناول أقرب شيء إليها فقد يكون عودا تغرزه في ظهرها .. إناء حديديا تطحنه بها طحنا .. حجرة صلبة تهشمها بها تهشима .. ثم تخاطبني بنبرة ثابتة وبصوت هادئ ، رزين ، ونظرتها لا تتحول عن وجهي ، وكأنها راهب يؤدي صلواته في خشوع ، ناظرا إلى صورة العذراء :

— حشرة بسيطة كالعقرب تخيفك حتى تكاد تفقد عقلك .. أي عار هذا يا عزيزي ؟
لم أجد أفضل من الإصغاء لكلامها والسكوت أمامها .. وما الفائدة من نقاشها
أو محاولة شرح خطر العقرب إليها .. ما دامت في دخيلة نفسها متأكدة أن القليل
ينجو من الموت إن لمسعتهم .. غير أن الذي كان يحيرني أكثر من غيره .. ولم أفهم له
تفسيرا إلى اليوم ، لماذا والدتي تشعر بلذة عظيمة حينما تغرز سلكا حادّ الطرف؟ أو
شوكة طويلة في العقرب؟ بل ترفعها أمام وجهها وتأخذ في تقبيلها من ناحية أخرى
.. وشفاتها تتحركان .. وتهمسان بكلام لم أدر كنهه سيما في النزاع الخير للحشرة.
استسلامي في النهاية لرأي والدتي القاضي بعدمية التغيير في منزلنا الهرم
الأثري ، يدفع بي إلى الاستلقاء على ظهري مقابل الباب وحيدا أحرق في السقف ..
ناقلا الطرف في أجزاء القبة الشبه ما يكون بخريطة جغرافية لبلد يتمتع بشبكة
عظيمة من الأودية والأنهار .. أمكث الساعات إلى أن يخيم الليل ، عند ذاك يحلو لي
مراقبة السماء بنجومها الزاهية فانتقل إلى عالمها العلوي على متن حصان أبيض
جميل ، يعلو رأسه أكليل ذهبي ، يساعده في طيرانه جناحان طويلان أترك له العنان ،
ينتقل بي أينما يشاء ، تارة داخل بستان جميل ، رائع المنظر يجمع شتى أصناف
الفواكه ومختلف أنواع النبات والزهور ، يستقبلنا صاحبه بحرارة ، مشفوعا بعبارات
ما سمعت مثيلا لها في عالمنا الأرضي .. ولا يتركني أغادر بستانه حتى أتناول ما يقدمه
إلي من فواكه لذيذة الطعم .. وتارة أخرى يتوقف بي الحصان بمحاذاة حديقة فيحاء
تطاوالت أشجارها الخضراء النظرة ، وتفتحت ثغور ورودها الحمراء القانية ،
وعطرت زهورها الجو بشذاها العطر، وتغايرد بلبلها ملأت الجو، ثم ما يلبث

أطفال أن يتقربوا مني بهيو الطلعة جميلو الشكل بابتسامات رقيقة يسلمونني باقة من زهور.

كان علما بحق زاخرا .. مليئا بكل ما تشتهيه النفس وتستلذه العين .. أسعد فيه بعيدا عن عالمي الواقعي .

— ناصر .. ناصر ، فيم تفكر يا طفلي العزيز تعالى فالعشاء جاهز .

بهذه العبارات تعيدني والدتي إلى واقعي الذي لا أشعر نحوه بحب ولا بكرة .. تخرجني من حديقتي الفيحاء ، من بين أصدقائي الصغار ، تحرمي من المرح الطفولي ..

صورة الأشياء والحاجات وشبه الأواني، وبعض المتاع القليل العتيق المتوفر في منزلنا يومذاك سيما الزاوية المخصصة للطبخ من الرواق .. واحتفاظ كل حاجة بمكانها الذي لا تُغَيَّر منه ، لا تزال الصورة عالقة بذهني ولا أظن أن الأيام ستعمل عملها في إزالتها ، إذ أن بقاءها على تلك الوضعية أكثر من خمسة وعشرين عاما كفيلة بعدم إزالتها .. هذه زاوية معدة خصيصا للطبخ تعلوها مدخنة في صورة كوة واسعة مستديرة الشكل استقرت على سطحها ثلاث حَجَرَات توضع عليها القدرة الطينية، وغير بعيد عنها كومة من الحطب ، تجاورها قصعة زالت معالمها الأصلية ، رشقت جانبيها في التراب ملعقة خشبية ضاع نصفها ، اتخذتها والدتي لتحريك الطعام في القدر، وتلك زجاجة للزيت كون التراب على زجاجها الشفاف طبقة وأضاع لونها الأصلي ، وهناك جرّة صغيرة من الفخار مكسرة العنق والفم يُخبأ فيها القليل من الزبدة المستخلصة من حليب الماعز ، أو القليل من

السمن إن وجد ، لم يتغير لها مكان ، ولم تتغير مهمتها أيضا - لليوم لا زالت تستعملها والدتي لنفس المهمة -

حاولت عدة مرات كسرها والتخلص منها فكانت الوالدة لي بالمرصاد، ولا أنسى يوما حينما حملتها بين يدي لأرمي بها على الجدار المقابل رأيتني .. وأقبلت تعدو لتفكها مني ، وانهالت علي ضربا، وقرصا ، وصفعا من يومها فقدت الجرأة في محاولة كسرها ، إلا أن لونها الصارخ ، وشكلها البشع كانا يجذبانني إليها بشكل جنوني ، وأكاد أندفع لكسرها .

سؤال بقي يدور في ذهني لسنوات طويلة - أبغى له جوابا - بيد أن شجاعتي تخونني في طرحه على والدتي ، لم تحافظ على الجرة بهذا الشكل ؟ ماذا من أسرار وراءها ؟ هل من ذكرى عزيزة ؟ أم ماذا ؟ لست أدري ؟

ومرت السنوات سريعا وقاربت العشرين سنة ، اتسعت مداركي وازدادت معلوماتي ومعارفي من مدرسة الحياة ، وعدت إلى القرية بعد غياب امتد إلى أكثر من ثلاث سنوات مارست خلالها التجارة في إحدى المدن الكبرى مع تاجر كبير.. رأس مالي عضلاتي ، ومساهمتي قوتي الفتية ، ومن نسبة معينة في الفائدة السنوية كان نصيبي كمية لا بأس بها من المال ما حلمت بها يوما ، وما تصورت قبل ذلك أنني سأحصل على ذاك المبلغ ، غمرت الفرحة والدتي بعودتي إليها ، وبشبابي القوي وبالهدايا التي غمرتها بها وملأت بها البيت ، ولم تمر غير سويعات قليلة حتى نفذت ، ونسيت هي نصيبها وزعتها على كثيرات جئن يشاركنها فرحتها .ومضت أيام ثلاثة وهذا المنزل وسكن الحي ، وانقطعت الزغاريد.. لم تطمئن والدتي لهذا

الهدوء المخيم لهذه السكينة القابعة ، فرأت إلا أن يستمر بفرح أكبر ، أعز أمنية لكل أم تريد أن تحققها لابنها ، ما دامت على قيد الحياة.

ذات صباح قدمت إليّ فطور الصباح المكون من إبريق مليء بحليب الماعز كعادتها في طفولتي مصحوبا بصحن من الحساء المفلفل ونظرت إلي مليا ، وكأنها لأول مرة تراني بعد عودتي :

— يا بني أريد أن أحدثك في أمر هام يخصك.

— يخصني أنا يا أماه ؟

— نعم يا بني ؟ ورأيت أن الفرصة مناسبة الآن . أتعدني بأن تعطي لكلامي أهمية ، وتعطيني فيما أمرك به وتنفذه ؟

— دوما لك مطيع ، ولأوامرك منفذ ، فهل عصيت لك أمرا قبل الآن ؟

— كما ترى يا بني صرت كبيرة السن ، والشيب غزا رأسي ، وقواي خارت ، والسنوات تساقطت من عمري ما شاء الله، وكما تعلم قد أفنيته في تربيتك ، والسفينة لا زالت لم تصل بعد إلى شاطئ الأمان، ولا أرتاح بعد هذه المهمة الشاقة إلا بزواجك.

— زواج من ؟

— زواجك أنت ، هل في هذا عار ؟

— لا معاذ الله ، لا عار فيه ولكن ..

— لكن ماذا ؟ .. أفصح .

— غير ممكن ، لا زلت صغيرا ، ثم أنني في وضعي الحالي غير مهيا لهذا .

— فماذا ينقصك عن أترابك ؟ تزوج الكثير منهم ، وهم في مجبوحة من السعادة.

— ينقصني العمر ، المال ، المستقبل القار .

— أنت قاربت العشرين عاما ، والجمال والفتوة بين يديك .. والمال حملت منه الكثير معك ما شاء الله.

— أقدر روح الأمومة فيك ، وأعظم تضحيتك الطويلة من اجلي ، وأتألم لوحدتك ولتعبك .. غير أنني أرى أن نؤجل هذا الموضوع إلى ما بعد عودتي من المدينة في المرة القادمة .

امتدت غيبتني في هذه المرة إلى ثلاث سنوات ، خلالها اتصلت برسالة من صديق يخبرني فيها بأن والدتي التجأت إلى أخت لها — خالتي — تطلب يد ابنتها إلي .. في قريتي يومها وحتى اليوم الشاب لا يمكن له أن يفكر في الزواج بتاتا إن لم يبن منزلا خاصا به مستقلا عن منزل العائلة الكبيرة ، يبنيه من ماله الخاص به الذي تحصل عليه بعرق جبينه. يحتوي على بيوت عديدة ، بيت للنوم ، وبيت لنوم الأطفال فيما بعد وبيت لنوم الإخوة الصغار ، وآخر للأب والأم ، وآخر لحزن المؤونة . ولا يخلو المنزل بأي حال من الأحوال من حوش واسع يتوسط البيوت وتفتح له أبوابها ، تتوسطه نخلة جميلة أو أية شجرة تروى من مائه يتدفق من عين بالقرب من الشجرة ، ومن مطبخ واسع ، ومن دار للضيافة في مدخل المنزل ، أي ثكنة كاملة الحجرات والمرافق ، وأي مال يكفي بنه هذه الثكنة ؟ وكم من السنوات لازمة لإتمامها ؟ من يتجرأ على طلب يد فتاة ، إن كان ليس له هذا ؟ ورفضت خالتي طلب الوالدة ، معللة عدم القبول بعدم ملكيتي لمنزل من هذا القبيل .

شاء القدر بعد سنوات ، وسنحت الفرصة كي أبتاع قطعة أرض صالحة للبناء وأبني بها بعض البيوت ، زيادة عن بعض المرافق الأخرى الضرورية ، وكنت أنتظر

بفارغ الصبر اليوم الذي أشد فيه الرحال إليه مع الوالدة ، ونغادر إلى غير رجعة منزلنا الأثري .

والدتي أكبر مشجع لي على الإسراع في الشراء وتنفيذ عمليات البناء ، وفرحها يتضاعف يوما بعد آخر ، وتشعر بافتخار عظيم في حديثها لزياراتها وجاراتها ، إلا أنني رغم ذلك أخذت ألاحظ على مرّ الأيام كآبة من الحزن تنتابها كلما أخبرتها أن الرحيل أوشك أن يتم ، وتبلور الحزن وظهر واضحا ذات يوم وأنا أزف لها خبر التنفيذ النهائي ، فانفجرت باكياً ، وتساقطت دموع أشبه ما تكون بسكين حادة أدمت فؤادي ومزقت أحشائي ، واستولت علي الحيرة ، داهمني إحساس غريب :

— ما يبكيك يا أمي ؟

— الفرحة العارمة بإنجاز المنزل ، قد كان يدغدغي مشروع تخيلته بعيد المنال ، قد أصبح الحلم واقعا ، والمشروع حقيقة ، ولم أجد غير الدموع أعبر بها عن فرحتي .

انتقلنا إلى المنزل الجديد وحملنا كل ما يحتويه منزلنا العتيق من متاع عتيق يعود بعضه إلى حياة جدي ، وأكثره إلى حياة أبي ، ما عدا بعض الحاجات جمعتها والدتي ووضعتها في صندوق ، ولم تسلمها إلى صاحب العربة. كان الصندوق يضم ملابس لأبي المتوفى منذ ما يزيد يومها عن عشر سنوات ، ووثائق لهويته ، وبعض الأواني القديمة وعلى رأسها الجرة الفخارية ، ثم جعلني ازداد حيرة ولهفة لمعرفة سرّ الجرة ، وأي سر يا ترى ؟ لست أدري ؟ ولعلي سأعرفه ذات يوم.

في منزلنا الجديد كان علينا أن نستغني عن بعض المتاع ، وبعض الحاجات ، ونستبدلها بغيرها ، تبعا لسنة التطور ، وللوضعية الجديدة . لا أذكر أن والدتي

عارضتني قبل ذلك العهد في شأن من الشؤون ، كانت تبدي موافقتها حالا على كل ما عزمت عليه ، ولم تعارض في استبدال الخطب بالغاز ، القدرة الطينية بنظيرتها الألمنيومية ، إلى أن جله دور الجرة باستبدالها بزجاجة كبيرة ونظيفة لحفظ الزبدة أو السمن وانتفضت والدتي وكأنها مست في عزيز لديها ، ونيلت في شرف عظيم واحتضنت الجرة وهرولت بها إلى بيتها الخاص . بقيت مشدوها مسلوب اللب ، تائه الفكر ، عاجزا عن الحركة ، لا أدري ما العمل ، أذهب إليها متوسلا أن تكشف لي السر حتى يهدأ الموقف ؟ وأخذت بالرأي الأول ، غير أنني لم أفلح ، فقد أغلقت الباب على نفسها ، ولم تفتحه رغم توسلاتي وإلحاحاتي.

انتهت أيام راحتي وبارحت القرية عائدا إلى عملي بعد ما تركت أمي بالمنزل وحيدة ، وسويت الوضعية معها ، وعادت المياه إلى مجاريها ، ودعتها والرضا باد عليها ، وباركت سفري ورجت لي توفيقا في عملي ، وعودة ميمونة ، آمله عدم تغيب سنوات طويلة كعادتي . ما مرّ غير عام حتى وردتني رسالة منها تخبرني انها عادت إلى منزلها القديم ، تاركة أكثر المتاع في مكانه ، والسبب عدم وجود جيران قريبا ، ثم إنها صعب عليها فراق جاراتها القدييات وابتعادها عنهن ، لم أطمئن لهذا التعليل ، وبرزت أمامي تلك الجرة البشعة فالسر وراءها ، رجعت إلى القرية على جناح السرعة ، وكان من الصعب أن تتحول مرة أخرى إلى المنزل الجديد إذ وعدتني بأن يتم ذلك حالما أتزوج.

ليلة سفري أعدت لي عشاء شهيا وضعت معرفتها الكلية في فن الطبخ لإعداده ، وبين التهامي له وتلذذي بطعمه الشهوي قلت لها :

— عليك هذه الليلة أن تخبريني عن سر الجرة.

— أي سر يا بني ؟ لا أخفي عليك أسراراً .
— أعرف ذلك ، لكن لماذا أنت تحافظين عليها بهذا الشكل ؟
— الواقع لا سر وراء الجرة ، بل هي ذكرى عزيزة ..
— هلا أخبرتي بهذه الذكرى العزيزة ، ولو أن لكل إنسان في هذا العالم ذكريات خاصة به ، ربما لا يريد اطلاع الغير عليها ؟
— كان ذلك بعد زواجي من أبيك بأيام قليلة ، ومنزلنا هذا خلا من كل الناس ما عدانا ، وكان علينا أن نبدأ حياتنا الجديدة ، وأن نستأنف مسيرة أسرة فتيّة ، منزلنا يفتقر إلى المتاع الضروري والغذاء اللازم ، فخرج والدك بففته للمرة الأولى ، ابتاع فيها حاجات كثيرة لنا ، وأعد لي مفاجأة هامة أبى إلا أن تكون ذكرى لي ، فقد اقتنى هذه الجرة وملأها سمنا غمس فيه خاتماً جميلاً ، ترك اكتشافه من طرفي بتوالي الأيام التي تمر ونحن نتناول ذلك السمن ، وعثرت على خاتم ذهبي جميل ثقيل ، وأذهلتني المفاجأة وأسرعت إليه أعلمه بذلك ، وبصوت هادئ ، ثابت النبرة قال :
— أردت أن أقدم لك هدية تحتفظين بها لسنوات طويلة ، تكون من أفضل الهدايا ، وأعلى الذكريات لديك فما وجدت أفضل من هذا الخاتم ، وكما رأيت فالخاتم كان بحق من أعز الذكريات فلم أقتلعه من أصبعي الذي وضعه أبوك ذلك اليوم ، وامتدت الذكرى إلى الجرة يا بني .

يوم الجمعة

بكل تأكيد يا أحمد ، لا زلت تذكر ذلك اليوم .. ولا أظن أن الأيام كفيلة بأن تنسيك إياه مطلقا .. سوف لا يُمحى من ذاكرتك أبدا .. بقية أيام الأسبوع بالنسبة إليه أقزام .. إذ أنها عجزت أن تحدد لك نوعية المسيرة وما استطاعت أن تغير اتجاهها ..

حدث ذلك قبل الآن بخمس سنوات ، وكان يوم جمعة ، عدت قبله بيوم من العاصمة في إجازة لعدة أيام آثرت قضاءها بين والديك .. قرب أصدقائه الطفولة والأقارب .. على الثرى الذي ترعرعت فوقه .. بعيدا عن العاصمة وضوضائها ، وهروبا من زوجتك عائشة التي أمطرتك في فترة وجيزة لم تتجاوز أربع سنوات بثلاثة أبناء رابعهم جعل من بطنها كرة متنفخة ضاقت بهوائها ، فرارا يا أحمد من عائشة الغيور التي حاولت إرغامك على المكوث بجانبها .. قضاء الإجازة معها .. وألححت عليها أن تصحبك بدورها فضحكت عليك ، لايتها بكل لطف ، رفضت حينما عازمت على التحول إلى مسقط رأسك بمفردك ، فوجئت بها تعارض في إصرار .. ووقفت بالباب .. ومنعتك من الخروج ، ووجدت نفسك تدفعها وتلقي بها بعيدا .. ثم في قفزة سريعة تلقفك الشارع فملأت رئتيك بهواء منعش قدم لحظتها من ناحية الشمال .. حيث الطرقات .. والأرصفة «لعت» حذاءك المهترئ .. معروضات الواجهات الزجاجية خلبت لبك ، ثم أزاحت بوجهها عنك .. جحظت عينك وأنت تتابع الحسناوات الرشيقا في مشيتهن المختالة .. وضحكاتهن الأخاذة ، أنوثتهن الساحرة.

آخر النهار لفظتك الأرصفة، وبصقتك الشوارع إلى محطة الحافلات المركزية ،
ابتلعتك حافلة ليلية متجهة صوب الجنوب .. تسللت إلى داخلها ، تكومت في مقعد
من مقاعدها الأخيرة ، وحيدا .. بقية الركاب صورة من الحياة ، أو الحياة نفسها بكل
أفراحها ومسراتها .. بيسرها وعسرها ، في عالمك الخاص نقطة ثابتة لم تمتد لا يميناً
ولا يساراً .. لا أعلى ولا أسفل .. اختلط عليك شريط الحزن والألم ، مع شريط
الفرح كالأبله قضيت ساعات الطريق صامتاً ، أصوات متصارعة ، متداخلة ، نقلها
لك الأثير ، بين آونة وأخرى وأنت تضع طرف سبابتك في أذنك .. مع تسلل
خيوط الفجر، وجدت الحافلة نفسها مرغمة على لفظك والإلقاء بك في قريتك ..

الجمعة يوم مبارك.. يوم تقام به السوق الأسبوعية بقريتك ، ويبلغ الزحام
أشده ، حقا يوم له نكهة خاصة .. ومكانة مرموقة في نفسك .. من الصعب عليك
بل من المستحيل أن تنسى يوم أن كان يصحبك الأب معه إلى السوق كي تعينه
على حمل ما يبتاعه من مبيعات السوق ، مؤونة لسبعة أيام .. تعودان إلى المنزل ،
تستقبلكما الأم التي كانت بفارغ الصبر في انتظاركما ، وتؤدي دورها على أكمل
وجه في إعداد وجبة الغذاء على أحسن وجه ، ويتناول الجميع أشهى غذاء ، ألد
طعام .. وختم اليوم يكون في مسجد القرية الكبير حيث تُتلى آيات بينات من
الذكر الحكيم ، من مصاحف تكدست في خزائن حائطية يقبل عليها أكبر عدد من
الحاضرين بالمسجد ، لا يكف عن تحريضك على رفع الصوت حتى يسمع من
يقربكم ، وتغادران المسجد بعد أن نعمتما بالاستماع إلى الخطبة وأداء الصلاة ..

حقا يوم جميل .. ولو أن «عملقته» كادت أن تزول من ذهنك حينما أصبحت
في العاصمة .. غير أنه طفا على السطح وتعلق من جديد بعودتك ورؤيتك لسكان

الجهة في حركاتهم الدؤوبة استعدادا للسوق كأيام زمان .. والدك عاد بك إلى تلك الأيام .. إلى الطفولة العذبة .. إلى أيام الصبا .. من غير استشارتك ، وبدون تحضير مسبق ، نادى عليك والشمس تطل من خدرها ..
— هيا بنا إلى السوق ، فالوقت قد حان .

ينبوع العطف لم يفقد مخزونه .. ومجاره لا تزال ملأى صافية .. طعم الماء عذب كعهديك به ، في الصبا كنت تمشي وراءه تتبعه .. في صباك تفتقر إلى الشجاعة في النظر إليه ، في ذلك اليوم سرت بجانبه خلال حواركما في الطريق .. لم ينقطع أبوك عن قتل شاربيه .. كأنه لم يقتنع بشكلهما الهلالي البديع .. وبأطرافهما الموجهة إلى الأعلى . وبلونهما الذي لا تزال الغلبة فيه للون الأسود على منافسه الأبيض.

في ذلك اليوم تناولتم غذاء شهيا ، وطعاما لذيذا كأيام زمان .. شيء واحد أملك ولم تبج به لأحد ، تلك الأواني الجديدة .. المائدة المستديرة تسهلت لماذا أمك وأخواتك يتناولن وحدهن بعيدا طعامهن ؟ أليس أفضل أن يأكل الكل معا ؟
في المسجد الكبير بجانب أبيك الذي ارتدى أعز ما لديه كباقي المصلين في ذلك اليوم .. وتعطر بأطيب العطور ، استمعت إلى خطبة الجمعة ، ثم أدت الصلاة .. علقت بذهنك يومها آية قرآنية ، خرجت ترددها خوف نسيانها ، ريثما تتمكن من كتابتها: «فانكحوا ما طاب لكم من النسء مثنى وثلاث ورباع» .. وسرعان ما حفظتها .. وقبل أن تنتضي أيام الإجازة اقترنت بليلى الشابة الجميلة الناجحة بتفوق في الانتقال من المرحلة الإعدادية إلى المرحلة الثانوية .. رأيته فجأة تحمل حزمة من كتب خاصة بالمرحلة الثانوية .. ذهبت بعقلك .. خبلت لبك .. خطبتها

من أبيها ، وافق دون تردد ودون تفكير ، سعادة غمرته ، ما دام سيصاهاه موظف يعمل بالعاصمة ، جاءك صديق يلهث والحيرة بادية عليه ويتسلسل ..كيف وافق على إعطائها لك .. أنت بالذات .. الرجل المتزوج ..عشرات الشباب يلهثون وراءها كالكلاب وريقهم جف ، وما تكرمتم على أحدهم بنظرة ، وما رضيت بالزواج من أحدهم .قهقهت بصوت مرتفع ، ثم قهقهت .. ليلة الدخول بها وأنت في الطريق إلى الغرفة .. كنت مغامرا على وشك القيام برحلة مجهولة ..

كنت بحارا على وشك ركوب البحر والخوض في مياهه العميقة ومصارعة أمواجه المتلاطمة .. كنت الرحالة الجوال الذي على وشك الدخول في غابات كثيفة عذراء لم تطأها قدم إنسان غيره .. كنت تمني نفسك بأنك المهدي المنتظر .. ففوجئت بأن العالم ليس في حاجة إلى مهدي من أمثالك .. أمطرتك ليلي بدموع أبت أن تتوقف .. توصلت إليك أن تتركها .. أن تعيدها إلى أهلها ، بالفحولة والرجولة يا أحمد .. انتصرت عليك الشهوة .. مرت عليك السنوات يا أحمد وأنت بين مد وجزر .. بين العاصمة وقريتك .. تشدك الأولى أفقيا .. وتجذبك الثانية عمقا .. في العاصمة عائشة وثمانية أطفال ينهشون لحمك .. يلاحقونك حيثما كنت .. في قريتك ليلي الذابلة المريضة وخمسة أطفال .. قبل ساعة زورت دفاتر حسابات الشركة ، وأخذت لنفسك ثلاثة آلاف دينار ، وها أنت في طريقك إلى الشيخ إبراهيم الساكن بحي بعيد من أحياه العاصمة .. كي تدفع له صداق ابنته نورة ذات السبعة عشر ربيعا ، التي وافق أبوها على زواجك منها...

الانتظار

حدث ذلك قبل أسبوع عندما فتح النافذة .. تسربت أشعة الشمس في حُزم كثيفة ، مسح بعينه صفحة السماء الزرقاء ..سيارات ، نقط متحركة ، تجري في سبيل لا نهاية له .. الكل يجهل النهاية ، عمارة ضخمة في الجهة المقابلة تنتصب أمامه ، عيناه تنتقل عبر الطوابق ، تستقران في النافذة المقابلة للطابق الثالث ، كانت تبتسم ابتسامة حمراء فيها دعوة ملحة ..نداء جذاب ، خصلات من شعر ذهبي ارتمت على جيد عاجي ، كانت تقطع الشرفة بخطوات بجسم بضّ راح في نشوة يتمايل بغنج ودلال .. جادت عليه بنظرة جاذبية وبسمة وردية ، ودلفت إلى حجرتها .. من وراء الستار الوردي الشفاف بأنامل رقيقة ، راح يلوح تلويحات أشبه ما تكون بتلوحة وداع لمسافر راحل لبعيد .. يريد الإبحار في محيطات يجهل نهايتها ..كي يصل إلى برار لا يعرف عنها شيئاً ..

انتابه خوف وذعر .. ارتعدت فرائصه ، أبهذه السرعة قطع سنين الشباب ؟ اجتاز مراحل العمر الذهبية ؟ أبهذه السهولة ارتقى درجات السلم ، وشرع في الجهة المقابلة ؟ دوما تطلع إلى السنوات المقبلة ..سنوات الخصب والنماء ، فمه يتحلب كلما ركب الجواد يطوي به الفيافي طلباً للغنائم .. وجنيا للمحصول ..مرت السنوات تجر بعضها بعضاً .. قطار عرباته فارغ على الدوام لا يحمل معه غير دخان أسود يعمي العيون .. ويزكم الأنوف ، الشريط مر .. نفس المناظر تتكرر .. صورة طبق الأصل لبعضها ، محاولات بذها كي يجدد الشريط ، يدخل عليه إصلاحات .. يقحم فيه مناظر جديدة تذيب الملل وتقضي على الروتين .. عثر على المخرج ..

افتقر إلى الوسائل المادية والفنية .. الإمكانيات البشرية متوفرة ، البطل موجود
توفرت فيه كل الشروط ، ممثلو الأدوار الثانوية على استعداد - وما أكثرهم والحمد
لله - زوجة ولود .. استنفدت قواها .. جادت بصحتها وشبابها لإنجاب أبناء ست ..
وبنات خمس .

في الساعة العاشرة مساء ذلك اليوم .. أحست بأوجاع المخاض .. قبل أن يذهب
لإحضار سيارة .. بكلمات متقطعة ونظرات متوسلة رجته أن لا يأخذها إلى
المستشفى.. كولدتها السابقة .. تلقي بحملها في البيت تساعد قابعة هرمة ، اعترفت
لها كل نساء الحي بالمهارة ..

كانت أحيانا لا تحتاج في ولادتها لواحدة منهن ما دام الأمر يتطلب تكاليف
باهظة .. إذ يحدث أن يدخل المنزل عائدا من العمل حتى يفاجأ بازدهام النساء في
حركة ونشاط غير معهودين .. ومرات قبل وصوله المنزل ، في مدخل الزقاق يسمع
زغاريد متواصلة صاعدة إلى عنان السماء ، يدرك بسهولة مصدرها .. عودته
السنوات بالعطلة ، جادت عليه في مواسم كثيرة ، بل خصصت له موسما سنويا لا
تجيد عنه .. وجد ألفا له .. في البداية كان يهيئ نفسه لاستقبال المنتج .. يصرف ما
لديه في تحضير اللوازم .. واختيار المخازن .. وكان الإنتاج جيدا أعطت الأرض ما
عندها ، استنفدت طاقاتها ، فقد الإنتاج الجودة ، الرأسمال نفذ .. المال مفقود لتحضير
الموسم الجديد .. التحضير بالعتاد القديم كاف ما دامت التربة بخيلة .

قبل ذلك اليوم بثلاثة أيام كومت أمامها أثوابا قديمة.. راحت تفرزها وتصنفها
إلى مجموعات .. صنف منها وضعته جانبا ، لم يفته أنه صالح لضيف جديد .. داهمه

إحساس غريب لحظتها ، تملكه شعور من الخوف .. تأكد وأن القادم على وشك الوصول .

بالأمس حشر نفسه للمرة الخامسة أمام مكتب اليد العاملة .. في المرات الثلاثة الأولى .. هزمه عقربا الساعة وقد زحفا منتصرين .. تمكنوا من احتلال الرقم الثاني عشر .. انسحب منهزما .. منكس الرأس وسط طابور ، ما انفك أن تفرق رجاله .. تمكن خلال المرة الرابعة من الوقوف أمام الموظف المتخصص بالتسجيل .. كان هذا الأخير بطلا مغوارا .. صال وجال في ساحة الوغى وكان النصر حليفه ، كان يفتقد إلى الدفتر العائلي فخرج مهزوما ..

بالأمس ساعة واحدة تفصل عقربي الساعة عن الوصول إلى تلاقيهما على الرقم الثاني عشر .. حتى يتمكنوا من هزم الجموع التي راحت أشعة الشمس تلهب ظهورها كسياط يسومهم العذاب .. خيوط من العرق راحت تنساب عبر مساحات الأجساد .. هبت رياح حارة وجدت طريقها إلى الخيوط اللزجة ، فأنعشت النفوس للحظات قليلة ، شغل الواقفين وأنسأهم جحيم الشمس دخول باخرة ضخمة للمسافرين تمخر البحر .. أخذت تقترب من الرصيف ، صعد إلى طابقتها العلوي مئات الركاب ، وكأنهم ضاقوا بها ، وضائق بهم فراحت تتقيؤهم أفرادا وجماعات إثر رسوها جانب الرصيف ، من سلم طويل راوحا ينحدرون درجاته في زحام واندفاع للتخلص من هذا الهرم الخائف .. أكثرهم قطعوا مسافات طويلة من رحلة الحياة .. طووا مرحلة طويلة من العمر احدودبت ظهورهم وأشعل الشيب رؤوسهم .. أحدهم عطل الحركة ، كانت رجله مبتورة .. عوضت بأخرى من الحطب .. تبعه آخر علقت يده الملفوفة إلى عنقه.

ذات مرة قال له أحدهم ، وقد ازداد الطلب على الشقق من الشركات :

— لماذا لا ترحل ، فأرض الله واسعة ، والرزق موفور هناك ؟

لم يجب لحظتها .. ما نطق بكلمة .. عجز عن الجواب .. ألقى نفسه بالأمس

قادرا على الإجابة .. تمنى لو كان أمام المالك ليرد عليه .. ليروي له حصيلة غربته :

— بلى يا عم قد رحلت إلى البراري الأخرى .. قطعت بحر السلام .. نزلت في

شاطئه الشمالي .. سلخت من سنوات حياتي أكثر من ثلاثين عاما ، سافرت

سندبادا يبغي منزلة الأهوال .. يعيش خوض البحار .. يطمع في العودة سالما وسفنه

حملة بالياقوت والجواهر والحلي والحلل .. والعطور والبخور .. عدت بعد الرحلة

الطويلة وصناديقي ملأى بالخيبة والمرارة .. وأكياسى عامرة بالإفلاس .. حصادي ذراع

مبتورة ، وعجز كلي عن أداء العمل في اليد الثانية .. رصيدي حقيرة ضمت في

طيائها بدلات عمل زرقه .. تلطخت بزيوت المحركات الضخمة ، لعقت ما تراكم

عليها من أوساخ .. بذلة فقدت كمها ، تشربت دماء قانية .. تشبعت بها .. عدت يا

عم ولم أجد أحدا في انتظاري ، المدينة التي رحلت منها ذات يوم فقدت معالمها

القديمة .. نفضت ثوبها العتيق .. وجهها الحديد غريب علي .. لم أستبن الشارع الذي

قدمت منه ذات يوم.

لكزه أحدهم :

— تقدم يا أخي .. لم يبق أمامك غير واحد وتدخل المكتب.

— حسنا ، ملفك كامل ، انتظر ريثما تصلك رسالة منا ، نعلمك فيها عن شغل.

استقبلته أفواه كثيرة مفتوحة .. أخذت تتفتح وتقرب من بعضها لتتحد

مكونة فما واحدا اتسع وبرزت أنيابه، واستطالت لتغرز في جسمه وتبتلعه.

- أبي أطلت علينا ، ليس لدينا خبز والجوع انقض علينا.
- حدث نفسه : « انتظروا يا أبنائي ريثما تصلني رسالة ».
- خذي يا ابنتي هذه الدنانير .. واشتروا ما أنتم بحاجة إليه من الخبز .
- لكن لا تكفي يا أبي ...
- لَمَّا كان في طريقه إلى المستشفى لزيارة الزوجة الكريمة .. كان المجود يتلو آيات الذكر الحكيم منبعثة من صومعة عالية لمسجد راحت جماعات المصلين تدخله على التوالي .. رهبة وخشوع غمرا المنطقة ، كان المجود يردد : « لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ».
- استند إلى جدار المسجد .. وتمطط حتى التصقت مساحة جسمه كلية بالجدار الذي كان قلعة قوية .. أحس وأن هذه القلعة أخذت تستدير حتى أحاطت به واحتضنته برفق .. راحة وطمأنينة سرت في كيانه.
- في قسم الولادة أعلمته القابلة أن عملية الولادة تمت بسلام حوالي منتصف الليل .. بعد وصول الزوجة بساعتين فقط .. إنها بخير .. بلهفة سأل عن الصنف الجديد ، أجابته :
- الحمد لله على سلامة الأم ..
- أفهم من كلامك أن ...
- بلى توفي بعد ثلاث ساعات من خروجه إلى عالم النور .. كان ذكرا.
- ابتلع الريق بصعوبة .. تسربت مرارة إلى فمه وتهاوى على الأرض وهو يردد : « لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ».

فتح نافذة غرفته هذا الصباح لأشعة الشمس الذهبية ، سرعان ما تسربت
بحنان .. بينما كان يقف أمام المرأة يسرح شعره الأشيب .. انعكست صورتها على
المرآة .. كانت تبتسم في النافذة المقابلة ابتسامة حمراء .. فيها نداء ملحٌ .. بريق الشهوة
ينبعث من عيني حطّ بهما الليل رحاله .. تذرّع الشرفة .. مستعرضة جسداً أسدل
عليه قميص شفاف كشف ما بداخله .. أسرع إلى النافذة وأحكم إغلاقها .. ثم
انبرى يقبل ابنته الصغيرة التي كانت قد حضرت تدعوه لتناول فطور الصباح.

السُّمُّ الْقَاتِلُ

كان الحاضرون في قاعة المحكمة يتلهفون لمعرفة نوعية الحكم الذي سيصدر في حق هذه القضية الخطيرة ، التي شغلت سكان المدينة مدة ليست بالقصيرة ، فالقاعة اكتظت بجموع الناس وقد حضروا من كل حذب وصوب ، سيما من الحي الذي حدثت به الجريمة ، تقاطرت نسله الحي ورجاله في ساعة مبكرة ، وما كادت المحكمة تفتح أبوابها حتى وجدت هذه الجموع نفسها في سباق إلى احتلال مقاعد بالقاعة التي ضاقت بالعدد الباقي فازدحمت بهم الطرقات والأرصفة المجاورة ، ولا همّ للجميع غير التعرف على كُنه القضية بالضبط.

في تلك اللحظة كانت أعصاب الجميع متوترة والقلق ظاهرا على الوجوه ، لمعرفة الحكم الذي نطق به الرئيس بعدئذ بنبرة لا تخلو من الحزم والشدة :
— بعد المداولة ، أصدرت المحكمة حكما يقضي بالأشغال الشاقة لمدة عشرين عاما ضد السيدة ليلي.

وتعلقت أنظار الحاضرين بالمتهمة التي وكأنها غير مصدقة ما سمعت .. الحكم الذي نطق به الرئيس لا يخصها .. يخص سيدة أخرى .. بدت معالم الدهشة والحيرة عليها تجاه الوجوه التي استقرت نظراتها عليها بالذات ... ثم وكأنها أفادت لنفسها .. وأدركت أنها المقصودة ، وأنها في واقع وليست في حلم .. بل في واقع مؤلم تسببت فيه بنفسها ، وكانت تعلم أن العقوبة وخيمة .. وأفادت حينما كانت الجموع تندافع خارجة من القاعة .. لم يبق بها غير زوجها عادل يحتضن ابنتهما الوحيد ، ذا الأربع سنوات ، وقد استند إلى جدار قريب من باب الخروج .. خائنه الشجاعة .. الدموع

انحدرت مبللة وجه الصبي ، الزائع البصر ، الناقل طرفيه طورا إلى الأب ، وطورا إلى الأم المتلهفة في ملاءة سوداء .. لم يبد منها غير وجه ليموني اللون افتقر إلى نضارة الشباب التي كللته في سنوات ماضية ، تحول الجسم الأنثوي الريان البض ، إلى شبح مخيف ، إلى هيكل فقد الحياة ، وقع في كل زواياه الموت ، ولكنه الموت البطيء .. حينما همّ عادل بمغادرة القاعة ، تعلقت عينا الطفل بأمه وصرخ : ماما .. ماما .. بكل قواها انفلتت من بين الحارسين .. جرت لاحقة بالزوج والابن .. ولكن كانت أرجل الحارسين أسرع .. سيقّت بعدها إلى مصيرها المحتوم .. إلى مستقبل مجهول.

رجع إلى المنزل خائر القوى ، فاطر العزيمة ، هاله شعوره ، أهربه انعدام الحركة بها ، أبهذه السرعة زال كل شيء ؟ أيّين عشية وضحاها اندثر كل ما بناه ؟ أحقا هذا المنزل الذي رأى نور الحياة به ، ونشأ في ربوعه ، وترعرع على أرضه وعب من ينبوعه العطف والحنان ؟ .. هاله خلو الغرف من أصحابها وهو يطوف بها واحدة تلو الأخرى .. هذه غرفة أمه الخاصة ، تضم السرير المهجور ، بجانبه تناثرت دون نظام قطع من لباسها ، ما وجدت الأيدي التي تطبقها وترتبها ، بل وتغسلها ، غرفة أشبه بقبر مهجور مكثت به جثة وقتنا ما ، ثم حولت إلى مكان آخر ، تخلف بالغرفة غير طيف صعب عليه أن يذهب إلى غير رجعة ، فاختار التثقل بحرية بين الجدران ، وتلك غرفة نومه ، ففيها ذاق النعيم وشبع من السعادة ، وارتوى من الحب ، قضى بين جدرانها أحلى لياليه وأسعد أيامه ، فيها تُوجت حياته الزوجية بقدم الطفل مالك ، ما بقي بالغرفة الجميلة الوردية الجدران الشفافية الستائر ، غير خزانة تضم ملابس مبعثرة ، هجرتها الأنامل الرقيقة التي نظفتها وكوتها

ورتبها ذات يوم ، فقد كل شيء بريقه في المنزل ، حتى الخزانة ، السرير ، البلاط استحالت الوجوه إلى أرض جدد سكنها الجفاف ، وجثم عليها الجذب ، فبخلت بالعطء ، فأبت أن تكون كريمة متساهلة إلا مع النمل الذي جعلها ميدانا فسيحا لعمليات تنقية ..

ذلك المطبخ .. كم أحبه وعشق المكوث به كل يوم زمنا ليس بالقصير وكيف لا يعيشه وقد لعب الدور الكبير في ربطه بزوجته والتحامه بها ففيه ذاق أشهى الطعام ، وألذ المأكّل ، حرص الاثنان على تجهيزه بكل ما هو ضروري ، احتله الفأر ، اتخذ منه مكانا آمينا لسكنه ، ودار ولادة له ، ومدرسة لتربية صغاره دون خوف من أحد يكدر عليه صفو سعادته وينكد عليه عيشه الرغيد ، وهو متوفر بكثرة في المطبخ ، وآنسته الصراير فقدمت راضية مطمئنة على هذه الحياة السعيدة ، وتختّم هذه المخلوقات الصغيرة يومها بسمفونية طويلة تبدأها بقدوم الليل وتنتهي منها بانسحاب جحافل الظلام ، وكأن سعادتها اليومية غير كافية

عاد عادل وشبح الموت في الغرف يقهقه ساخرا ، وسرت في جسمه قشعريرة الخوف ، تسلط عليه الرعب القاتل ، صرخ مستغيثا ، طالبا النجدة ، العون ، الحماية ، التفت مذعورا ، ما وجدها إلا في ابنه الصغير الذي كان يعبث في غرفة النوم بزجاجة عطر لأمه ، احتضنه بكل قواه وضمه إلى صدره ، وأشبعه تقبيلًا ، ثم أفلت منه الصبي عائدا إلى عبثه ، إلى لعبه وصياحه ، حسده على سعادته الطفولية ، على براءته وعالمه الحلو ، تمنى لو تعود عجلة الزمان الثقيلة إلى الوراء ، كي يعود طفلا صغيرا ، ابنا مدللا وحيدا لأمه الشابة التي ترملت وهي في أوج الأنوثة والشباب ، تفرغت لتربيته وتنشئته ، وأفرغت فيه عواطف الأنثى الشابة وحنان الأم

الصغيرة التي اختارت نار الترميل الحارقة والتفرغ لابنها الوحيد ، وضحت بشبابها الغض وأنوثتها الفائرة ، دائسة بكل شجاعة على نداء القلب ، رافضة طلبات الزواج الكثيرة ، وشتى أصناف الإغراءات لا هدف لها في الحياة غير سعادة الابن الذي حرصت كل الحرص على تربيته التربية المثلى ، وتعليمه ، وإعداده للحياة ، حياة المستقبل.

مرت السنوات ، والوردة تفقد النضارة رويدا ، والزمن يعمل عمله ، وأخذ اللون السحري يتسرب ، وحل محله لون بشع تشمئز منه النفس ، ورغم ذلك الذبول ، والفتور ، لم تكف الوردة عن العطء وما توقفت عن البذل والجود ، السعادة غمرتها كل لحظة ، كل آونة وهي ترى الأرض التي سقتها ، النبات نما فيها وترعرع ، وامتدت جذوره قوية في العمق ، وأوشكت الغلة على النضج ..

نضجت الغلة ، كان الإنتاج وفيرا ، جيدا لم تتسع الدنيا لفرحتها ، حينما تقدم إليها يقبل يدها عن نجاحه في امتحان الليسانس بدرجة جيد جدا ، مكبرا التضحية الجليلة من نفس صبورة ، وجدت كلماته مكانها من القلب الكبير ، فتساقطت قطرات ساخنة من عينين أحاطت بهما هالة سوداء ، جذبتة قوة القاهرة على الاتحاد بها والاحتمله والارتمله بين أحضانها ، ومسح دموعها بأنامله ، انتابها لحظتها مزيج من فرح وحزن ، ما درت أيهما تغلب على الآخر ، أحست أن هناك شيئا آخر لا زال عادل في حاجة إليه ، حاجته إلى الهواء والماء ، أمنية واحدة لا زالت أمانة في عنقها عليها أن تؤديها ، كانت مطمئنة ، وتعلم أنه لا يعارض اختيارها ، لكن سوف لا تشغله بها ، فالدرب لا يزال طويلا ، فالخدمة الوطنية في الانتظار.

رجع عادل بعد عامين ، أدى واجبه الوطني ، استأنف العمل من بابهِ الواسع .. توظف ، ورأت أيامها أن الفرصة حانت ، وما عليها غير تحقيق الأمنية الوحيدة المتبقية لديها ، وعرضت عليه الزواج ، واندesh لأول مرة ، وبترغيب مستمر ، وافق على التي اختارتها دون معارضة ، وما مرت غير أيام قليلة حتى تم الزواج بليلى في جو بهيج ، وأفراح شارك فيها القريب والبعيد. تحملت القسط الأكبر من العمل والتحضير والترتيب ، بل حتى تخصيص الغرف اختصت به هي ، وما شاركها أحد في ذلك ، نوعية الأثاث الكلمة النهائية لها فيه.

مرت الأيام وعادل يتبجح في النعيم ، ويقطف من الزهر المفتوح والورد الباسم ، وشذى العطر يسكره ، إلى أن كان يوم ، لم ينسه ولن ينساه أبدا ، ما دام على قيد الحياة ، ترك هذا اليوم شرخا في ذاكرته من الصعب ، بل من المستحيل نسيانه ، دخل عليها صباح ذلك اليوم كعادته وحيائها تحية الصباح ، وفي نيته أن يتناول معها طعام الإفطار ، تظاهرت بالمرض والفتور والتعب ، والعجز عن النهوض من الفراش وأحضر لها بعض الأدوية الموجودة ، فرفضت تناولها ، عرض عليها بعض المشروبات ، امتنعت عن تناولها ، حينما فشل في كل عروضه ، همّ بالخروج للإتيان بسيارة تحملها إلى الطبيب ، انفجرت فيه بغضب وثورة ، من نار الحقد والغيط ، متأججة في صدرها ، وانتفضت كعملاق ثائر ، هادر ناقم ، انفلت من قمقم ، سيل من عبارات الشتم انهالت عليه وعلى زوجته :

— غادر غرفتي حالا .. لا أرغب أن أراك أمامي ، أو أرى زوجتك من الآن .. بل كرهت أن أسمع حتى صوتكما .. أغرب عن وجهي .. أخرج .. أخذ .. أ ..

تقوَّعت على نفسها منذ ذلك اليوم وأقامت صورا منيعا بينها وبين من في المنزل .. ما غادرت غرفتها .. وما طلبت شيئا .. حاول الاثنان ملايتها .. وتقديم الاعتذار لها .. جوابها دوما السكون .. تستبد بها الوحدة وينهشها القلق .. تغادر غرفتها وتذهب إلى جارة لها تقاربها سنا وتشبهها وضعية اجتماعية .. وتقضي معها يومها .. ومرات كثيرة .. حتى الليل ، في هذه الحالة كانت الحسرة والألم عبئا ثقيلا على الزوجين الشابين .

بثقافته الواسعة .. وخبرته بالحياة .. لم يجهل مصدر هذا الجفاء .. ولم يغب عليه السبب .. عزم أن يقرب الفجوة بين زوجته ووالدته .. وأن يعيد ربط حبل الوصال .. فشرع في العمل .. غير أنه فوجئ بالصعوبة .. واندesh لنهر فياض رقرق يسيل حبا وعطفا ورحمة طوال عشرات السنين .. يحف بسرعة تنضب مياهه التي تركت في مجراها غير الأحجار الصلدة .. اندesh للقلب الذي منه ذاق الحب والسعادة .. ونهل من ينابيع رياضه .. وأكل من ثمار بساتينه وجناته .. تحول إلى أرض بور نبت فيها غير الشوك ..

ما استسلم .. عزم على العمل في هذه الأرض الجدبله دون كلل .. ودون توان .. ولكن الفشل كان يقف حائلا بينه وبين التوفيق ..

مرضت الأم .. وما كان المرض رحيمًا بها .. إنما كان قاسيا امتص منها ما احتفظت لها به الأيام من ملامح لأنوثة وشباب خلبت بهما عقول العشرات من الرجال والشباب ذات يوم .. وما برحت الآلام المتزايدة أن غرزت مخابها في الجسد الواهن .. تكالب المرض عليها .. مع الألم المبرح .. وأديا بها إلى الغياب ذات ليلة عن

الوجود في إغماءه ما استيقظت منها إلا بعد يومين في المستشفى .. ووجدت ابنها أمامها وتعانقت الأيدي ..

بعد الكشف الطبي تبين وأن المرض خطير .. والأمل في الشفاء ضعيف .. إذا لم تجر لها العملية الجراحية .. وافق على إجرائها .. كاد يفقد عقله أمام المرض اللعين .. نسي كل من في الوجود .. غير أمه التي توضحت له في هذا الظرف الصعب .. كان لقمة سائغة لتفكير عميق يشوبه وسواس وخوف وشك .. طالما وهي على طاولة التشريح في غرفة العمليات .. أدت به إلى أن يحيى على أعصابه المتوترة .. لأول مرة أحس بهول الفراغ الذي تركته أمه .. العالم برحابته .. أصبح زنزانة ضيقة قبحة المنظر .. البشر كلهم أشرار .. الطبيعة بروعتها مقبرة موحشة ..

أخيرا نجحت العملية .. تحول العالم الكثيب إلى حديقة فيحاء .. حمل البشرى إلى ليلى .. التي انتظرت النتيجة بفارغ الصبر .. وأبت إلا أن تقدم هدية رائعة للأم يحملها عادل كعربون لوفائها وإخلاصه له من جهة .. وإرجاعا للمياه إلى مجاريها الطبيعية بينها وبين الأم من جهة أخرى .. هدية متمثلة في دجاجة حمرة ابتاعتها ، ووضعت معها بعض المأكّل الأخرى تحبها الأم ..

فرح عادل .. وكيف لا يفرح ؟ وزوجته الطيبة أخذت زمام المبادرة .. ورأت أن تنسى ما حدث .. هذا العمل دل على الروح الطيبة .. والنفس الكبيرة .. والقلب المتسامح .

حمل الهدية وقصد المستشفى .. فاستقبلته باسمه .. وعندما كان يدها بما حمله معه .. رآه ممرض فمنعه من ذلك .. فما كان منه بعد دقائق إلا أن غادر المستشفى ولسانه ما كف عن الشكر لله وفي طريق عودته راودته فكرة إهداء ما يحمله من طعام إلى أحد

المتسولين الجالسين على أرصفة الشوارع .. غير أن مانعا أقوى منه كان يشل يده
فيواصل السير .. ثم تبادرت إلى ذهنه مبادرة زوجته الطيبة .. فعزم أن يقدم إلى
أسرتها ردا للجميل ..

كانت فرحتهم عظيمة حيث فاجأهم بزيارته التي لم يكونوا ينتظرونها .. طالما
أن زياراته لهم قليلة .. فكانت الفرحة مزدوجة لديهم ..
في منزله كانت تتلهف على حضوره ، تلقتة بقبلات حارة واضعة رأسها على
صدره :

— كم أنا مسرورة بنجاة والدتك يا عزيزي .. من غير شك أنها فرحت بهديتي
وأثنت علي.

— وفرحتي أكثر .. وقد عادت القلوب إلى التآلف .. غير أن الهدية منعتني من تقديمها
إليها الممرض المكلف بالسهر عليها .. وألقت به بعيدا .. مرعدة والشرر يتطاير
من عينيها.

— إذن ، أين الأطعمة ؟

— فاعل الخير يا عزيزتي لابد من مكافأته بالمثل .. كان على أن أكافئك ، فتوجهت
إلى أهلِكَ وقدمتها إليهم ..

— طار عقلها .. واندفعت جريا دون ملاءة كصاروخ شقت طريقها وسط المارة
والسيارات .. حاول اللحاق بها .. ولكن دون جدوى ..

وخلال وصوله شارع الأسرة .. لاحت له سيارة الإسعاف أمام المنزل وسط
مئات من الناس والدهشة بادية على الجميع .. اقترب أكثر من السيارة التي تحركت
وفي داخلها حماته وزوجها وأبناؤهما الأربعة ..

خارج المحكمة قال أحد الخارجين لصديقه :
- سمُّ فتاك سريع التأثير استعملته الجريمة في القضاء على أم زوجها.

عائشة

فاطمة الجميلة . فاطمة التي خلبت عقول الشباب بجمالها الفتان وجسمها الممتلئ ، ودلالها الأخاذ ، وقعت في الفخ ، الفخ الذي احتاطت له أمها عائشة كل الاحتياط ، وقرأت له كل حساباتها حسب امكانياتها وظروفها الخاصة. وماذا باستطاعة أم مات عنها زوجها، وتركها شابة وحيدة لم تتعد العقد الثالث من العمر ، وحيدة ليس لها الا أخ يقيم بمدينة ساحلية بعيدة يغيب عن البلدة أحيانا لمدة خمس سنوات ، أو أكثر دون أن يتكرم حتى بإرسال رسالة .

فقيرة لا تملك من متاع الدنيا وزخرفها غير حصة بسيطة لزوجها بمنزل بقية حصصه لأقارب كثر له ، طالما تأمروا على اخراجها وسلبها حصتها . رحل وسعاد لم تتجاوز الخامسة من عمرها .

كان على عائشة أن تتدبر الامر بمفردها ، وحينما شكت لأقارب الزوج نكبات الدهر ، وضيق اليد ، وشظف العيش ومخالب الايام ، أشاروا عليها بالعمل ، وما أكثره ، وخاصة في بيوت الأهالي الموسرين ، رفضت ذلك في بداية الأمر ، لكنها تراجعت عن قرارها وصممت على العمل مهما كانت الظروف ، ولكن في اطار آخر ، اطار يحفظ لها كل كرامتها الانسانية ويحفظ لها ماء الوجه ويطعمها لقمة الحلال .

اختارت أن تعمل " دلالة " بائعة متجولة في البيوت ، عربتها ظهرها ، تباع ملابس النساء والاطفال ، وأواني الطبخ . وفيما بعد ربما بعض القطع الذهبية ..عائشة التي ما تحطت باب دار زوجها منذ أن حلت بها ، تصبح قاطعة الازقة ،

وصحتها الثمينة تنفقه.. تذيبها على الطرقات وجمالها الانثوي الدافئ يتلصص عليه في تشفٍّ أولئك الذين امتنع أبوها يوما أن يمنحها لهم . وتحقق خوفها ، فما أن بدأت عملها الجديد حتى بدأت المطاردة والملاحقة ، تارة بلين .. وتارة بعنف ، وصمدت أمام البسمات .. وقاومت النظرات .. وداست على نداء القلب بكل كبرياء وعزة نفس ، وعرض عليها الزواج .. الزواج الذي مكثت بمنزلها ثلاثة أيام تفكر فيه ، وبالتالي تعطي قرارها.. وفوجئ طالب يدها بقرار الرفض .. وانسحب بجرٍّ أذبال الحذية ، والحسرة والالم والمرارة تمزقه .. وتفرغت نهائيا لفاطمة ، لتربيتها وتنشئتها .

أردّ الجميل يكون على هذه الصورة يا عائشة ؟ أو الجزاء الذي كنت تتوقعينه يكون على هذا الشكل ، كيف حدث ذلك ، كيف غاب عنك كل ذلك ، .. فضيحة ما وقعت شبيهة لها قط بالبلدة .. القاصي والداني سمع بها .. وصارت حديث الصغير والكبير ، المرأة والرجل ، عذابك وشقاؤك في هذه السنين الطويلة كأنها لم تكف ، ينضاف إليها عذاب أشد .. وحسرة أمر .. كل الظروف تأمرت عليك ، وما قدّرت تضحياتك منذ شروق الشمس الى غروبها .. وأنت نملة دؤوبة لا تكف عن الحركة .. واليوم يمضي دون أن تذوقي طعاما .. حتى في مرضك الذي أبى أن يتركك ، وبين الآونة والاخرى يغرز محالبه في جسمك فيطرحك أرضا ، فلا تجددين أنيسا لك غير ابنتك فاطمة .. فاطمة التي حاولت أن تحولي لها مسيرة حياتها ، حتى لا تسير في خط متواز مع خط حياتك .. دفعت الكثير من أجل تعليمها .. وأمضت بالمدسة ثماني سنوات وجهتك بالحصيلة .. الحصيلة التي تبرع بها عليك السيد المدير ، التبرع بالطرد.

كان عليك في تلك الحالة أن تمكثي بالبيت لرعايتها ، والاعتناء بها ، بيد أن لقمة العيش أحالتك من جديد على العمل على أن تصحبها معك طول اليوم .. وفي ذلك ما فيه التعب والمشقة ، ومعاكسة أطفال الاحياء الذين ما سلمت منهم بدورك .. اصطحبتها معك ، حتى تتمكن على الاقل من التدرب على حرفة البيع ، ريثما يقوى عودها .. فتساعدك على حمل كميات اضافية ، ويزداد التنوع ، وتكثر الارباح ، فتتحسن الحالة .. أمانى ارتاحت لها نفسك ، وبنيت عليها آمالا عريضة .

مضت الشهور .. وشاءت فاطمة الا أن تكون بائعة ماهرة .. بارعة في استدراج السيدات والاونس في اقتناء ما هن في حاجة اليه .. وما ليس في حاجة اليه .. واختارت أن تجوب أحياء وأزقة أخرى غير التي تجويعينها .. وأثنت على مهارتها .. وبتوالي الأيام .. ازدادت الأرباح أكثر .. وامتلاً جيب فاطمة بالنقود وفاض .. ولاحظت عليها أنها أخذت تُبدي من زيتتها ما كانت غافلة عنه .. وتجلس أمام المرأة الدقائق الطويلة .. وترتدي أحدث ما أعطيته اياها من ثياب .. بل أحيانا صارت تأخذ لنفسها دون استشارتك .. وحينما داهمك بعض الشعور من الشك .. وابتغيت أن تستوضحها في بعض المسائل .. ثارت ثائرتها ونهرتك .. بيد أن ثقتك فيها أدى بك طلب العفو منها .. والتغاضي عن كل ما راج من اشاعات ضدها ..

في تلك الليلة المشؤومة بعد تناولكما قليلا من الطعام .. وقد كدتما أن تستسلما للكرى .. انتفضت فاطمة صارخة .. صائحة .. وأنفاسها كادت أن تنقطع وهي تتلوى وتتمرغ على الارض من شدة الالم الذي يمزق احشائها .. وبفعل هول الفاجعة .. طبخت لها ما كان تحت يدك من أعشاب ومزجتها بعقاقير ادخرتها لمثل هذه الحالات .. وازداد الالم .. ولم تري غير أخذها الى ممرض البلدة الذي أتيته في

وقت متأخر ، ليعلمك بأن الدواء غير الدواء غير متوافر لديه ، وودعته ببزقة وسيل من عبارات الشتم. ومع خيوط الفجر توجهت الى مستشفى المدينة .

على طاولة الطبيب الذي عاين الحالة ، وفحص جسد المريضة ، أمر على جناح السرعة إحالتها الى دار التوليد حيث مكثت بها مدة ثلاث ساعات ، وأسفرت عملية المخاض عن بُنية . أشرف على العملية الطبيب الاختصاصي تساعده في ذلك قابلتان ، وفاطمة غير مصدقة اطلاقا ، وما كفت ساعاتها عن الصراخ والصياح وتوجيه أحط عبارات السب والشتم لمن يشرفون على العملية. وما أن أفاقت من نومها بعد عملية المخاض ، وذهب عنها بعض الفتور والعناء حتى انتفضت مذعورة من سريرها ، وصبت كل غضبها على الممرضات الحاضرات ، وهي تتساءل سبب مجيئها ونومتها في هذا المكان .

جن جنونها وقد تأكدت فعلا أنها ولدت ، وعليها أن ترضع وليدتها التي ما أن رأتها حتى أوشكت أن تفتكها من الممرضة وأن تلقي بها عرض الحائط لولا خفة هذه الاخيرة. وصل الخبر اليك يا عائشة وما صدقت ذلك ، ولكن دخلت وتحققت بنفسك ، فقدت الشجاعة ، وانهرت، وسقطت مغمى عليك ، تسارعت أنفاسك ، وتضاعفت خفقات قلبك ، وقضيت بدورك في جناح آخر يوما كلاما تحت المراقبة الصحية والعلاج الطبي.

عدت الى القرية محطمة المعنويات ، كسيرة القلب ، شاردة العقل ، واستقبلك الخبر الذي شاع شيوع النار في الهشيم ، وتوجهت الى منزلك تحيط بك هالة خاصة ، ويصاحبك موكب عظيم من مستقبليك ، بعد يومين قضيتهما على أحر من الجمر ، وفي أتعس حالة ، تبكين حظك العاثر ، وتندبين أيامك التعمسة ، وحيدة بعد أن

امتنعت عن مقابلة أحد ، وما أكثر الذين طرّقوا عليك الباب وما عرفوك الا الآن ، بعد يومين اشتد الطرق ، وتصاممت كعادتك ولكن الطرق اشتد واشتد وفتحت الباب ، وكانت فاطمة تحمل وليدتها وقد هبطت من سيارة لأحد السكان رقّ لحاها وقد لفظها المستشفى ، أغلقت الباب بكل عنف أمامها. وجاءك رجال الامن فيما بعد ، وصحبوك معهم الى المركز ، وهناك أُجري التحقيق الاول ، ووجدت نفسك مرغمة على قبول فاطمة واعادتها معك الى البيت ، دون أن تهضمي قبول المولودة مهما كانت العواقب .

ولم يأت التحقيق بأية نتيجة ، لم يعرف مصدر الفضيحة ، ولا أسماء الذين كانت لهم علاقة بفاطمة التي تشبث بالصمت وآثرت الكتمان .

والآن ، ها أنتِ يا عائشة ، تعدين العدة تهيئين نفسك لوداع البلدة ، للرحيل البعيد ، لتصفية حساباتك مع الزبائن ، فالرحيل أسلم ، فلطالما تطلعت صوب البقاع المقدسة، حيث النور وشعاع الطمأنينة ، وكان عليك أن تسرعي فأخوك المغترب ، قيل لك انه عائد بعد اغتراب دام أكثر من عشرين عاما ، عائد لغسل العار ، ومحو مصدر الفضيحة.

حتى الصغار يحزنون

كنتَ جالسا يومها على أحد المقاعد الحجرية المنزوية في الحديقة بعيدا
تلتهم بناظريك روادها ، وفي نفسك الغضة هزات متوالية ، وفي قلبك الهش
نبضات سريعة ، يئن تحت اثقال لا قدرة لديه على حملها . كانت تغمرك حالة
عميقة من الالم امتدت خيوطه الى يومك هذا فشقت عليك ، وتحديثها صابرا مما
يبرهن على صلابتك ، ولكن ما الذي يمكن لك أن تفعله وأنت صغير في هذه
السن ؟

بين الخمائل طرق أذنيك تسرب الماء في جداوله ، وبهرت عينيك أشعة
الشمس المتراقصة في الاحواض على صفحته.. زقزقات العصافير.. تغاريد البلابل
ملأت الجو حواليك .. شذى الزهور والورود عطر الجو.. نسيم بليل بعث الانتعاش
في النفوس والانشراح في الصدور انساب هنا وهناك .

هل كنت تشعر بما حواليك، وشاركت الطبيعة المرحة أفراحها ؟

كنت متوقعا في محيطك الضيق وقد ضاقت بك الحياة، وانحدرت بعد الى
الارض، ولم تدر تحت وطأة الالم وسوط العذاب، وجحيم التفكير المُضني انك
انحدرت ، كأن المقعد الفسيح المتسع لخمسة أفراد ضاق بك، ولم يتسع لجسمك
الصغير النحيف . لم تدر يومها ما مرّ عليك من الوقت وأنت في مكانك ذاك ، تجتر
مرارة الالم والعذاب . أفقت من شرودك الطويل ، خرجت من الحلقة الضيقة
المحيطة بك ، عندما حمل الاثير عبر تموجاته رنين الجرس معلنا انتهاء الفترة لهذا
اليوم.

خرجت تجر رجلحك من الحديقة لبيتلك الشارع الرئسك فى جوفه الذى جمع من بنى جلدتك أشكالا وأصنافا . كان الجوع يقرض أمعلك ، بخطوات متثاقلة اتجهت صوب مطعم متواضع ، لفس غربا عليك، فأنت من رواده باستمرار - وما أكثر رواده من أمثالك - جيبك خاو ، دلفت المكان دون أدنى حرج . تناولت صحن حمص ملأت به جوفك، وهمست لصاحبه ببعض الكلمات وغادرت المكان ، عبر الظلام الدامس وتحت السكون المخيم على البيت وما حوله كأنه خاو على عروشه فتحت الباب الخارجى، وتسلفت عبّر الممر حافى القدمين ، أوصالك ترتعد ، الخوف استولى عليك ، نفسك تلهث ، أمامك انتصبت أشباح أخذت تقترب منك ، وتقترب وأنت جاحظ العينين مفتوح الفم ، العرق يتصبب منك ، أشباح مشوهة الوجوه تكشف عن عيون تقدح شررا ، وأفواه برزت منها أسنان طويلة حادة ، أخذت تمتد وتمتد اليك، وهى تفهقه وتفهقه حتى كادت أن تطبق عليك، وتبتلعك . كان دفاعك أن أغمضت عينيك ، ودون شعور منك فتحت الباب، وارتميت على مخدعك بشكل معكوس دون أن تتدثر.

فى الصبح الباكر، والظلام ينسحب جارًّا أذبال هزيمته ، وطلائع النور تقترب مشرقة الوجه ، تناهى الى سمعك حوار مصحوب بصراخ أيقظك من نومك ، لكم تمنيت أن يطول؛ بل يستمر الى غير انقطاع ، حوار سمعت الكثير من أشباهه . دار الحوار بحضورك، أو عدمه فى ذلك البيت :

— اسمعى يا امرأة .. لا يزال الباب الخارجى مفتوحا ، كأنى به لم يحضر للتو .. يبدو أنه قضى ليلته خارجا .

— لا أعتقد ذلك ، سمعت أصوات أقدام تجتاز الممر ، ثم ارتطاما لجسم .

- وعلام يدل بقاء الباب مفتوحا، ثم لم أسمع الأقدام ، وصوت الارتطام .
- ربما نسي أن يغلقه .. الليلة الماضية الكأس في الحانة ملكتك .. فلعبت الخمرة بعقلك.
- كفي ، هذا أمر لا يهكم ، ألم أنهكك عن التدخل في شؤوني الخاصة .
- غريب ، أليست الحياة شركة بيننا تهمنا معا خسارتها وربحها.
- بلى ، ما عدا تدخلاتك في سلوكي خارج البيت ، وعلاقتي بأصدقائي.
- سيرتك لا تشرفني ، وتسيء اليك كأب لابني ، من الواجب أن تكون المثل الأعلى له
- أب ، أب ، قد ملأت نفسي تقززا وألما .. إني أرثي لعقلك المتحجر، وتفكيرك البسيط يا زوجتي العزيزة ، ها ، ها ، ها ، أكون أبا لمن . لهذا الصعلوك الفاقدة للتربية ، الجرد من كل سلوك حسن ، لهذا الشرس الذي لم يتعلم منك الا بداءة القول وفحش الكلام .
- ألم تعاهدني بأن تكون له أبا عطوفا ورحيما ، وصديقا وفيأ أول زواجنا قبل خمس سنوات.
- كان ذلك فعلا، اعتقدت يوما أنه اكتسب منك في سنوات الخمس من عمره القواعد الصحيحة لتربية سليمة ، لكن برهنت الايام بعدها أنه لا يقل شراسة ومكرا من أولئك المنحرفين الجوايين للطرق والساحات ، ما وجدوا مله عكرا الا صادوا فيه ، ولا مرتعا عفنا الا غمسوا أصابعهم فيه.
- ابني لا يزال صغيرا، فلا يصح لك أن تشبهه بأولئك المنحرفين .

— كفى هراء ، فماذا يهمني من ابنك ؟ الأجدرك بك أن تبحثني عنه الآن وأرى لفائدة استمرارية حياتنا أن تكفي عن الخوض في هذا الموضوع ، كما أنني لا أقبل أن يبقى باب المنزل لساعة متأخرة من الليل مفتوحا في انتظار عودته ، وأحذرك إن تكرّر مثل هذا فسوف أ.. أ..

— تطرده ، أليس كذلك ؟

— لا .. لا أقصد ذلك ، بل أنبه الى أن سوء سيرته، وعودته كما يحلو له أمر لا أرتاح اليه.

— انك تتجاهل سبب عودته متأخرا.

— كفى ، ملأت قلبي غيظا ونفسي ألما وحسرة على أيام مضت ، كنت خلالها حرا طليقا.

— حقا يبدو أنك اشتقت لأيام نزواتك واشباع شهواتك ، تعطشت للحياة الفارغة..

— اسكتي يا.. خذي هذه الصفحة مني حتى تكفي عني لسانك السليط.

خرجت من النافذة صباحها والشمس لم تشرق بعد . وجدت نفسك تزاحم في الطريق عمالا مبكرين الى أعمالهم — وما أنت بعامل — لا وجهة لك، ولا غاية تبغي الوصول إليها . كنت تشعر براحة لا نظير لها أنستك هموم أمس المثلث بالألم ، وعذاب ليلة تجرعت كؤوس المرارة فيها . انتابك شعور لا تدري كنهه، وأنت تمرّ أمام واجهات المخابز، من بعيد تغزو أنفك روائح شهية يسيل لها لعابك ، واجهات تكدست فيها شتى أصناف الخبز والفطير ، ومختلف أنواع المرطبات.

جذبتك إحداها ، بهرتك أضواؤها النيونية ورائحة محتوياتها المنعشة الشهية ، اقتربت حتى لامست أرنبه أنفك الزجاج الشفاف. انتشيت وتحدت أعصابك ، انسابت عبر خلاياك نشوة عارمة ، تسرب الى جفونك الكرى رأيت نفسك جالسا حول مائدة تلتهم ما رُتب عليك من مآكل ومرطبات .

— يا ولد ، يا ولد ، استيقظ ، فما هذا وقت النوم ، وما هذا بالمكان اللائق به .. يبدو أنك جائع ، خذ مني هذه القطعة من الخبز فافطر بها .

فتحت عينيك وجدت صاحب المخبزة يمدك بقطعة الخبز، انتابك خجل، احمرت له وجنتاك ، فنكست عينيك الى الأرض ، فما كان منك الا أن شكرته على عواطفه الطيبة نحوك ، اعتذرت له عما بدر منك، ألحّ عليك في أخذ القطعة فأبيت. لحظات كنت تحتاز باب الحديقة العامة ، الحارس لا زال قريبا منه ، يبدو أنه قريب العهد بفتحه ، دخلت منكس الرأس ، منكسر العينين ، اقتربت من مكانك الذي تعودت البقاء به ترقب فيه من بعيد حركة رواد الحديقة ، لكن الوقت لا زال مبكرا ، فرأيت أنك غير راغب في الجلوس ، جرتك قدماك في الممرات الفاصلة بين القطع الهندسية الخضراء المكحلة بورود وزهور عطرت الجو وأنعشت المكان ، تساءلت بكل جوارحك.

— لماذا يا الهي ، لم تجعل حياتي شبيهة بهذه الحديقة ، سالت دموع حارة على خديك ، تركتها تنحدر طليقة طالما أحد لا يراها .. غسلت لك صفحة وجهك الذي لم ير عليه الماء هذا الصباح ، باقي الدموع انساب بين شفتيك من إحدى زاويتي الفم ، الطعام مالخ ملوحة حياتك ، هَمُّ الأمس وما قبله زحف اليك وقبض على أنفاسك ، كاد أن يخنقك ، شعرت بالضعف الشديد ، أدركت أكثر من ذي قبل أن

الصغير أضعف من الكبير ، سيما إن كان الصغير يتيم الأب مثلك ، يتبع أما ، تحيا تحت رحمة رجل اقترنت به لا يكن أدنى درجة من الحب لهذا الصغير ، ارتيمت كتلة على الأرض ، كل ما عرفته بعد ذاك أنك استيقظت بفعل حرارة الشمس التي ألهبت ظهرك ، وكادت أن تتوسط السملة.

أمل قوي راودك وأنت في طريقك الى البيت قبل منتصف النهار ، أن تجد البيت خاليا من زوج أمك ، تلتهم ما جادت به عليك ، غير أنك ما أن أدت بكرة الباب ودفعته لتدخل ، حتى امتدت يده القوية تجذبك من رقبتك النحيفة الى داخل الممر، والشرر يتطاير من عينيه ، والكلمات تخرج من فمه قنابل حارقة ، مصحوبة بضرب عنيف على الظهر ، وصفع على الوجه ، وركل متتابع :

— أنت ولد شرس ، قليل الأدب والحياء ، عديم التربية.

— يا أبي ، لم أعمل شيئا يسيئ الى أحد .

— اخرس يا كلب ، يا ابن الـ .. أنا أرفع مقاما ، وأشرف نسبا لأن أكون أبا لمثلك .

وتزداد الركلات والصفعات ، لم تبك لحظتها ، فالدموع احتبست في المآقي ، وازداد ضراوة وشراسة ، حملك بقوة بكلتا يديه ، وألقي بك كتلة فوق أديم الأرض الصلب ' لولا دخول أمك المفاجئ التي راعها هول ما رأت ، فارتمت كاللبؤة بكل ما في الأمومة من عطف وحنان ومحبة ، اختطفتك بكل قواها واحتضنتك ، وقف مذهولا ، خارت قواه ، لم يدر هل كان اندفاعها دفاعا عن نفسها، أم دفاعا عنك أنت ، الا أن ما تأكد منه يومها ، أن الأمومة قوة عظيمة هائلة ، تيار عنيف جارف يحتاج كل ما اعترض طريقه ، التقت عيناك بعيني أمك فكان يشع منهما وميض ، ونور شعرت أنه غمرك.

بالأمس والساعة تشير الى الحادية عشر عقب عودتك من المدرسة التي انقطعت عن ارتيادها لمدة ثلاث سنوات، وأنت تتناول طعام الغداء معها، قلت لها :

— منذ أيام لم أره، هل يخرج باكرا ؟

— من يا حبيبي ؟

— ذلك الرجل الذي ترغميني على أن أدعوه (أبي)، إني لا أرتاح اليه وأكرهه.

— سافر الى مدينة بعيدة، ربما لن يعود اطلاقا.

في تلك الآونة طُرق الباب، شملك خوفٌ ازدادت له نبضات قلبك، اقتربت من الباب وفتفت :

— من بالباب ؟

— ساعي البريد، هذه رسالة سلّمها الى والدتك، قد وردت اليها من المحكمة.

خرجت والدتك تعدو بالرسالة الى منزل الجارة - المعلمة - وعادت بعد لحظات قصيرة تعدو، واحتضنتك بقوة، وغمرتك بفيض من قبلات حارة .. دموعها الحارة بللت وجهك، وهي تنظر اليك بشغف وشوق، ولم تسمع منها غير :

— الحمد لله يا رب فقد خلصتني وأرحتني .. الحمد لله يا رب ..

بائع متجول

أمل قوي كان يراودني أن يمضي الصيف فأجد عملا حينما يحل فصل الخريف ، وقد انتهت مواسم العطل والراحات ، وعاد النشاط الى المؤسسات والمصالح ، لكن مضى الصيف وما زلت عاطلا عن العمل ، خالي الوفاض ، أتسكع في الشوارع كل يوم ، صباح مساء أبحث في لهفة عن عمل أقتات منه ، أستأنف يومي بدخول المقهى باكرا ، أرتمي على أحد المقاعد منزويا ، أروح ألثهم وجوه الداخلين بحثا عن إنسان أعرفه، أختلق معه أحاديث ذات أهمية ، بينما في دخيلة نفسي ألتمس منه قهوة الصباح ، ومن تلميحات غير مباشرة أرجوه مساعدتي ، في إيجاد عمل واخراجي من قفص البطالة .

إذا ما انصرف أحدهم وترك صحيفة يومية ألنقطها بسرعة ألثهم صفحاتها أو بعضا منها ، آخذ في تقليب صفحاتها وكأنني أتعرف على ما يجري داخل الوطن وخارجه ، وأنا في الحقيقة عصافير البطن الجائعة تدفعني الى البحث في صفحات الاعلانات عن مناصب عمل، أو وظائف شاغرة. وسرعان ما أرسل مطالب الى هذه المؤسسة أو تلك المصلحة، ما دامت الشروط متوفرة ، ويطول الانتظار ويطول ، والعصافير متمردة في بطني حتى اذا طالت الأيام وضاق بي صاحب المقهى أبدي رغبته في التخلص مني ، كلف أحد نُدله بتكسير فنجان عتيق، وهو يسمح طاولتي بعد انصراف أحدهم ، وراح يصرخ ويشتم متهمني بإدمان تكسير ممتلكات المقهى .. لأغادر خافض الرأس دون أن أنبس بكلمة، وأنا ألعن هذه الدنيا المليئة بالحقْد والشر.

لذا لا تستغرب اذا قلت لك إنه ما أن عرض على عم محمدي جاري مشاركته العمل حتى وافقت حالا، محمدي بائع متجول ، يطوف الأحياء الشعبية العتيقة ذات الأزقة الضيقة ، عارضا بضاعته المتمثلة في أصناف مختلفة من أقمشة غير مخاطة ، وما تحتاجه المرأة في زينتها . وضع الكل في عربة صغيرة ذات عجلتين مطاطيتين يدفعها أمامه ، عارضا الأقمشة على جانبيها ، مرتبا باقي البضاعة وسطا ، عمل مزدوج ، يدفع العربة ، ويمسح بناظريه المنازل يمينا وشمالا ، أعلى وأسفل ، بأعلى صوته مناديا على البضاعة ، مادحا جودتها ورخصها ، خيرني في عملي الجديد بين دفع العربة، أو مدح البضاعة والتغني بأوصافها .. واخترت المهمة الأولى . لامة بعض زملائه يومها على اتخاذي عاملا معه، بينما هو فقير مسكين في حاجة الى أعمال إضافية ، وبراءة وطنية قلب ردّ عليهم:

— حقًا ما تقولونه ، لكن أليس له الحق أيضا في العيش مثلي ومثلكم ؟
لم أرتح لهذا العمل كثيرا حيث كنت أعدّ نفسي لأصبح موظفًا اداريا كبيرا ، أو محاسبا ماهرا ، كنت في عملي الجديد أدفع العربة مُسدلا جفوني ، خافضا رأسي ، متجاهلا نظرات الفضوليين ، وما يدور بين الناس وخاصة بين أمثالي من الشباب ، من غمزات، وإشارات تخصّي ، بينما الألم الداخلي يمزق أوصالي من قهقهة أطلقوها متواصلة ، ولا أنسى عبارة فاه بها أحدهم ذات يوم :
— ثور كهذا اختار الى شغل الشيوخ .

عم محمدي ، سعيد في عمله بدا عليه ذلك من خلال عبارات التحية الحماسية والسلام الحار يوزعها هنا وهناك على هذا، أو ذاك، أو من خلال البسمات التي يجود بها على هذه الفتاة أو تلك السيدة ، وبين تحياته وسلامه

وبسماته كان لا يكف عن ترديد مقاطع لأغان شعبية بصوت جميل ولحن أخاذ ، ولا ينفك بين ساعة وأخرى يدفع علكا إلى فمه ويروح يلوكه ، كنت حصانا قويا أدفع العربدة أمامي ، أسير بها في خط مستقيم ، حيوانا طائعا لا أحتاج لسوط سيدي ، كلمة واحدة لا غير توقفي عن الحركة ، تلجمني : " قف يا ولد " ..

لم أكن سعيدا كنت أشعر بالوضاعة ، بالتقزز ، من عملي ومما كان يشعرني بالدوار حينما ألحه راح يلوك العلك بتلذذ ونهم ، بينما تنساب في جسمي نشوة وراحة وهو يردد مقطوعة فلكلورية ، أتخيله لحظتها شابا رقيق العواطف ، لطيفا كالنسيم العليل ، وما أن ينتهي من ذلك حتى أنظر إليه فأجده تحول الى حقيقته الأصلية : رجل نحيف الجسم أقرع الرأس ، جاحظ العينين ، مفتوح المنخرين ، كثر الحاجبين ، خشخشة لا تنقطع منبعثة من صدره ، ملابس رثة يرتديها ، لا ينفك بين لحظة وأخرى يحك ما بين ياقة قميصه ورقبته ، أو يدخل مسطرة من ناحية القفا ، يحك بها ظهره صاحبها معه لهذه الغاية ، وفوق هذا كله رائحة غير مستحبة تنبعث بالحموضة منه ، تغزوك على بعد أمتار قليلة .

الحق أنه أظهر لي ودًا كبيرا ، وعطفا راح يزداد يوما بعد آخر ، وأجاد علي بعد أيام بنصيب مالي لا بأس به ، ولم أفهم ما اذا كان النصيب أجرتي للأيام التي اشتغلتها ، أم تسبقة ، كاد لساني أن ينزلق مرات عديدة متسائلا ، غير أنني كنت أوجل ذلك خشية المغبة ، وفي اتفاقنا الأول ، لم نحدد كيفية الدفع ، ولا حتى مقدار الأجرة ، مشكلة كانت تقتلني وتلهبني ...

ما خطر ببالي اطلاقا معرفة ما يتحصل عليه من أرباح ، ما تطوع محمدي في ذلك ، الا أن الربح كان وفيرا دون شك ، والفائدة تتضاعف يوما بعد آخر ، وظهر جليا في إضافة أنواع أخرى من البضائع خاصة ما يتعلق باللبسة النساء الداخلية .

بمرور الأيام كان هذا الصنف من الملابس ينفذ بمجرد ما نطوف بعض الأزقة القليلة ، لا لنفاده من المتاجر الأخرى ، اذ أنه متوفر بكثرة في الواجهات ، بل منه ما هو أجود ، ولا حظت أن محمدي يرغب دوما الولوج في الأزقة الضيقة جدا القليلة المارة ، فما أن نجتاز المدخل ويصبح كعادته بصوته المعهود حتى تتقاطر علينا نسوة وبنات في نشاط تعلو محياهن الفرحة والسرور ، ويأخذن في تقليب هذا النوع؛ إلا أن المسكين وكأنه لا يقنع بهذه الجموع، فتتعلق عيناه بنوافذ الطوابق العليا التي راحت رباتها تمطره بوابل من التحية والبسمات ونظرات لاحظت أن وراءها معان غامضة بالنسبة الي ، بل منهن من تدعوه الى الصعود لعرض بضائعه عليها، ولا يمانع في ذلك ، لأبقى وحدي بطل المعركة أخوضها مع فتيات رحن يرميني بشتى أنواع الغبله والبلاهة ، ثم يصمتن انتظارا لما سيصدر مني ، مما يزيد من غضبهن ..

بمرور الأيام صار محمدي يجبذ أن ندخل زقاقا على الأقل ثلاث مرات في الأسبوع ، ويتألم كثيرا حينما أعارضه ، ما دام البيع فيه قليلا ، غير أنه كان يصمم ، ولا مفر لي من الطاعة و الاستجابة .

— يا محمدي ، تبارك الله ، أفي كل يوم بضاعة جديدة ؟ أحضر لي معك بعضا من الأقمشة الجديدة .

عبارة لا تنفك تستقبل بها امرأة حسبما يبدو في أواخر العقد الثالث من عمرها ،
محمدي كلما دخلنا أحد الأزقة ، ويغيب في جوف منزل ما يقارب الساعة ، ويعود ،
وبعض مما صعد به قد أعاده أحيانا الى العربية ، وأحيانا كثيرة قد يعود به ، أسئلة
كثيرة تدور في رأسي .

ذات يوم طرقت الباب عليه ، والوقت صباح كي نستأنف الشغل كعادتنا ،
طرقت الباب ، واعدت الطرق، ولم يفتح الباب وطار الصبر مني ، وما ملكت زمام
نفسي فارتيت بكل قواي على الباب ، فكان حطاما تطايرت لويحاته يمينا وشمالا ،
هرعت الى بيت نومه ففوجئت بشغورها ، ووقفت مشدوها حائرا ، ثم أعدت
البحث الى أن دخلت المطبخ ، فهالني ما رأيت ، كان مرتيا على بطنه ، وخيوط كثيرة
من سائل أحمر تدفقت منه ، ونفس ضعيف يتردد فيه ، وقلب يدق دقات كادت أن
تتوقف ، وبين الرجل في حياته، واليأس من الموت المحيط به حملته الى مخدعه ،
وأسعفته اسعافات بسيطة ودثرتة ..

وجدت في المطبخ ، بعض المأكّل ، لا تزال لم تنضج بعد ، وبعضها الآخر
اخترق على النار التي انطفأت من تلقاء نفسها وقد نفذ الفحم ، عثرت على عصا
غليظة جانب المدخل ما لاحظت وجودها سابقا ، لماذا وجدت العصا ؟ من
استعملها ؟ في أي شيء استعملت ؟ لماذا لم يكن الباب مفتوحا .. ؟ لست أدري .

لم يطل المرض بجاري غير أيام قليلة لا تزيد عن العشر ، ودبّ نوع من النشاط
في جسمه ، وعادت اليه بعض من الحيوية والنضارة ، غير أنه كان قد اعتاد على
البقاء في مخدعه لساعات طويلة ، فلم يشأ الا أن يستمر في هذا الوضع وكأنه ضاق
ذرا بعمله ، فيكتفي بالجلوس بعضا من الوقت أمام المنزل .

انغمست في عملي وتفننت في عرض البضائع ، ووجدت ألفة مع زبائني ،
مُدخلا أساليب جديدة في العرض وحسن الترتيب ، لم أكن مغاليا في الثمن ، مما
أكسبني زبائن جددا ، وكثرت الأرباح فضاقت العربدة الصغيرة بالبضائع المتكاثرة ،
فكرت أن نوسع العمل باستعمال عربدة ثانية أكبر حجما وأوسع مساحة يتولاها
بنفسه وأحتفظ بالعربدة الأولى ، على أن نوسع مجال البيع في أحياء أخرى ، ولشد ما
كانت دهشتي حينما عرضت الموضوع عليه ، انتفض غاضبا ، كأن مساً من الشيطان
أصابه ، لحظتها انتصبت أمامي واضحة وضوح الشمس أغذية لا زالت لم تُطه
بعد ، عصا غليظة بجانب باب ، شرحت له الفكرة ، بينت له الفوائد ، وافقني على
أن يختار أحياء جديدة ، بينما أجوب الأحياء القديمة كعادتي .

أثناء المناقشة رددت مرارا ودون وعي مني :

— حسنا ان كنت لا ترغب في العودة الى أحيائك العتيقة ، وزبائنك الكرام ، أنا
على استعداد لأخذ مكانك فيها.

مع الغروب نلتقي ، كلانا يراجع نشاطه اليومي ، يعد النقود ، يصنفها ، كان
يعود منها ، متعبا لا يكاد يقوى على الكلام ، وأعود ودملة جديدة تسري في
شراييني ، وعبر الأثير صوت رقيق يشنف الأذن ويغرب القلب لامرأة مكتملة
الأنوثة في أواخر العقد الثالث من عمرها ، انتقل الي برفقة عطرٍ أخاذ له
نكهة مميزة ، وجاذبية سحرية .. صوت يدعوني الى الدخول قائلا :

— دملة الشباب كنز ثمين ، كم أنا ظمآنة اليها.

ويخرجني من عالمي الوردي الرحب عم محمدي هاتفا :

— فيم تفكر يا بني ، أفى زبائنك الكرام ، أم في مستقبلك ؟

أخايد على شريط الزمن

اليوم أحد ، الطقس جميل ، السمل زرقاء . كنتُ على وشك مغادرة البيت في اتجاه المقهى الذي لا أذكر يوماً أنني انقطعت عن زيادته طوال عشر سنوات ، وأبي صاحبه إلا أن يضميني إلى زبائنه الأوفياء؛ بل إلى أصدقائه المقربين ، ولست أدري ما يربطني بالمقهى بالضبط أصحابه الطريف الذي ما لاحظت يوماً أن غادرته البسمة ، وزالت البشاشة عنه وما فرغت جعبته من قصص طريفة ، ونوادر مليحة ، وليدة الخبرة والتجربة ، يرويها على مر الأيام عن حياة الأولين والآخرين ؟، ولعل الذي أدهش سامعيه وربطهم به بحبل متين محكم لا تنفصم عراه تلك الروح الفكهة الخفيفة الساخرة من الأيام وما تأتي به من تغير ، وما طراً عليها، وفيها من تحول ، لم يؤثر فيه ، ثم هذه الحكم والنوادر والقصص الحلوة التي لا تخلو من عبرة وسخرية معا ، من أين يستمدّها ؟ ما البحر الذي يغرف منه ؟ أليس له نهاية ؟

ما هذه الذاكرة المطواع التي لا تخونه ؟ .. أسئلة كثيراً ما ردها أصدقائه على بعضهم وما عثروا على جواب لها ، إذ لم يتجرأ أحدهم على طرحها عليه ، أو أفلح في ولوج عالمه الداخلي ، والتعرف على شريط حياته الخاصة بمحاسنها ومساوئها .. بملاحتها وبشاعتها ، فكل واحد يتصوره في رسم ، ألوانه اختارها بنفسه حسب علاقته به ومعاملته له ، وما تخيله في باطنه عنه ، الكل متفقون أن الغموض يحيط به ، والقنامة تغلف حياته الخاصة .

حقا بالنسبة لي أعترف أنني فضولي ، والفضول سبب لي العديد من المشاكل مع الغير ، بل أحدث لي عداوات ، رغبت ألا تقع وفشلت في ازالتها ، ورغم ذلك أبيت الا أن أستمر في الفضول ، أرى فيه متعة لذيذة وراحة منعشة ، فلم أشعر بالخيبة والخذلان حينما نهرني الشيخ صالح صاحب المقهى ذات يوم وقد انتهى من سرد حكاية طريفة تعود الى عصر موغل في القدم ، وختمها بعبارة ما انفك يعيدها كلما انتهى من رواية قصة أو سرد حكاية : " الحياة عبرٌ يا أصدقائي " ، بادرته لحظتها :

— ألم ينفد هذا الرصيد الضخم من المعرفة ، فكل يوم لون جديد ، فأنت والله مكتبة متنقلة ؟

— كان أولى بك أن تنهل من البحر .. وأن تتمتع بمحتويات المكتبة .. ولا تبحث أيها يا ولدي عن المصدر .. ونفاد المحتوى .. أجابني.

مسحة من الحزن والالم عميقة عمق حياته ظهرت من خلال مقاطع حديثه لي ، ولكن البسمة التي كانت نهرا صافيا كريما لا يكف عن العطء ، وتاجا جميلا يبعث الدفء والحنان في القلب والنفس تجعل السامع اليه يسبح في النهر ، ويكلم رأسه بالتاج . ما ربطني بالمقهى ، ربما تلك اللوحات الجميلة الجدارية ، وقد أتقن فنانونها استخدام الألوان، فعبروا بها أصدق تعبير ، وأبدعوا في رسم مواضيعها أيما ابداع ، تلك لوحة تترأى لك في آخرها سلسلة جبال كللتها غابات كثيفة من أشجار تحيط بها غلالة رقيقة بيضاء ، توسطتها قمة عالية استقرت عليها ثلوج في تاج فضي لماع ، في سفوحها امتد نهر رقراق راح يمتد في أبهة وخيلاء ، كطوق من الزهور النضرة وُضع على جيد عاجي .. حرسه شجرات على جانبيه راحت

تتطاول بأعناقها وامتدت الى بعضها ، واندجت ، وامتزجت شكلا ومحتوى حتى تبلورت في شجرة زيتون عملاقة ، احتلت ما يقرب من نصف اللوحة ، انغrust جذورها في الأرض وامتدت أفقيا وعموديا ، والتفت في حنان حول بعضها أغصانها الحبلى بجبات الزيتون .

في أعلاها انسان لم يبد غير رأسه ينفص الأغصان ويخلصها من عبئها الثقيل ، في أسفلها إنسان آخر انكبّ على جمع الحب . كنت أقضي الساعات الطوال قابعا في مكاني بالمقهى لا أترشح عنه ، ونظري مركز على هذه اللوحة بالذات دون غيرها ، عاصرا مخي في فك طلاسمها ، في حل رموزها ، أو هكذا بدت لي أنها لوحة ذات طلاسـم ورموز .

لا أنسى ذات يوم بعد تدقيق النظر في أجزائها، وفي تتبع دروب الريشة ومخلفاتها كيف توترت أعصابي، وخاطبت أحد الأصدقاء لا يعدم مستوى ثقافيا :
— لاحظ جيدا ذلك الانسان في أعلى الشجرة ، هل بإمكانك اكتشاف رجليه ؟
ركز الصديق نظره بقوة للحظات ، ثم ردّ علي بغضب :

— يظهر يا صديقي ألا شغل لك غير التحديق في اللوحة ، فماذا يهـمك منه ومن رجليه ، بل من اللوحة كلها ؟

وثبتُ نظري أسفل الشجرة : نصف انسان ، في حركات لولبية انصرف الى جمع الحب ووضعه في سلال ، أين رجلاه ؟ هل انغرستا في الثرى ؟ أم بترتا ؟ أم غير هذا ، وذاك ؟ ربما لم يبد للناظر ، بحكم أن الانسان ككل لونه لا يختلف عن التربة كأنهما مادة واحدة . لست أدري ، إحساس غامض ، وشعور لا أدري ما هو ، أشعورُ بالحب والتقدير، والجلال للرجلين ؟ أم شعور بقوة الشجرة التي استولت

على كياني ، وجذبتني اليها ، وكادت أن تدجني فيها ، أن تخيلني الى غصن من أغصانها السمرء ؟

في هذا الصباح ، وأنا على وشك مغادرة البيت ، رنّ جرس الباب الخارجي ، هرعت فاتحه ، ففوجئت بسائق سيارة أوقفها غير بعيد ، وطلب مني أن أصاحبه على جناح السرعة الى منزل الصديق الشيخ صالح ، حيث يعاني من سكرات الموت ، فتملكني خوفٌ شديد ، كيف حدث هذا بسرعة ؟ الليلة السابقة فقط افترقنا في آخرها ساعة من الليل وهو في تمام الصحة .

في طريقي اليه وأنا داخل السيارة ، سرح بي الخيال بعيدا ، وراح يصور لي منزل هذا الرجل الذي يملكه ، أهو في موقع مقهاه الذي يتوسط شارعا هاما من شوارع المدينة ، ما يفتأ مزدحما بالمارة ، لينعكس الازدحام على المقهى الذي يستقبل يوميا أعدادا ضخمة منهم ، ملبيا رغباتهم من مشروبات على شتى أصنافها ، ولعل العمال الخمسة الذين يشتغلون فيه فترة الصباح ، كي يخلفهم عمال آخرون يماثلونهم عددا في الفترة المسائية في عمل مستمر ، يجعل أي انسان لا يشك أن الدخل وفير جدا ، وبالتالي صاحب المقهى يعد من الذين أنعم الله عليهم بالرزق الكثير، وبالمال والثروة ، وهذا ما كان يدور بذهني ، فبعد دقائق سأكون في منزل فاخر وسط حي حديث ، تربع في موقع لم تبخل عليه الطبيعة بمنظرها الساحرة وهواها العليل ، وشمسها الفضية ، يا ترى من سيفتح لي الباب الخارجي ؟

فجأة أخرجني من عالم الخيال صوت العجلات التي فرملها السائق ، وقد كاد يصطدم بسيارة شحن ضخمة قادمة من الاتجاه المعاكس ، وانتظرت أن يدخل بي

الأحياء العصرية ، لكنه ضغط على المحرك في اتجاه مستقيم، وخاب ظني حينما
انعطف صوب حي قصديري أعرفه كثيرا ، ولم أتمالك زمام نفسي وهتفت به :
— يبدو أنك أخطأت الطريق يا صاحبي ..

—

دخل بسيارته في درب ضيق جدا معبد ، امتلأت حفره وحُلا وماء عفنا،
امتدت على جانبيه أكواخ "كرطونية " وقصديرية ، انتشر أمامها وحولها صبية
ارتدوا أسعلا بالية ، حفاة الارجل ، وجوههم كانت مأدبة شهية لذيفة للذباب ،
فانصرف يلتهم منها ما استطاع ، تجمعت نسوة وبنيات حول غدير ماء ، رحن
يغفرن منه في جلبة وصراخ ودفع بالأيدي والأكتاف ، توغلت السيارة بعيدا ، ثم
وقفت ألام كوخ منعزل راحت جماعات من الرجال تدخل وتخرج منه ، لم أصدق
أنني وصلت ، لكن أحد الرجال أشار إليّ بالدخول ، وقادني الى الداخل ، حيث
وجدته طريح الفراش ، فوق سرير خشبي أكل حديد الصدأ ، أصابني ذهول ، وما
صدقت أن المريض صديقي ، ويسكن كوخا تصفر الرياح داخله بحرية من فجاجة
الواسعة ، كوخا انعدمت فيه أبسط شروط الصحة ، وافتقد الماء والنور، بل الزوجة
والأبناء ، أرجل كهذا على فراش الموت يحتضر وليس بجانبه غير أصدقائه قلائل ؟
أين الأهل ؟ هل افترق الى الاقارب ؟ أسئلة دارت بخلدني وأنا أمسح بناظري
محتويات الكوخ ، قبل أن أجلس قربه ، أدرك سبب ذهولي وتساولي ، وتركني دون
أن يقع على حبل تفكيري ثم هتف بي بصوت يرجوني الاقتراب منه ، بعد ما أواماً
للحاضرين بالخروج :

— يظهر أنك غير مصدق ما ترى يا صديقي . حقا ما تراه من الأمور التي تحريك ، بيد أنه الواقع، فأنت كما لاحظت ، أني في حالة خطيرة جدا صرت عاجزا على التحرك من مكاني ، مرضي ليس وليد الساعات الاخيرة كما يتبادر إلى ذهنك ، وانما هو المرض الخبيث لازمني سنوات عديدة ، وكان النصر حليفي في كل جولة يشتد علي فيها ، لكن يا صديقي في هذه الجولة شدد علي بضرباته القاضية ، وقضى على كل أمل لدي في الانتصار عليه . ها أنا أرتعد خوفا من الضربة الاخيرة.

ولا ريب أنك تفاجأت حينما ناديتك هذا الصباح ، وأنت بالذات ، وليس غيرك من أصدقائي الكُثر. خزانة المعرفة لدي التي استمد منها روائي وتحفي الأدبية ، كنت شحيحا عليك في الاجابة خلال ذلك اليوم . الواقع يا صاحبي أني أجلت الاجابة الى أجل آخر ، وقد حان الأجل ، وإن ما أدى بي الى طلبك ما لاحظته عليك المرات الكثيرة من استغراقك في تأمل لوحات المقهى الجدارية ، والإبحار ، والغوص في الاعماق ، والصيد ، من لوحة احتلت زيتونة مساحة فسيحة منها .

حان الوقت أن تعرف .. وليس في نيتي أن أطلعك على حياتي بأجزائها ، وانما على بعض الجوانب الهامة والتي شكلت بالنسبة لي معالم خطيرة كان لها أكبر الأثر على مجريات حياتي ..من عائلة فلاحية فقيرة المنحدرت ، ترعرعت وقضيت شبابي في خدمة عائلة ثرية قريبة لي ، كما ترعرع أبي ، وقضى شبابه ورجولته في خدمتها .نغادر كوخنا على صياح الديكة ، ونعود والليل أرخى سدوله على الكون

، وحطّ بكلّكـله على الأكواخ المهترئة التي كانت تعصف بها الرياح ، وفي أطرافها
كان كوخنا يرتعد وكأنه صبي لم يدرج بعد .

في تلك الليالي القائمة كنا ونحن عائدين نهتدي بأضواء قصر العائلة ، وقد
انتشرت أشعتها ، واتسعت لتضيء أكبر مساحة ، نعود يا صاحبي ، ووالدتي وأختي
الكبرى التي تكبرني بعامين لم تعودا بعد من القصر، وقد أمضيتا به يومهما في
خدمة العائلة ، وشئت الارادة الالهية أن تنقذنا ، فكان الموت رحيمًا بأمي ، حيث
توفيت مسلولة ، وتزوجت أختي بأحد الفلاحين في إحدى القرى الجبلية ، وهبت
أيامها رياح الثورة المباركة ، انضممنا إليها أنا وأبي ، كانت الثورة سيلا جارفا طهر
الأرض من العفونات ، وجرف معه كل القاذورات ، وامتد السيل العرم الى القصر
الذي ينضح بعرقنا ، وينبض بدمائنا ، فيُعدم الأب لانهيأه للمستعمر ، ويتشتت
من بقي من الأسرة .

بعد أربع سنوات ، سقط أبي شهيد الواجب الوطني ، أرسلتُ أنا في بعثة
دراسية الى دولة شقيقة لمواصلة الدراسة ، حيث امتدت الى الخمس سنوات ؛ عدت
بعد شروق شمس الحرية على بلادنا ، عدت وعزيمة فولاذية في كياني تدفعني الى
جهاد أكبر ، تقدمت لخوض المعركة ، ففوجئت بأن سلاح عتيق جدا كما قيل لي
يَوْمها ، عرضت السلاح على عدة جهات ، تقدمت به الى أكثر من مؤسسة ، اتفق
الكل على عدم صلاحيته ، سلاح كان لغة الضاد ، سلاح الخزانة ، أو بالأحرى
المكتبة المتنقلة التي أذهلت عقلك ، وأدهشت غيرك ، بدا لأولئك أنها عتيقة وغير
صالحة لهذا العصر ، لم أياس ، وعرضت السلاح مرة أخرى ، وكدت أن أنجح ، لولا
هذا المرض اللعين الذي أسقطني من الامتحان الى الأبد ، قضى على كل أمل لدي

أيامها ، وثبت بالأشعة أنني مصاب بالمرض الذي أودى بحياة والدتي، وتفرغت بكليتي الى المرض والوقوف أمام هذا العدو العنيد بشجاعة ، وانحصر شغلي في التردد على العيادات والمستشفيات و الكشف والفحص وطلب النصح من أرباب الطب ، قوتي الدواء ، وأملني ايقاف الداء ، أولاد الحلال كثيرون ، أقرضوني ، ساعدوني بالمال ، ثم أكرمتني الثورة بالمقهى .

من غير شك أنك احترت أمام التناقض بين مدخول المقهى ، والبؤس الذي أعيش فيه ، والواقع أنه يؤس لرجل مثلي ما فرغ من تسديد ديونه الضخمة التي اقترضها لعلاج نفسه الا منذ حوالي الشهر ، وكأن الله أراد بي خيرا فشأه أن التحق به الا وأنا بريء الزمة من أموال الناس ، والمرض بقي صامدا ، قويا ، عملاقا، وها أنت ترى أنني انهزمت .

ما أسفت لشيء يا صديقي في حياتي مثل أسفي على تلك الزيتون الضخمة الخالدة خلود بلادي في أعماق التاريخ ، تلك الزيتون الموغلة في العراقة والقدم ، والراسخة بجذورها في الأعماق ، تمنيت أن ألفظ أنفاسي الأخيرة تحت جذعها الذي تشرب من عرق ودمله جدي وأبي وأمي وأنا .

مشهد رسخ في ذهني ، واحتفظت الذاكرة به على مرّ السنوات ، تلك هي دموع أبي الحارة المنحدرة على وجنتيه وهو يروي لي قصة الزيتون العظيمة ، غرسها جدي الأول لأبي في قطعة أرض كان يملكها أرتا، تلقت الشجرة عناية لم تحظ بها غيرها من الأشجار الأخرى .. ونمت وامتدت أفقيا وعموديا، وتصدرت مدخل القطعة التي حولها جنة فيحاء ، جمعت أحسن ما تجود به الأرض المعطاء ،

تحلبت أفواه الطامعين في الجنة ، وتكالبوا عليها ، وتفننوا في حيل أخذها ،
استعملوا أبشع الوسائل ، ثم تمّ لهم ما أرادوا بموت الجد في ظروف غامضة.
انضمت القطعة الى غيرها من القطع لتتوحد في أرض شاسعة كان
صاحبها يُلهب ظهورنا فيها بسوطه الناري من على ظهر جواده الذي كان يجول به
في المزرعة الشاسعة.

سقينا أنا وأبي الزيتون ، فهي مدينة لنا بحياتها وعظمتها وخلودها ، لا
تندesh عندما أقول لك إنني أزورها كل شهر ، لأقيم ندوة أبادل الكلام وأتجاوز
تحت جذعها مع أجدادي وآبائي ، والصبر بحيل على حينما أعود ، سيما حينما
صرت في المقهى .. والشوق اليها أسرني ، فطلبت من رسام عبقري أن يصحني الى
المكان ، ثم يرسم المنظر على الجدار. كانت اللوحة أكبر جانب منى حياتي يا
صديقي.. وبإتمامه للعبارة الأخيرة أسلم الروح.

حينما خرجت من الكوخ أبلغ الرجال المتجمعين خارج الكوخ خبر وفاته
، كان آذان الظهر يغمر المنطقة فيزيدها خشوعا وجلالا ، ومن بعيد كانت الحقول
والمزارع ترتدي حلة خضراء جميلة ، ووقفت الورود والزهور ضاحكة وثنورها
الرقيقة تردد سمفونية حلوة وهي تنظر الى الكوخ .

لقاء في العيادة

منذ شهور أربعة ، وفي مساء أحد أيام شهر جانفي الذي يطول ليله ويقصر نهاره وتكثر في سمائه السحب السوداء ، كنت مستلقيا على ظهري أطالع كتابا طبيا . بينما كنت منهمكا في التهام السطور ، فجأة أوقفني نوع من المرض كان المؤلف يشرح أعراضه وكيفية الإصابة به .. ألقيت الكتاب جانبا واعترتني موجة عارمة من القلق وتوتر الاعصاب .

كان علي ابتداء من تلك اللحظة أن أعد القوة لمواجهة معركة قادمة بيني وبين المرض ، ولا أدري من منا سيكون له الغلبة ، ذلك أنني فيما مضى كنت قد أصبت بمرض " سوء الهضم " وقد سلبني متعة الاكل ، وأغلق عيني على مآكل كثيرة اشتيتها ولا أصبر عليها . وقد حذرني الأطباء يومها مغبة استمرار أكلها .. وأملئ كل منهم نصائحه علي في قائمة طويلة وعريضة يمنع هذا النوع، ويحلل ذاك ، مع ذلك قد داخلني شعور سخييف يقضي بأن أتجاهل هذه الاوامر وتلك النصائح . كيف أعمل على هداها وفمي يسيل لعابا أمام قصعة الكسكس ، وعينيائي تجحطان لحظة رؤية قصعة " الشخشوخة "، حاسة الشم تقودني مرغما الى حيث الشواء اللذيذ ، أطرق الابواب ولا أفيق من المخدر الساري في جسمي الا على صوت صاحب المنزل يستوضحني فأففق حينذاك مدركا أنني أمام بيت غير بيتي .

بينما كنت أطالع موضوع " سوء الهضم " في الكتاب متتبعا خطوات مؤلفه في تعريف المرض وأعراضه ومضاعفاته ، سرت رعدة عارمة في جسمي ، اذ أنني ألفت

هذه الأوصاف تنطبق علي تماما ، كان علي أن أختار : إمّا تجاهل المرض، واعتبار نصائح الاطباء لي أوامر سخيّة ، وإمّا ان استعد للمعركة وأواجه المرض بأسلحة أنا مكره علي حملها . وبعد تفكير لم يدم طويلا ، رجح اختياري على الطريقة الثانية ، على أن تكون البداية صباح الغد.

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل عندما أحسست بأوجاع حادة في منطقة البطن ، سكاكين حادة تقطع أحشائي ، لم ألبث أن وجدت نفسي أعدو تجاه دورة المياه أتقيا ما تناولته في هذه الليلة ، بعدها وجدت نفسي جالسا في الغرفة أحدث نفسي وأمنيتها بأن هذه الآلام لا شك وقتية تزول بعد حين . تعلقّت بهذه الاماني فيما مضى كثيرا ، الا أنني شعرت هذه المرة وكأنّ روحي تسقط في هوة سحيقة من اليأس والألم، ذلك أنني عشت طوال سنوات حياتي معتزا بكرامتي الى حدّ أدى بي الى أن أبدو على الدوام صاحب أبهة ووقار ، متظاهرا بالصحة وقوة العضلات والاناقة المفرطة والاعتزاز بالنفس ، لم أهضم فكرة الاعتراف بالمرض والرضوخ لما أقره الأطباء .

الهزيمة مرّة أمام موظفي مؤسستي وهم يروني مغادرا مقر الشركة، الاعتراف انهزام ، تراجع الى الوراء ، معناه تقاعد يعقبه الموت البطيء ، معناه عجلة الزمن بالنسبة لي ستتوقف . في تلك اللحظة أحسست برعدة من الذعر والهلع تسري في كياني ، تهز أعمق أعماقي .. لم أذكر طوال سنوات الوظيف شيئا من المال، رصيد حسابي الخاص على الدوام لا يحمل الا دنائير قليلة ، لكنني تذكرت لحظتها إدارة الضمان الاجتماعي ، هي بدورها ستساهم معي بنصيب ، إلا أنه لا يكفي وسأبقى محتاجا لكمية أخرى ، لم يكن لدي على ظهر البسيطة الا هذا

المسكن الذي آويه منفردا والمكون من غرفتين وقاعة للجلوس وحمام ، مسكن قابع ضواحي المدينة على جانب طريق مؤدٍ الى أحد الشطوط الجميلة المزدان بمركب سياحي رائع .

لا يضم البيت من الأثاث الا بعض الخزائن وأسرة وطاولات عتيقة ورثتها عن جدي الذي كانت هوايته اقتناء هذا النوع ، فكرت أن أحملها الى أحد الاسواق الشعبية بالمدينة لتباع هناك ، غير أنني توقفت عن هذه الفكرة ، فما يماثلها من أثاث جديد لا يكفي ما أحতاجه ، فما بالك بأثاث قديم تعاقبت عليه عشرات السنين ، فلما برزت فكرة بيع المنزل في خاطري شعرت بدوار انتابني وظلام اعتراني فأسرعت لأطارد الفكر.. راجعت سجل أقاربي ، لم أعثر الا على عم لي هاجر الى أوربا في الاربعينيات، انقطعت أخباره منذ أواخر الخمسينات. أما أصدقائي كانوا كثيرين بعد تولي المديرية العامة للشركة ، غير أن التفاهم حولي لم يطل إذ انصرفوا عني منذ أمد بعيد دون أن يشرح لي واحد منهم السبب ، رجحت أن ابتعادهم كان ناتجا عن عدم الرضى عن غير مشاركتهم مغامراتهم في نواديهم الليلية .. متهمين اياي بالتوقع والانزواء ، بل حتى الجنون ربما ، واحد فقط .. صديق وحيد ثقني به كبيرة فكان صديق الطفولة ..

كنا نتخاصم ونبتعد عن بعضنا ثم سريعا ما نتصالح وننسي في لحظة واحدة ما كان بيننا خلال التلاقي ، براءة الطفولة تغمرنا ، تشدنا اليها رغم مرور عشرات السنين ، تلفنا بسماحتها .. لم ألتق به منذ خمس سنوات ، آخر لقائي به في مكتبي وقد جاء يتوسل الي باسم الصداقة والطفولة أن أساعده بقليل من المال ليلم مراسم الزواج ، كانت حالتي المالية يومها أحسن مما عليه الآن باستطاعتي مد يد

العون له .. اعتذرت بلطافة ، بمبررات كنت ماهرا في حبك خيوطها ، اقتنع راضيا عن صدقي واخلاصي له ، راسلني بعد لقائنا ذاك ما يربو على الأربع مرات .. في كل خطاب حدثني كأني أمامه .. شرح لي كل كبيرة وصغيرة عن حياته .. استشارني .. كان طيب القلب لم يحمل حقدا ، لم يفكر في الجفاء .. يصلني خطابه، أفضه لحظة وصوله، مارا على سطوره مرورا عاجلا لا تستوقفني منه عبارة أراها كفيلة بالاعتبار .. لا زلت أذكر خطابه الأخير وقد ألقيت به في سلة المهملات بعد أن مرّفته دون أن أفتحه .. وما كلفت نفسي مشقة الرد عن أي خطاب من الخطابات الأربعة.

في العيادة قال لي الطبيب بعد إجراء فحوصه ، وتحليلاته التي استمرت زهاء ساعتين :

— مرضك الذي تشكو منه في الحقيقة ليس خطيرا ايها الصديق .. بيد ان علاجه يستدعي منك صبرا طويلا، وعلى كل ليس من اختصاصي وسأحيلك على أحد الأطباء النفسانيين .. ثم ناولني قسيمة معنونا على ظهرها اسم الطبيب وعنوانه.

لم أعط فرصة للزمن كي يمر ، فتوجهت صباح اليوم التالي الى الطبيب النفساني والقسيمة مرشدي ودليلي .. في المدخل التقيت بفتاة، أو بدت لي أنها فتاة تلف جسمها بمئزر أبيض ناصع يبعث الأمل في النفس الانسانية، شبيه بذلك الطائر الجميل الحمام الذي جعلوه رمزا للمحبة والسلام تفيض أنوثة وجمالا ، استقبلتني والبشر يعلو محياها .. قادتني الى قاعة الانتظار الخالية التي لم يدلفها غيري ذلك الصباح.

بينما أنا في وحدتي كانت تنهشني الحسرة والألم .. الحسرة على سنوات العمر .. سنوات ذهبت ولا رجعة فيها ، ما جنيت من حصاها غير هذا المرض الخبيث الذي أَلَمَّ بي .. كنت تائها في صحراء الحياة أسير دون التوقف قليلا بغية الالتفات الى الوراء .. الى ما يحيط بي .. كان الوجع والوجه القاسي من الحياة في تلك اللحظة يسربلي .. مخالب الحياة تمزقي ، تنهشني فلا أرى منها الا هذا الوجه البشع .. وجه عجوز هرمة شحطت تثار لشبابها .. في تلك اللحظة اقتربت مني .. جلست قبالي بهدوء .. صوبت نظرها الى .. كانت على جانب كبير من الجمال ، طويلة القامة ، عاجية الجيد ، ناصعة الجبهة ، سوداء الشعر حتى كأن الشاعر يقصدها بقوله :

دعت خلايلها ذوائبها **** فجئن من فوقها إلى القدم
تحدثت بصوت ناعم رخيم وخيط من الحزن يمتد الي عبْر صوتها .. كان كلامها لا ينم عن تكلف أو اصطناع . كلامها طبيعي .. الصدق من معاله.
لم أكن جميلا ، ولكني كنت خلابة في حديثي .. جذابة في استماعي .. كنت أتحدث اليها فيخيل اليها أن لا أحد يحسن فن الكلام غيري .. كانت تسمع وعيناها لا تفارقان عيني .. تحدثنا في مواضيع عدة ، من صراع الانسان مع الحياة .. الى تفاهة الوحدة والعزلة للإنسان والرهبة في مسرح حياة قاسية لا ترحم.
كنت أول الداخلين الى الطبيب وقد حضر .. رحب بي أجمل ترحيب .. وضحت له ما أعانيه من كابوس مرض مرر عليّ حياتي .. شرحت له حياتي الخاصة .. علاقتي مع الغير .. لم يُملِ نصائحه علي كغيره .. بل حدد لي مواعيد اخرى أولاهها بعد يومين .. ودعت الطبيب.

وراء الباب كانت تقف بقامتها الهيفاء .. روح البراءة تشع منها .. قالت :

— هل حدد لك الدكتور موعدا آخر؟

— نعم ، بعد يومين ، سأحضر كالיום قبل مجيء الدكتور.

توقف كلانا في مكانه لا يبرحه .. تسمرت نظراتنا .. كان قلبي يخفق .. صدرها البارز يعلو ويهبط .. لم نفق من هذا الحلم .. بل من الشرود الا على صوت جرس الدكتور يطلب مريضا آخر، مدّ كلانا يده للآخر وضغط .

كنت في نحو الأربعين من عمري .. لم أعرف معنى الحب .. ولم أذق طعمه ، وما خفق فؤادي لامرأة قبل هذه .. لقلات كثيرة تمت بيني وبين بنات حواء ، كانت لقلات عابرة هدفها اشباع الجسد لا غير، اشباع الروح لم أبحث عنه .. لم تدخل حياتي واحدة تغزوني بأنوثتها ، تحتويني بحنانها ، تشبعني بهواها، أمضيت قرابة الأربعين عاما ألث وراء الوظيفة ، أكثر من عشرين عاما كنت أحترق كالشمعة طلبا للمعرفة ، ما أن أفوز بالدرجة حتى أبدأ المسيرة من جديد وراء غيرها ، واستقرت بي الرحلة أخيرا كمدير عام لإحدى الشركات.. انقطعت الصلة بيني وبين والدي اثر مغادرتي التراب الوطني قبيل الثورة في بعثة دراسية الى الخارج .

بعد عودتي من الدراسة مباشرة توجهت رأسا الى مسقط الرأس ، والقلب يخفق الى لقاء الوالدين ، لقاء الأهل والأحباب ، يا لهول ما رأيت وما سمعت . حطام منازل تناثر هنا وهناك لا يسكنه غير البوم، وليس بالبعيد منها انتشرت بعض الأكواخ تعبت بها الطبيعة ، أوت اليها بعض الهياكل البشرية . وعلمت أن والدي استشهد وهو يؤدي واجبه الوطني ، والوالدة لم تمكث الا القليل بعده ، فوافها

الأجل المحتوم ..ومن تبقى على قيد الحياة من أهل وأقارب وأصدقائه ، كل مضى الى غايته.

عدت من يومها الى المدينة وقطعت عهدا على نفسي ألا أعود ، وفي العودة الى مسقط الرأس ذكرى ، وبعض الذكرى ألم.

كنت أستعيد بمخيلتي قامتها الهيفاء ، كان فكري مضطربا لحظتها ..موزعا بين القسوة والشدة التي ولدت في نفسي ضروبا شتى على مرّ الأيام من كبرياء مشوب بالقسوة والأنانية والغرور ، وبين خيط رقيق أخذ يدغدغني منذ ذلك اليوم ، خيط من نور يحمل شعاعه رقة ، حنانا ، لطافة وسحرا ، هل حقيقة ذاك هو الحب ؟ لأول مرة شعرت اني أصبحت لا أعيش في جو هادئ ، وحية راكدة ، رأيت جيوش العزلة والكآبة والضجر تتقهقر فارة الى غير رجعة ، ليحل مكانها ذلك المخلوق الملائكي ، الحياة دخلت بيتي ، حركة متواصلة ، نشاط غير معهود ، كنت أبتسم ، أنهض ، أروح في البيت وأغدو ، أخرج من هذه الغرفة ، أدخل تلك ، حقنات جديدة من الحياة انصبت في عروقي خلال ذلك اليوم وما تلاه .

انتهت فترة الانتظار القاسية على قسوة الموت المرتقب لأجد نفسي أسرع الخطى صوب العيادة بغية مقابلة الدكتور في الموعد الثاني .. الساعة السادسة والنصف صباحا عندما ضغطت على الزر ، أطلت بطلعتها البهية والابتسامة تاج على شفتيها ، قادتني بعد تحية الصباح الى قاعة الانتظار ، جلست قبالي كلمرة السابقة ، تحدثنا كثيرا وعرفت منها ، أنها أرملة مات عنها زوجها الشاب منذ سنتين نتيجة حادث طريق بعد زواج دام حوالي ثلاث سنوات .. ثمرته ولد وبنت ، تعمل

في هذه العيادة منذ العامين على اعالتهما ، لم تتزوج مرة أخرى وقد رفضت طلبات كثيرة في ذلك .

قال لي الدكتور ذلك الصباح :

— بواذر الشفاء تلوح عليك ، ماذا طرأ على حياتك في هذين اليومين ؟
طلب مني أن أعود بعد أربعة أيام ، لا بعد يومين ، على أن أتبع الاسلوب الذي سرت عليه طوال اليومين ، كانت تنتظرني بفارغ الصبر لتسلمني بطاقة عليها عنوان اقامتها . يوم السبت الماضي ، فغر بواب الشركة فاه دهشة عندما بادرت به بتحية الصباح وأطلت الوقوف معه مستفسرا أحواله ، مستوضحا حياته الخاصة .. حياة الأبناء وسير دراساتهم ، حاول أن يطوي في صدره ما دار بيني وبينه من أحاديث ، ما استطاع الى ذلك سبيلا فما أن رأى أول موظف يدلف مقر الشركة حتى هرع اليه يرفه الخبر، بعد لحظات كان الخبر لدى الجميع .

كانت الدهشة أقوى عندما كنت أدخل المكاتب وأضحك بملء فمي، أحداث ذاك الموظف ، أضحك هذا ازدادت الحيرة ، لم يفهموا السبب .. كان تحولا غريبا لديهم . انقشعت الحيرة في منتصف النهار والكاتب العام يوزع بطاقات الدعوة لحضور الحفل العام بمناسبة زفافي .

في المساء ، والفرقة الموسيقية تطرب الحاضرين ، كان الدكتور المعالج يضحك مازحا ، طالبا مني أسباب انقطاعي عن العيادة طوال الأيام الأخيرة.

قمار في 17 - 5 - 1975

المأساة

تعود الناس صباح كل يوم جمعة طوال خمس سنوات أن يروا شابا في العقد الثالث من عمره يدلف مقبرة البلدة ، منكس الرأس ، منفوش الشعر ، شارد الذهن ، لا يستقر نظره الا على قبر معين يتجه اليه . في العالم الأول اشتد العجب لدى البعض وهم يرونه يقبل ثراه . دفع الفضول بأحدهم الى قفز سور المقبرة للاطلاع على ما يقوم به ، للاستماع لما يتفوه به ، كان في اقترابه يسير الهوينى حتى لا يشعر به ، يقطع عليه خلوته ، يحول بينه وبين ما يقوم به .

كان يقبل التراب قبلات محموعة ويبكي بكاء مرا تقشعر له الأبدان وتهتز له النفوس ، دموع مهراقة يسكبها على القبر ، يصرخ تارة بأعلى صوته ، يتكلم تارة أخرى كلاما أكثره غير واضح ، لا يفتأ بين لحظة وأخرى أن يهدأ ، أن يخيم السكون على المكان ، وكأنه فقيه ذو مهابة وإجلال ، جيء به الى أحد القبور يؤدي بعض الأذكار، مكتفيا بتحريك رأسه ، ثم لا يلبث أن يعيد الكرة من جديد ، فازداد الفضولي حيرة، كمن وراء أحد القبور الفخمة العالية الجدران يتابع المشهد ، أفلح في التقاط بعض العبارات.

— ظلمتك يا أمه. أسأت اليك شرّ اسلاء ، أتهمتك أبشع تهمة ، ما أنت الا أم شريفة ، كريمة النفس ، أبيت الا أن تضحي من أجلي ، من أجل أخويّ ، أفنيت عمرك في سبيلنا ، عملت كل ما استطعت لإسعادنا ، أكثر من عشرين عاما وأنت كالوردة تعطينا من أريجك الفواح بينما تذبلين ساعة بعد أخرى ، كان بإمكان هاته الوردة أن تحيا لسنوات اضافية رغم ذبولها ، أنا المجرم القاسي الذي لا يرحم ،

سارعت بإلقاء الصاعقة عليك دفعة واحدة ، فكانت النهاية، الموت ، الراحة الأبدية ، حياة العدم لنا نحن الصغار ، ساعيني يا أمه ، أنا قطعة منك عزيزة عليك ، تذكري انك دست قلبك ، أحرقت أعز أيام شبابك من أجلنا ، أشعر بالذنب يعذبني ، يمزق أحشائي ، كلما أطعم أخويّ ، كان رضا ينظر الي ، يحادثني يعذبني بسؤاله التقليدي : أين أمي يا أخي ؟

بالأمس صباحا ونحن نحتسي القهوة سألني سؤالاً - ليته ما سألني - ومن حقه أن يسأل ، ولتعلمي أن يوم وفاتك كان غائبا في المخيم الصيفي ، لما عاد وجدني باستقباله على قارعة الطريق ، بادرني بعد السلام والتحية :
- أمي أوصلتني الى الحافلة يوم سفري الى المخيم ، ودّعني بقبلات حارة ، لا زلت أذكر حرارة الوداع ، غير موجودة معك ، ماذا حدث لها ؟
أجبتّه يومها بجواب العاجز عن ابداء الصراحة :
- لم يمسه سوء يا أخي ولكن ..

- تكلم ، ماذا حدث ؟ أرى عينيك قد اغرورقتا .. قل ولا تخش ، رغم صغري أنا شجاع.

- لا أقصد سوءا مس أمنا - حفظها الله - بل مكروها أصاب عائلة خالتي القاطنة في العاصمة ، حيث أن فوزية ابنتها الشابة توفيت في حادث مرور مروع .. كان حتما على أمنا والحالة هذه أن تسافر الى أختها - أعني خالتي - تشاطرها آلامها ، تشد من أزرها ، ريثما تمر الكارثة وتنسى خالتي .. فتعود أمي إلينا.

نعم سألني أمس صباحا سؤاله التقليدي كسائر الأيام ، لم يقنع بجوابي المعتاد التقليدي ، أجبتّه :

— قريبا تعود أُمي لنا محملة بهدايا ثمينة لنا جميعا .

أجابني :

— سوف لا تعود أُمي أبدا ، العاصمة جميلة جدا ، ستتزوج هناك رجلا آخر وسيكون لها أبناء آخرون أحسن منا ، كزينب جارتنا التي فرّت من بيتها وهجرت زوجها لتقترن بغيره في العاصمة ، لكن أبناءها وزوجها عمي الأخضر أفضل منا وأحسن حالا ، اذ أنه اقترن بدوره بامرأة غيرها.

كان ذلك قبل ثلاث سنوات عندما تخرج أحمد من معهد دور المعلمين بعد دراسة دامت أربع سنوات تحصل في نهايتها على دبلوم يمكنه من أن يصبح مدرسا . قدمت الأم فاطمة كل ما في وسعها حتى تمكنه من اتمام دراسته . جادت بعرقها الى أن وصل الى هذه الدرجة ، لما عين في مدرسة نائية عن بلدته لم تأل جهدا في الاتصال بمفتش المنطقة، والرجاء منه تحويله الى مسقط رأسه ، وحصل ما كانت تبغي .

مارس التدريس خلال السنوات الثلاث في مدرسة للبنين ، أحست يومئذ بنشوة الفرح ولذة النصر ، نشوة الفرح وقد أصبح ابنها موظفا ذا مهنة شريفة باركها الله والانسانية ، لذة النصر على الايام التي امتحنتها في استشهاد الزوج الكريم الطيب الشهم يؤدي الواجب الوطني ، ولم تنعم بالعيش معه الا خمس سنوات ، تركها وحيدة ، لا قريب يساعدها في الوقوف أمام سخرية القدر ، ويساعدها في تنشئة أطفال صغار لا حول لهم ولا قوة. أحست يومها بالنصر والافتخار ما دامت قد نجحت في أداء الأمانة الثقيلة التي نلت بحملها طوال هذه

السنوات. ما أكثر اللحظات التي مرّت بها وراودتها فكرة التبرم والتنصل من مواصلة حمل العبء الثقيل .

إلّا أن طيف الراحل كان يباغتها فتهدأ وتعود لحال رشدها وتتذكر آخر حديث جرى بينها وبينه خلال آخر زيارة لها :

— فاطمة ، يا زوجتي الحبيبة ، تذكرني دوماً أنني لم أترك لك أراضي خصبة ، ولا ثروات مالية بل تركت لك أكثر من ذلك واغلى قيمة وأعز شأنًا ، تركت لك : أحمد ورضا وعائشة ، هؤلاء الابناء الطيبون الذين أجاد الله علينا بهم ، انهم أمانة في عنقك ، عاهديني على أنك ستحمليها راضية في حياتي أو مماتي .. توجّي ذلك بتعليمهم العلم النافع بتثقيفهم الثقافة التي تربطهم بأمتهم ووطنهم ، ربيهم التربية المثلى القائمة على المبادئ السامية والقيم الانسانية.

رأت يومها أن فرحها لا قيمة له اذ لم تعلنه على الملأ ، من خلال إقامة فرح تهرع له كل نسل البلدة تشاطرنها فيه غناء ورقصا وزغردة ، ويتناولن ما طاب لهن من مأكّل شهية ومشروبات منعشة .

كلّفها ذلك الحفل كل ما أدّخرت من دريهمات، كان فرحا عظيما تناقلته الالسن وأشاد به الجميع ، وكأنها لم تكتف بهذا بل طلبت ، من الابن أن يدعو كل رجال البلدة وشبانها كي يمرحوا ويأكلوا هم بدورهم في يوم مشهود اختلّطت فيه أصوات طلقات البارود يطلقها فرسان متمرسون على هذا النوع ، على أنعام الدفوف و(الزرنة) ، وزغردة النسلة الصاعدة الى عنان السماء في ساحة واسعة الأرجاء جمعت بعد منتصف النهار النسلة في ناحية ، والرجال في ناحية أخرى ، يتوسط الجميع شباب يؤدون رقصات فلكلورية في تناسق عجيب مما أدى الى التهاب

الأيادي من التصفيق ، وبج الحناجر من الصياح خاصة عندما دخلت الحلبة فاطمة بنفسها وأدت رقصة من نوع (النخ) .. وأبت يومها الا أن يتواصل الفرح بإقامة (تقصيد كبير) تؤدي فيه القصائد والمقطوعات الدينية ، من طرف أكابر أئمة القرية ورجال دينها ، ممن عُرفوا باللحن الجميل واشتهروا بالصوت الدافئ الرخيم الذي يبعث الرهبة والخشوع في النفوس ، وكؤوس الشاي ليتها تطوف على الجميع فتزيدهم نشاطا لمواصلة للحفل ، واشتد الحماس بفاطمة وهي تتابع الحفل ، أن أطلقت زغرودة حارة تبعتها في ذلك باقي الحاضرات ، ولم تلبث أن أمدت أحد بزجاجة عطر كبيرة وأوصته بأن يرش عطرها الشذي على الحاضرين .

أوائل شهر أفريل والوقت أواخر الصبيحة ، كانت فاطمة جالسة في المطبخ مع ابنها رضا وابتنتها عائشة حول مائدة أرضية صغيرة مستديرة الشكل وضعت عليها ما طبخته للغداء .. كان الجميع في انتظار أحمد، وعقرب الساعة اجتاز منتصف النهار بقليل ، بيد أن انتظارهم لم يطل فما انفك أن دخل وألقى التحية ثم عمد الى غرفته فوضع على مكتبه أوراقا ودفاتر كان يحملها ، وعاد من فوره الى المطبخ حيث جلس بجانب والدته التي تعودت هذه الجلسة الحبية الى نفسها .. ففيه يلذ له أن يحكي ويلذ لها أن تصغي بكل انتباه ، يحلو لها أن تسمع ما كان في يومه من زيارات للمفتش - ان كانت - ومن أحاديث للزملاء ، ومن أعمال للتلاميذ ، ومن تصرف لصاحب الجلالة السيد المدير ، حتى أنها صارت تعرف كثيرا من أسماء هؤلاء المعلمين وأولئك التلاميذ وتعرف الطيب منهم فتشعر بخيط رفيع يربطها بهم ، وتشمئز من ذكر أسماء غيرهم ممن لا تروق سيرتهم ، وان نسي أحدهم ولم يذكره لها لأيام عديدة استفسرت عنه واستوضحت .

يلذ له أن يجلس بجانبها كلما كان بالمنزل ويتحدث معها في كل صغيرة وكبيرة ويرأها مثلا أعلى للأمهات، ولا غرو في ذلك ، تضحياتها الجليلة من أجله ومن أجل أخويه تدفعه الى أن يكن لها الطاعة والاحترام ، بل الخشوع ، فقد استشهد أبوه خلال معارك طاحنة من معارك الثورة التحريرية في جبال بني صالح بشرق الوطن ، تركه صبيا صغيرا ، قامت الأم العملاقة بالتربية والرعاية بكل ما في الأمومة من عناية وعطف وحنان.

كان أحمد مساء ذلك اليوم لا يعمل ، فحلا له أن يطوف ببيوت المنزل مطالعا على ما تحتويه من أثاث ، خاصة وأن المنزل فارغ ، تركه الجميع في زيارة لإحدى الجارات. طاف بالغرف حتى وصل غرفة والدته استرعى نظره الصندوق الخشبي الجميل المغلق ، لا يزال يذكر في صباه أن الكثير من تجهيزات بيت العروس لا يخلو منها هذا الصندوق فهو بمثابة خزانة السر لها تحبب في أثنى ملابسها وأعلى مجوهراتها ، طالما رجا والدته أن تطلعه على ما يحتويه ، كانت تمتنع بلطفة . وتسأل ، ماذا يحتوي ؟

هل ينطوي على مجوهرات ثمينة وملابس غالية الثمن كغيره ؟ أم يحتوي على أسرار تحرص والدتي على إخفائها ؟

راودته نفسه مرارا أن يكسره غير أن صوت أمه كان يملأ عليه المكان :

— ألم أخبرك يا بني بأنه لا يحتوي على شيء ، ما عدا بعض الملابس القديمة لي ؟
الفرصة مواتية هذه اللحظة : دس أصابعه تحت الوسادة ، سرعان ما عادت تمسك المفتاح . وقف جامدا في مكانه حائرا ، أيغامر ويفتح متحملا المسؤولية ؟ أم يعيد المفتاح الى مكانه ويغادر الغرفة ؟

فتح الصندوق فهاله الغبار المتراكم الذي كون طبقة سميقة فوق المحتويات القديمة حقا - كما قالت - غير أن ما علق بذاكرته من محتويات هذا النوع من الصناديق لا يخلو منه أيضا ، زاوية لمجوهرات فضية ، وأخرى لعطور قديمة ، وفي الوسط وثائق وأوراق استحال لونها من البياض الى الاصفرار وقد تآكلت أطرافها ، كتابتها باهتة جدا ، مجلة البصائر تصفحها ، يعود تاريخ صدورها إلى المرحلة الثانية ، غلاف أصفر مغلوق بمحاذاتها ، لماذا يا ترى مغلوق ؟ لا بدّ من فضه ، انه يحمل صورة شمسية قديمة تطلع اليها مليا ، لكنه يعرف هذا الشخص رغم أنها أخذت له في ريعان الشباب ، دائما يحبه ويرجو منه تبليغ التحية والسلام الى الوالدة الطيبة - حسب قوله - قلب الجهة الأخرى من الصورة ففوجئ بما كان مخطوطا عليها :

عزيزتي فاطمة : كلما تذكرتك أحسست بميل لا أدري كنهه نحوك ، فسريه كما شئت.

المخلص ، الحاج علي

حملق في الاسم مرة أخرى ، تهاوى على الأرض كمن أصيب بضربة عنيفة على أم رأسه ، أهو في حلم ؟ أم في يقظة؟ كلا بل في يقظة ، انه جالس في غرفة والدته ، في مكانه المحبب الى نفسه ، شعر بدمائه تفور وتسري في جسمه ليس كالمعتاد ، قلبه يدق دقا لم يعهده من قبل ، ثم ما لبث أن ملك زمام نفسه وأغلق الصندوق محتفظا بالصورة

الحاج ، ذلك الرجل الطيب المحبوب من الجميع كثيرا ما استدعاه لتناول الشاي الأخضر معه في دكانه ، لا يفتأ يستفسر عن أحوال الوالدة وصحتها ، ويختم الحديث بنصائحه :

— أمك طيبة يا أحمد ، ضحت من أجلكم ، حذار نسيان تضحياتها.
أيمكن أن تكون له علاقة بوالدتي ؟ متى كانت ؟ وكيف كانت ؟ هل لا تزال متواصلة ؟ لكن والدتي لا تبرح المنزل الا في زيارات قصيرة تؤديها للجارات سرعان ما تعود . حتى الافراح لا تذهب اليها .. بل تكره لقاء النساء في هذه التجمعات حيث يكثر القيل والقال.

سمع وقع أقدام تتحرك في المنزل ، أدرك انها أقدام والدته التي توجهت الى غرفتها فبوغت بوضعية الصندوق في غير مكانه المعهود ، انتابتها شعيرية اهتز لها كل جسمها ، بيد أنها لم تعرف ما حدث بالضبط . أحمد كان واقفا وسط غرفته جامدا يقلب الصورة بين يديه ، أخرجه من ذهوله دخولها المفاجئ مما جعله لم يتمكن من اخفاء ما بيده ، أدركت ذلك الا أنها تغافلت وقالت :

— هل كنت تبحث عن شيء يا بني في غرفتي ؟
— نعم يا والدتي الطيبة . كنت أبحث عن السر الخطير الذي كان يضمه الصندوق
أحست بكرامتها أهينت من خلال لهجته كما أحست أن الجدار السميكة المتين الذي كان يربطها بابنها ينهار ويتهاوى ، سكين حادة أحسستها تمرق أحشاءها ، تفتت القلب الذي حمل العبء الثقيل طوال الرحلة ، واجتاز أشواك الدرب ، تهاوت على أقرب كرسي ، وواصل :

— أدركت أن السر الخطير الذي أخفيته عشرات السنين كان متمثلاً في هذه الصورة للحاج علي.

أظهر لها الصورة .. واصل:

— ذلك الخبيث ، يخفي تحت اسمه ثعلباً مراوغاً ، يحلو له التسلل الى بيوت فقدت ليوثها . شغرت من رجالها . سوف أريه أن بيتنا هذا يحرسه أسد مغوار ، أين طهارتك يا أمه ؟ أين تقواك وتعبدك المستمر ؟ كنت أجهل أن بيتنا يضم بين أحشائه الغواية والرديلة، وتحيط اللعنة بكل جوانبه .. كم تطاولت ورفعت رأسي افتخاراً أمام الناس مزهواً بنفسي وبشخصيتي القوية على يدي أم عظيمة . كم كنت أقدر هذه الكلمة . التي ترمز الى أعزّ مخلوق لدي وأقربه الى قلبي ، وأحبه الى نفسي ؟

هذه العبارات كانت كسهم قاتل أصاب قلب الام في الصميم مادت الارض تحت قدميها ، أظلمت الدنيا في عينيها ، بيد أنها تماكنت نفسها وأصغت لما يقول حتى تهاوى بدوره ، ارتقى على أقرب كرسي باكيا.

وقتذاك اعتدلت في جلستها وتكلمت :

— حقاً يا بني ، تطلب دائماً مني أن أطلعك على ما يحتويه الصندوق كنت أخشى أن ترى هذه الصورة ، ولو اني أعرف أنك ستطلع عليها يوماً من الأيام ، غير أنني أوجل ذلك لمرحلة من عمرك تدرك فيها الأمور برزانة وبروية ، ولا تندفع اندفاعك الآن.

— أريد أن أعرف في الحال : أية علاقة كانت بينك وبين هذا الرجل ؟ أيا كانت حالتك بوحى ، تكلمي، آه ساجن يا ناس.

— لك الحق يا بني ، من حقك أن تعرف ، توجه حالا الى الحاج نفسه ييوح لك .
— غير ممكن هذا ، السر لديك أنت ، لا اقدر على رؤيته وان تم ذلك فسوف أهشم رأسه وأشرب من دمه ، لا ، لا ، بوحى أنت يا ..
— اذهب حالا .

— حاول أن يدفعها لتتكلم فما أفصح ، غادر المنزل ممتقع اللون يرتعش من شدة الغضب . في الشارع لم يأبه بشيء ولم ينتبه لأصدقائه ، أو جيرانه يحونه .
أجهشت فاطمة بالبكاء ، انتابتها تشنجات أحست لفورها أن قلبها يخفق خفقانا يكاد يقفز من بين ضلوعها ، استجمعت ما تبقى لها من قوة ، وزحفت الى الحائط الفاصل بين الغرفة وبين منزل جارتها — أم حليلة — ودقته عدة دقائق .
أحس أنه هابط في هاوية لا قرار لها وهو يبتعد عن المنزل ، منظر والدته يستولي على كيانه ، وقد تخيلها عشيقة لعبوا لذلك الثعلب.. يدر عليها من ماله ،
تساءل :

— أكننا نقتات من مال الاثم والفسق طوال سنواتنا التي عشناها ؟ لماذا تخدعنا وتوهمنا بذهابها الى العمل في السنوات السابقة ؟ أمي العظيمة تتحطم أمامي آثمة مثقلة بالذنوب والخطيئة ، ماذا يحدث يا ترى لو أني باغتتهما يوما ينهلان كأس الخطيئة ، يرتعان في بركة الرذيلة ؟ أأذهب اليه الآن كما أمرتني ؟ لا ، أشعر أن أوامرها لي صارت لا قيمة لها عندي ، لن أذهب ، سأعود اليها وأحملها على قول الحقيقة مهما كان الثمن .

لم يدر ما يفعل ، أيعود اليها ؟ أم يواصل السير اليه ؟ شعر بحاجته الى الراحة والى التفكير فمال ناحية جدار لمقبرة شهداء البلدة واتكأ عليه برهة ، ثم دلف المقبرة

وتوجه الى قبر والده . استرعى نظره كتابة محفورة عليه بدت له جميلة طالعتها بتمعن ، كأنه يراها لأول وهلة : (هنا يرقد جثمان الشهيد البطل مفلاح الأخضر الذي استشهد في العاشر من أكتوبر سنة ألف وتسعمائة وستين) .

أسند ظهره الى جدار القبر وهاجمته موجة عارمة من التفكير :

— لو كان أبي حيا ، هل تنشأ علاقة كهذه ؟ وإن تمت فما المصير؟ أبدا ما يرضى أبي عن سلوك تندد به الشرائع السماوية والأخلاق الانسانية ، أيها الراحل ، هل أنت مدرك لما وقع ؟

طلع عليه رجل يشع نورا وبهاء وجمالا ، يرتدي ملابس حريرية بيضاء هفهاقة وخاطبه :

— الحقيقة صعبة يا بني ، العثور عليها رهين بالتروي والتفكير العميق ، الاسراع وعدم التأني يضر بالغير ، ثم اختفى .. أفاق أحمد من غفوته تلك على أصوات أطفال كانوا يتسلقون سور المقبرة .. لحظتها خاطب نفسه :

— كنت في حلم ، ما أروع هذا الرجل . في صورة ملاك ، قد ناداني بكلمة " يا بني " أذلك هو أبي ؟ ما أروعه وما أعظمه . ما أسعده في داره الأخرى . ليتني كنت معه ؟

الشمس تكاد تختفي وراء غابات النخيل ، لم تبق منها غير أشعة ذهبية متسللة بين سعف النخيل . رأى أن يودع القبر مع وداع الأشعة له ، تسلل خارجا وعبرة — الله أكبر — يطلقها المؤذن — مدوية في الفضل ، ونداء من بعيد يدعو الى البحث عن الحقيقة.

أضيت المصاييح في الأنهج التي أخذت تكتظ بجموع الرائحين و الغادين ،
تابع سيره وهو لا يكاد يشعر أنه يسير ، نسي أمه تماما ، علقت في دماغه صورة
الرجل ، طيف الاب ، يدلي بحكمته ، أخرجه من شروده صوت يعرفه :
— أحمد . لحظة سعيدة أوصلتك الى منزلنا ، تفضل أهلا وسهلا .

— أهذا أنت يا ..

نطق بها بكل قواه ، بثتها كل جوارحه ، مفرغا فيها كل ضغينة وحقد ناء
بهما ذلك اليوم ، داهمته الحفيظة لهذا المجرم ، باغتته صورة أمه ملوثة بالعار والرذيلة
، ضغط على أسنانه وكور يده .

— ما بك يا بني ؟ أأصابك مكروه ؟ ، لست كما عهدتك .

— أشعر بألم في رأسي وبدوار .

— تفضل ، أدخل البيت بيتك سأحضره لك دواء مهدئا.

في غرفة الاستقبال ، ودون أن يتذوق القهوة الموضوعة أمامه لم يملك زمام
نفسه فاندفع متكلم بصوت مرتفع وعينه تتطايران شررا :

— سرُّ خطير بينك وبين والدتي يتمثل في علاقة غير شريفة ، لا بد من البوح به
الي.

— لا سرُّ بيننا يا بني ..

— اخرس يا .. بل سرُّ كله خطيئة ، ثم إنك توصمني بالعار لما تناديني " يا بني " .
— هدى من روعك قليلا .. أملك زمام نفسك ، لا تندفع اندفاع الحمقى ، أنا مستعد
لأصارك في—ما تطلب ، فمن حقا أن تعرف ، وقد بلغني ما حصل بينك
وبين والدتك اليوم ، بيد أنك تخطئ عندما تلصق بوالدتك تهما مزيفة لم تتأكد من

وقوعها ، وعلى كل حال ، اصنع إلي مليا :

— أبوك لم يترك مالا، أو أرضا أو ماشية لأملك يوم استشهد ما عدا دكانا ما لبثت أن باعته لتتمكن من تنشئتك ، وانفقته بكل تقتير واقتصاد ، ولكنه نفذ بشروق شمس الحرية ، حيث بدأت تتسلم منحة أرامل الشهداء ، غير أن متطلبات الحياة الكثيرة وارتفاع الاسعار دفعها الى البحث عن مورد آخر يعينها ، فاختارت ارتياد البيوت كي تساعد أهاليها ، وأنت أيامها في عامك الدراسي الاول .

لا زلت أذكر يوما طُرق الباب وأنا بغرفتي هذه ، لا أحد بالمنزل غيري ، فتحت الباب واذا هي الطارقة، أوهمتها أن الأهل بالداخل .. فدخلت ، وأغلقت أنا الباب ، وما هي الا لحظات حتى تغيرت ملامح وجهها ، لما أدركت الفخ المنصوب لها هالني جمالها الفتان ففقدت زمام نفسي وارتقيت عليها، كانت لبؤة أنشبت مخالبها في وجهي ، أزاحتني بعيدا عنها ، انطلقت كالسهم في الشارع بعد ما أفلحت في فتح الباب.

حاولت الاتصال بها فيما بعد دون جدوى ، أرسلت اليها مالا مغريا لعلمي بحاجتها الى ذلك ، أعادته الي بكل كبرياء ، أظهرت لها شوقي وغرامي في خطابات تلتهب حنيئا وحبا ، أعادت الي الخطابات مع الرسول . الصورة التي عثرت عليها صباح اليوم يا أحمد ، آخر خطاب وجهته اليها وأوصيت حاملته — يرحمها الله — أن لا تعيده الي ، وحصل ذلك فعلا ، فما كان من الوالدة الوفية لزوجها وأبنائها الا أن تغلق الصندوق عليه الى الأبد ، مثلما أغلقت قلبها بعد أبيك الى الأبد — لله درها من أم وفية مخلصه ومضحية.

دون أن يسمع المزيد ، ودون أن يفوه بكلمة واحدة قفل خارجا قاصدا المنزل ،
حائرا لا يدري ، أي احساس ينتابه ؟ الاحساس بالندم اذ أنه تسرع وحكم على أعز
مخلوق لديه حكما قاسيا ؟ أيمن إصلاح ما فسد ؟

وصل المنزل ، طرق الباب طرقا عنيفا ، فتحت الجارة " أم حليلة " فاذا
البيت مظلم ليس به الا ضوء قليل تتسرب أشعته من غرفة والدته ، أصوات
خافتة تنساب منه ، انكمش قلبه ، احتله خوف وفزع ، حلت لحظة سها فيها عن
نفسه ، أحس بدافع غريب يجذبه الى والدته ليحدثها ليعتذر لها عما بدر منه اليوم ،
أيقظته الجارة :

— والدتك في حالة خطيرة جدا ، رفضت كل دواء قدمته اليها ، لا تريد غيرك ،
تطلبك كلما عاد اليها رشدها وأفادت من اغملاءاتها المتكررة منذ الصباح .

كان يصغي خافق القلب واجفه ، ناشف الريق ، بينما هو في أشد الحيرة سمع
صرخة مدوية لأخته ، انطلق داخلا وفؤاده يكاد ينخلع من مكانه . أبصر أمه ممدودة
على فراشها تحيط بها أخته وأخوه وبعض الجارات ، أكب عليها :

— أماه ! أماه ! ما بك ؟ إنك امرأة عظيمة ، شريفة النفس ، طاهرة السريرة ، غالبت
صروف الايام وسخرت بها ، دست الاشواك وخرجت منتصرة ، أدبت الأمانة ،
اغفري لي اساءتي اليك مدى يدك أقبلها كما كنت أفعل دائما .

— لكن اليد لم تمتد فارتمى عليها مختلطا بكأؤه ب بكاء أخيه الحاضر . بعد لحظات
رفعتهم الجارة واحتضنتهما الاثنين .

الوجه البشع

عندما غادر محمود المنزل في الصباح الباكر الى المعهد حيث كان يدرس ، لم يكن يدري ما سيفعله بالتحديد في هذا الوقت المبكر.. طوال المسافة التي قطعها ماشيا كانت تتناوبه خواطر حزينة ، سرعان ما تتلاشى لتحل غيرها ثم تذوب بدورها قبل أن تتبلور كفكرة ثابتة مكتملة الاركان.

منذ التحاقه بسلك التدريس عقب انهاءه مرحلة التعليم العالي والكتابة تلف حياته ، والعممة تغلق أبواب الأمل الوضاء أمامه ، وبتوالي الأيام ازداد اكفهاراً الحياة في وجهه . حاول أصدقائه الترفيه عليه بشتى الطرق كل بوسائله الخاصة ، بذلوا جهودا مشكورة للولوج به الى آفاق المستقبل ، كان يغلق الباب أمام كل محاولة لهم ، كان أسبق في طمأنة نفسه : " أحس بالسعادة تجاه مهنتي ، اخترتها بنفسني " كان يحس كلما نطق بهذه العبارة أن لكلامه رنيناً أجوف خال من كل قناعة لنفسه قبل غيره ، الحقيقة التي يموهها تلهب مشاعره ، تذيبه أمر العذاب وألمه ، يحترق من الداخل ، تسلل اليه الشعور بالوحدة ، فقد الثقة في بني جنسه ، أثر العزلة والفرار من أصدقائه ، من زملائه ، من نفسه .

تساءل :

— هل حقيقة أن هذا كل ما يمكن أن أقوم به في حياتي ؟ أية هزيمة أقاسي ؟ أي ضياع أترجع مرارته ؟

قبل سنتين كان يتأبط محفظة جلدية حفظ فيها بكل عناية شهادته الجامعية . طرق أول باب للإدارة ، اطلع على احتياجاتها من موظفين جدد في احدى الصحف

الحلية ، توجه لتوه والنشاط يغمره وقوة الشباب تدغدغه ، استقبله البواب عابسا ، وأحال بينه وبين مقابلة رئيس أية مصلحة ، مدعيا أن أعمال رؤساء المصالح كثيرة ، واكتفى بأخذ الطلب منه ، ليسلمه بدوره الى المصلحة الخاصة.

توالت الايام تدفع بعضها متساقطة من عقد الزمن . كاد ينسى طلبه ، الى أن جله يوم وهو مشئت الفكر ، مقهور الى حدّ اليأس ، سيوف الزمن تشخه جراحا ، سلمه موزع البريد مطروفا كبيرا ، فاذا به من نفس الادارة يتصدره ردُّ مقتضب :
— سيدي الكريم ، ادارتنا في حاجة الى حملة دبلومات باللغات الحية . آسفون .

كان الجميع في المعهد يعرفون عزوفه عن مهنة التدريس ، يقدرّون اخلاصه ووفاءه لعمله داخل الفصل مع طلابه رغم هذا ، غير أن شحوب وجهه وذبول عضلاته يثيران الشفقة ، زملاؤه يرون أنها حالة عابرة ، استمراريته ، تعودته على العمل كفيل بوضع حدّ لهذا العزوف . كم حاول ذلك ، كم تمنى لو يتم هذا التآلف ويكمل هذا التزاوج.

قيل له :

— قد تعددت المهن ، وتنوعت مجالات الحياة ، وتعددت موارد الرزق " . كان يعرف ذلك حق المعرفة ، أمه لا تريد منه مبارحتها لأنه الوحيد لديها ، سنوات عجاف سلخت لها زهرة شبابها ، وفاة زوجها في إحدى معارك التحرير ، شلتها عن الحركة ، أقعدتها عن العمل ، حصيلتها اجترار الذكريات والتطلع اليه ، انه الشاطئ الآمن الوحيد ، لا تستقبل النجاح أو الخبر السار كأمهات أمثاله بالزغاريد ، كانت تنفجر بكاء ، تتصور ابنها وقد نأى عنها ضاربا في مشارق الارض ومغاربها.

بدأت له المدينة هادئة بطريقة مذهلة ، فالأشياء معدومة ، الرصيف يتضاءل ويتضاءل ، انه خيط ممتد تناثرت عليه هنا وهناك نقط متحركة تصدر أصواتا أشبه ما تكون بطنين يصمّ أذنيه ، أحسّ بالقرف يسري في خلاياه ، بالغثيان يتسرب الى أعماق أعماقه ازاء هذه الحياة المميّنة من حوله ، فولد في دخيلته أن هذه النقط الصغيرة المتحركة أشبه ما تكون بجماعات من النمل تغدو وتروح . كان يكره النمل ، يمقتة، قتل الكثير منه ، لا يدري سببا لذلك.

كانت الشمس قد ارتفعت عاليا ، وقد جاء النهار ساخنا منذ البداية ، أشعتها تلهب ظهره ، حبات العرق مناسبة في مجاري عديدة على سطح جلده ، انقضى أكثر من نصف ساعة ولا يزال ماشيا ، عابرا تارة شارعا رئيسيا ، وتارة زقاقا ضيقا ، المشوار ما زال طويلا بعد ، كان تواقا للوصول الى المعهد في وقت مبكر. عبرت سيارة فارهة من آخر طراز ، لم يحظ منها سوى بجفيف الريح وغبار آثار زوبعة عندما اجتازته ، لاحظ اسم إكدارة على جانبها ، أول ادارة قصدها طالبا الوظيفة وهو يومئذ حديث التخرج ، فبزق على الارض ، لا يدري ما اذا كان ينظف فمه من الغبار ، أم غير ذلك .

تطلع اليه حارس المعهد وهو يسير في خط مستقيم ، قد تجاوز الباب ، انه شارد الذهن ، مشئت الفكر ، متغير الملامح ، حالة غير طبيعية ، وفي لحظة خاطفة التحق به وأعاده الى رشده ، عاد به الى مكتب المدير الذي كان يراقب الحالة من نافذة مكتبه أخذ السماعه ليهتف لأحد الأطباء النفسانيين ، طالبا تحديد موعد .

كانت الشمس ترسل أشعتها المحرقة لتتغرز في وجه محمود، شعر بالنار تَأكُل
أطرافه.. باللهيب الحارق يلتهمه.. تراقصت الأشياء .. الأشخاص أمام ناظرِيه، ترتج
.. انفجر باكيا . صرخ بأعلى صوته:
— النجدة ! النجدة !

قمار في 14 - 4 - 1975

الذكرى

اليوم يوم العيد ..الدنيا تهتز طربا لمقدمه ، والكون يرقص على نغماته ، والبارحة ليلة العيد حلت عليها ذكرى موت ولدها الوحيد . أحست منذ صباح اليوم أن أنفاسها ثقيلة لاهثة ، وأن قواها خائرة ، وعضلاتها تكاد تكون مشلولة ، وما ترغب الا في الارتملة مرة أخرى في فراشها لا تبرحه طيلة اليوم ، غير أن إعداد الفطور وما يصحبه من تنظيف أوان وترتيب متاع حرمها من ذلك.

كالأمس مساء وبالضبط الساعة السادسة قبل عامين ، لا زالت تذكر جيدا ، ولم يبرح ذاكرتها ذلك الطرق العنيف المتواصل على باب منزلها الخارجي ، هرولت مسرعة ودقات قلبها تتسارع فاتحة الباب وهي تظن أن الابن الوحيد العزيز وصل لتوه من السفر ، وقد أخبرها عن ذلك في رسالة سابقة قبل أسبوع .

كانت تتمتم بكلمات كثيرة وأدعية مصحوبة بالحمد، والشكر لله؛ وما كادت دقة الباب تنفجر حتى سلمها موزع البريد برقية عاجلة اختطفتها منه بلهفة وتوجهت بها تَوًّا الى علي ابن الجيران ليحل رموزها .

كانت البرقية قادمة من وراء البحار تتضمن وفاة الابن نتيجة حادث عمل مؤلم ، سقط من أعالي عمارة - بصدد البناء - يشتغل بها .كالذكرى الأولى لوفاته في السنة الماضية ، كرهت أن ترى أحدا من البشر حتى النوافذ والأبواب أحكمت اغلاقها حتى لا يتسرب منها أي شعاع من شمس العيد، أو صوت، أو حركة لبني الانسان ، وما أكثرها في هذا اليوم يوم العيد !

وما عملته في ذكراه الثانية اليوم أن أحاطت نفسها بالصناديق التي تضم أثواب الابن الراحل، ثم أخرجت مجموعة مفاتيح صغيرة من حزامها وفتحت الواحد تلو الآخر ومدت يدها المرتعشة تتحسس المحتويات، وتلمسها تقييلا وتضغط أكثر كأنما تحاول أن تتحسس داخلها لحم الابن ، كما كانت تفعل كلما عاد من السفر .

كانت الاصابع الواهنة المرتعشة تصيد العضلات المفتولة المملوءة فتوة ورجولة ، فما عثرت الا على كتل من الثياب متراكمة فوق بعضها البعض ، منها ما هو مطوي بعناية ومنها ما هو ملقى بدون عناية وأصابع الزمن تعبت بها.

همست لنفسها :

— عامان مرّا يا بني على وفاتك ، لو لم تمت لكنت الربيع القادم تدخل الخامس والعشرين من عمرك .. آه ، لماذا يمر الزمن سريعا هكذا ؟ هذه ملابسك نظيفة مطوية ومرتبة كما تركتها وأنت عائد الى المهجر . يا ترى لو ما زلت حيا ، ألا يزال حذاؤك الجلدي هذا المحب اليك مناسبا لرجليك ؟ رباط العنق الجميل هذا يذكرني بصديقك علال يوم أهداه لك بمناسبة وضع يدك على عائشة ، طالما زارني وجلس بجاني في حياتك فذكرني بك وامتنص بعضا من الشوق والحنين ، لم أره من يوم أن واروك الثرى، آخر عهدي به حين أقبل يقدم تعازيه ، عائشة المسكينة تزوجت أواخر الخريف الماضي ، كاد يمر على وفاتك عامان ما اقتنعت بهذه الوفاة ، زيارتها متكررة لي ، وما أن تؤدي مراسيم الزيارة حتى تنهض بهمة ونشاط تؤدي واجبات البيت من تنظيف وترتيب تمهيدا للوجبات الزوجية مستقبلا في هذا

البيت . كانت ساذجة العقل ، طيبة القلب لم يعرف الشر دربا الى قلبها ، وان حاول ذلك صدمته ببراءة وسماحة قلب وسعة صدر .

لم أنس قبل ثلاث سنوات . أقبل ابني يزف الي نأ اختياره لها ، وقع علي النأ وقوع الصاعقة ، انتفضت غاضبة ، لاعة ذويها واصفة اياها بشتى أوصاف الوضاعة ، مقسمة ألا تدخل هذا البيت ما دمت علي قيد الحياة ، كان جوابه لي بعد أن هدأت ثورتي :

— أترين يا أمي أنني لم أحسن الاختيار ؟ لا تخافي يا أمه ، ذكائي ودقة نظري كافيتان كي أختار الفتاة التي تناسبني وتشاطرني درب الحياة في المستقبل .

لم تمر الا أيام قليلة حتى جاء بها لأتعرف عليها عن قرب ، ثم توالى مجيئها وعلى مر الأيام ألفت نفسي مقتنعة بحسن اختياره ، واعترفت لها بندمي قبل أن أعترف له ، وأصبحت تعاملني معاملة البنت لوالدتها.

عامان مرا بسرعة . كانت الشوارع والأزقة يومها تتزين بالشرائط الحريية والمصاييح الملونة ، رائحة أطعمة العيد تنتشر مقتحمة أنوف الغادين ، جموع الناس تقتني ما طاب لها من لوازم العيد . كنت أحضر الكعك الحبيب له الممزوج بالزبدة والبيض ، تفوح منه رائحة عبقة تفتح الشهية ، منتظرة وصوله بين لحظة وأخرى ، نقضي ليلة العيد معا ، ثم نتوجه صباحا الى بيت الله نؤدي صلاة العيد..

آه كم كان القدر هازنا بي يومها ! حطمتني تلك البرقية المشؤومة ، اقتحمت حياتي ، حطمتها ..حولتني الى شبه مجنونة ، بل الى عجوز هرمة فقدت كل ما هو عزيز حتى عقلها ، أعترف بهذا قبل أن أسمع من الغير ، اتفق الكل على الابتعاد عني ، بل مقاطعتي وتحريم كل تعامل معي ، كلمة واحدة ما أبغضها الى نفسي وما

أثقلها على سمعي ! الجميع كرماء بها علي " مجنونة " كم كرهت هذه الكلمة ،
وددت لو كان مكانها معدوما في قاموس اللغة.

رفعت بصرها عن الصناديق المحيطة بها ، سحبت يدها الواهنة من داخل
أحدها . حملت بشرود عبر النافذة والباب تارة ، وعبر محتويات الغرفة تارة أخرى ،
ورغما عنها امتدت يدها بعنف تفتح الباب ، ولم تلبث أن صرخت بأعلى صوتها :

— ألم تكونوا أصدقائه أوفياء له وزملاء مخلصين ؟ كان من عادتكم أن تأتوا للبحث
عنه من هذا الباب نفسه ، وإن أبطأ قليلا عليكم أطلقتكم صفيرا معنا له ، وإشارات
مميزة ، أتذكرون عشتكم الطويلة له ؟ أوقع مكروه بينه وبينكم ؟ اشكوه الي ان
أساء معاملتكم ، أم تعتقدون بعدم وجوده معي داخل المنزل ؟ كلا فقد حضر منذ
لحظات .. فقط .. انظروا ها هي ملابسه نظيفة مطوية أحضرها معه ، انتظروه لحظات
قليلة ويخرج اليكم ، لكن لا يمكن ، أنا مشتاقة اليه أكثر منكم وفي حاجة الى رؤياه ،
الى حديثه. السعادة تغمرني ، هذه الآونة ، أستطيع أن أغني وأرقص ، تعال يا بني
اجلس بجانب امك ، أنت وسيم ، أنيق ، ممتلئ شبابا وقوة حياة .

كانت أصابعها تحاول أن تمسك شيئا على أنه ابنها ، وغنمت أخيرا جسد
أحد الحاضرين الذين ألتفوا حولها ، تشبثت به ، وتسارعت خفقات قلبها ، وتوترت
أعصابها ، جسدها ينتفض ، صاح أحدهم :

— لنحملها الى فراشها قبل وصول سيارة الاسعاف.

حين رغب التخلص منها من كانت تتشبث بجسده ، ألقى أصابعها بيست
عليه ، كانت تهمس بكلمات كثيرة تبين منها بصعوبة بعض الكلمات :

— كم أنت عاق يا ولدي ، تتركني وحيدة في خضم الحياة ولا معين لي ؟ لن أتركك
ترحل مرة ثانية بدوني ، خذني معك الى حيث أنت ذاهب . أم تنكر أمومي لك ؟
كلا ! غير معقول أن يتم هذا بكل بساطة وبالسهولة التي تبدو لك ...
وسقطت المسكينة على الارض مغمى عليها.

الواحات : قمار في 29 - 1 - 1975

ليس ابني

كان الليل قد أقبل وأرخی سدوله على القرية الهادئة الودیعة.. هي لا تکره شيئاً مثلما تکره إقبال الليل في السنوات العشر الماضية ، ولو أنها لم تعد تفرق بين الليل والنهار ، وبين النور والظلام ، إلا أن خيطاً دقيقاً جداً لا زالت تحس به يشدها الى الماضي ، لم تستطع الايام بعددها ، والسنوات بطولها أن تمحو من دماغها هذا الحزن الممتد المتواصل عبر السنين . ابتداء الحزن بنهاية العم ابراهيم زوجها وهو في أواخر العقد الخامس من عمره ، بعد زواج معها تواصل الى خمسة وعشرين عاماً ، كان ثمرته طفلاً واحداً ، لم ير النور الا في السنوات الاخيرة من حياة ابراهيم ، فحول الهدوء المخيم على حياتهما الى حركة متواصلة .. الى جنة الخلد .. الى أمل قوي .. وعزز الحب الكامن في قلبيهما ، وأعطاه روحاً جديدة .

مات الاب ، والطفل في أواخر عامه الثالث لا يفقهه من الحياة ، الا البسمة البریئة ، واشراقه الوجه ، ولا يعرف الا اللهو ومرح الطفولة . لم يكن يعرف يومها أن الدنيا شيئاً اسمه الموت .. اليتيم .. الحزن .. وبالتالي الفقر والجوع ، لم يدر حينئذ أن السنوات القادمة ستكون عجافاً.

طوال الخمسة والعشرين عاماً التي أمضتها معه كان لا يتخلف يوماً عن الذهاب الى مطبخه الوحيد بالقرية القابع في نهاية الشارع الرئيسي ، تلهو به عوامل الطبيعة كما تلهو بها سخرية القدر ، لا يتخلف الا يوم الجمعة ، حيث أعطاه لنفسه يوم عطلة أسبوعية ، يتفرغ فيه لقضاء ما تحتاجه الاسرة الصغيرة من السوق الاسبوعية ، وليستعد فيه لأداء صلاة الجمعة ... باقي الايام لا تعرف عائشة

ولا يعرف سكان القرية أن مطبخه الذي يبيعهم فيه شتى أنواع الأغذية - بل حتى المسافرين المارون يوميا - ذات النكهة الخاصة ، والطعم اللذيذ ، قد أغلق أبوابه ، غير أن الدهشة والحيرة استولت عليهم بعد ثلاثة أيام من اغلاقه.. لم يتعودوا هذا ، اتجه بعضهم صوب منزله الصغير مستفسرين زوجته عائشة ، وقد طمأنتهم بأنه أصيب بوعكة صحية غير خطيرة سرعان ما تزول .

مرت أيام عشرة ، وأفاق السكان فجر آخر يوم منها على عويل وصراخ وصياح لم يتعودوا مثله طوال شهور ، هرولوا باحثين عن المصدر فكان منزل العم ابراهيم ، وما أن أشرقت الشمس حتى كان خبر الوفاة قد سرى في القرية سريان النار في الهشيم ، ما صدقت عائشة أن ابراهيم قد مات فعلا ، قد رحل الى العالم الآخر دون رجعة ، انتهى رفيق العمر.. الزوج الحبيب . مساء كل يوم منتظرة عودته بفارغ الصبر ..رحل الذي كانت ترى الحياة بالنسبة لها مجسمة فيه ، كيف يحدث هذا في مدة وجيزة ؟ لم تعد تودعه صباح كل يوم بعبرة :

— رزق موفور ، وعودة مأمونة يا سي ابراهيم ! ..

لم تعد تستقبله بتلك العبارة الحبيبة الى نفسه، وقد ألف طوال سنوات أن يسمع منها عبارة : — الحمد لله على عودتك .

في نهوضه فجر كل يوم يؤدي صلاة الصبح في مسجد القرية ثم يعود وقد وجدها هيأت القهوة الصباحية المعطرة بملء الزهر اللذيذ ، ثم الذهاب الى مطبخه ؛ وما أن تودعه على عتبة الباب حتى تعود الى ابنها حيث توقظه وتعتني به مدة من الزمن لتتفرغ بعدها الى العمل المنزلي .. تقضي باقي اليوم ، متلهفة الى الزوج الحبيب، منتظرة عودته بفارغ الصبر كأنها لم تره منذ سنوات .

يوم أن مرض مرضه الاخير لم تصدق أن المرض قادر على الاقتراب منه ، ما دام لم يقترب منه طوال هذه السنوات الطويلة ، ماعدا حالات نادرة ، وفي أوقات وجيزة لا تتعدى الساعات ، حتى عندما كانت الجارات يستوضحنها عن صحته ، كانت اجابتها :

— ابراهيم تعبان فقط ، ليس مريضا.

ولما تأكدت من مرضه كانت تُطمئن نفسها بتقهقر المرض أمام اعتنائها به .. ثم أحست بهول الفاجعة ، وانتابتها الحيرة الاليمة بعد الوفاة بثلاثة أيام حينما خلا المنزل من النساء اللاتي شاطرنها حزنها ، بعد أن أفرغت ، كل واحدة ، جعبتها من نصائح وارشادات لعائشة ، كانت آخر الخارجات العجوز مبروكة المعروفة بتنشيطها المآثم والاحزان .. وبفنياتهما في هذه الكوارث ، ودعت وهي تنوء بحمل كميات وفيرة من المواد الغذائية.

بقيت عائشة في مكانها طوال ذلك اليوم لم تفارقه بعدما أفقر المنزل، وهاجمته الوحشة ، الدنيا ظلام حولها، المصباح الذي ينيرها انطفأ ، اندثرت أشعته .. تساقطت الأيام تباعا من عقد الزمن يلاحق بعضها بعضا ، التفتت عائشة حولها ، باحثة عن ذوي الارحام، استنجدت بذاكرتها تسترجع الاسماء ، باحثة عن ذوي الارحام ، استنجدت بذاكرتها تسترجع الاسماء، كانت الحصيدلة أخ لزوجها انقطعت أخباره منذ العامين ، يعيش في العاصمة ، تجهل عنوانه ، وافترضت انها تعلم العنوان ، أيمن بسهولة أن تتصل به ، ما دامت لم تزر العاصمة اطلاقا ، وما غادرت قريتها أبدا ، وصرفت النظر عن هذه الفكرة ، وزالت من ذهنها فكرة البحث .

استرجعت بعضا من صحتها ، عادت لها مسحة من النظارة التي كانت قد غابت عنها ، فأمكنها أن تعمل تقييما لما تركه المرحوم لها ، وجدت أن الحصيلة لا تكفيها عيش سنة واحدة مع ابنها ، فالأيام طويلة ، عوائد الزمن لا حصر لها ، فهذه القدر يا ويل لمن لا يقي نفسه منها ، الوقاية بالعمل ، وما العمل بالنسبة الى امرأة بلغت درجة من قمة سلم الحياة ، لتبدأ الانحدار من الجهة المقابلة. مهن كثيرة يمكن أن تقوم بها : العمل الفلاحي ، مساعدة العائلات في المنازل ، حياكة الافرشة والبرانس والقشاشيب ، وغيرها من الالبسة التقليدية .

ذات يوم فوجئت بائعة الصوف السيدة خديجة بعائشة تدخل منزلها ، مبتاعة منها كمية من الصوف كسائر نساء البلدة . كانت خديجة تزن وغير مصدقة أن عائشة أمامها لحما ودما تشتري الصوف كنساء البلدة كي تعمل وتنسج ، فلطالما تحدثت النساء عنها وتعجبن من راحتها ، بل كانت الغيرة تأكل قلوبهن ، حاسدات لها على الراحة التي وفرها لها ابراهيم ، لم يحدث أن رأيتها الا في الاعراس والولائم ترتدي أجمل الملابس وأبهى الحلل ، شذى أطيب العطور يفوح منها ، كأن الاناقة لم تجد ضالتها الا فيها .

شعرت البائعة بالراحة تسري في جسمها ، حينما أخبرتها بقرارها دخول ميدان الكفاح في هذه الحياة لإيجاد لقمة العيش لها ولابنها الذي لا يزال طي العود . منفذة وعدها للمرحوم ببذل كل جهدها في تربيته وابعاد شبح اليتيم والفقر عنه. ووجدت نفسها غير قادرة على حمل الخبر وكأنه عبء ثقيل ناله به صدرها فرأت الا أن تشاركها بعض الجارات الخبر السار فلطالما انتظرنه وتمنين أن يتحقق في يوم من الايام.

صباح أحد الايام أحست عائشة بنسمات من الريح الباردة هبت فجأة داخله من الباب الذي كان قد فتح لتدخل منه الجارة المحاذية لمنزلها :

— صباح الخير عائشة .

— أهلا ، أهلا بأم الخير.

— طرقت الباب عدة مرات وكأن لا أحد بالمنزل ، فرأيت أن أدخل .. أراك شاردة الفكر تائهة العقل ، فاعذريني أن أيقظتك من ذكرياتك الحلوة.

— حقا ، أيتها الجارة كنت تائهة .. عذاب الوحدة يقطع أحشائي ..انظري هو ذاك الطفل تحت الغطاء ، لهيب الحمى منذ الأمس مساء يفتك به ، ما استساغ طعاما ولا شرابا ، عدا جرعات من الماء ما ينفك يطلبها بين الحين والآخر، فكرت أن آخذه صباح اليوم الى طبيب بالمدينة الا أن جهلي لها ولمرافقتها أحال ذلك ، واشتدت حيرتي وفرعي ، أتركه يموت بين يدي وأنا أنظر ؟ أيرحل الى العالم الآخر لاحقا بأبيه، ويتركني وحيدة. لا شجرة باقية أستند اليها .. لا جذور —تشدني ؟

— كلا يا عائشة ، لا تقولي هذا . لا تيأسي من رحمة الله فنحن جيران منذ عشرات السنين .. أشبه بالأسرة الواحدة ، حزنها عام ، وفرحها شامل ، ابنك عزيز علينا ، وليس ممكنا أن نتركه في هذه الحالة سيأخذه ابني حالا الى طبيب بالمدينة.

واصلت عائشة كفاحها في الحياة مؤمنة لنفسها ولابنها لقمة العيش الكريمة ، مستلذة الصراع مع القدر في سبيل نشأة ابنها ، لأن يغدو شابا يملأ الدنيا عليها كأبيه . شبّ الصبي بمرور الايام ، كانت أحلى لحظة أحسستها، وهي تختار له محفظة جديدة أول عام دراسي له.

في الطريق المؤدي الى المدرسة قال لها :

— ماما ، انظري ، أكثر الاطفال جلهوا مع آبائهم ، أين أبي أنا ؟

— انظر يا عزيزي الى ذلك الطفل ، مع أمه ، مثلك أنت ..

— أليس له أب ؟

— بل له أب ، يمكن أن يكون مسافرا في بلاد أخرى .

— هل أبي أيضا مسافر ؟

— بلى يا بني .

— متى يعود إلينا ؟

— عندما تصير كبيرا ..

حبست لحظتها قطرات من الدموع كانت تبغي الانحدار ، أمام الباب العشرات والمئات من الاطفال ملأوا عنان السمل ضجيجا وصياحا ، اختلطت أصواتهم ، انتابتها قشعريرة وارتعدت فرائصها ، ما كانت تتخيله صار واقعا ، ما كانت تحلم به صار حقيقة . تمت أن ترى ابنها في يده محفظة في المدرسة كعلي ابن الجارة الواقف أمامها في هذه اللحظة . ويسرح عقلها بعيدا ، يستشف أغوار المستقبل والابن أضحى رجلا ، نهل من منابع العلم والمعرفة ، وغدا من رجال الوطن العاملين على بنائه ، والفخر هالة تحيط به وقد أثمرت الشجرة التي اعتنت بها وأفنت السنوات الطوال في سبيل أن تراها قوية ، نضرة ، مروية ، نافعة ...

ذات مساء من أمسيات يناير الباردة والسمل مكفهرة الوجه ، تلقي بحمولتها المائية على البسيطة ، تجمعت البرك المائية في الطريق الرئيسي من المنعطف القريب حاول الصغير أن يتحاشاها وبينما هو في تردد بين الدخول في بركة ، أو الاقتراب من الرصيف لم يمهله السائق .

دقائق قليلة كانت عائشة في المكان تقف زائغة البصر مشدوهة وما لبثت أن

صاحت :

— كلا ! كلا ! ليس ابني ، ابني الطاهر في قسمه يتعلم ، ليس الآن وقت عودته ..

أتركوني .. ليس ابني !

أطفال القرية كلما رأوها تجوب الازقة هتفوا :

— هذه عائشة المجنونة !

رجال القرية كلما رأوها تجوب الازقة والرحاب ، تتمموا :

— لا حول ولا قوة الا بالله !.

قمار في 31 أكتوبر 1975

القدر الساخر

لَمَّا دخلت منزلي عائداً من عملي .. كان النهار يجرّ أذياله هارباً ، ليحل مكانه الظلام الذي أخذ يغزو المدينة شيئاً فشيئاً .. كانت السحب السوداء الحبلية تتدافع سريعاً ناحية الشرق تنذر بالقلع حملها الثقيل .. جماعات الموظفين والعمال والطلبة عائدين مهرولين الى مآويهم حيث ينعمون بالدفء والراحة .

أمسى الشارع شبه خالٍ من الناس حيث قصدتُ المقهى الوحيد القابع في مؤخرة الشارع .. كانت المقاعد قد هجرها روادها .. فارتيمت على واحد منها يحتل الزاوية القريبة من المدخل ..

.. مع أول رشقة من كوب شاي ساخن وضعه أمامي النادل .. شعرت بانتعاش غريب يسري في أوصالي ممّا جعلني ألقّب الطرف فيما يحيط بي من طاولات تناثرت بالقرب منها بعض المقاعد .. وفي إحداها تقابل بعضهم على لعب الورق .. صراخهم ملأ المكان ..

جذب انتباهي شخص دلف الى المقهى في حالة يرثى لها ، (ومما زاد على تركيز اهتمامي به وتتبع حركاته أكثر من يقين أنّ سبقت لي معرفة به) .. توطدت عرى الصداقة بيني وبينه في يوم من الايام .. وقف صبيان في مدخل المقهى وهتفوا :
— ها قد هربت منا أيها المجنون ..

لم يعرهم أدنى اهتمام .. لم يع ما يقولون .. كان تائها في عالمه اللامعقول..
سارحاً فكره في متاهات لا متناهية..

لا يحسّ بما حوله يطوف في أنحاء المقهى .. يضرب هاته الطاولة ، يحرك تلك ، تقوده
قدماه الى حيث كان يجلس لا عبو الورق .. وبصوت اهتزت له أركان المقهى صرخ :

— الصمت والهدوء يا أبنائي ألم أحذركم المرات العديدة .. أن الامتحان قريب ؟
عبارته الأخيرة عادت بذاكرتي الى الوراء .. الى ما قبل ثلاث سنوات ، كان
مدرسا ناجحا في احدى المدارس ، ذا ضمير مهني .. يخلص في أداء عمله .. له باعٌ
طويل في كثير من النشاطات الاجتماعية والثقافية .. يُضرب به المثل في الاستقامة
وحسن السيرة .. هل القدر القاسي سخر به ؟ ألقى به من العلياء الى الحضيض
بعدما ضحك منه .. قطع علي تسلسل الذكريات لكمة عنيفة تلقتها طاولتي من
قبضة يده.

حدجني بنظرة قاسية .

— عجبا هؤلاء الخاملين ، حذرتك مرارا مغبة التهاون .. اعتن بدروسك فالامتحان
على الابواب .. مسكته من يده المتسخة محاولا إجلاسه بجاني :
— بشير اشرب مشروبا ساخنا ، الجو يزداد برودة بين لحظة وأخرى.. هل تتذكّر
مدرسة النجاح قبل ثلاث سنوات.. قرّب وجهه من وجهي .. حدّق في ، ناقلا طرفه
في جميع أنحاء وجهي .. قهقه بصوته المعهود رغم قساوة الايام ونكبات الدهر.
— مدرسة النجاح .. المدير .. ابراهيم صديقي .. دروس إضافية .. رجال الشرطة ...
— بشير اشرب شيئا ساخنا فالجو يزداد برودة بين لحظة وأخرى .. نادل ، قدّم له
مشروبا ساخنا ينعشه.

— لا تتعب نفسك يا ابراهيم ، فطوال سنوات ثلاث .. كان خلالها من زبائننا
المداومين ، ما أكثر عروض المشروبات المقدمة اليه ، وما قبل يوما أن يرتشف رشفة
ماء .. مسكين أصيب بهذا المرض العقلي الخبيث .. لم ينس مهنته .. ها أنت تراه
بجانبك في هيئته التعمسة ، رجلان حافيتان .. جسم عار الا من أسمال بالية لا تكاد
تعطي حتى نصف جسمه العلوي ، لحية كثيفة ، شعر غزير غزا وجهه وأكتافه .
لاحظت أثناء تحدث النادل أن جليسي اختصر بعضا من حركاته .. وكأنني به
يتابع مجرى الحديث .. حاولت استغلال الموقف :

— تناول مشروبا ، فالبرد شديد .

— أترغب أن أشرب شيئا لست أهلا لشيء حتى مجرد نظرة .. لأشرب كأس قهوة.
صبّ في جوفه ما يحويه الكأس في جرعة واحدة .. نظر إليّ متفرسا ..
يستشف من وجهي الماضي :

— ألسنت ابراهيم مدرس اللغة العربية في مدرسة النجاح ؟
أجبتة بالموافقة .. أحسست أن الدنيا لا تسعني وكيف لا ؟ أكاد أنجح في إعادة
صديق الى جادة الوعي .

— هل بإمكانك أن تشرح لي مأساتك .. علي أقدم لك يد المساعدة ؟
تنهد المسكين وكأنه يحمل مآسي عشرات من أمثاله ، وأطرق برأسه الى
الارض :

— لا تلح علي ذلك ، لا أستطيع أن أشرح لك .. إنها مأساتي أتعذب بها وحدي ..
نفسي تأبى أن تعذب الآخرين كي يشاركوني فيها .. وانكب على الطاولة يحفش .

— كفى بكه ، ليست مأساتك وحدك .. هيا لنغادر المقهى ، ولنتجه الى منزلي حيث

نتناول طعام العشاء معا .. ألدريك اعترض على هذه الدعوة ؟

دخلنا المنزل وقدته الى القاعة.. أشرت عليه أن يجلس على أحد الكراسي ..

ولم تمر الساعة حتى كنا قد تناولنا طعام العشاء .. وبينما كان يأخذ نفسا طويلا من

سيجارة وهو يراقب خيوط الدخان تنفلت منه .. شعرت أنه يعاني ضيقا ، يريد أن

يبوح لي بسرّ مأساته :

— طلبت مني أن أروي لك ما حدث لي .. سأفعل ، بيد أنني أرجو أن يطوي

صدرك قصتي ما دمت حيا .. فطمأنته معاهدا:

— زمالتك وصداقتك لي لم تؤد بك مثل غيرك الى معرفة حقيقة حياتي الداخلية ..

فتلاحظ علي دوما نشاطا في العمل وتفانيا في أدائه، والبشاشة تملو محياي في جميع

الحالات .. مساهمتي في الكثير من النشاطات الاخرى ودوري الفعال فيها .. جعل

البعض يتصور أنني أسعد إنسان على هذه البسيطة .

مات أبي منذ سنوات بعيدة فترك لنا ذل اليتيم ودموع الأسي والحرمان ..

وضاعف من حسرتي وعذابي العائلة الفقيرة التي تركها .. أخوة أربعة يصغروني

سنا ، وأم مصابة بمرض القلب ، يغير عليها بين الحين والآخر فيدعها طريحة

الفراش لأيام طويلة .. يزيد هذا من عذابي وأنا أكبرهم فتراني مضطرا الى العمل

ساعات مع أحد الخضرارين إثر خروجي من المدرسة .. أحمل حصيلة ما يوجد به

علي من خضراوات عافها الزبائن .

أُتيح لي أن أنجح في إحدى المسابقات ..التحقت بعدها بدار المعلمين ،
وتخرجت بعد دراسة امتدت إلى أربع سنوات لأعَيِّن مدرسا في مدرسة النجاح كما
تعلم .. كان مرتبي متوسطا يجب أن أصرفه في احتياجات العائلة ..

عشت في الضيق وأنا شاب كما عشت وأنا طفل ، وأدركت أنني برغم الوظيفة
التي أحمل اسمها .. لن أتمتع بالحياة في ظلها كما كنت أمني نفسي وأنا تلميذ كان علي
أن أقتَرَّ في كل شيء .. وألا أقرب أصدقائي هربا من الدفع . عشت بعيدا عن
نزوات الشباب ، كابتا في صدري أهواءه ومطامعه .. الكبت والخوف من المستقبل
وضيق اليد أثرت في نفسي وألهبتني ، فازداد حنقي على نصيبي من الحياة وتضاعف
سخطي على المجتمع .. ورغم ذلك كنت أمارس مهنتي بأمانة واخلاص .. فإذا ما
وقفت أمام تلاميذي الأبرياء نسيت ما أنا فيه وذبت في دروسي ، والتحمت مع
أطفالي .. الى أن وقع لي ذلك الحادث الذي راعني وذهب بعقلي .. بعدما رحبت به
واحتضنته ، وبنيت عوالم من السعادة والامل عليه :

جاءني ذات يوم الى المدرسة رجل أنيق المنظر بعد ما أوقف سيارته الفاخرة
أمام الباب ، وطلب مني بإلحاح أن أساعد ابنة له بدروس إضافية في اللغة العربية
نظرا لضعفها في هاته المادة ، حيث أنها تستعد لأداء امتحان الشهادة الاعدادية ...
أقوم بهذه الدروس نظير أجر طيب .. لبيتُ الطلب ، حددنا الموعد اعتبارا من
الساعة السادسة مساء كل يوم .. الواقع أنني رحبت بهذه البادرة الطيبة .. دخلي
سيزداد ، لم يلبث خيالي أن حلق بي .. متصورا ما أقدر على شرائه آخر كل شهر .
وجدت نفسي وحيدا في غرفة مغلقة مع فتاة لم تتعد الربيع السادس عشر ..
وأنا من لم يقف يوما مع امرأة ليحدثها - خلا والدتي - ولم يفكر حتى مجرد

التفكير بها .. واذا بي الآن أمام فتاة تضارع حوريات الجنة ، متوسطة القامة ، مملوءة الجسم ، سماوية العينين ، ذهبية الشعر ، ذات بشرة بيضاء .. يبدو عليها سحر البراءة والسذاجة .. تشجعت لأول مرة في حياتي وخاطبت أنثى .. أحسست أن قلبي يكاد ينبثق من بين ضلوعي ، وتكلفت أقصى حدود البساطة في حديثي معها على مرّ الوقت ، مخففا من صنوف الجمالة والملاطفة والاطراء .. آخذا بشيء من الجد محاولا عدم الميل اليها.

كانت ضروب الاغراء التي أخذت تلوح لي بين الحين والآخر كلما تقدمت الايام ..وتواصلت الدروس ما ينيف عن ثلاثة أشهر تقدمت تلميذتي خلالها تقدما محسوسا ، فابتهج أبوها بذلك .. وبتتابع الايام بدأت الفتاة تشعر نحوي بحب عميق جارف ولكنها كانت خائفة من البوح لي بهذا الحب .. كانت تتعذب .. تنهداتها ، آهاتها المتكررة كلما ضمّنا مكان الدرس.

لا أخفي عليك أيها الصديق أنني خلال الشهور الأولى وفاء لعهدي مع أييها وإخلاصا لمهنة التدريس الشريفة لم أشعر بأي ميل نحوها - لكن براءتها - سذاجتها - نظراتها الاستعطافية أخذت تجرّني تدريجيا فوقعت عاجزا..

أدركت أنني شاب له نزواته وأهوائه كأشباهه .. لا بد أن يطفو على السطح مهما وضع عليها من عوائق تعارف عليها الملأ وأقرتها القيم الاخلاقية .وتعذبت ..وثرث على نفسي وسخطت على حظي العاثر الذي أوقعني في حب جارف..إلى أن كان يوم من أيام الربيع والسمة صافية ضاحكة تغري بالتنزه .. فكانت نزعتي في إحدى الحدائق العامة المعروفة لدى العامة بكثرة العشاق والحبين ؛ وبينما كنت أمتع النظر بمنظرها الخلابة وبتغريد بلابلها وزقزقة عصافيرها ، حتى لحت ما مرقّ

قلبي وأدماه .. رأيت فتاتي تحضن شابا خنفي الهيئة .. التحمت به ، فصعقت في مكاني وأصابني شبه دوار.

توجهت في اليوم الموالي كالمعتاد الى تلميذتي، فاذا هي كما عهدتها حملٌ وديع ،نفس طاهرة ساذجة فتملكنتي الحيرة ، وإذا أنا في معركة داخلية وصراع نفسي علي اتهمتها ظلما ، وعجزت عن متابعة الدرس .. وصممت على الوصول الى الحقيقة منها.

— عزيزة ، الطبيعة جميلة هذه الايام ونحن في فصل الربيع ، وأجمل ما فيها شمسها الصافية ، فالكثير من الشعراء و الأدباء عشقوا الطبيعة وهاموا بها وتغنوا بحاسنها فكانت أشعارهم آيات من الجمال .. أحلى النزاهات هي ما يقوم بها الانسان في أحضان الطبيعة ، ألم تقومي بين الحين والآخر بنزهات في الحدائق العامة ؟
— بل نزهاتي في الحدائق تأخذ القسط الأكبر من وقتي.

— أية حديقة تتزهن فيها ؟

— أكثر ما أقصد حديقة الزهور الموجودة وراء الملعب الرياضي .

— أعتقد أنك ذهبت إليها يوم أمس أليس كذلك ؟

— نعم لكن كيف عرفت ذلك ؟

وابتلعت ريقها ، وامتقع وجهها :

— سيدي ، لماذا هذه الأسئلة ؟ أليس الأحسن أن نواصل الدرس ؟

مرّت تلك الأمسية بطيئة جافة ، تبلّد عقلي وانطفأت شعلة نشاطه .. وتاه فكري وجف معين الاخلاص لدي .. أدركت أن ما زرعته منذ شهور قد حصده

غيري ، كان علي أن أختار بين الانسحاب ، أو الدفاع عما زرعت ، واثرت نائفة
كبريائي ، وأبت علي نفسي أن أنسحب مهزوما من الميدان.

في منتصف اليوم الموالي كنت وحدي بالمنزل فسمعت طرعا متواصلا على
الباب .. فتحت . دخل الطارق دون إذن ، انها تلميذتي لُفّت بلحاف أبيض ، ما
لبث أن دلفت الى غرفتي وأغلقت الباب وألقت باللحاف جانبا ، وارتمت علي،
وهي جسم بض يفيض أنوثة وشبابا ، فهالني هذا المنظر. تملكني شرود أيقظتني منه :
— هذا جسدي منحته لك ، نلّ منه ما تشتهي ، أنت أول من يقطف ثمرته . إنها
فرصة لن تتاح لك مرة أخرى بعد أدائي الامتحان سأزفّ الى من رأيته معه في
الحديقة ، وهو أبعد الناس عن قلبي .. أهلي أرغموني على الزواج به .

جدت في مكاني .. شلت أعصابي .. لساني عجز عن التحرك ، فانهالت
ترفعني من مكاني ، أسقط كتلة لا حركة بها ، فبصقت في وجهي وتدثرت بلحافها
وانسلت من الباب بعد أن حدجتني بنظرة ضمّنتها روح الانتقام لدى الأنثى .

انقطعت منذ ذلك اليوم عن التوجه إلى منزلها مبتعدا قدر الإمكان عن المرور
في شارع .. انقضت علي هذه الفاجعة انقضا الصاعقة ، تضللت كتلة جسمي ،
انتابني اضطراب عصبي . انطويت على نفسي .

في صباح أحد الأيام وأنا بالمدرسة تلقيت مكالمة هاتفية مجهولة المصدر
فحواها : (أخي إبراهيم تلميذتك السابقة ابنة مديرتك اتهمت بالاعتداء على
شرفها .. وقدمها أبوها الى الفحص الطبي ، وأكد الاطباء أن الاغتصاب حصل
منذ أيام ، وهم في اللحظات منكبون على اعداد تقرير سيرفع إلى رجال الأمن ليتم
القاء القبض عليك "

لم أدر ما وقع بعدها .. أفقت فألفيت نفسي ممدودا فوق سرير من أسرة
احدى قاعات المستشفى .. لبثت عدة أيام وجدت فيها عطفًا وحنانًا متزايدين يكاد لا
يفارقني ، وأخذت حالي الصحية تتقدم ورجعت النضارة إلى وجهي تدريجيا .
ذات مساء وأنا منكبٌ على مطالعة أحد الكتب الادبية أهدها لي ذلك
المرضى .. دخل القاعة شرطيان والقيد في يد أحدهما ، وطلب مني هويتي .. تجسم في
هذه اللحظة السريعة مصيري المظلم .. تراءت لي طهارتي .. براءتي ، فهالني أن أقاد
ذليلا مظلوما ، واختطففت القيد وقذفت به الشرطي القريب مني فانهال علي زميله
ضربا بهراوته على أم رأسي .

وسكت المسكين ، وشرع يبكي بكاء تنفطر له القلوب ، ولم أشأ أن أصده عن
ذلك ولعل في البكاء تخفيفا من الألم .. ثم ودعني بعد أن غير ملابسه وأصلح هندامه
بعد أسبوع كنت أتصفح الجريدة اليومية ، في ركن أخبار محلية فوق نظري
على الخبر التالي :

" وجدت جثة طافية صباح أمس كانت تحملها مياه النهر ، وبعد التعرف على
صاحبها ، تبين أنه كان مدرسا لسنوات خلت ثم أصيب بجنون " .
طويت الجريدة وبكيت .. بكيت صديقا عزيزا افتقدته إلى الأبد .. بكيت مرارة
الظلم لما يلاحق الأبرياء الأطهار .

أمام المنصة

ها أنت الآن جالس برفقة إخوانك الفلاحين أمام المنصة الرئاسية ، تنتظر تسلم مفتاح المنزل الجديد ، فكم تخيلت نفسك تنعم بالحياة بين جدران غرفه الرحبة ، لا بد وأنت تعرف أنك ستصير مالكا لمنزل عصري قد احتوى كل ما يحقق لك الاستقرار من غرف واسعة ، وملاء جار عذب ، ونور قوي .. إنك تائه العقل ، مشتت الفكر ، لا تدري أعامل الفرحه أنساك كل ما يحيط بك من جماهير محتشدة تنتظر قدوم الموكب ؟ لا تطرق سمعك أنغام الفرق الفلكلورية وشدو الجليل الصاعد ؟ حتى جارك الحواس الجالس بجانبك ، رغب مرات كثيرة أن تشاركه مشاعره وفرحه ، وكان يحس بالخيبة والمرارة كلما وجدك سارح الفكر .

أم أنت تجتر الذكريات .. ذكريات الألم والحرمان .. الحرمان من الاستقرار المنزلي والألم من الترحال المستمر ، وكيف يتم ذلك ما دمت أجهدت نفسك ، وبذلت أقصى جهودك وأجمل أيام عمرك ، وما نلت مبتغاك ، وما استطعت أن تقوت أبنائك السبعة وأمهم قوتا ، يحفظ لهم حياتهم ويصونهم من براثن الجوع الفتاك ، وعجزت عن اكسائهم كساء يقيهم لسع القر الذي لا يرحم ، وحرّ الصيف الذي لا يرحم .

أنسيت قبل ثلاث سنوات والحاج احميدة يبيع قطع أراضي صالحة للبناء ، عرض عليك بيع قطعة منها ، فكان جوابك يومها عبرات ساخنة انحدرت على خديك وأحسست كأن سكاكين حادة تحفر لها مجاري في وجهك .. فكان رحيما بك

بأن خيرك منحه جِمالك الخمسة على أن تكمل له الباقي لقاء عمل لمدة سنة في غابة نخيله .

باتت زوجتك حليلة ليلتها تبكي ، ولم يغمض لها جفن ، الحزن أقض مضجعها .. الحيرة تنهش نفسها .. بدا المستقبل غامضا لها . كان أمل الأسرة وشاؤها الآمن ، تلك الجمال الخمسة ، وإن أخذها الحاج فأى أمل ما زال يلوح في الأفق ؟ أيقظك من نومك نحيبها المتصاعد وقد شاركها فيه أطفالك الثلاثة الأوائل .. فلم تملك نفسك وشاركتهم بكاءهم .

حلّ الصبح بعد لأي ولم تنتظر حتى تشرق الشمس وتغمر الكون بأشعتها اللطيفة حتى ألفت نفسك تسرع الخطى نحو منزل الحاج رافضا له عرضه ومحتفظا بجمالك .. جمالك التي لا زمتك لسنوات عديدة ، تلك الناقة العرجاء يحمل بك أن تضيفها لعدد أبنائك ، فتكون لها الأب الحنون ، والاخ الصديق، يكفيها فخرا أنها رافقتك عشر سنوات كاملة وأن ثلاثة من جمالك أبنه لها ، أيمن لك أن تتنكر لأبنائك بهذه البساطة وبهذه السهولة ؟

شاركتك قرّ الشتاء بجانب الخيمة ورياح الشتاء الباردة تلسعها لسعا .. قاسمتك لفح نار رياح السموم الصيفية في أعماق الصحراء محرومة العلف والماء أياما متوالية ولمرات عديدة .. ثم تعود بها محملة حطباً وحلفاء ، وعندما حرملك الحاج احميدة من العمل لديه وبقيت لأشهر عديدة عاطلا عن العمل ، وأصبحت خالي الوفاض ، والجوع غرز مخالبه في أحشاء أبنائك فاسودت الحياة حواليك ، ولم تر بدا من بيع الناقة لأحدهم ، فأنستك الورقات المالية استغاثتها ومحاولة هروبها ، والجزار يقيد أطرافها واعتقدت أنك تخلصت من جزء من ماضيك ببيع الناقة ، غير أن هذا

الماضي لا يرغب في ، تلك الآونة ، التخفيف من عبئه عليك وأكد لك بوجود الناقة صباح الغد ملتصقة بأبنائها وهي تنن ، والدّم كسا رجلها ، وعرفت فيما بعد أنها مزقت القيد وتخطت السلك الشائك فمزق لها لحمها، فتناولت القطران، وشرعت في معالجتها ، ولحظتها أقسمت بالله ثلاثا أن ترافقك وأن ترافقها الى آخر المطاف بالحياة .

مسء ذلك اليوم عاد ابنك باكيا واللوحة في يده كتب عليها سورة : (الرحمن) .. أخبرك أن " الطالب " طرده مهددا اياه بالضرب المبرح إنّ رجع مرة أخرى ..بعد صلاة العشاء انتحى بك ناحية نائية عن الأنظار واعتذر لك عن قبول أطفالك لديه ، وحثته أنك لم تدفع له القيمة الشهرية لستة أشهر كاملة .. وفي الوقت نفسه أضحى عرضة لضغط الحاج احميدة في شأن أولادك .. فكان الحل والحالة هذه أن حملت جمالك وأفراد الأسرة وما تملكه من متاع لا تحسد عليه ، الى وجهة لم تحددها .

بعد يومين من السير المتعب استقرّ بك المقام في أحد الشطوط الملحية ، تجمع وتعبئ أكياس الملح.. تحملها على كاهلك أثقالا ما أنت عليها بقادر وقد أنهكتك السنون العجاف ، وسلبتك أيام الزمن قواك . وما أكثر المرات التي وجدت نفسك فيها تبصق دما ، كنت تتأوه وزفراتك الحارة تكاد تلهب ما حولك ، نفسك تنوق الى العودة ، العودة الى المضارب القديمة ، تتذكر لحظتها ما أبعدك عنها فيتساقط رأسك على كتفك كاسف البال مشئت الفكر ، لا حول لك ولا قوة الا أن تعزى نفسك بترديد مقطع أغنية طالما ترنمت بها كلما تراكمت عليك الحن ، فتشعر بالنشوة وتكتسب طاقة جديدة ، ونشاطا لا عهد لك به فتواصل رحلة الحياة مرة اخرى.

خبرٌ جديد قلب مجرى حياتك رأساً على عقب ، وبدل البرنامج اليومي لك :
خروج من الخيمة وذهاب الى شط الملح ، ثم عودة في المساء.. أعطى الخبر حياتك
تفكيراً جديداً للمستقبل جميل تتخيله ولكنك لا تدرك من معالمة شيئاً ، تتصور أن
أسرتك ستكون لها حياة جديدة كلها رفاهية وسعادة .. قلبت الامر من جميع وجوهه
واختلطت عليك الافكار ، وثقل عليك تحمل هذا العبء وحدك فأشركت جيرانك
ومنهم صديقك : بوجمة ، تتناقشان وتفسران النبأ الجديد وقد حمله اليك من القرية
ابن عمك علي ، جاء يبشرك والفرحة تغمر نفسه ، والبشر يعلو محياه بتسجيل
اسمك في قائمة المستفيدين من أراضي الثورة الزراعية ، وغمض عليك محتوى النبأ
فأمطرته بوابل من الاسئلة حتى تقرر العودة وأنت لا تحس بكابوس الخوف من
الحاج احميدة ، كما خرجت من قبل ..

ولعل أجمل لحظة في حياتك يوم أن كنت جالسا في مكتب الثورة الزراعية
بالبلدية تلح وتعيد وترجو أن يسجل الموظف الخاص طلبك المتضمن الاستفادة من
نخيل الحاج احميدة .

خريف هذه السنة وعراجين التمر ناضجة صفراء تشوبها حمرة تتدلى كأنها
لآلئ تزين جيد عذراء ، أطل عليك الحاج وأنت تنفض الغبار عنها ، فطاف
بصفوف النخيل المتوازية ، فتصور غلتها في السنة الماضية درّت عليه نقودا لا حصر
لها ، وتصورتها أنت وهي متساوية الطول متوازية الصفوف ، كثيرة العدد ، أعطت
الغلة بسخاء ، تصورتها جيلا جديدا للمستقبل يبني وينتج بسواعد قوية . لم تقل له
كلمة .. ولما لاحظت عينيه وقد اغرورقتا ، كنت به رحيما فأخذت منجلك
وقصصت له بعض العراجين فأخذها وودعك بنظرة ملؤها الحقد والكراهية .

بالأمس تجولت بين أشجار نخيلك ، تراقب هذه وتلاحظ تلك ، هالك بكُـر
الارض الطيبة ..عزمت على غرس الاحواض خُصراً متنوعة .. وما وجدت مكانا
بعد التقسيم في ذهنك لغرس شجيرات الفلفل .. أشارت عليك حليلة بإضافة
صف جديد من أغراس النخيل ، تُغرس في أحواضه الشجيرات .

أما زلت سارح الفكر في شعاب الماضي ؟ .. التصفيق الحاد يصم الآذان
ويلهب الأيدي ، الموكب يقترب ، الزحام يشتد ، أما أحرى بك أن تنتبه وتستوعب
الكلمات التوجيهية وتتهياً لأخذ مفتاحك .. لحظات جميلة كانت أحلى ذكرى في أيام
عمرک .

كدت تسقط على المنصة .. لم تدر أي احساس انتابك وملأ مشاعرك ، أكان
شعور النصر والفوز على الحاج احميدة ؟ أم كان شعور الانتصار على عشرات
السنين العجاف ؟ أم دخولك الحياة وقد كنت على هامشها ؟ لا تندهش ابنك
الخامس أقبل اليك :

— أبي ، أبي ! اشتر لنا اليوم ، وليس غدا ، محافظ جديدة .. المعلمون حضروا
وأعلمونا بأن المدرسة الجديدة ستفتح أبوابها صباح الغد.

الأرض تنتحب

كانت الساعة الخامسة صباحا عندما توجه علي صوب محطة القطر قاصدا المدينة ، بعد ما ودّع أباه المشلول الملقى في ركن من أركان البيت فوق حصيرٍ بالٍ تآكلت أطرافه وانحلّ نسيجه ، ولم يفت شقيقته الكفيفة أن تودعه بدموع تساقطت مدرارة على خديها ، لم يزره النوم الليلة السابقة فكلما تقلب على جنبه طالبا النوم تبادر الى ذهنه :

— الارض الطيبة يا بني ، تبكي حظها التعس.. هجرها أبناؤها ..رحلت عنها الأيدي الحنونة .

— انها تحتاج الى المال والبذور والآلات يا أبت .

— العرق .. السواعد القوية تحولها مصدرا وفيرا للمال ، والبذور تصيرها تربة معطاء ، لا تسأم ولا تكل .. تُدرّ الخير والبركة.

— اليد الواحدة لا تصفق يا أبت.

— يدك في يد غيرك كفيلة بتحويلها جنة من جنان الخلد.

— أين الأيدي ؟ الرجال يا أبي هجروا أراضيهم لضيق اليد ، عزفوا عن العمل فيها ، جذبتهم المدينة ، بأضوائها الخلابه ، بألوانها البراقة ، بالعيش اللين ، بالحياة الهنية ، بوفرة الاعمال .. بشيوع الرفاهية والتسلية فيها .

— أرضنا يا ابني ، نكبتها الخطيرة في هجرة رجالها .. في عزوف الشباب عن البقاء فيها ، تجاهلوا قيمتها ، امتنعوا عن التفاعل معها .

— أيستبدلون الحياة الهنيئة الهادئة فيها بحياة القلق والخوف والشعور بالغربة في أكواخ قصديرية ، تكدست فيها الأجساد البشرية ، وحشر الناس فيها حشرا ؟
— أيقبلون سماء تلوثها غازات سامة ، بدل سماء مشرقة صافية عطرها شذى الرياحين والزهور ؟ ألم تتذكر يا بني جارنا الاخضر وهو الذي يعيش هذه الحياة .. يتمنى أن يمكث في قريتنا عدة أيام ؟ ألم تره يلثم أرضه المهجورة ويسقيها بدموعه ؟ نعم ، كفه عقابا ما حمله من فاكهة لذينة ريانة قطفها بيده ، مبديا أسفه من أنه لم يأكل فاكهة نضرة كهذه ، لم تلوثها الاسواق منذ أن حط رحاله بالمدينة .

ترددت في ذهن علي وهو يقطع المسافة الفاصلة بين المحطة وبين منزل أبيه :
— لا تنسنا يا ابني اليد قصيرة ، والعجز سكن بيننا ، ونشب مخالبه فينا ، آه لو كانت لي صحة أيام زمان لبرهنت لك ، لأظهرت لك قيمة الرجال ، رجال يحبون أرضهم ، يعشقونها ، يلثمونها ، يسقونها عرقهم يتحدون بها ، فتلد لهم الرزق الطيب .. الخير الكثير.

لم تنم من مخيلته صورة أبيه ، معرضا عن النظر اليه حينما خرج هذا الصباح. ردد في نفسه :

— ما ذنبي إن كنت أبغي الحياة السعيدة ، والغد الافضل مثل أقراني ؟ هل قدر لي أن أطحن أيام عمري في هذه القرية المتخلفة القابعة في آخر الدنيا ؟ القلق يمزقني .. الحرمان ينهشني .. سأتصل في العاصمة بأبنائ قريتي وهم كثيرون ، محمود ، ابراهيم ، عيسى ، . قطع عليه تفكيره دخان يشق عنان السماء ، انه القطار فأسرع الخطى كي يدرك المحطة.

ابتلعتة مقصورة احدى العربات ، وجد نفسه مع ثلاثة ركاب يبدو من مظهرهم أنهم من سكان إحدى المدن قاصدين العاصمة ، نظروا شزرا اليه بينما أخذ أحدهم ، في فحصه من أعلى رأسه الى أخمص قدميه.. ختم فحصه ببصقة على أرض المقصورة ، سرعان ما استأنف القطار سيره .

— أخي ، متى نصل المدينة من فضلك ؟

— أخي ، قلت ، أتدري الوقت الذي نصل فيه المدينة ؟

— هل أنا مهندس طرق ، مهمني قياس المسافات ؟ يا لك من غبي.

لا يدري كم مرّ الوقت والقطار يطوي الارض طيا .. لا يعي من الاصوات سوى وقع أصوات العربات تهوي بثقلها على القضبان الحديدية.. نظره ما يفتأ يمسح السهول الخضراء المترامية الاطراف ، والجبال الشاهقة المكللة بالغابات الكثيفة ، لا يقدر في هذه اللحظات أن يفسر ما يتتابه ، أهو عامل الفرخ وقد تخلص من كابوس القرية ومن عالم النسيان ؟ أم هو عامل الرهبة حيث أنه مقبل على عالم مجهول ؟ أهو مزيج من الفرخ والرهبة معا ؟ .

اللون الرمادي القابع في الفضل يغلف السماء ، الدخان الاسود المتصاعد يتلوى كعفريت.. أيمكن أن تكون هذه سماء المدينة شاحبة مشوهة الوجه ، الشمس فاترة ضعيفة ؟ .. انها المدينة ، هذه عمارات شاهقة غابت تحت الدخان ، أرى الناس وقد حشروا في الأزقة والشوارع ..إنهم نقط صغيرة جدا ، عيونهم جاحظة ، تحدق في أي شيء .. في اللاشيء .

لفظ القطار ركابه .. سرعان ما أخذوا ينفلتون منها ، كل متوجه الى هدفه .

— أخي الشرطي.. دلني على ساحة الشهداء من فضلك .

- اصعد الدرج ، تجد قبالتك ميدان بور سعيد ، اتجه شمالا على اليمين .
- محمود .. محمود عرفتك من بعيد ، أهلا كيف حالك يا أخي .
- أي محمود تعني يا .. أتنادي الناس وأنت لا تعرفهم ؟
- ساحني يا أخي ، ظننتك محمود ابن جارنا .
- احتل علي مقعدا حجريا في الساحة .. أخذ يتفرس وجوه المارين ، عله يعرف أحدا من أبنائه قريته .. تفرس وجوه العشرات .. المئات . زاغ نظره ، تعبت أعصابه أحس بالجوع ..
- أين أذهب ؟ إنني أشم رائحة الطعام .. لا أدري أين ؟ آه لو حملت معي بيضا وكسرة
- دلف إلى أحد المقاهي المتناثرة في الساحة ، شمل بنظراته الرواد الذين كان يغصّ بهم المقهى ، تركز نظره على أحدهم ، يا للمفاجأة ، أنا في حلم أم في يقظة ؟.. إنه إبراهيم .
- علي ، تفضل أهلا . كيف حال القرية ؟ الاهل ؟
- الاهل يجترون حكايات أيام زمان ، القرية تنتحب ، تبكي رجالها الراحلين .
- لماذا أتيت إلى المدينة ؟
- أريد الحياة ، أبغي العيش في وسطها لا على هامشها ، وأنت خير من يساعدني على ذلك .
- أنا تحت أمرك ، ستجدي أخا عزيزا وصديقا وفيا ، أنت معي من هذه اللحظة والعمل سأوجده لك في أيام قليلة ، حياة المدينة يا صديقي ما أسعدها من حياة ..

- علي ، انتظرنى لحظات ريثما أبتاع ما يلزمنا من العشاء ، فأنت ضيفي هذه الليلة ، وابن قريتي ، وجاري أيام الطفولة .
- سيدي ، الساعة الآن تشير الى التاسعة ليلا ، سنغلق أبواب المقهى .. المرجو منك أن تخلي لنا مكانك.
- هام على وجهه في شوارع المدينة ، لا يعي بداية ولا نهاية لها ، سار الى حيث قادته قدماه ، وانتهى به المطاف الى زاوية في أحد الشوارع ، التف حول نفسه ، أطلق العنان لتفكيره :
- لا تنسنا يا بني .. اليد قصيرة .. العجز اختار المكوث بيننا ..
- حياة المدينة ما أسعدها من حياة يا صديقي .. ستجد لدي كل المساعدة . أنت ضيفي هذه الليلة . — أي محمود تعني يا .. أتكلم الناس وأنت لا تعرفهم ..
- ما قولك يا عيسى ، من الأحسن أن نفتش جيوبه ونستولي على ما لديه ؟ إنه نائم وإن استيقظ فلكمة عنيفة تغيبه عن الوجود .. يبدو عليه أنه قادم جديد إلى المدينة من أهل الريف .
- أرى الايام تمرّ سريعة .. تساقطت الشهور تلو بعضها من عقد الزمن وحالي لم يتغير .. قصدت كل أماكن العمل .. لم أظفر بأي شغل .. تسولت قالوا لي :
- لك صحة الثور وأنت تبسط يديك سائلا ، ألا تحجل ؟
- ابني ، ابني ها أنت عدت إلينا ، أهلا ومرحبا ، كيف حالك ؟
- بخير والحمد لله يا أبت .
- مرّت الشهور ، تسقّطنا أخبارك .. لم نسمع عنك خبرا .. لم نتلق منك نقودا.

— النقود حملتها معي يا أبي .. إنها كثيرة .. ستحيل فقرنا غنى ، وشقلاءنا سعادة ..
ستبدل حياتنا من عسر الى يسر .. ستعود لك قوتك كما كانت أيام زمان .. ستشفى
بإذن الله ، وما هي يا أبي النقود التي حملتها أمام الباب .
— ل .. لك .. لكن هذه مجرفة .. وهذا فأس .. وذلك محراث ، وليست نقودا .
— بلى يا أبي .. بالفأس والمجرفة ، والمحراث ، وبساعدي المفتولين القويين ، أحول
أرضنا الطيبة الى أم حنون حبلى تلد لنا الخير والبركة .. وتدرّ علينا النقود الكثيرة .

قمار (الواحات) في 1974/10/27

خيوط من العرق

التقط أنفاسه ، ثم ابتلع لعبه بصعوبة ، بعد أن ألقى عبئه الثقيل على الارض في السوق ..عبئا ثقيلا من البصل والثوم ، حمله من مسافة الخمس كيلو مترات حيث قطعته الارضية التي يفلحها ، ورثها عن أبيه.. إنها تنام بين كثنان رملية عملاقة ، ترفع رأسها عاليا بكبريه نحو السماء ، تحيط بالقطعة من كل جانب ، تنظر لها شزرا ، تبذل جهودا جبارة للانقضاض عليها بين الحين والآخر .. تتحرك زاحفة للالتفاف ، والرياح تساعدنا .

هو لها بالمرصاد كلما همت بالهجوم ، وقد استعد لها بكل قواه الجسدية ، وبكل ما ملكت يده من أسلحة لا تقل فتكا وضراوة مما هي عليه ؛ إلا أنها قليلة مما يتيح للرمال التسلل داخل المحاصيل الزراعية ، بعد أن تكون الرياح حملتها جوا ، وساعدتها على الزحف برا وقد مهدت لها بتحطيم السياج المقام من نبات الحلفاء وسعف النخيل

تزاحم الناس بالقرب منه في السوق.. ضربوا نطاقا حوله .. امتدت يده لفتح الحبل .. لم تقو على ذلك .. امتدت أياد أخرى كثيرة بدلا .. اختطف رباطات البصل والثوم ، خطف ذلك ربطين ، ذاك ربطة ، أولئك رباطات .. ما تمكن من عدها .. تساقطت القطع النقدية أمامه ، حاول أن يعرف ما ألقى به ذلك ، وما مده ذاك ، ما توصل الى ذلك ، الزحام بلغ أشده ، والضجيج غزا بجيوشه الأسماع ، كان فكره مشوشا وعقله تائها بين هذه الكتل البشرية وقد تكدست.. تتخاصم .. تتخاطف ، تص عرق غيرها متلذذة نشوانة.

العرق ألصق ملابسه على جلده .. رائحة الإبط تهاجم عينيه فيشعر وكأنهما اقتلعتا من محجريهما ، كالأبله يتبع الجميع بأنظاره بالقرب منه ، لم يفه بكلمة .. لم يقم بأية محاولة للسيطرة على ما تبقى مما كان يحمله ، وكأن الأمر لا يهمه .. معركة لا ناقة له فيها ولا جمل ، كان الاقبال الجنوني الرهيب على خُضره عملية لا يفرح بها كباقي الفلاحين .. المتخاطفون بدورهم لا يريدون منه أن يتكلم .. أن يتحرك ، أن يسيطر على متوجهه، يريدون حالته هذه .. وبينما هم في هرجهم وضجيجهم ، نهض متوجها صوب الفوال القريب منه والذي كان يبيع فول المساء الساخن وقد تعود منه الجميع ذاك بعد العصر .. طلب منه صحنا من فول يسبح في مرقه المَطْعَم ببهارات يسيل لها فم الشبعان لعبا.

أصابه الخشنة المتشقة ترفع حبات الفول من الصحن .. تلقي بها الى الفم .. بقايا أسنان خربة مغطاة بطبقة سميكة من مخلفات أطعمة ذهبت بلونها الأبيض الناصع، وعوضته بلون أخضر ممزوج بأصفر ، كانت تفتت حبات الفول الشهية .. أحيانا تتمرد إحداها وتزلق متسربة تجاه البلعوم ، يدفعها بجرعة ساخنة من ماء الفول.

— قد نفذ ما بالصحن يا إبراهيم .. أراك تتحسس بأصابعك حباته.

— آه فعلا ، لم أشعر بذلك .. إملا من فضلك الصحن لي مرة أخرى ..

كان تائها سارحا بفكره ينقله بين أفراد أسرته يستعرضهم في خيلته واحدا بعد الآخر ، توقف عند زوجته حليلة ، وقد سخطت من أيام عمرها معه عشرة أعوام كاملة ، بعد اقترانها به في ربيعها الخامس عشر ، وأنجبت منه خمسة أطفال خلال هذه الفترة ما بقي منهم على قيد الحياة غير طفل دخل عامه السادس لم تخطفه

المنون ، الزوجة العزيزة ، الصبورة شاركتة عمله الفلاحي الشاق من أول يوم جنباً الى جنب معه يوماً ابتداء من طلوع الفجر الى غروب الشمس ، ويوم أن مرضت مرضها الخطير ولازمت فراشها كان وحده في العمل .. كانت تعاني الأمرين .. مرارة الالم الجسدي ، ومرارة الالم النفسي شفقة على الزوج المسكين ، تبكي وتتوسل متضرعة الى الله أن يحفظه ويساعده .

ذات أمسية من أمسيات أوائل الصيف عاد الى كوخه بعد عمل يوم صيفي شاق سقى فيه شجيرات التبغ ونزع الحشائش الطفيلية من بينها ، وأصلح ما أفسدته رياح السموم الصيفية " الشهيلي " . خلال اجتيازه الباب سمع نشيجا عاليا : انها الزوجة المريضة تذرف الدموع، اقترب منها متلهفا مستفسرا :

— اشتد علي المرض أيها الزوج العزيز . أراني عاجزة كل العجز عن مساعدتك كما كنت خلال السنوات الماضية .. فصل الصيف لا يرحم ، تعبنا سيذهب هباء ان لم نبادر بالبحث عن وسيلة أخرى أجدى وأسرع في توفير الماء، وإيصاله إلى شجيرات التبغ حتى تنضج .. هذان قرطان من ذهب ورثتهما عن أُمي ومتأكدة أنك لم ترهما من قبل عندي .. خذهما .. بهما، أو ارهنهما لدى أحد باعة المحركات .. واقتن محركا لنا يخفف عنا عذاب استخراج الماء بأيدينا من بئرنا العميق .. ويوفر لنا ماء غزيرا يزيد المتزوج قوة ونضارة وجودة .. وقد يمكّننا من استصلاح قطع فلاحية أخرى ، فيزداد دخلنا ، وتتحسن حياتنا .

أواسط الصيف والحرارة في أوج عنفوانها ، ورياح السموم تلفح الوجوه والاجسام بنارها المحرقة التي تتلف كل ما هبت عليه . فجأة تعطل المحرك عن العمل ، عن استخراج الماء ، جفت الأحواض ، مرضت الشجيرات ، انتحبت قبل أن تلقي

بهاماتها على الأرض. حمل إبراهيم الحرك للميكانيكي الوحيد بالبلدة ، رفض القدوم حيث الحرك .. رفض اصلاحه في مكانه حتى بعدما أحضر له سيارة خاصة .. حمل الحرك على عربة يجريها حماراً ..أملٌ قوي يراوده أن يتم اصلاحه في تلك الصبيحة ، ويعود به في ذلك اليوم ، ليتمم سقي ما تبقى من الأحواض العطشى ، كم كانت دهشته عظيمة ، وحيرته أعظم حينما أخبره بفقدان قطع الغيار.. بعزم وبقوة بأس صمم على أن يبحث عنها وأن يفتش بأية وسيلة كانت ، وفي أية بقعة ، وبأي ثمن .

الاقدار كانت قاسية عليه ، بعد بحث استمر ثلاثة أيام متوالية ابتداء من البلدة وانتهاء بالعاصمة ، عاد بقطع قديمة .كان يشعر بالنشوة والفرح وهو عائد في الحافلة الليلية ، الا أنها فرحة يشوبها خيط غليظ من الحزن ، ونشوة تعكر صفوها قساوة الأيام وسخرية الحياة ، كلما تذكر أرضا عطشى طوال ثلاثة أيام .

خواطر تتصارع داخل دماغه وهو يعضغ حبات الفول ، أخرجه من شروده صوت الفوال :

— أراك داعم العينين ، وخيوط من العرق تغزو وجهك منسابة سريعة على وجهك يا إبراهيم ، ماذا دهاك ؟

— أ.. أ.. أمعي تتكلم ؟

— نعم ..

— لا شيء ! لا شيء !

دخل دكانا للملابس بغية شراء أمتار من القماش ليخيط منها سروالا ، وبينما كان ينتقل الطرف في أنحاء المحل اعترضت نظره محفظة جلدية جميلة .. أطال

النظر اليها كثيرا .. تذكر لحظتها ابنه الوحيد الذي سجله في مدرسة القرية قبل أيام ، سيكون تلميذا في العام القادم ، مسافة طويلة بين المدرسة والمسكن سيقطعها يوميا صباح مساء ، بمفرده ، لا جيران بالقرب منا لهم أولاد يأنس بهم ، لا ، لا يمكن أن يحدث هذا سأشتري له دراجة جميلة يقطع المسافة بها ، لكن يجهد استعمالها ، والتمن غال جدا ، يا إلهي إنها جبهة أخرى في معاركي مع الحياة ..

— يا الفلاحة ، يا الفلاحة ! توجهوا الى البلدية لأمرٍ يهمكم .

كانت هذه العبارة يكررها أحد عمال البلدية بمضخم للصوت . في لحظات قصيرة وجد نفسه مندساً وسط جموع الفلاحين المتوجهين صوب البلدية ، كانت ساحتها تموج بالمئات يستمعون باهتمام لما يقال لهم :

— قررت السلطة الثورية بناء قرية للثورة الزراعية في الناحية ، وتوزيع قطع للأرض على الفلاحين غير المالكين لشيء .. وقررت تقديم المساعدة من قروض، وآلات وأسمدة للفلاحين الصغار.

كان ابراهيم أول من سجل نفسه ضمن طابور طويل من الفلاحين ، تراحوا قرب المكتب الخاص ..

خمس قصص قصيرة جدًا

الرزق موفور

منذ أربع سنوات كان يشتغل سائق سيارة في بلدته ، أمينا ، وفيا لزبائنه ؛ بل لكل السكان . في ليالي الشتاء الطويلة ذات البرد القارس ، ينهض على جناح السرعة في أية لحظة تلبية لنقل امرأة في حالة مخاض إلى المستشفى ، أو نقل آخر الى موقف الحافلات ، أو .. أو .. في الصيف ينام جانب سيارته فوق ربوة رملية ، شفقة على هؤلاء الزبائن حتى لا يتعبوا بحثا عنه ، كان رحيمًا بذوي الدخل القليل أو المتوسط ، رزقه موفور ، عائلته في أحسن حال ، ابتاع بقية الحصص من قطعة أرض ورثها عن أبيه ، بمعية إخوته ، شيد عليها منزلا جميلا من تصميمه ، يجمع بين القديم والحديث ، اقترن بفتاة حسنة ، ذات أصل شريف ، أنجب منها طفلين .. الجميع في سعادة ورغد عيش .

كان الرزق موفورا ، والمال الحلال كثيرا ، ذهبت والدته الى البقاع المقدسة مرتين ، فرحٌ لا مثيل له يوم ذهبت ، وأفراح يوم عادت ، الفرح يعم الجميع ، السعادة ترفرف على الأسرة كلها .

إنه طريح الفراش ، مشلول الرجلين ، عاجز عن الحركة ، كومة من وسائل تحيط به ، حدث ذلك قبل أربع سنوات ، في شهر يناير عندما عاد من العاصمة ، بعد توصيله مجموعة من طلاب المعاهد ، البرد شديد وقتها يكاد يجمد الأرض ، المطر ينهمر بغزارة ، الثلوج تساقطت ، غطت كل الدروب والطرق ، توجت

المرتفعات ، شغل مدفاً السيارة ، سرى الدفء في كل زاوية ، خلع سترته ، والسيارة تنهب الأرض نهبا ، تطوي الأرض طيا ، لم ينتبه الى أن الطقس عموما بارد جدا ، حتى في الصحراء التي دخلها ، ليلتها الزوجة لم يغمض لها جفن ، تنتظر قدومه بين لحظة وأخرى ، سمعت صوت المحرك ، ليس غريبا عن سمعها ، قامت مستعجلة الى الباب وفتحته ، كان يضع بعض الحاجات على الأرض ، هتفت به دون تحية :
— انتبه لنفسك ، ألا تشعر بالبرد الشديد ؟ تجردت من ملابسك الثقيلة .
— حقا ، الجو بارد جدا ، غير أنني لا أشعر بالبرد .

* * * *

خاطبت الزوجة التي تنسج بمساعدة الوالدة برنوسا صوفيا لبيعه في السوق الأسبوعية الجارة الزائرة :
— ذهبنا به منذ ثلاثة أيام الى أحد الكوآثيين الماهرين .. أملنا كبير في تحسن حالته .
— آي .. آي تعالوا إلي .
التقت عيون الأم والزوجة الدامعة وهما تلتمسان مكان الكي في الظهر ، وقد كون جيوبا امتلأت صديدا وقيحا .

الضحية

— هل أحضرتم معلوم المطعم المدرسي وتأمين التعاضدية المدرسية ؟
— نعم سيدي .. نعم سيدي .. أحضرنا ما طلبه المدير .
— حسنا فعلتم ..حسين اجمع من زملائك النقود .

— سيدي ، الاخضر . لم يحضر نقودا .

— تعال يا بني ألم تسمع ما أخبركم به المدير بالأمس ، وما طلبه منكم ؟

— نعم سيدي .. طلبت من أمي ذلك ليلة البارحة .. اكتفت بالبكاء ، ألححت عليها صباح اليوم ، أمرتني بالتوجه الى المدرسة ، ريثما تصرف ورقة مالية لديها .

* * * *

— صباح الخير ، السيد المدير .

— صباحك سعيد ، هل أحضر التلاميذ المبالغ المطلوبة منهم بالأمس ؟

— نعم ، ما عدا واحدا اسمه الاخضر ، هو هناك في المقعد الاخير بالصف الثالث .. لا تعجب من ذلك ، فسلوكه سيء عندي .. يتعطل كثيرا ، يأتي متخلفا باستمرار ، يفتقر الى الادوات ، باستطاعته أن يعمل أكثر ، ونتائجه تكون أحسن .. لكنه يفضل الحمول ، تصور خلال شرحي للدروس ، يغلب عليه شرود الذهن ، مرات عديدة راسلت ذويه .. كي أشرح حالته لهم .. ما أتوني

— الاخضر ، تعال يا بني ، لماذا لم تحضر معك النقود كأصحابك ؟

— لم تعطني أمي نقودا يا سيدي .

— عدْ إلى منزلكم .. لا تحضر مرة أخرى إلا برفقة أبيك .

— سيدي ، أبي .. أبي لا يس ...

— اخرس ، واخرج سريعا .

— سيدي المدير ، أبوه عاجز عن العمل منذ ما يزيد على ثلاث سنوات ، كان يشتغل قبل هذه المدة عاملا في ورشة بناء خاصة .. ذات يوم كان برفقة بعض العمال يحفرون أساس جدار لإعادة ترميمه .. سقط الجدار ، خلف ضحايا - موتى ،

ومعطوبين - زوجي - أي أبوه - أخرج مكسور اليد والعمود الفقري .. سيدي ،
قليلا من الصبر ، لا تتململ من حديثي .. خواطر كثيفة دفعتني للحديث ، أمهلني
أسبوعا ، ريثما أتسلم أجرتي البسيطة من عائلة موسرة أقوم بمسح بلاط المنزل لها
يوميا .

التحدي

من قريب رحت أرقبها تحمل حقيبة صغيرة في انتظار سيارة ، أية سيارة ، تخفي
تحت ملءة بيضاء جسما بضاً : دم الشباب يفور منه .. خصلة من شعر حريري على
جبينها يعبث بها النسيم .. وأنامل غضة تخضبت بالحناء ، تدغدغ هذه الخصلة ، وبين
لحظة وأخرى تستقر على صدر عاجي .. من بعيد لاحت سيارة فارهة تنهب الطريق
، رفعت يدها ، ثوان قليلة كانت تفتح الباب وتستقر داخل جوف السيارة .
الحاج السعيد جاري كان واقفا غير بعيد مني يراقب المشهد ، خاطبني حينما
اقترب مني :

— هل رأيت بعينيك ، بعد ما سمعت مني سلفا ولم تصدق ؟
— نعم ، وتأكدت الآن ، غير أنك لم تكشف الستار عن ماهية المرأة وصاحبها .
— هذه المرأة يا جاري زوجة .. وبنت المرحوم الحاج ... تزوجته قبل خمس سنوات قبل
أن يهاجر الى أوروبا ، بيد أن جحيم الوحلة وشوق الانتظار ، والحنين للزوج
الغائب طوال هذه المدة ألهب روحها ، فكانت تمني النفس بلذة العودة وجمع الشمل

، خطابه في العام الاول تذيب قلبها ثم انقطعت الخطابات ، أطالت النظر في خاتم الخطوبة ، رباط الوفاء والاخلاص .

ذات ليلة في حلمها رأت نفسها خادمة تمسح البلاط ، تكنس الغرف ، تنظف الصحون ، في القاعة وهو يتناول قهوة الصباح مع امرأة شقراء طردها ككلبة جربله ، أفاقت صباحها مذعورة والرعب يقبض على نفسها ، جلست تعيد علي حلمها وتستشيرني بحكم أني صديق حميم لأبيها المرحوم ، استشارتني ، تم الاتفاق أن نكتب اليه .. نستعجل خبره ، مرت الشهور ، بل السنوات ولم يرد عن أية رسالة ، امتنع عن إرسال ما كان يرسله من مبالغ مالية ، وما بالك بقلب كقلبها في حاجة الى الارتواء وإلى الحنان وإلى نفس تحن الى الأمن والهدوء والاستقرار وبنه عش الزوجية ..

لم تقطع الامل وكان الامل غايتها والصبر حليفها ، الى أن وصل ابن عمها قادما من البلد المقيم به الزوج الغائب ، تحركت رابطة الدم لرؤية ابن العم ، واللهفة على الغائب دفعها الى التوجه اليه ، الأهل يحتفون به وضحكات جانبية يتبرع بها تكشف عن أسنان صفراء لامعة ، أحس بنشوة عارمة وهي تدلف المكان ترتدي أسمالا بالية ، تجر جر حذاء متأكلا .

— أهلا بك يا بنت العم ، كيف الحال ؟

— بخير ، الحمد لله .

— محمود زوجك في صحة وسعادة ، ورجاني أن أبلغك تحياته وتحيات زوجته ماريّا وطفليه : جان وشارل .

لما زحف الليل على الناحية ، وسحبت الشمس جنودها المهزومين ..نزلت امرأة تلف جسمها بملاءة سوداء ، من سيارة أجرة ، وحقيبتها الجلدية في يدها وراحت تحتال دلعا ودلالا ، تفوح منها روائح عطّرت المكان .. وأصوات فرقعة العلكة في الفم مزقت السكون الذي خيم على المكان .

طفولة مهملة

- علي ، اجمع دفاتر الاختبار من رفاقك .
- هل اطلع آبائكم عليها .. وأمضوا في الاطار المخصص لذلك ؟
- نعم .. نعم .. نعم سيدي .
- صديقي مبروك كاذب سيدي ، لم يطلع أهله على الدفتر ...
- مبروك أحقّ ما يقوله رفيقك ؟
- اطلعوا عليها صباح اليوم ، تمعنوا في كل ما تحصلت عليه .. أعجبوا بها كثيرا ، وعدوني بشراء دراجة جديدة لي ، ان واصلت اجتهادي.
- حسنا ، هذا شيء جميل يا بني .
- كاذب يا سيدي ، أبوه يجهل القراءة والكتابة .. ثم انه سكي .. سك .. لا يهتم به أبدا .
- اشرح قولك أكثر.
- أريد أن أقول إن أعمالا عديدة يقوم بها أبوه تشغله عن الاهتمام به .
- هات دفاترك يا مبروك ؟ اطلعي على الامضاء .

- تفضل سيدي .. امضه واضح بخط جميل .. إنه إمضه أبي .
- كاذب ، كاذب ، يا سيدي .
- حسنا ، صديقك تسمعه، ينفي القراءة والكتابة عن أبيك، فمن أمضى لك الدفاتر؟
- أبي ، أقول الحق ، ألم تزودنا بحكمة مفادها: قل الحق ولو كان مرًا.
- بلى ، يا مبروك ، أنت تلميذ طيب !
- سيدي مبروك .. كا .. كاذ ..
- اخرس أنت ؛ بل صادق في قوله .
- في ساحة المدرسة كان الأب يترنح ويتمايل .. لفت نظر الحارس الذي أسرع اليه :
- عما تبحث يا أخي ؟
- أهذا أنت ، أبعد عن وجهي ، ماذا يهمك من أمري ؟
- لكني حارس المدرسة.. من واجبي سؤالك ، بل من واجبي منعك من الدخول الى الساحة ، مادام المكتب في المدخل.
- ليس بمقدورك منعي من الدخول .
- كفى ، كفى ، عمن تبحث ؟
- أبحث عن ... عن القسم الذي يتعلم به ابني .
- في أي قسم يتعلم ابنك ؟
- لست أدري .. لكن عند معلم اسمه محمد الاخضر.
- تعال نذهب اليه .

دون تحية خاطب المعلم :

— أأنت معلم ابني مبروك ؟

— نعم ماذا تبغي ؟

— كل أصدقائه أحضروا دفاترهم بالأمس ، واطلع أولياؤهم عليها .. ماعدا ابني لم تعطه دفاتره .. أتراني أقل قيمة منهم ؟ أو تعتقد أنني جاهل لا أفهم من أمور التعليم والثقافة شيئا ، آه لو عملت بنصائح أبي في صباي واجتهدت لكنت مكانك أيها ...

— خففُص من صوتك يا أخي ، وهدئ من روعك ، ألم يطلعك ابنك على دفاتره ؟

— لا ، أعلمني بأنك لم تعطه دفاتره .

— حقيقة لم أعطه ، اذ أنني لم أتم عملية التصحيح له .. وفي نيتي أن أسلمها له اليوم .

— شكرا لك ، ابني صادق ذو تربية حسنة وسلوك طيب ، فما قاله لي حق .. الى اللقاه.

— مبروك ، أسمعت ما قال أبوك ؟

— نعم سيدي ، ليلة البارحة لم أتم كعادتي ، انتظرتة حتى جله في ساعة متأخرة ، كانت الفرحة تغمرني وأنا في انتظاره رغم الوقت المتأخر لأطلععه على نتائجي ، دخل مخمورا يتمايل وعاجزا عن المشي ، وعن الكلام مددت له دفاتري، صفعني بقوة ورمأها عاليا ونهرني :

— ست سنوات وأنت تتعلم ... لا تقدر على كتابة اسمك ، تنتظرني لأكتبه لك ،

امض أنت ، لماذا تتعلم إذن ؟

حاولت أُمي إيقاظه هذا الصباح ، فلم يستيقظ ، وخوفا منك يا سيدي
أخذته أُمي الى بنت جارتنا فأمصته .

العملاق

قال :

— الوجوم سيطر على الواحة أيامها .. الخراب أنشب مخالفه في كل معالم القرية ،
مزقها دون رحمة ، التهمت النار كل شيء .. أسراب البوم حلت تباعا .. غربان ناعقة
أقامت مهرجانات في الفضل ، كلاب جائعة لعقت برك الدم بشراهة أول مرة ،
وبعد أن شبت تحولت من بركة الى أخرى دون نزاع بينها ، التين فاغر فاه في
انتظار المزيد من القوت ، ما شبع طوال تلك الايام .

قلت :

— ألم يكفه ما ابتلعه ؟

قال :

— هجم التين علينا من ناحية الشمال ، كنا له بالمرصاد ، قاومناه بكل وسائلنا ،
أوقفنا زحفه ، أبطأنا تقدّمه ، أنهكنا قواه ، استعاث ، استنجد بأخويه ، امدادات
وصلته عاود هجومه ، إلتهم خيراتنا ونهب أرزاقنا ، قتل الكثير من شيوخنا ،
والعديد من أطفالنا الابرياء ، انتهك حرمة نساءنا . كان ينفث النار من منخاريه
على نجيلنا ، يهدم ديارنا ، لكنه فشل في زرع الخوف في نفوسنا ، وبث اليأس بين
صفوفنا ، الرعب سكن نفسه ، حبس نفسه في ثكنة القرية ، استعاث مرة أخرى بأخ

لا يقل عنه شراهة وطمعاً في الجنوب ، تحرك الاثنان .. أخذاً يقتربان من بعضهما ،
كانا يعتقدان أن الاقتراب سهل ... المفاجأة العظيمة أذهلتهما ، أحال بين اللقاء
عملاق عظيم ، برز من باطن الارض منتصباً بقامة عظيمة ألقى بحممه النارية
فطرح أرضاً تتين الجنوب وأفقدته الوعي وشلته عن الحركة .. واتجهت الحمم
صوب الشمال وامتدت لتتمركز حول التين محاصرة إياه وسمكها في صعود .. في
تزايد .. كان يصرخ طالباً النجدة .. انسابت الحمم صوب البلعوم .. صراخ حاد
تصاعد الى عنان السماء .. اصطدم بأنين ضعيف قادم من الجنوب لتتين آخر يحتضر.
احتفلت السماء ليلتها .. صواريجها الوضوء الجميلة اللون أضلعت الكون ،
الرعد ضرب بالدفوف ، شذى العطور الطيبة انتشر في كل مكان .. غسلت أماكن
جثتين متعفتين جرفتهما السيول.

أطلت الشمس صباحها ضاحكة ، امتدت يدها بحنان تدغدغ أذن العملاق
النائم الذي ما فتئ أن نهض بنشاط وقد أحس بقواه عادت اليه .. لم تمض غير
لحظات حتى كانت جماهير النخيل والاشجار تستقبله بحماس .. وأسراب الفراشات
والطيور تحوم حوله مغردة ، ومن بعيد جماعات البوم والغربان هاربة في اتجاه الغرب

قمار في 1975/12/20

خلف بشير

القرص الأحمر

قصة

الطبعة الأولى - ١٩٤٠



بشير خلف

القرص الأحمر

مجموعة قصص

طبع ونشر المؤسسة الوطنية للكتاب/ الجزائر

الجزائر: 1986

المتاهة

ضبطني أعوان الأمن متسكعا في ساعة متأخرة من الليل عبر شوارع المدينة :

— قف يا هذا .. ما مقصدك في هذا الوقت المتأخر ؟

— التسكع البريء يا سادتي ... منذ قدمت هذه المدينة .. اتخذت التسكع الليلي عادة بين جدران الغرفة الأربعة المضللة ، كنت أغني وأضحك ، أمتص السيجارة الوحيدة المتبقية لدي بمتعة . دفع العون الباب بقوة .. أمطرني وابلا من القذائف الكلامية الناشرة كان النصر حليفها في التغلغل إلى أعماقي :

— يا سيدي أنا أعتز بالإقامة عندكم . هويتي المجهولة تصبح نارا على علم .. سيعلو شأنها .. وجوه كثيرة ستحقق معي .. أوراق كثيرة ستحبر .. ملف متنفع .. سيخصص لي الصحافة أعمدة خاصة . ضمان تام للإقامة وما يتبعها من غذاء وملبس وعناية بالصحة .. من غير شك سأوفر على نفسي عذابات كثيرة منها التسكع الليلي .. لا أرى بديلا له .. غرفتي معتمة .. باردة تتحول أرضها ليلا إلى حشرات تتخذ مساحة جسدي ميدانا مفضلا لمبارياتها وألعابها .. ومنبعا عذبا لامتصاص غذائها .. يا سيدي غرفتي ليلا تتحول جدرانها إلى أذرع طويلة تتحد أصابعها .. تطول وتطول .. بتشنج وهستيريا تطبق على رقبتني .

في الصباح التالي أما الرئيس في مكتبه ، انغrust عينا في منظر سياحي حائطي : سماء زرقاء ، بحر لازوردي ... قصور ومركبات شاحنة على الشاطئ الرملي الذهبي .. شباب من شتى الأعمار في هو متنع .. أعلى المنظر كتب بخط واضح : من

أجل السلم والحياة ، اتحدوا يا شباب العالم ، والعبوا بعد العمل .. بنظرة ملؤها الحنان مد لي سيجارة من نوع الهقار وقال لي :
— يا بني .. في عز الشباب وتفني جسمك في السهر والتجول ليلا .. بلادنا في حاجة إليك وإلى أمثالك .. طاقات شابة تضيعونها فيما لا يعني .. النوم بالليل مطلب فيزيولوجي ينبغي تعويد أجسامنا عليه .. أعمالنا بالنهر تنتظرنا كي نؤديها بنشاط وبمحبة .. أرجو ألا أرى منك مكروها ، أو أسمع عنك ما يسيء .. أمضي إلى حال سبيلك موفقا.

أنا أودع البنية العامة .. استقبلتني البنايات المجاورة الرمادية الحزينة .. عليها كانت تنكسر خيوط المطر تحت ضربات الريح وتتوزع في موجات فوضوية مذعورة .. لفحتني الريح الباردة التي كانت تسعلها السماء .. مستقرة في النخاع .. حبات المطر تقع على رأسي .. تتسلل إلى رقبتني .. ثم تغوص غازية في امتداد همجي كل مساحة جسدي .. البرد لسعه حاد .. انحدرت دموع حارة من عيني .. ألفت الطريق ممهدا أمامها .. اتحدت بقطرات المطر الشرسة التي كانت تنقر رأسي دون رحمة.
— يا بني ، ينبغي أن تأخذ قسطك من الراحة .. النوم مطلب فيزيولوجي .. ما قصده من إيراد هذا المصطلح العلمي بالذات ؟ أثله دراستي كانت العلوم هي المادة الوحيدة التي نصيبي منها الصفر ، خلال سنواتي الدراسية كلها .. مصطلحاتها الغريبة المركبة ، أتقرز منها .. ما تحمله من مفاهيم لا يجد طرقة إلى عقلي .. ازداد كرهها لها يوم طلب مني أستاذ هذه المادة أمام رفاق القسم ، تكرار بعض المصطلحات عدة مرات تدريبا لللساني : فيزيولوجيا - جيولوجيا - سيكولوجيا -

تكنولوجيا - سوسولوجيا - .. يومها كان الإخفاق حليفي .. كل العيون متجهة إلي .. ابتسامات السخرية ، الهمسات .. شل لساني عن الحركة ..

اتخذ رفاقي فيما بعد هذا الحادث مادة مسلية لتمضية وقتهم .. الريح الباردة تاسع جسمي .. قطرات المطر تنساب بوحشية عبر جسدي .. راودتني فكرة العودة إلى البناية العالية .. طالبا من أعوانها إبقائي في تلك الغرفة الجميلة الهادئة الدافئة .. جدرانها صفحات مليئة بالمعلومات الثمينة .. تزيناها خرائط بخطوط مختلفة شكلا وحجما ومادة .. تروي أمجاد الذين أقاموا بها أياما .. أسابيع .. ربما شهورا .. هائئين .. الهناء مطلب إنساني صعب .. بل ضرب من المحال .. إنها كلمة تجعلني أشعر بالقرف لما أسمعها من غيري .. أما أنا لم تخطر لي على بال .. بل غير موجودة في قاموسي اللغوي .. أذكر - والذكريات صدى السنين - أن والدتي قبل خمس سنوات ، أثناء توديعها لي أمام الباب ، قبل الفجر لمصادفة الحافلة المتجهة إلى الشمال .. في رحلة إلى هذه المدينة النهمة .. هذه المدينة ابتلعتني .. أبتقت علي في جوفها بعد أن لاكتني، ومضغتني..

صبت علي كل عصارات جهاز هضمها .. أنا ضحية من ضحايا الكثيرين .. لا هي تمثلني ولا هي ألقت بي خارجا كفضلة من فضلاتها التي تلقي بها يوميا خارجها .. أو تكدس في زوايا الشوارع الخلفية ومداخل البنايات العمومية .. ليتني كنت فضلة في صناديق المزابل حتى أحظى بمئات النظرات من أولئك التعسلة النابشين لها في الصباح الباكر .. ليتني فضلة تلقى خارج المدينة .. فتحظى بالحرق .. تتحول إلى سماد عضوي مفيد إلى تربة تستغيث طلبا للغذاء وللحرق والعضلات

الشابة المقتولة ، أذكر - والذكريات صدى السنين - أن والدتي أثله تشييعها لي وهي تمدني بحزمة ملأى بمؤونة وكساء ، أكدت عدة مرات :
- اخوتك صغار يا ولدي .. أنت لهم الأب والأخ .. اعمل واكسب وادخر حتى توفر لهم ولك أسباب السعادة والهناء .

اقتحمت أسوار هذه المدينة .. أحلام عديدة حملتها معي كما حملها قبلي العشرات . أن أغزو جسدها .. أن أمتلكه أو على الأقل يكون لي حق التصرف فيه جسدا وروحا .. في جيبي عشرات لأسماء مشهورة في عام التجارة والخدمات العامة والثقافة .. أمدنيها أصحابها أو عائلاتهم .. قرابة الدم متينة بيني وبين بعضهم .. دقت الأبواب وأنا أحلم باكتشاف كنوز السندباد البحري .. رد واحد متكرر في كل الحالات .. صمت قاتل .. أو رد متجاهل للاسم المفتش عنه (بفتح التاء) . ما كان يؤمني أن أسمع قهقهات تتردد وراء ظهري داخل تلك المنازل ، فتستحيل الأفواه الصادرة عنها إلى أفواه متوحشة بشعة راحت أنيابها تنغرز في لحمي .. تنهشه .. تمزقه شر تمزيق .

اقتحمت الأسوار كجندي يحلم بامتلاك كل شيء والعبث بكل ما طالته يدها .. ابتلعتني هذه المدينة .. جردتني حتى من الحلم .. السماء حيوان وحشي هذا اليوم يسعل الريح والمطر ، خيوط المطر ثخينة .. عمودية .. تتكسر تحت ضربات الريح الهمجية .. تتوزع في موجات فوضوية مذعورة ، لترطم بمساحة جسدي الواهن المحروم من مكاسب الغنيمة الليلية .. المقتسمة مع كلاب المدينة أو مع أولئك البؤساء في زوايا الشوارع الخلفية .. أمام القصور الشاخنة .. في مداخل العمارات الشاهقة.

— إختوك صغار يا ولدي أنت لهم الأب والأخ ، وفر لهم أسباب السعادة والهناء.
آخر هذا الشهر يا أمه وإرادة الله ، تصلك الكمية الأولى من النقود ..
تحياتي الحارة .. سلامي الودود أنفقته دون مقابل لكل رائح وغاد عبر
الشوارع والدروب في هذه المدينة المتوحشة .. مكافأتي الدهشة والاستغراب من
الآخرين .. رمي بالبلاهة من البعض ، وجوه عديدة لأسماء أعرفها .. كل اسم يوحى
إلي بجزيرة زاخرة بالنعيم والخيرات ، ليست غريبة عني .. جزر احتوت كل ما
تشتهي النفس تلذه العين .. من بعيد توحى بالسكر والجمال والدعة .. لما اقتربت
منها قذفتني بحمم براكينها الحارقة
السماء تسعل الريح والمطر.. الخيوط المطرية ازدادت ثخانة وتعامدا ..
عجزت الريح الوحشية عن تكسيها .. خاطب أحد الشيوخ المحتمين تحت رواق
شارع باب عزون رفيقا له :
— مطر هذا العلم غزير جدا .. إنه علم الخيرات والنعيم الكثيرة.
— إنني أعشق المطر وأموت فيه يا صاحبي .
— إنك تعشق الفراخ السمينة والسلال الملأى بالفاكهة الطازجة المحمولة لك من
أخيك .
— بل أعشق الأرض وما تنعم به من خير على أبنائها .
— وما يمنحك من العودة إليها وأخذ نصيبك من نعمها ؟
— إنهم الأبناء وأمهم ابتلعتهم المدينة .. هيا نقطع الشارع .. المقهى المقابل أحسن
مكان نحتجز به مقاعد حتى يتسنى لنا التمتع بسقوط المطر .. اللهم انعم علينا به ..

الأبناء .. أمهم .. الشيوخ .. الكبار .. الصغار .. سكنوا المدينة .. تناسلوا تكاثروا .. غزوا جسدها .. سكنوا كل خلية من خلايا جسدها الذي لا يزال به بقية من المقاومة .. الريح تزداد عنفا وشراسة .. خيوط المطر تغزو جسدي الواهن بحرية .. المقاومة معدومة .. الشوارع خالية من الناس .. الكل احتفى بمدخل العمارات والبيوت .. تكدسوا كالذباب بالمقاهي تكدس الذباب على الجيفة .. الوحيد الذي اقتطع الشوارع من بدايتها إلى نهايتها .. الريد قارس .. المطر الغزير في هجوم شرسي منذ الصباح .. مذ غادرت تلك البناية الجميلة العالية .. أقطع الشوارع .. عشقي للمطر عشق متغلغل حتى الأعماق .. إنها المادة الوحيدة النقية المطهرة .. المادة التي لم تلوثها يد الإنسان بعد.

عقارب الساعة تجمدت عندي .. فقدت الإحساس بالزمن .. العشق يفقد الإنسان الإحساس بالزمن .. لا أدري كم مر من لوقت وأنا أذرع الشوارع النظيفة .. لم لا أعشق المطر .. إنه الفرصة الوحيدة التي تجعلني محظوظا لعدة ساعات .. ربما لنصف يوم .. يوم كامل أو ليلة تامة ، والشوارع ملك لي وحدي .. أنا سيدها.. أتنقل فيها بحرية مطلقة ، دون أن يعترض طريقي أحد وحتى أولئك البؤساء الذين أتقاسم معهم الغنائم الليلية .. كثيرا ما يسخرون مني .. على كل حال أنا أحسن وضعية منهم ، ما دمت لا أرتضي ورق الكرطون فراشا وغطاء لي على قارعة الطريق ، تحاورني أصوات المحركات الهادرة ونظرات المارة شفقة أو احتقارا .. أنعم بغرفة معتمة تشاركني فيها حشرات الأرض وتحاورني جدرانها ذات الوجوه الجديدة .. الاختيار لي أما البقاء بها أو التسكع ليلا ، استجابة لهوايتي المفضلة .

بالأمس وصلتني رسالة من والدتي تخبرني بمرضها الذي أخذت وطأته تزداد .. ورقة مالية داخل الرسالة .. إنها تلح علي في العودة .. صاحب الغرفة المعتمة وجه لي الإنذار الخامس بوجوب دفع الإيجار للسنتين الفارطتين .. مع اخلائها لضرورة الترميم .

البرد يجمد رجلي .. التخدير المؤلم يتسرب عبر العظام .. الريح الباردة تدفع جسمي الواهن الشعور بالعجز عن المقاومة بدا يتتابني .. الأشياء أمام عيني تتلون .. الصورة تفقد ماهيتها .. ها ..ها هي محطة الحافلات تبدو وحافلاتها تجثم بكبرياء على الأرضية .. كل واحدة راحت في غيبوبة لذينة تحلم باقتحام عوالم جديدة .. بعيدا .. لأدخل البناية بسرعة.

— من فضلك تذكرة في أول حافلة تغادر هذه المدينة اتجاه الجنوب.

نُشرت في صحيفة الشعب يوم: 01 اجوان 1981

حُلْمٌ يتحقق

الطلبة الجدد الحائزون على دبلوم البكالوريا حديثا في الطوابير الطويلة المتحركة .. الملتوية .. كثبان يهيمّ بالهجوم على فريسة ينوي ابتلاعها .. الطلبة يتزاحمون .. يتدافعون .. أمام بناية ضخمة حديثة العهد بالبناء .. كل يريد الوصول أمام شباك مغلق فوقه لافتة كتب عليها بخط أنيق " شباك التسجيل " .. أصواتهم تتشابك مع أصوات العمال والعاملات .. أصوات العمال تعلو محتجة على الطلاب الذين اقتحموا المكان .. احتلوا الرواق بكل وقاحة وعجرفة .. عملية الكنس ومسح البلاط لم تتم بعد .

في ناحية أخرى من الرواق ارتسمت علامات الحيرة والقلق على بعض الوجوه التي لأول مرة تطفأ أقدامها حرم البناية الشاخة .. لم تجرؤ على الانضمام إلى الطوابير المتحركة المتزاحمة .. غير بعيد كان يقف السيد محمود رئيس فرقة عمال بشركة لصنع البلاط ، رفقة ابنته الوحيدة التي نالت البكالوريا بامتياز في آخر دورة منها .. يراقب ما يجري .. لا يزال دم الشباب يجري في شرايينه ، والبسمة لا تفارق شفثيه .. رغم الأعوام الخمسين التي ينوء تحت ثقلها .. كآبة خفيفة متغلغلة في داخله .. الوحدة والشقاء تركا بصماتهما في أعماقه .. عاش لسنوات يحلم بابن .. يقف إلى جانبه ذات يوم .. يشد ازره .. رزقه الله إلا بابنته الوحيدة فاطمة الواقفة بجانبه .. إنها أمل الأسرة الوحيد .. الأمل العاطفي والنفسي والامتداد لجذور العائلة الصغيرة التي همها الوحيد ، توفير الظروف الحسنة واللائقة لابنة وحيدة كي تدرس وتتعلم ، نكاية بالعهد المظلم الذي شبّ فيه الولدان .. الحصيلة والد أُمي .. والدة تعيش ،

تحت عذاب مرض السكر .. أملها الوحيد أن تصل البنت إلى مستوى ثقافي يؤهلها للحصول على وظيفة ..مدخولها ينسيها ما كابدها من ضيق العيش.

ظهر في الأفق أخيرا ما لم يكن في حسابان العائلة الصغيرة .. قررت فاطمة الانضمام إلى الجامعة ..أسوة بصديقاتها وجاراتها في الحي .. ليس في الأمر غرابة ما دامت توجد بعض الرفيقات أسرهن أسوأ حالا من وضعية أسرتهن وقررن الالتحاق .. أفلحت في إقناع والديها بذلك .. عارضا في البداية ، ثم وافقا تحت إلحاحها ، وعز عليهما أن يراها تتخلف عن الركب .. وأشفقا عليها أن تحرم من الدراسة وهما يلاحظان ويعيشان شوقها وهفتها على فرع الطب .

ها هي تقف بجانب والدها .. لا تكاد تصدق أن الهالة القدسية التي كانت تتصورها لهذا المكان المقدس في نظرها .. وما ابتدعه خيالها في الليالي السابقة .. يمكن أن يكون مسرحا لمد وجزر ، بين عمال لا تحلو لهم عملية التنظيف وتمير المكائن إلا بين الأرجل ، ونظراتهم تتقدحدا لطلبة لا يزال عالم البراءة يسكنهم .. الفرحه والسعادة تغمرهم .. والفرحة متغلغلة في كل خلية منهم .. وهم يحتضنون دبلوم البكالوريا .. جواز المرور إلى المستقبل الزاهر .. مستقبل العلم والمعرفة ..

نظر محمود إلى ابنته بإشفاق ، ثم حول عينيه إلى الصفوف المترامية .. المتزاحمة .. المتدافعة .. أوشك ان يصرخ بأعلى صوته موقفا ما يجري .. سرعان ما تمالك نفسه، وتذكر بانه ليس في المعمل يمارس عمل رئيس فرقة العمال.

لاحظت عليه فاطمة تغير السحنة .. وتبدل ملامح الوجه .. ادركت بذكائها ما يعانیه من عذاب .. عرفت سبب حيرته وقلقه .. بل التردد الذي يساوره .. أمسكته بلطف من يده :

— اجلس يا أبي ، يبدو أن تعب الوقوف أثر عليك .. لنصبر قليلا .. عما قريب يفتح الشباك وتبدأ عملية التسجيل ونغادر المكان.

إنها تدرك جيدا بحصافتها أن أباه ليس من أولئك الذين يشكون التعب الجسدي .. تعب الذي يعذبه أكثر من ذلك بكثير .. حيرة وقلق يأكلانه .. تمنى لو أنه موجود بيته يطلب قهوة مزهرة من زوجته حليلة كالتى يطلبها بعد عودته من العمل مساء كل يوم .. تقلل من وطأة التعب ، وفي مكانه المفضل من الغرفة ، حيث يجلس على زريبة متوسطة المساحة ورثها من والدته التي نسجتها بنفسها وتركتها له ذكرى طيبة ، عزيزة على نفسه ، لطالما اعتنى بها وصانها من عوامل الطبيعة وعبث الأيدي .. وسيظل يحافظ عليها ويرعاها إلى النهاية .. الآن في حاجة ولو إلى كأس ماء يطفئ به هيب القلق والحيرة .. هيب الانتظار .. هيب السلوك اللامبالي .. اللامسؤول والنظرات الوقحة من البوابين والعمال ، هؤلاء القادمين الجدد من أماكن قصية.

بغته لما كانت فاطمة تطمئن والدها بقرب فتح الشباك ، وتشرح له بأن ما يراه من فوضى .. وما يصل سمعه من صراخ وانتهاك لحرمة المكان ، لا يعبر عن القدسية التي تُظلل قاعات الدراسة .. فجأة أعلنت ساعة الرواق الحائطية الساعة التاسعة تطلعت إليها الأنظار .. متنقلة بينها وبين محتوى بطاقة صغيرة .. مُثبتة أعلى الشباك .. معلنة بداية العمل الساعة الثامنة .. صاح طالب في مقدمة الصف الأول :

— ما أتينا هنا نستجدي أحدا من تسجيلنا بالجامعة .. بل هو حق من حقوقنا الأساسية تفره حقوق المواطنة.

وافقه رفيقه الذي كان بجانبه مضيئا :

— لندق الأبواب بحثا عن أولئك الذين يتصرفون هنا وكأنهم في ممالكهم الخاصة.
تعالى الأصوات .. ارتفع الصراخ .. اهتزت الجدران مرددة الصوت المخيف :
— ما أتينا نستجدي أحدا .. افتحوا الشباك .. إنها الساعة التاسعة .. كفاكم
لصوصية للوقت .. أتينا من أماكن نائية جدا .. تحملنا العناء الكثير من أجل
الوصول إلى هنا .

تقدم أحد الطلبة إلى باب جانبي كتب عليه بخط واضح جميل : رئيس
المصلحة .. وفي الزاوية السفلى على اليسار من البطاقة كتب بخط صغير : ممنوع
الدخول .. دق الطالب الباب دقات خفيفة في البداية .. انتظر بعض الدقائق .. ثم
واصل الدق أعنف من ذي قبل .. سرعان ما فتح الباب بشدة .. وأطل منه وجه يتقد
غضبا .. كاد صاحبه بمخلبه يطبق على عنق الطالب ، لولا صرخة مدوية صدرت
من الجميع ، زلزلت الأرض تحت رجليه .. شعر بأن الجدران توشك أن تطبق عليه
.. بكل هنجعية ووقاحة صاح :

— ماذا جرى لكم يا ..؟ كنتم تعتقدون أننا مستريحون ونتعاطى المرطبات ..

صرخ في وجهه الطالب الذي دق الباب :

— كنتم تتعاطون أكثر من المرطبات يا ... هل تحسبون أن هذه المؤسسة شيدت من
أجل أن تجعلوها ملكا لكم وتتصرفوا فيها كما يحلو لكم .. لا .. لا يا سيد إنها
شيدت من أجل هؤلاء الواقفين منذ الصباح الباكر .. القادمين من أقصى الولايات
البعيدة .. والذين قدم أبائهم وأجدادهم الغالي والرخيص كي تقام هذه المؤسسة ..
وجودك أنت وأمثالك فيها من أجل أن تقدم لنا نحن الخدمات التي أتينا من أجلها

..إننا لا نستجديك يا هذا ، حتى تشهر علينا غضبك .. وما طالبناك بتسجيلنا في
جامعتك الخاصة .

— الهدوء من فضلكم يا أبنائي .. حقيقة إن الجامعة ليست ملكا لأحد .. بل هي
مكسبنا جميعا ، ومكسبا ثميننا .. ساعدونا في النظام والانضباط حتى ننهي عملية
التسجيل بسرعة .. وقتنا جميعا ثمين .

برزانة وهدوء نطق بهذه العبارة مدير الجامعة الذي اتجهت إليه الأنظار
وهدأت له النفوس ، وخيم الصمت على المكان.. ثم أردف :

— إننا ندرك يا أبنائي ، بأن معظمكم قدموا من ولايات بعيدة .. ونحترم حلمكم
الذي عملتم له منذ سنوات كي تلتحقوا بهذه المؤسسة .. سنساعدكم من أجل
تجسيده .. ثم إننا نقدر أتعابكم المادية والجسدية والنفسية التي تحملتموها للوصول
إلى هنا.

في اللحظة التي كان المدير يتحاور فيها مع الطلبة ، فتح الشباك .. وجلس
وراءه أحد الشبان ، متبرعا ببسمة خبيثة للطالب الأول الذي سلمه الوثائق .. وما
مرت غير دقائق معدودات حتى امتدت العملية إلى الطالب الثاني المحاذي .. ما أن
لاحظ الشاب المدير اختفى متجها إلى مكتبه في الطابق الثاني من البناية ، حتى
غادر مكانه .. واقترب من جارته الحسنه في المكتب .. كانت تراقب وجهها في مرآة
صغيرة ثبتتها بين حزمتي ملفات غطت أعلاها طبقة سميكة من الغبار .. راحت تضع
أحمر الشفاه تارة .. وتمشط شعرها تارة أخرى .. بادرها :

— أوه .. لا أرغب أن أراك بهذا الفستان .. أنت تثيرين غضبي دائما بهذا النوع من
الملابس.

— لا عليك يا عزيزي ، ارتديت هذا الفستان من أجل الذهاب إلى حفلة ختان ستقوم بها خالتي هذا اليوم لابنها الصغير .. خالتي لها قريبات ومعارف كثيرات يأتيها من الدوار، وأنت تعرف نوعية ملابسهن ، وحتى لا أغضب خالتي ومعارفها يجب أن ارتدي هذا النوع من الملابس.

عاد الموظف الشاب إلى مكانه معجبا بنفسه ، ومهددا الواقفين وراء الشباك:

— سوف لا أواصل التسجيل إلا إذا نظمت أنفسكم في صف واحد ، وليس في صفوف عديدة ، مثلما أنتم عليه الآن .. وإلا سيضيع يومكم هذا..

علق أحد الطلبة كان في مقدمة أحد الصفوف .. لحظة أن كان يغادر مكانه :

— إن يومنا هذا ضاع .. سواء استأنفت العمل أم لم تستأنف.

انتفض الموظف الشاب صائحا في وجهه :

— يبدو أنك تعلمت الفصاحة في الثانوية .. هل كلامي أغضبك ؟ هل نطقت بمكروه ؟ طلبت منكم تنظيم صفوفكم حتى نبدأ العمل .. وهذا لمصلحتكم أنتم .. وما دخلي أنا إن ضاع يومكم ولم تتم عملية التسجيل من جراء فوضاكم ؟ ... لماذا تنظر إلي شزرا ؟ .. حولهما عني .. بك وبأمثالك ستتحول جامعتنا إلى مستنقع للميكروبات.

الشريط يمر ثقيلًا مملا أمام عيني محمود وابنته فاطمة .. تاركا أحاديث عميقة في نفسه .. فاطمة تعرف خطورة تأثير ذلك على أبيها .. تخشى ترده الذي لا بد منه أمام كل جديد ، يشكل انعطافا في حياة أسرته الصغيرة .. تعرف ليوئته وتحفظه في البداية .. ثم عناده وإصراره على اتخاذ قراره الصلب في نهاية الأمر.. إنها تعيش أخطر اللحظات وهي تتفرس في وجهه خلصة بين آونة وأخرى.. ملاحظة عليه

القلق كلما ارتفع صراخ الطلبة واشتد زحامهم .. وصدرت سلوكيات ، وأقوال غير لائقة من العمال والموظفين .. يهتز قلبها هلعا كلما تلملم والدها وتحرك من مكانه متأففا .. لا تنفك تتطلع إلى شفتي والدها .. منتظرة قراره الخطير بالعودة إلى البلد .. دون تسجيل .بغته مرّ بالقرب منها الطالب أحمد ابن البلد ..ابن الجيران الذي يتابع الدراسة بالجامعة منذ سنتين .. التقت عيناه مباشرة بعيني فاطمة .. شلته المفاجأة .. أخرجه من ذهوله صوت محمود :

— أحمد .. مرحبا .. أنت هنا ونحن منذ الفجر نعيش هذا العذاب .. ؟ الشطر الأول من النهار يوشك على نهايته .. وعمليات التسجيل تتعثر كما ترى.

— أهلا بكما .. ما كنت أنتظر حلولكما بهذه المدينة ، وقدومكما إلى هذا المكان بالضبط .. سمعت بنجاح فاطمة ..غير أنكم حسب علمي .. ما كنتم تنوون إلحاقها بالجامعة .

— بالفعل يا بني .. ما كنا ننوي هذا إنما جدّ ما لم يكن في الحسبان .. رغبة فاطمة في مواصلة تعليمها وإلحاقها في ذلك أسوة برفيقاتها ، ثم إن متطلبات التنمية بالبلد ومناصب الشغل تدعو إلى ذلك .. إنما ما رأيته يا بني في هذا المكان اليوم يكاد يثني عن عزمي .. ويؤدي بي إلى التمسك بقراري الأول بعدم إلحاقها .. لولا ظهورك المفاجئ الذي سيسهل علينا ما جئنا من أجله .

— بلى يا عم محمود سيسهل عليكما من غير شك .. وما عملية التسجيل غير إجراءات بسيطة سأتولاها بنفسي .. في الحقيقة فرحي عظيم وأنت توافق فاطمة على مواصلة السير في طريق العلم والمعرفة.

... كلام كثير عذب قالته عينا أحمد لعيني فاطمة وهو يأخذ منها وثائق الملف.

أيام حُبلى

ودعني وكاد يسقط على الأرض ، إذ تعثر حينما داس على قطعة متدلية من أسمال بالية كان يرتديها .. لحت قطرات ساخنة انحدرت من عينيه ، سرعان ما وجدت طريقها ممهدا في أخاديد انتشرت في مساحة وجه هرم بأعداد هائلة ، امتصت السنوات الطويلة منه نضارته . ناديت عليه أكثر من مرة ، ثم بدا لي أن الحق به ، ما أن مضيت في ذلك بضع أمتار حتى اختفى تماما ولم يبق له أثر ..

أخيرا عدت إلى الحقائق بجانب المسجد ، حيث جلست قريبا منها ، وما لبث أن سرح الفكر بعيدا ، وحملتني الذاكرة على متنها إلى الوراء ، وأخذت تستعرض أمام ناظري شريطا جذبي إليه :

كم كان يستهويني وأنا طفل صغير ، الدخول إلى إحدى الغابات النخلية الفسيحة ، وهي غابة تبعد عن قريتي بمسافة لا تزيد على الميل الواحد ، تجاوز قطعة أرض لا تزيد مساحتها على الهكتارين يملكها أبي وقد ورثها عن أبيه - أي جدي - اعتنى بها فحولها بستانا جمع من الثمر والشجر والزرع ما كان يكفيننا الحاجة إلى الغير .. كان يستهويني وأنا في تلك السن اليافعة كثرة الدخول إلى تلك الغابة المترامية الأطراف.. والعبث والتخريب والتدمير لكل ما يقع بيدي ..

لن أنسى ذات يوم ، قد أغريت فيه ثلة من أطفال القرية أصدقائه لي.. استدرجهم إلى تلك الغابة وقت القيلولة ولا أحد بها ..هرعنا بادئ ذي بدء - كعادتي وحدي - إلى ناحية البطيخ والدلاع فأكلنا ما طاب لنا ودسنا على الباقي الناضج .. ثم

أقتلنا شجيرات الطماطم والفلفل وألقينا بها في البئر ، وختمنا لعننا ، أو بعبارة أوضح عبثنا بخرط البلح من عراجينه وقد أوشك على النضج.

مساء ذلك اليوم عدت من الكتاب .. كعادتي مباشرة أخذت طريقي إلى قطعة أرضنا أين يمضي والذي أسعد ساعات حياته ، باذلا جهده ونشاطه في البستنة والفلاحة غير أنني فوجئت بعدم وجوده ، وبذلك فقدت استقباله الحار لي وقبلته الحلوة .. وحينما كانت الشمس تودع الناحية .. وتختفي على مهل وراء النخيل الباسق .. عاد منهك القوى ، متغير الملامح ، وما استطاع أن يخفي علي نفسا حزينة رغم محاولته ذلك . أخذني من يدي وعدنا سويا إلى البيت . لكن تلك الليلة بالذات كانت أطول ليلة مرت بي ، فما طرق النوم جفني : تفكير ممض ، ما تبلور مصدره لي .. رحت ضحية له .. ألهب عقلي ، وسبب لي صداعا مؤلما ، وحى ألهمت جسدي ، وأسقطني أيما وليالي طريح الفراش ، وما زاد ألمي ليلتها .. حديث والدي المتواصل لوالدتي بصوت خافت ، وما فات أذناي التقاط بعض الكلمات والعبارات .. ومن تلك الأحاديث رحت أتصور غدا مجهولا.

استشففت من حديثه ذاك سحابة قائمة أخذت تمتد حتى كادت أن تطبق علي ، وتحطم عظامي ، وتمزق لحمي وتطبق على أنفاسي.

ازداد تغيب والدي عن قطعة أرضنا تبعا لمرور الأيام ، كل نصف النهار الأخير ، ومن الأيام ما كان يغيبها من الصباح إلى المساء .. الأحواض جفت .. التربة تفتتت .. الشجيرات لوت رؤوسها منتحبة .. الأشجار زحف عليها الذبول والاصفرار .. أسراب البوم وجدت على قممها الملجأ الأمين ..

اختارتها الغربان لبناء أعشاشها .. حرمتنا مكوثه بيننا ، نيابة عنه يوم الجمعة .. أرتادُ السوق الأسبوعية والقفة في يدي .. لا نرى والدنا غير وقت القيلولة من أيام الجمعة قبل أن يتوجه إلى المسجد لأداء الصلاة.

أي إحساس انتابني أيامها ؟ أي شعور غريب أصبحت أشعر به تجاه أبي ؟ أب حرمني حنانه أفقدني عطفه. هل كل الآباء قاسون مثله ؟ .. لا .. فمن الآباء من لا يصبرون وقلوبهم تنفطر شوقاً لأبنائهم ، فلما لا يكون والدي مثلهم ؟ ... أسئلة تزاхمت على رأسي وعجزت عن إيجاد الجواب لها .

أحيانا تزداد الصورة قتامة أمامي .. ويأخذ الحقد والغيط يزحفان على قلبي ، سيما وقد اتضح لي ذلك ذات يوم بشكل فضيع ، ذات صباح بسوق الخضّر ، وأحدهم يزن لي كيلوغراما بصلا ، قال لي بلهجة ملؤها التهمك والسخرية ، لا تخلو من التشفي :

— أحرمتكم يا عزيزي .. والدك حتى من البصل ؟ أم أصبح يقننه احتياطا لطوارئ السوق ؟ سكين حادة مزقتني ، وما وجدت غير الصمت ، أضفته إلى ثمن البصل ، ومضيت منكس الرأس . بدأت ملامح الصورة المبهمة التي حيرتني تتضح أما مناظري

في يوم قائف ، شديد الحر ، والرياح الجنوبية المحرقة تلفح الأجساد ، فتكاد تحرقها حرقا ، وتحيلها إلى رقاع جديله جافة . كان ذلك في منتصف النهار ، وأنا ألقى نظرة شاملة لكل جوانب الغابة ، استعدادا لدخولها ، إذ بي ألحه غير بعيد .. والشمس العمودية تسقط سفافيد حامية تلهب ظهره العاري ، حافي القدمين ، والأرض بساط محرق ... أسمال تغطي ما فوق الركبتين ، يركض إلى تلك الساقية

يصلها ، يعدو إلى هناك يمهّد الطريق أما تيار الماء المتدفق ، حبات العرق جواهر مضيئة ما أكثرها على مساحة ذلك الوجه ، وقبل أن أجز ساقى عائداً إلى الورا ، وأنا بين مصدق ومكذب لما أرى .. تناهي إلى سمعي .. صوته .. صوته القبيح كفحيح أفعى .. صوت ذلك الرجل البدين .. صاحب الشوارب الكثّة السوداء ، والعمامة الصفراء ، والخيزران الحلزوني ، والكرسي الوثير أمام مخبّزته .. وهو يرغي ويزيد .. ورشاش من السب والشتم لا ينجو منه أحد من عماله .. بل حتى من المارين أحيانا .. بصوته القبيح خاطب والذي :

— كان الأفضل لك ، لو وضعت حداً لوقاحة ابنك حتى لا تتورط فيما أنت فيه الآن ، وعلى هذه الحالة التعسة — آه ، وبالناسبة . ما رأيك أن تشتغل عندي وفي الغابة بصفة دائمة فالشغل — والحمد لله — كما ترى متوفر ...

— نفذ ما تحت يدي يا محمود من الدقيق قبل ثلاثة أيام مضت .. اضطرت أن أستلف الزيت من جارتي سعدية .

— توقعت ذلك يا زوجتي ، لكن اطمئني فقد تفاديت تكرار ذلك .

كيف ذلك بالله عليك ؟

— الحاج مسعود سيقرضني كمية ما المال ، على أن يقتطعها من عملي في غابته مقابل فائدة قدرها خمسة وعشرون بالمائة.

— لي رأي أعرضه عليك بعد أن فكرتُ فيه طويلاً، فأنت تعرف أنني لا أقل عنك مهارة في الفلاحة والبستنة ، هل تسمح لي بالعمل مع الطفل الكبير في قطعنا ؟ — أشغالك في البيت تعبها كثير ، وتفوق طاقتك الجسدية .

— ليس كثيرا كما يبدو لك .. أرى من الأفضل أن نستأنف التجربة ، حتى نعتني بما هو موجود من إنتاج الموسم من تبغ وفواكه صيفية .. وننقذ ما بدأ الذبول يدب إليه — إن رأيت ذلك ولا بد منه ، فأنا موافق على العناية بما هو موجود فقط .. دون
الاضافة.

كان ذلك في ضحى يوم وقد عدت من " الكتاب " ولسان حالي يشتم من نهجوا طريقة التعليم المتبعة به ، أعوام سلختها من عمري سلخا دون أن يُسجل على شريط حافظتي شيء مهم ..عدت وحبل الفلقة حفر في ساقي خندقا دائري الشكل ، وموجات الألم تزداد . محتاحة رجلي ، وأنا أصبح بوالدتي أن أسرعي بالزيت للدهن ، فطالما قامت بهذه العملية لي كلما عدت .. وأنا في حالتي تلك التعسة ، لكن الفلقة كانت أشدها إيلا ما في ذلك اليوم بالذات ، فضربات العصا الغليظة التي كان ينهال بها سيدي بكل قواه فاقت الأربعين ، لست أدري ماذا فعلت يومها .. كل الذي لا يزال أذكره عايرت رشيد ابن آغا القرية ، بلونه الأبيض جدا، وبشعره الأصفر الذهبي في اليوم السابق ، غير أنني ما إن دخلت صباح ذلك اليوم ..والشمس أطلت من خدرها حتى هجم على سيدي هجوم حيوان مفترس على فريسته الضعيفة ، وعضني من كتفي وكال لي لكلمات على ظهري ، وسارع بالفلقة التي مسكها رشيد نفسه ، من جهة ويحي ابن عمه من الجهة الأخرى.

ناديت على أمي .. وكررت النداء .. ثم أجابني من غرفة النوم ، فهرعت إليها وأنا أعرج ، ففوجئت بوالدي ملقى على الفراش ، مصفر الوجه ، يئن من شدة الألم ، وهي تطعمه قليلا من العسل في صحن صغير .. أشار إلي بأن أدنو منه ،

ومسح رأسي بيده ، وخلل شعري بأصابعه المرتعشة .. وقال لي بصوت ضعيف ..
وينبرات متقطعة :

— ها قد أصبحت رجلا يا بني .. أنت الكبير بين إخوتك .. وأنت الأخ لهم والأب ..
والابن المطيع لوالدتك.. قطعة الأرض كنزٌ ثمين لكم .. لا ترضوا عنها بديلا ..
فضلت إفناء صحي في خدمة جارنا الخبيث على أن أسلمها له ..

ما أمهل المرض والدي .. علمت أنه كان نتيجة كسور أصيب بها إثر
سقوطه من نخلة .. فاختاره الله إلى جواره بعد ثلاثة أيام .. عقب دفنه ونحن جلوس
في رحبة الحي .. وجماعات المعزين جالسة تشرب الشاي والقهوة ، وتثرثر ، نابشة
قبور الموتى ، متلذذة في استعراض العشرات من الأحياء ، مال أحدهم علي وكان
قريبا مني ، وهمس في أذني :

— المرحوم والدك افترض مني مذ أربعة أشهر عشرة آلاف فرنك ، وتعهد بإعادتها
إلي في هذا الشهر.

— حسنا .. لتمر هذه الأيام .. ثم نحن على استعداد لكي ندفع.
وبينما كانت الشمس تميل إلى الغروب يوم ذاك وتكاد تختفي ، والجميع
متوجهون إلى المسجد .. قصد أداء صلاة المغرب انتحى بي سيدي ناحية بعيدة
وهمس لي :

— المرحوم والدك ، لم يدفع لي أجرة تعليمكم لمدة أربعة أشهر .
مضت أيام عشر ، وشبح الحزن من النفوس أخذ يتراجع رويدا رويدا .. وقد
خلا بيتنا من شاركونا حزننا في فقيدنا العزيز .. كلفتنني والدتي صباحها بالتوجه إلى
السوق بغية ابتياع بعض الضروريات .. قادني قدماي من ناحية إلى أخرى ومن

متجر إلى آخر .. فجأة التقت عيناى بعينه الناريتين .. ارتبكت وكدت أسقط على الأرض .. فقدت السيطرة على نفسي .. أفاقني صوته العنيف :

— لكم الخيار .. إما أن تعمل أنت ووالدتك في القطعة إلى حين تسديد الدين المتبقي ، أو تدفعوه بالتقسيط .

— لكن يا سيدي ...

— اخرس يا عنيد . خذ هذه الصفعة مني .. اذهب حالا وأخبر والدتك.

انتهت رحلتي الطويلة .. ورجعت إلى القرية خلفا ورائي غربة عشرين عاما ، لا أعرف كيفية رحيلي .. كل ما أعيه لحد الساعة ، أنني قبل العشرين عاما .. سمعت حوارا جرى بين والدتي وبين شيخ كبير جارنا ، والد لتاجر ثري مقيم في مدينة ساحلية :

— ابني في حاجة شديدة إلى عمال ، وأرسل إلي في هذا الشأن ... فهل توافقين على إرسال ابنك إليه ؟

— أنت تعلم يا حاج .. أنه كبير إخوته .. ورجل البيت لدينا .

— لا خوف في ذلك فسنعطيك مقابل عمله ثلاثين ألف فرنك للسنة ، وسيستفيد من كسوة سنوية له ، ثم إن أكله وشربه وإسكانه في مكان العمل مجاني .

— مبلغ قليل يا حاج ، ثم إنه رغم هذا وذاك ، رب العائلة وبقاؤه ضروري .

— لا خوف عليكم من رحيله .. خذي هذه الحاجيات .. أعينوا بها أنفسكم ، لا تنسي أن تعدي متاعه .. فالسفر غدا صباحا .. إلى اللقاء .. ليلة سعيدة .

توالت السنون عائدة إلى الورا ، وسيط الزمن يلهب ظهورها .. فتجري مهرولة .. وجدت نفسي ذات صباح والشمس تغمر الكون بأشعتها الفضية .. لفظتني من

جوفها حافلة ركاب ليلية قادمة من الشمال ، ثم أقلعت تاركة جانبي حقائب ضمت زبدة المخاض الطويل .. وجمعت صيد رحلة في محيط الزمن .. رحلة كلها معاناة.

على الرصيف وحيدا .. وجوه جديدة اقتربت مني .. أبحرتُ في محيط السنين غائصا .. باحثا عن أسماء في لوح الذاكرة لبعض الوجوه أمامي .. بدون جدوى .. خرجت الشبكة خالية .. اقترب مني أحد الحمالين ، شيخ هرم ، عبثت به السنوات فأحالته إلى مزبلة روائحها تزكم الأنوف .. وصيرته أشبه ما يكون بقرود.

لحظة إن همَّ برفع الحقيبة على كتفه النحيف الواهن .. طلب مني مساعدته في ذلك ، تبين لي أن هذا الوجه ليس غريبا عني .. استنجدت بالذاكرة كعادتي ، ألححت عليها .. كانت شحيحة . أحياء عصرية أقيمت في ضواحي القرية .. التي لم تعد قرية .. إصلاحات جديدة أدخلت على الأحياء العتيقة .. لكن ها هو حينا لا يزال على حاله لم يطرأ عليه تغيير ... زقاقنا. الذي درجت فيه ، وعلى أديمه أمضيت سنوات الطفولة ..

رحت أمشي ونفسي غير مصدقة أنه زقاقنا بعينه ، أكد لي ذلك مسجده المتربع على عرشه يسخر بالأيام وما تأتي به الطبيعة .. في كُتّابه أمضيت تسع سنوات .. ومن فلقتة تلقيت أشد أنواع العذاب . مشيتُ وعيناي تلتقط الأبواب واحد بعد الآخر .. بعضها لا يزال دون تبديل ، وبعضها الآخر جديد علي .. ازداد لهفي على بابنا وقد بلغنا المسجد في آخر الزقاق وما عثرت عليه استولت على الحيرة .. وضع الحقيبة أرضا ، والتفت إلي ، بشرة حزينة ملؤها الحسرة والألم قال :

— أنت ابن المرحوم محمود ، لا شك أنك تبحث عن منزلكم .. عن والدتك وعن إخوتك ..

- بلى أيها الأب .. دلني عليهم .. أين يقيمون ؟ بالتأكيد أنهم على قيد الحياة جميعا .. هم يرسلونني.
- لا تخف يا ولدي .. هم بخير .. أما تزال تذكر قطعة أرضكم ؟
- نعم .. وهل من السهولة نسيانها ؟
- حسنا .. لنمض إليها .. الكل يقيمون هناك في خدمتها .. من خيرها ينعمون .
- شكرا .. أثلجتَ صدري .. كيف أعيدت لهم ؟
- يا ولدي زمانكم هذا الحالي .. غير ذلك الزمان حين افكت منكم .. وضعيتكم الحالية غير وضعية أيام زمان .. امضِ إليهم .. ها قد وصلنا .
- انتظر قليلا .. خذْ أجرتك هي حق لك .
- وداعا .. وداعا .. وداعا..

نشرت في مجلة الثقافة

القرص الأحمر

القرص الأحمر مختبئ وراء الغيوم السوداء الزاحفة : سقطت قطرات من المطر .. طفل يرتدي أسمالا بالية هجم عليه طفل آخر افتك منه قطعة خبز يابسة كان يلتهمها .. اتكأ على عمود كهربائي وانحدرت في بكاء عال . تحلق غير بعيد صبيان خمسة حول شبح امرأة أمطرتني بالدعاء .. رجعتي نقودا ، ألقى بها على منديل مبسوط أمامها .. امتدت أصابعي إلى جيبي .. تذكرت أن ما به لا يكفي قهوة المساء ..

الكتل البشرية تتدافع .. تتزاحم .. عقلي تائه .. رأسي فارغ .. أجوف .. بالون من الهواء .. هواء ساكن خامل لا يحرك حتى مجرد ورقة صغيرة .. هكذا قال لي مدير الشركة قبل دقائق .. الكتل البشرية تتدافع .. سرت .. وسرت .. قطعت شوارع عديدة .. طويلة من البداية إلى النهاية .. عادتي كل أمسية .. توقفت أمام الواجهات .. كالأبله .. مجلقت في المعروضات .. راودني الحلم مرات .. ارتديت أجمل الموضات .. من وراء النظارة الذهبية الجذابة التهمت بعيني الحسنات .. بالأقمصة الحريرية المنساب تحتها نسيم البحر الندي .. بالشعر المفهف تدغدغه النسمات .. كانت تحيط بي أجمل الفاتنات .. هذه تضع يدها على كتفي .. تلك تبهر في عيوني .. تلك تطوقني من خصري .

.. عيناك كالجمر .. انبعث منهما لهيب حارق من وراء زجاج الواجهة .. أأحالي بدوري وقودا مشتعل .. ثم رمادا تذروه الرياح .. ذراتها تدوسها الأقدام . تمنيت لو

لم تضع ذرة واحدة من رمادي .. تمنيت لو رميت ذرات رمادي في نهر - الغنج -
بركة وتخليدا -

اندفع خارجا من دكانه ثورا هائجا .. قال ذلك وبزق على الأرض :
- أفقْ لنفسك يا هذا .. للمرة الرابعة تقف طويلا أمام الواجهة .. بدون فائدة ،
امضِ إلى سبيلك.

طردت من العمل .. المرة الأولى في حياتي .. قلبي حدثني منذ اليوم الأول .. بل
منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها قدمي أرض مبنى الشركة .. يومها استدعاني
السيد المدير العام إلى مكتبه الفخم المكيف .. حدد لي في ذلك اللقاء مهماتي
ببساطة تامة .. ومجدية قال لي والابتسامة التي توجت شفتيه منذ رأيت .. اندثرت ..
زالت .. اختفت .. حلّ مكانها الجذب والبوار :

- أنت من حملة دبلوم الليسانس في الحقوق .. ويبدو أنك شاب طيب .. همك
لقمة العيش ليس إلا .. أليس كذلك يا بني .. ؟

- بلى يا سيدي وما مجيئي هنا إلّا لاستعدادي القوي في العمل وإفادة الشركة ..
- يا بني ستجد مني ومن كل العاملين بالشركة كل تفهم وكل مساعدة .. إنما بقيت
لي كلمة أريد أن أسرّ بها إليك ...
- ما هي بالضبط ؟

- كل الخبز يا بني ، ولا تحاول أن تفهم شيئا .. إنّ حاولت الفهم فقد تتعب .. تتعب
كثيرا .. وأنا أشفق عليك من ذلك ..

فتح لحظتها علبة السيجار .. سلمني واحدا أشعله بالولاعة الذهبية ، ثم التفت إلى سكرتيرته .. بنظرة تحمل معاني خفية .. طلب منها الموافقة .. أجابت ببسمة لا تخلو من غنج ودلال :

— لا أظنّه إلا شابا طيبا .. يهمله غير لقمة العيش .. وسوف لا يخيب ظنك يا سيدي المدير العام فيه .

مسء ذلك اليوم وأنا جالس خلف المكتب .. دخل علي بواب السيد المدير العام .. كتلة لا تناسق فيها .. تحمل وجها جمع بشاعة الدنيا وقبحها .. صوته فحيح أفعى .. يقال والعهد على القائل : (كان بوابا أيام زمان لآغا الناحية) فحّ في أذني : — سيادة المدير العام .. يكن لك كل خير .. يرى فيك الشاب المثقف النزيه .. ينوي ترقيتك عن قريب.

.. ما وجدت غير جدار الصمت أضعه بيني وبينه .. لوى رأسه .. حرك عضلة حاجبيه وانسحب.

.. غفوت على مكتي الشاغر إلا من ورقة تحمل أسماء الموظفين الذين يغادرون أو يعودون إلى الشركة في عطلات .. وذلك منذ أن سلمني المدير العام وظيفتي الجديدة .. غفوت على المكتب .. تراءت لي والدتي تشع بالنور .. حنونة مرشدة .. موجهة بإصبعها تؤكد على يوم أن جئتها. أزف لها خبر الوظيف الجديد في الشركة .. من خلال السعادة التي غمرتها وحلمها الذي تحقق .. ابنها الوحيد تحصل على وظيفة : — تذكر دائما يا بني .. أباك قد اختار الموت بالرصاص وفاء لهذا الوطن .. وإخلاصا لأهله .. زهد في المال الذي أغراه به القبطان روبرير .. مقابل العمل معه ..

المال ثعبان يا بني يسمم النفوس الطاهرة .. ويقتل الأرواح النقية .. احذر .. نصيبك منه ما تناله بجذك وعملك .. احذر يا بني ..

القرص الأحمر اختفى .. رذاذ من المطر تساقط .. غسل الشوارع والأرصعة .. ليت الرذاذ له القدرة على غسل القلوب .. ليته باستطاعته تحريك الضمائر وإحياء الميت منها. مثلما هو قادر على إحياء الأرض الموات .. الظلام زاحف ورداؤه القاتم يلف بالتتابع كل الكائنات .. مقاومته بالمصاييح المختلفة الألوان والأشكال .. لكن الظلام أقوى .. إنما ليس النصر حليفه دائما .. انتكاساته عديدة .. فالنصر الدائم للنور .. للحق .. لكن البشر بأنانيتهم .. بالأعبيهم وطمعهم .. بجيلهم العديدة يعملون على إخفائه .. على محقه .. على إزالته من العالم .. بيد أنه أقوى .. والنصر في النهاية حليفه مهما كانت المكائد.

إنها خلاصة حديث دار بيني وبين مسؤول قسم المشتريات بالشركة . ذات يوم اكتشفنا أن الصفقة الخاصة ببدلات العمال الجديدة يكتنفها نوعٌ من الغموض .. تعددت شكايات العمال .. ظهر جليا للجميع أن القماش من النوع الرديء .. عُرِضت القضية أمام المدير العام .. جمدها عنده وأنسى بالكاد الكل فيها .. اعتقدت أنه نسيها ، فذُكِّرت العمال بها من جديد .. وحملنا رسالة جماعية رأسا إلى المدير الذي اكتشف أنني صاحب الفكرة فضاق بي ذرعا ، ورأى أن إلحاحي عبارة عن اتهام له ، فحل الخصام بيننا ثم القطيعة الكاملة.. في مكتبه خاطبني :

— يا بني .. لعلك تذكر ما أوصيتك به يوم قدمت إلينا .. ولا أظنك تنسى .. ولا بأس إن ذكرت مرة أخرى فالذكرى تنفع الناسين ، بالحرف الواحد قلت لك : كل الخبز يا بني معنا .. ولا تحاول أن تفهم .. الفهم سيتعبك كثيرا ...

— لحد الآن سيدي المدير ، لم أسئ إلى سيادتكم ، ولم أسبب للشركة أية مشاكل أو خسارة.

— أعرف ذلك تماما ، إنما أنت تتدخل كثيرا في شؤون ليست من اختصاصاتك ، فموضوع البدلات توليته أنا، وتبين لي أن الشائعات والتهم لها دخل كبير ، أنت تعرف يا بني ما وقعُ التهم والشائعات على شركة ..

.. القرص الأحمر اختفى .. الرذاذ يتساقط دون انقطاع .. العتمة تسربت إلى كل مكان .. حرارة القرص لا تزال كامنة في كل مساحة لمستها الأشعة .. الرذاذ بيده الحانية يعمل على إبعادها بالحسنى .. إنها عنيدة .. الصمود ليس من صفاتها .. لكن الرذاذ سيتحول إلى هطول .. سيكون سيولا .. طوفانا .. سيجرف معه كل العفونات .. كل البقايا المتخمرة .. الأرض ستظهر بوجه جديد .. نقي . قوي .. معطلة.

كنت في المكتب وحيدا .. أمضينا خمسة عشر يوما من الشهر الحالي .. وما تسلمنا مرتب الشهر الفارط .. جيوبنا خالية الوفاض ، يقال :

— إن إدارة الشركة تعمل على تقييم جزئي بها .. وإذُفُتَح الباب وأُطل منه السيد المدير :

— السيد المدير ، أهلا ومرحبا بكم .. زيارة سعيدة ..

— لا رحبت الدنيا بك ، يا وقع .. جرثومة خبيثة ، أينما وُضعت إلا وزرعت الوباء .. والفناء ..

— ماذا حدث يا سيدي ؟ أصدر مني مكروه يستوجب هذا الشتم ؟

— أو تحسب نفسك ذا منزلة هامة حتى تقلق الناس مما يصدر منك .. أنت حشرة عاجزة حتى عن تحريك ما الحشرات قادرة على تحريكه ..

القرص الأحمر اختفى منذ وقت .. يبدو أن الحرارة لم يتغلب عليها الرذاذ بعد .. لا تزال قوية .. أحسّ بها تمتد إلي .. تحتويني .. تحرقني .. تحيلني ذرات من الرماد تائهة .. غريبة في كون .. تآزر فيه جنس اللهب الحارق .. ليتني كنت أمواجاً غاضبة .. هادرة .. شلالاً كاسحاً .. يقتحم كل مكان يزيل منه العفونات .. كل التخمرات .. بل ليتني كنت رذاذاً فقط .. رذاذاً .. فقط .. ليتني .. ليتني

نُشرت في كتاب " نماذج من القصة الجزائرية المعاصرة "
منشورات مجلّة آمال

المشروع

- منذ بزوغ الفجر وأنا أعيش عذاب الانتظار .. متلهفا إلى رؤيتك .. يا بني ..
- هجرني النوم طيلة الليلة السابقة .. نحن الفقراء يا بني مكتوب علينا أن نشقى ..
- نعاني مخاض الهموم والتفكير المستمر في المستقبل المعتم المجهول.
- خير إن شاء الله يا عمي الطاهر .. افصح .. كلي آذان صاغية لك.
- بالأمس مساء في سوق القرية قال أحدهم لصاحبه :
- أجود ما عُرض هذا المساء من غلال، وبقول في السوق ، كان من منتوجات عمي الطاهر.
- ليس هذا بعجب ، منذ حوالي الستين عاما .. والبلدة تعتاش من عشقه للأرض .. لا أبالغ إذا قلت لكما إنه مستشار فلاحي الناحية ، بدون مقابل.
- لا تعجبا إذا أضفت أن خبراء الفلاحة كلما حلوا بالناحية هرعوا إليه مسترشدين .. ولطالما أكرمهم واحتفى بهم .
- نحن الفقراء يا بني مكتوب علينا أن نشقى .. أن نطارد الفقر كلما استطعنا .. دبّ الوهن في جسمي يا بني كما ترى .. افتح لي قلبك .. كنتُ من أخلص أصدقائه والدك ، طيب الله ثراه .. عايشنا معا حلو الحياة ومرها .. اشتعل الرأس شيئا كما تشاهد .. تسرب الضعف إلى جسمي .. أخلصت لفلح الأرض منذ الطفولة ..
- أفريت شمعات شبابي في إحيائها .. جُدتُ بقوتي في سبيلها مستعطيا ما تجود به فكانت نعم الكريم .. نعم العارف بالجميل .. لا أنكر أن قطعة أرضي تعطي الكثير .. إنها تنسيني ما انفقته في سبيل خدمتها .. وما أبذله من جهد.

صمت الشيخ الطاهر ومعالم الحزن بادية على وجهه ، ثم أردف قائلاً :

— دبّ الوهن في جسمي يا بني .. قد آن الأوان لهذا الجسد أن يستريح .. إنه أعطى الكثير ، كفاه جهداً .. في كل لحظة يخطر بالعجز .. كل قوة وراءها ضعف يا بني .. كل شيء له نهاية .. أخطر شيء يهدد الإنسانية وخاصة الفقراء كحالتنا .. العجز والشيخوخة .. وما أمرهما في زمن معتم كل القيم فيه مذبوحة .

— لا تيأس يا عمي .. أبناؤك الأشداء امتداد لك .. وهم استمرارية أصيلة لجذورك القوية الراسخة.

— إنك تعلم بأن الكل ذهب في حال سبيله .. ومن بقي ممن تتحدث عنهم .. الابن الصغير فقط .. ووالدته التي بدورها تشبه حالتي .. وما تراه من غلال وخضر نعرضه في السوق ، نتيجة جهود مشتركة نبذلها بالتعاون مع أطفال ابنتنا الكبرى .

" كبير الأبناء اقترن سراً بواحدة من مواخير الليل .. أضرب عن العمل بجميع أنواعه .. ينشّ الذباب طيلة النهار بمقاهي البلدة .. يسبّ الزمن .. زمن العهر الذي سيّد البعض " .

— حزّني يا بني بركان خامل ، ما بقي له من الحياة غير دخان يتسرب من داخله بين زمن وآخر .. رافضاً الموت .. معلناً عن وجوده .. يوم كان البركان يغلي .. انتفض ابني الكبير معلناً عليّ العصيان .. أغرقته يومها بحممي الحارقة .. عاد إلى الاحتملة بي ، خشيت حينذاك تشتت أبنائي .. داهمني خوف الأبوة من المصير المجهول بهم .. وهن العظم مني ، واشتعل الرأس شيباً.. كل ذهب في حال سبيله .. كل اختار المورد الذي يرتزق منه .. إنه زمن الارتزاق يا بني .

" أوسط الأبناء نزيل دار إعادة التربية التي تفضّلت بقبوله بين جدرانها مدة أربع سنوات .. تعددت جرائمه اللصوصية آخرها اقتحامه لمستشفى البلدة والاستيلاء على أجهزة طبية وأدوية " .

— الحزن سوط لا يرحم يا بني .. الفراق علقم قاتل ..الفراق لشيء اتحدتُ به طوال ستين عاما .. التحمتَ به والتحم بك .. ووهب الكل لغيره ما لديه .. ولم ييخل .. ليس من السهولة الفراق .. إنها الأرض التي تسربت كل ذرة من ذراتها أكثر من حبة عرق مني .. كل ذرة تذكر بحنان أناملي الرحيمة بها .. كل خلية من جسدي تقر بوجودها لبركة تلك الذرات وما تجود به من خير ..

قهرتُ الفقر أكثر من نصف قرن ..عشت طودا شاخا القمة .. سنوات العمر الباقية لي قليلة ..لم أعد أخشى صولة الفقر .. مطالبي محدودة .. أملي الوحيد أن تتسلم قطعة الأرض أيادٍ أمينةً .. إنما كيف ؟ وابناء اليوم يلهثون وراء النزوح إلى المدينة .. الحياة في اعتقادهم خارجها معدومة .. تصور ابني الصغير ذي السبعة عشر ربيعا .. امتلك زمام فنون الفلاحة .. طوّعها فانقادت إليه .. يوم أن بدأت بشائر الأمل تغمرني، وأنا أرقبه يتسلم مني الأمانة في ثقة ..وأوشكت على تسليمه الأمر كله..

أخيراً بعد هروب مفتعل تارة ليوم بكامله ، وتارة شطرا من النهار .. إذ أعلمنا بقرار نزوحه إلى العاصمة .. وعده أحد التجار بالشغل لديه .. رأيت كيف انقلبت المفاهيم لدى شباب اليوم ، وتحولت الوسيلة إلى غاية ، والغاية إلى وسيلة ؟.. إنه السيد في أرضه والواعد غيره بالشغل .. كل شيء بالمقلوب .. جافاني النوم يا بني .. أرض ورده تعطر الجميع .

يتراءى لي شبحُ الموت في الأفق البعيد المظلم يزحف إليها .. إنها تستنجد
السواعد القوية يا بني .. آه ..! إن الوهن يدبُّ في كل خلية من خلايا هذا الجسد
الذي أعطى الكثير .. جئتُك أنت بالذات ولم أذهب لغيرك ، كل ثقتي فيك .. لكن ..
— لكن ماذا يا عمي الطاهر .. تكلم .. اشرح ما تريد طلبه .. ستجِدني مساعدا لك
إن شَاءَ الله.

— بلغني أنك عاقد العزم على إحياء مشروع فلاحى كبير بالناحية ، تفى بوعدك
لوالدك الذي عشق الأرض كما لم يعشق غيرها .. وتلبي به طموحك في إجراء
تجارب تدعم بها ثقافتك في هذا الميدان .. خاصة والهيئات المعنية الرسمية وفّرت
لك كل الشروط المادية والمعنوية لذلك .. لا أدري .. إن كان ما بلغني صحيح أم مجرد
أقوال.

— بلى يا عمي الطاهر ، ما بلغك صحيح .. شرعت في العمل ، سيما في البحث
عن العناصر البشرية للمشروع .. العناصر البشرية التي تمتلك من خبرة الميدان
الكثير ، ومن فنون فلاحية الناحية الأكثر .. شرعت منذ أيام في البحث عن هذه
العناصر الطيبة .. وأفترق إلى عناصر خيرة مثلك.

— أشكرك يا بني على هذه الثقة التي أفتخر بها .. إنها تتويج لي .. لكن ليس من
أجل هذا أتيت إليك.

— أعرف تماما .. أنت تريد توعية ابنك الصغير علّه يعدل عن عزمه على النزوح
إلى المدينة، وترغيبه في العمل معك والبقاء بجانبك.

— لا هذا ولا ذاك يا بني .. هناك ما هو أهمّ .. أنصت إلي جيدا ..

– جئتُك من أجل قطعة الأرض التي أمتلكها .. لأعرض عليك إحياء مشروعك الفلاحي بها .. وحسبما بلغني أنك تبحث عن قطعة أرض شاسعة لذلك تبتاعها، أو تستصلح غيرها .. أرضي جنة هجرها أبنائي .. والشيخوخة تسربت إلي ..

– ليكن ما أردت يا عمي .. مشروعني شجرة لا بدّ لها من جذور عميقة راسخة تصمد لحوادث الأيام .. جذورها أنت .. فلتكن لها ذلك .. مشروعنا امتداد لجهود مخلصة بُذلت من قبل .. استمرارية لعرق أصيل نقي سقى تربة طاهرة معطاء .. لا تزال قادرة على العطاء .. مزيدا من العرق .. من العرق .. العرق .

الشيخ والظلّ

أشعة الشمس حارقة منذ الصباح ، تنغرس صاروخية حتى النخاع .
النباتات لوت رؤوسها ، فقدت المقاومة ، الأشجار أوشكت على الاستسلام ..
جلس على الأرض مسندا ظهره إلى ساق الشجرة التي لا تزال تحتفظ برطوبتها ،
وتتمسك باخضرارها من بين مئات الأشجار الواقعة كتماثيل أفقدها الزمن بعضا
من أجزائها.. أخذ مكانه منذ الصباح الباكر ، سينضم إليه العشرات ، بعد ساعة أو
ساعتين من الشبان الذين شرعوا في التمتع بالعطلة الصيفية . أشعة الشمس
حارقة ، كان يحس بالمتعة والفرح ، هبّت نسيمات منعشة انسابت مياه فضية منبعثة
من أنبوب مائي مكسر ، منتشرة عبر مساحة الحوض الدائر بالشجرة ، تأمل
الأوراق النضرة وهي تدغدغ بعضها البعض . الطيور تنتقل بين الأغصان متأثرة في
أداء سمفونية رومانسية .. ابتسم .. ضحك بصوت مرتفع ، ضاع صوته بين زحمة
أصوات المارة وهدير محركات السيارات عبر طريق رئيسي.

بعد مرور ساعة واحدة ، سيزاحمه في المتعة بالمكان عشرات من الشباب ، بما
فيهم ابنه البكر . أسند ظهره أكثر إلى الجذع ، شَبَّك يديه خلف قفاه ، مدد رجله
إلى الأمام ، أدخلهما أكثر تحت الرمال الذهبية المنعشة . مرّ نادل المقهى المقابل أمامه
، على الطبق مشروبات متنوعة همّ بطلب مشروب عصير البرتقال .. كم يحب هذا
العصير .. إنه يذكره بشبابه وفتوته أيام أن كان بقامته المديدة يمد يده إلى أية شجرة
للبرتقال ، يقطف ما يعجبه ، حبة حبتين ، ثلاث ، أربع يمضي بها سريعا إلى البيت ،

يعصرها بنفسه ، ذات يوم ضببطته فاطمة ابنة عمته ، قد أتم عصر الحبة الأولى ،
وقبض على الثانية ، إثر رفع يديها عن عينيه فوجئ بالمصادفة السارة.. احمرّ وجهه
خجلا.. اختطفتها منه وعصرتها ، يومها كان وجهها ناضجا تُفّاحيا.. ودعته بابتسامة
حلوة وب نظرة لها ألف معنى مقدمة له كأس العصير ، افلتت من يده ، عارضا عليها
مشاركته تناول العصير ، بقي إلا صوتها يتردد بين الجدران :
— سنشربه ذات يوم معا.

إنه يجب هذا العصير ، حبه راسخ في كل خلية من خلايا جسمه ، غدّي
ذلك الرسوخ مسعود زوج فاطمة الذي كلما جمعت الصدقة به ، تكرم عليه بهذا
العصير ، خاصة أثناء الأماسي الصيفية الحارة ، كثيرا ما يتحلق الرجال غير بعيد
عن منزل مسعود ، فإذا ما كان معهم بالتأكيد يصلهم العصير ، يتساءل الجالسون
عن مصدره ، يحتدّ الجدل.. كان الوحيد الذي يلوذ بالصمت.

مرّ النادل أمامه .. الطبق مليء بكؤوس العصير وبغيرها من المشروبات
الساخنة ، والباردة همّ بطلبه . صقع وهو يتذكر مشاجرته مع زوجته هذا الصباح ،
عيّرته بكل ما هو عار .. كرامته مرغتها في الوحل أمام أبنائه الستة . ابنه البكر
زرع عينيه في الأرض ما فتئ أن غادر المنزل ، ابنته الصغرى تمسكت بأهدابه
والنصقت بساقه . ابنه الأوسط الذي كانت من نصيبه قصة الغزال الذهبي بالأمس
أثناء الحفلة المدرسية ، بكل براءة وعفوية صاح في وجه أمه : " أتركي يا أمي ، أبي
إنني أحبه ، لما أكبر سأعمل كثيرا حتى أحمل إليه النقود ، فيشتري لنا ما نريد .."
يومها لا تغضيب منه.

قبل عشر سنوات حينما حلّ بهذه البلدة بحمله الخفيف : زوجته وأبنائه الثلاثة ، كان سلاحه غير عضلاته ورخصة سياقة السيارات الصغيرة ، أيام قليلة مرت ، خوى جيبه ، طرق كل الأبواب بحثا عن العمل كسائق.. يسبقه في بحثه خبرُ الحادث .. حادث السيارة التي كان يقودها ، لإيصال العمال . إنه متيقن تمام اليقين ، أن كل الشركات والمصالح التي طرق أبوابها تبحث عن أمثاله.. تسرب اليأس إلى نفسه أثر ألا يطرق أي باب بعد ذلك اليوم الذي لا يدري بما يصفه . أصفه باليوم الشؤم أم باليوم السعيد ؟

بواب إحدى المصالح قد رقّ لحاله.. لمح وجهه للمرة العاشرة ، ربما للمرة العشرين .. ربما أكثر يعلم أن مساعي هذا المتردد على المصلحة ، ستؤول إلى الفشل كالمرات السابقة ، وكغيره ممن تردّدوا على المصلحة لنفس الغاية .. والمصلحة كل أسبوع تظهر في مكاتبها ومرافقها وجوه جديدة ، نصحه بعدم العودة إلى هذه المصلحة أو غيرها ، الأجدى أن يولي وجهه شطر أي عمل يقيه ، ويقي أسرته غائلة الجوع الفتاك .

مصيبيته الكبرى أن الكل يتشاءمون منه ، ومن الحادث الخطير الذي يتحمل مسؤوليته ، ذهب ضحيته خمسة عشرة عاملا .. كل المصالح تواجهه بشرط العمر .. الشرط اللعين ، عدم اجتياز العقد الثالث .. صدّق البواب لما قال له :
— إن الإدارة تبحث عن الشباب، والشابات معناه القوة والنشاط والعطاء الأكثر طوال عشرات السنوات ، مثله مثل البقر الحلوب ، يوم أن يجفّ ضرعه يحول إلى المذبح ، لكن ما ذنبه فيما حصل من وقوع الحادث ؟ أو في اجتياز العقد الثالث والرابع، ويوشك على اكتمال العام الثاني من العقد الخامس.

تفطن إلى بعض الشبان الذين جلسوا غير بعيد .. أدرك لحظتها أن الباقين سيلحقون بهم بعد قليل بما فيهم ابنه . سيمكث تحت الشجرة .. غرس رجله في الرمال أكثر ، سيغادر المكان إلا حينما ينضم ابنه إليهم.

ذلك اليوم ، لا يدري بما يصفه ، أيصفه باليوم السعيد حيث كان حدًا لمتاهات الطمع والسراب أمام واقع الحياة الذي لا مفر منه.. حدًا قبالة غائلة الجوع التي كانت تفتك به، وبأسرته أم يصفه باليوم الأسود ، إذ قضى على أحلام اليقظة لديه ؟. كانت خير متنفس .

ذلك اليوم قضى نهائيا على أحلامه وطموحاته : العم صالح سائق المصلحة ... أجرة محترمة ودائمة ، منح.. خدمات اجتماعية ، رعاية للأبناء ، استقرار في العمل ، مستوى محترم من المعيشة ، والأهم من هذا كله النكاية في الجيران . الكل متشائمون منه ، ما خفض أحدهم جناحه له ، حتى الحاج سعيد إمام الحي غير مسكنه إلى الحي المجاور ، حيث يسكن ابنه هناك.

لا حول ولا قوة إلا بالله ، أحوالي على التقاعد ، ولي من القوة ما أتفوق به على أقوى الرجال .. تشاءوا بي وما رأوا مني مكروها .. حتى أقاربي عصوا الله في ، أعرضوا عني ، تناسوا حق الله في القريب ، دخلت ميدان الحياة العملية وعمري ما تجاوز العاشرة من العمر ، مساعدا لوالدي في خدمة الأرض، وبيع المحصول.. تدربت على أعمال البيع والشراء لبضائع بسيطة في فصل الشتاء.

خلال مرحلة طفولتي أذكر أنني كنت مساعدا لحداد أثناء شبابي مدة خمس سنوات ، لما هجرت والذي نتيجة سوء تفاهم وقع بيني وبينه .. قبل وفاته بستتين عدت إلى الأرض ، التحمت بها ، اتحدت بي واتحدت بها ، أنتج اتحادنا ذلك الخير

الذي صار الكل ينتظره يوميا ، إنتاجنا محطّ أنظار الجميع.. منتجين ومستهلكين يرسل إلي الأولون عمالهم ، وأبناءهم للتعلم والتمرين ، الآخرون ينتظرون خير الأرض للتموين.

أحالوني على التقاعد ولي من القوة ما يفتت أحجار الجبال الصلدة . جيبي خاوا إلا من قطعة نقدية لا تفي بسيجارة. ما ألدّ عصير البرتقال، وألدّ الذكريات المرتبطة به.. !

زوجتي المسكينة لا تعرف من الحياة غير : أبنائك عراة ، البيت يفتقر إلى كل شيء .. لا تنس الخبز والغذاء لهم . قد يمدّون أيديهم إلى كل غادٍ ورائح في الشارع .. الخبز يا رجل أبنائك عراة .. المطبخ شاغر .. وليس هذا بأيدينا .. ليس هذا بأيدينا ... ليس هذا..

غادر المكان مكررا إياها ، ابتلعت الحشود المتراخمة أمام المصلحة ، ما سمع نداءات البواب التي لاحقته..:

— أبنائك يا رجل سيمدون أيديهم إلى كل غاد ورائح في الطريق ، حياتهم وحياتي ، حياة الشقلاء .. إن للصبر حدودا. ليست كالرجال والله ، إنك تمثل الكسل والحمول. أبنائك سيمدون أيديهم .. لست كالرجال .. للصبر حدود .. كلا وألف كلا ، بل أنا كالرجال .. أبنائي سوف لا يمدون أيديهم إلى أي أحد ، ما عداي .. كلا ..

أفاق على صوت أحد الشبان يربت على كتفه بلطف :

— أرجو أن تكون بخير يا عمي صالح . إنك تهذي أنت في حالة غير طبيعية .. في حاجة إلى الراحة .

— شكرًا يا ولدي ، بل أنا بخير ، ما عدا مغص بالمعدة ينتابني بين وقت وآخر ، لا تنزعج يا ولدي.

القلب عصفور يرفرف . حبات عرق تنساب عبر بشرة جديده ، فقدت نضارتها ، تمسكت بسطحها أعشاب بيضاء تقاوم بطش الزمن وعوامل الطبيعة ، امتدت أصابع مرتعشة إلى منديل متسخ مستخرجة إياه من جيب ستره فقدت مميزاتها .. امتص المنديل بقايا حبات العرق .. انضم الباقون إلى الجماعة من الشباب ابنه غير موجود ، إنهم أصحابه المفضلون ، ما تخلف يوما واحد عنهم .. كثيرا ما نهاه عن مصادقة البعض منهم. إنه عنيد جدا .

خلال طفولته ما كان عنيدا مثله .. ما عصى أوامر أبيه إطلاقا ، إلا في تلك السنوات الخمس التي انضم فيها إلى الحداد.. وجه الخلاف في قرار أبيه ، باشتراك أحد الفلاحين مشاركة تامة في الأرض خدمة وإنتاجا وربحا ، يومها قاوم ، مؤكدا لوالده مقدرته في تحمل المسؤولية بكل تبعاتها .. قاوم .. أكد .. بدون جدوى ..

ماذا جرى لابنه هذا اليوم؟.. المشاجرة الصباحية حضرها ، إنما ليست المرة الأولى التي يحضر فيها مثل هذه المشاجرات ، مرّات كثيرة تدخّل بنفسه لفكّ الخصام .. ماذا دهاه اليوم؟

عالم التجارة عالم واسع يتصارع فيه الأقوياء بكل أنواع السلاح .. الفريسة دوما موجودة وسهلة التناول والبلع ، والهضم .. الفريسة .. هو .. هي .. أنت .. أنتم .. أنتم .. عالم واسع تتنوع فيه الأسلحة تُجرّب، وتستعمل في الفرائس العاجزة عن المقاومة ..

لا يملك من هذه الأسلحة حتى قديمها .. عالم الزراعة يعيشه حتى النخاع ..
يخفي تحت لوائه الخير والبركة الدائمة .. ارض أبيه الطيبة ، كان سيدها ذات يوم ،
باعها أخوه الصغير بثمن بحس يوم اشتد هيب الحرب التحريرية .. غادر البلدة إلى
الضفة الأخرى .. أغراه ابن عمّه إليها ، قال له :

— النقود هناك تكنس كنسا .. أعيد إلى بلده منكوسا رفق الكثير من أمثاله .. لحسن
حظه وصلته أصابعها القوية قبل استنزاف طاقته الجسدية .. لا يزال يتمتع بالقوة ،
ما يفتّت بها صخور الجبال الصلدة .

— يبحثون عن السواق الشباب .. معناه إنتاج أكثر .. والعطاء أطول .. ما ذنبي لما
أكون في العقد الخامس .. ليس بأيدينا ..

غادر المكان ونداءات البواب العجوز تلاحقه كاللعنة .. أسبوع واحد مرّ ..
فوجئ السكان ذات يوم بدكان صغير يفتح أبوابه ، أعلاه لفنة حديدية كتب عليها
بخط رديء : ثلاث كلمات مبتورة من حرف المد : هنا دكان اللحام . على الخد الأيمن
من المدخل علقت أباريق صدئة، وصحون مثقوبة ، ومرشاة لقتل الحشرات ملحومة
حديثا . جسد بشري يفترش كيسا ، منكبٌ على شحذ مقصّ تارة ، وتلحيم إبريق
عتيق تارة أخرى .. بقربه موقد نحاسي بتروللي ، ترتفع ألسنة ناره تارة ، وتنخفض
تارة أخرى . تناولت أعناق الفضوليين مستطلعة من بعيد .. اقترب البعض الآخر
متفحصا المكان وصاحبه الغارق في عمله . ما رفع رأسه لأحد .

جاره الفطائري غاضبٌ كثور إسباني في حوار بينه وبين الخضار المخاذي له :

— ألم يجد مكانا يزرع فيه شؤمه غير القرب منا ؟

— لا عليك يا صاحبي ، فالأرزاق مقدرة من الله .

— ثم صاحب الدكان ، ألم نطلب منه المرات العديدة بكرائه لنا مغربته بمبالغ مرتفعة .. ممتنعا بدعوى حاجته إليه .. وإذ بدون علمنا نفاجأ بالدكان يفتح وفيه هذا الغراب الأسود .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. ماذا دعا أهل هذا الزمان ؟

— لا تنس بأن صاحب الدكان كان رفيقا له في الغربية ، عانيا معا مرارتها ، شربا معا كأس التشرد العلقم غير أن غرابك احتفظ بقوته ، أما صاحبه فاستنزفت قوته أعمال البناء الشاقة ، والليالي الصاخبة.

— ينبغي أن تكون إلى جانبي حتى نعمل سويا على إبعاده من هنا .. المال موفور .. والعرض معروف.

— الأرزاق بيد الله ، لا تتضايق ، ولا تضايق غيرك فيها .

مرتّ سنوات ثلاث .. أفاق الناس على جدران أخذت ترتفع يوما بعد آخر لمنزل في حيٍّ من الأحياء الجديدة .. سبق الفطائري غيره إلى جاره الخضر مستفسرا ، كان رده :

— إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وما اكتملت السنوات الأربع حتى اكتمل المنزل متصدرا المنازل الأخرى ، متفوقا عنها جودة وحسنا ..

ذات صباح كان منكبا على تلحيم أدوات منزلية من بين العشرات المبعثرة هنا وهناك ، والحمولة إليه من كل أحياء البلدة بآلة اللحم الحديثة ، وقف عليه الفطائري .. أصوات الزبائن تلاحقه وطلباتهم تتكرر ، في أذنه وقر :

— أسعد الله صباحك يا جاري الكريم ، يسرني أن أهنتك بالمنزل الجديد الذي تم تشييده ، حقيقة أنه تحفة رائعة .

— بارك الله في صحتك، ووفقك في عملك، ورزقك الطيب الحلال وأمد في عمرك.

— متى ستنتقلون إليه ؟

— في الأيام القليلة القادمة بحول الله.

— أنت محظوظ يا جاري .

— وما يمنع غيري من الاقتداء بي ؟

دون الردّ على السؤال عاد يغلي حقدا إلى دكانه ، مليا طلبات زبائنه .

أقامت الأسرة بالحي الجديد سعيدة ، عائلها سعيد في دكانه ، يدندن بأغنية شعبية معروفة . قطع عليه نشوته العارمة صوتُ رفيقه .. رفيق الغربة والتشرد ، هبّ واقفا ، ومن حرارة اللقاء دعاه إلى تناول كأس عصير البرتقال :

— أشكرك يا صاحبي ، إنني عجلٌ من أمري أردت إعلامك بأمر هام جدا ، تجدني مضطرا لذلك .

— افصحْ عنه يا صاحبي.

— دون مقدمات .. أو لفٍّ ودوران ، اترك لي الدكان ولك مهلة خمسة عشرة يوما.

شهرٌ كامل أنفقه اتصلا بأصحاب الدكاكين المقفلة دون جدوى .. اليأس سكنه ومرت شهور أخرى استنزفت ما تبقى لديه من نقود . ما آله وأبعد النوم عن جفنيه عدة ليالي .. أن يؤجر رفيقه الدكان إلى الفطائري ويحرمه منه .. اتخذ مخزنا لدقيقه وزيته.

عيّرت زوجته هذا الصباح بكل ما هو عار .. ابنه ما انضم إلى رفاق هذا الصباح .. قرر علم العودة إلى المنزل .على كل سيقضي هو اليوم تحت شجرته المفضلة.

قبل عودته إلى المنزل والشمس تحتجب هرول إليه ابنه البكر . وما همّ بالكلام
مستفسرا حتى دفع إليه أوراقا نقدية :
— لنعدّ سويا يا أبتاه نشترى خبزا وبعضا من الفواكه والخضر . لا تتعجب ، إنها
ثمرة يوم كامل من العمل في ورشة للبناء .. قررت العمل ، كفاك من والدتي
خصاما. لقد صرت قادرا على العمل ، عليك أن تستريح.
— بلى يا ولدي قد صرت رجلا وقادرا على العمل ، أما أنا لم أنته بعد . الحياة لا
تزال ترحب بي وأنا أرحب بها .. أبواب العمل تفتح ذراعيها لي .. من الغد إن
شاء الله سأخصص بيتا من بيوت المنزل .. أحول مدخلها إلى الشارع .. ستكون دكانا
جديدا للّحام شعاره المكتوب على اللافتة الحديدية : " مصيرنا بأيدينا "

نشرت بمجلة الثقافة بتاريخ: 14/ 6/ 1986

النور يلاحق الظلمة

الحركة الأولى

بزغت الشمس .. لا حقت الظلمة القائمة في كل مكان .. انتشر النور في كل الأرجاء تسربت خيوطه إلى كل الفجاج .. بعثت الحياة في الكائنات .. الحقول الواسعة ضاحكة مستبشرة .. الكل يتحرك استعدادا للعمل في يوم جديد .. أسراب الطيور حلّقت في البداية مستطلعة ، محددة اتجاهها .. ثم انطلقت نحو أهدافها . قطعان الأنعام ملأت الجو صياحا و ثغلاء .. تغادر الحظائر في حركة بطيئة ..

جماعات الفلاحين تلفظها الأكواخ الهرمة العتيقة .. بعضهم امتطى عربات تجرها بغال راحت تتوغل في دروب ثانوية داخل البساتين سرعان ما تختفي بين صفوف أشجار الحمضيات .. داخل بساتين الكروم المترامية .. ببطء تختفي رؤوس الفلاحين مبتعدة .. متجهة إلى بناية المزرعة الشاحخة على ربوة .. قبل العمل اليومي تقدم آيات الولاء والطاعة، والتحية الصباحية إلى السيد رئيس المزرعة المبجل .. تنفيذ الأوامر .. أداء آيات الولاء يضمن الخبز اليومي.

امتطى دراجته العتيقة .. العتيقة جدا .. يُضرب بها المثل في جودة الصناعة من البعض .. ويُضرب به هو المثل في الحفاظ على الأشياء من طرف البعض أيضا .. منذ ما ينيف عن العشرين عاما .. هي مركبه الوحيد.. مطيته الوحيدة إلى المزرعة .. الدراجة والكوخ مكسبان عتيقان التصقأ بحياته .. بوجوده في الحياة. صار لهما كيان ..

مواز لكيانه .. بل صفة ملازمة له .. أثله البحث عنه من طرف البعض .. الإشارة إليه .. بغية التعرف عليه.. والتعريف الموصل إلى الهدف لا يخطئ إطلاقاً :
— أسألُ يا صاحبي فقط عن صاحب الدراجة العتيقة .. وقاطن الكوخ الصدى .. العتيق .

الحركة الثانية

صفوف شجيرات الكروم تستقبله بحرارة .. مُحْيِيَة إياه... هاتفة باسمه .. تحيط به من كل جانب .. تقفز فرحة بقدومه .. تتطاول رؤوسها معانقة إياه في قبلة صباحية .. تقفز .. تقترب .. تتطاول .. تحيط به .. تعانقه تغلق الطريق أمام دراجته .. يتوقف .. دموع الفرح تتوالى.. صاحت الشجيرات بصوت واحد .. كله براءة طفولية :

— لست وحدي يا أبنائي في ذلك.

— بل وحدك .. أنت الذي غرستنا .. راعيتنا بحنانك الأبوي .. أرويتنا من عرقك .. من دمك .. حقنتنا يومياً من قوتك .. مكوثك الساعات الطويلة كل يوم بجانبنا .. تعتني .. تسقي .. تقلم .. تشذب .. تقتلع كل نبتٍ طُفيلي يتطفل على رزقنا .. نعم من كل طفيلي يمتص رزقنا ..

— أنا معكم دائماً .. ولا يسعني إلا أن أؤكد ذلك .. سوف لا يقترب أحد يمتص رزقكم ما دمت حيا .. إنما أنا رزقي يتطفل عليه الكثيرون .. رزقي أنا .. نعم غلتكم السنوية .. عناقيدكم الناضجة الذهبية .. أرهاها حبة .. حبة من أيام الصبا .. إلى أيام

الطفولة .. إلى أيام الشباب .. ثم إلى النضج .. ويوم أشرع في الاستعداد بمعية رفاقي لقطفها .. تسبقي أيادٍ كثيرة متطفلة في عزّ النهار وشروق الشمس .. كشمس اليوم.. تقتلع العناقيد الناضجة الملائى اقتلاعا من قلوبكم دون رحمة .. بغير رفق أتذكرون يا أبنائي الغرباء الذين يغزون تربتكم هذه في مثل هذا الموسم ؟! كالكلاب المسعورة ينقضّون عليكم في غزوات همجية ؟ تلوذون بالصمت في البداية من هول المفاجأة .. ثم تتحركون مستصرخين الضمائر .. مستعطفين النفوس الطاهرة والأيدي القوية التي رعتكم وصاتتكم طول السنة .. لإيقاف النهب البربري ..

تتشج حينها الأعصاب .. وتثور نائرة النفوس داخلها .. تغلي كالبركان .. تتلون الوجوه .. يبلغ الغضب أقصاه .. نظرات الاحتقار والسخرية تلهب وجوه الغزاة الباردة.. يرتفع صراخكم .. يعلو استعطافكم .. يغطي الأرض والسما .. يبدو أنكم نسيتم ما تقولون .. لا بأس أن أذكركم بما تقولون : « لا .. لا تقتربوا منا أيها الوحوش .. ابتعدوا عنا أيها الطفيليون .. إتناجنا جديرٌ به ، من سقونا بعرقهم كامل السنة .. كفوا أيديكم عنا ».

لكن طعنات الرئيس من أجل إرضاء السادة زائريه اليوميين .. أصحاب السيارات الفارهة .. والبذلات الأنيقة .. تنغرس الخناجر حادة في قلوبكم إلى النصل .. لحظتها تتخدرون .. تحمدون .. تغيبون عن الوجود شهورا ..ثم تستعيدون قواكم .. بادئين دورة الحياة من جديد .. ولكن المأساة تتكرر يا أبنائي كل سنة .. نعم في مثل هذا الموسم ..المأساة تتكرر .. ليس الخطر في تكرارها .. بل الخطر في الاستسلام لها .. في عدم التحرك لإيقاف جحافلها .. في العمل للقضاء عليها بتخطيط محكم .. وتسخير كل القوى من أجل إيقافها ..

لست وحدي في هذه المزرعة .. نفس الألم الذي يمزقني .. يمزق رفاقي من أبناء هذه الأرض المباركة الطيبة.. نملك من القوة ما يمكننا من إيقاف النزيف .. بل من مهاجمة الظلم في عقر داره .. آن الأوان للحمم أن تخرج أن تنقذ .. أن تحرق كل الطفيلين .. كيف الشروع في العمل ؟ كيف البداية ؟

الحركة الثالثة

وصل بناية المزرعة متأخرا بعض الشيء .. الفلاحون واقفون أمام الرئيس يبخلقون في وجهه القمحي المكتنز، وبذلته المادية المكواة بعناية .. في حركة رتيبة تتكرر كل يوم .. مستعرضا وجوههم واحدا تلو الآخر .. مركزا عليها .. عله يكتشف عبر مساحاتها الجرداء روح الغضب .. ملامح الاستنكار .. فيعمل تحت جُبح الظلام على طردها من مملكته ..

وصل متأخرا بعض الشيء .. الاستعراض تم .. الأوامر أعطيت .. الوجوه جافة توهي بالغليان الداخلي .. بالغضب المستعر .. فرمل الدراجة بقدمه المتشققة .. ذات الأحاديث العميقة .. كقطعة أرض هجرتها المياه .. انقطع عنها الغيث ونحتتها الرياح الموسمية .. مقتربا من الجميع .. نظرات الغضب تلمع في عيني الرئيس .. قبل أن يشرع كعادته في قذِّف شتائمه على من يصل بعد الوقت ولو دقائق قليلة جدا .. ابتسم قليلا، وهمس لنفسه وهو يضع الدراجة على الجدار :

— أيها الكلب سيكون مشهودا يومنا هذا في تاريخ المزرعة .. ومثلا لباقي المزارع التي تعيش نفس الأوضاع .. منذ عشرين عاما أسقي هذه التربة بدمائي .. وما

تجرات يوما على اختلاس جزء من إنتاجها تجيء في آخر زمان وتنصب نفسك
امبراطورا على الأرض والعباد .. كفانا تطفلا منك ومن تطفل زائريك كفانا
تزييفا .. كفانا ولاء للاستغلال .

دون مقدمات باغته :

— يبدو يا ابن ... الكبر أخذ يتسرب إليك .. صرت بطيء الحركة لا تقدر على
النهوض مع الفجر .. تقدم إلى المزرعة باكرا .. إن تأخرُك هذا كما تعلم خطير على
المزرعة .. يضر بسمعتها .. ويؤثر على إنتاجها المعروف بالجودة .. الجودة التي دفعت
بالكثيرين إلى اقتناء حاجاتهم من هنا مباشرة .. نعم من هنا .. وزملاؤك يشاطرونني
الرأي .. أليس كذلك ؟

الحركة الرابعة

أعاد مسح الوجوه ببطء .. لاحظ التحدي عليها .. القامات طويلة مرتفعة
بكبرياء نحو السماء .. السواعد مفتولة .. الأصابع تقبض على الأدوات الفلاحية
استعداد للجهاد ضد التخلف .. تخلف الجوع بالحوار مع الأرض .. تخلف العقول ..
تخلف العادات .. تحول الفلاحون أمام عينيه إلى جنود عظماء في خط أمامي ...
سلاحهم الفتاك في أيديهم .. ينتظرون فقط الأوامر لبداية الهجوم .. انتعش .. شعر
بالزهو .. بالقوة تزداد لديه .. تحيله إلى كتلة نارية تحرق كل جنود الشر ..
رئيس المزرعة في تفاهاته يواصل .. تسللت أصابعه إلى جيبه .. صيدها سيجارة
وضعها على شفتيه .. ثم أشعلها بثبات .. نفث دخانها بتحدٍ في اتجاه الجميع :

— ليكن هذا آخر إنذار لك .. ولمن يتجرأ على نهج طريقتك .
— حساباتك خاطئة يا سيادة الرئيس .. إن زميلنا ابن هذه الأرض قبلنا جميعا ..
عليها نشأ .. منحها الكثير منحنائه ومن حبه .. سقاها دموعه .. عرقه .. دمه ..
أفنى قوة شبابه .. حينما كان طفلا رفقة المرحوم والده .. سقى هذه الأرض، ولا يزال
أكثر من عشرين عاما .. ولا يزال قادرا على العطاء .. وخير لهذه الرض أن يبقى في
خدمتها ..

أجاب بهذا أحد الفلاحين الرئيس الذي كان يتهدد الجميع بنظراته الوقحة :
— اخرسْ يا هذا .. أتدافع عنه ؟ لن أسمح لأحد منكم بأن يكون وقحا معي مرة
أخرى .. سوف يرى الجميع ماذا افعل بهما .

ارتفعت أصوات مدوية جماعية .. قنبلة اهتزت لها الأرض .. طار لها قلب
الرئيس هلعاً :

— حساباتك خاطئة يا سيادة الرئيس .. الأرض لنا .. كل ذرة منها روينها بدموعنا
وعرقنا ودمائنا .. إنتاجها لنا ولأبنائنا .. زميلانا لا ذنب لهما إلا قول الحقيقة التي
حاولت طمسها منذ دنست أقدامك تربة هذه المزرعة .. ولاؤنا منذ اليوم للأرض
للإنتاج .. لتحسين الجودة .. أيدينا لكمات حديدية لكل متطفل .. ينهب رزقنا ..
يمتص عرقنا .. لا مكان بعد اليوم في مزرعتنا لمتطفل .. مسير أو زائر .. المكان موجود
لمن تتخضب سواعده بالتربة .. لمن تتشقق أقدامه بأديمها .. لمن تقف الشمس سياطا
مسلطا على رأسه كل يوم .. يظلل بجسمه الحنون ما تجود به هذه التربة الطيبة..

□ الدّرب الوعر

عشية ذلك اليوم عندما خلوتُ إلى نفسك بعدما ساد الهدوء في البيت ،
وعمّ الصمت الكون ، رحت تفكر في شؤون الدنيا وهموم الساعة .. غاص تفكيرك
في مجاهل الماضي السحيق ، حين كانت الأرض تُروى بالعرق .. وتتفاعل ذراتها
مع العضلات القوية المفتولة ، وحين كانت النفوس رغم قساوة تلك الأيام ، تتغذى
بالحبة والتعاون ، وتنمو بالصدق والشرف .. امتدت بك رحلة التفكير في أغوار
الماضي يوم كنت طفلا .. رحل والدك من هذه الدنيا غير آسف عليها ، سنوات
عمرك يومئذ اثنا عشرة سنة ، أنت كبير أخويك ذوي الخمس سنوات ، والثلاث
سنوات .

في اليوم الثالث لا تزال تذكر، والدموع ما جفّت بعد .. بدأت لديك رحلة
العذاب حينما اختلى بك أحد المعزّين وهو من أصدقائه الراحل ، هامسا في
أذنيك :

— المرحوم والدك اقترض مني قبل شهرين بعض المال يا ولدي.. أرجو أن تعلم
والدتك يذلك ..

كنت حديث عهد بالدنيا ، ولكن أيام الخبز الأسود جعلت عقلك كبيرا ،
فدوغما مضيعة للوقت ، التفتّ إليه .. من وحي الأفق المعتم أجبتّه :
— قد رحل والدي يا سيدي ، ولقد حلتُ مكانه ، فأنا أبُ الأسرة وحاميها .. لا
داعي لإعلام والدتي .. أعاهدك عهد الرجال ، إنني سأعمل ، وسأدفع لك بالتقسيط
ما هو دينٌ على أبي ..

بتهمكم وبخبت المخادع نظر إليك ملياً.. تقبلت لحظتها جوابه بتحفظ :
— الله ، الله .. قد صرت رجلا بعد يا بني ، لديك من الشجاعة ما تواجه به الرجال.
منذ ذلك اليوم كانت البداية .. بداية السير في الدرب الوعر المليء شوكا
ووحلا ، والرحلة لم تنته بعد . النهاية مجهولة .

رحلة العذاب طويلة وشاقة ، ابتدأت بأبي محمد — صديق أبيك — ومن يومها
وأنت في صراع مع محمد بن كثيرين ، كلهم انتصروا عليك . وما سجلت عليهم
انتصارا واحدا طوال المسيرة ، بل ما دار بخلدك أنك ستنتصر ذات يوم .
البداية كانت ولوج أسواق الشغل في سنينك الاثني عشرة ، لإعالة أم فقدت
الزوج في عزّ الشباب ، بفقده ودعت المسكينة آخر قريب يربطها بشجرة العائلة ..
ولجّت أسواق الشغل لإيجاد لقمة العيش لك ولأخويك . بعقلك الكبير يومئذ
أدركت مسؤوليتك العظيمة . البداية صعبة ومرهقة . خيط متين يجذبك إلى الأمام .
جربت كل أنواع الشغل .. بل أجبروك وأحالوك على كل نوع من الشغل ..
جعلوك مطية للوصول إلى ملء جيوبهم .

سلخت من أيام عمرك عشرات السنين ، أنت وأمثالك تحت هيب سياط
أولئك .. بيد أن إكليل الغار يعلوك والفرحة تغمرك وأنت ترى البسمة على شفاه
أعز وأقرب الناس إلى قلبك . قنعت بذلك طوال الجزء الأكبر من الرحلة ، وما
ساورك يوما الندم ؛ بل الرضا كلما توغلت في ماضيك السحيق .

رحلتك في الدرب الشائك لم تنته بعد .. أيام زمان رغم شدتها وجفاف بعض
القلوب ، كانت الحياة تتغذى بالحب والتعاون .. أهم مهدئ للنفس .. أيا منا هذه
مرهقة .. الرحلة متواصلة .. أخوان شقيقان لك أخذ كل واحد منهما طريقه في

الحياة مستقلا بنفسه ، الطريق أمامه ممهد وسهل ، سلاحه العلم والمعرفة ، أفنيت أعز أيام شبابك من أجل أن تكون طريقهما ممهدة .. وصلت بك الرحلة إلى إحاطة نفسك بسبعة أفواه جديدة .. ستة أطفال وزوجة .. حصيلة وافرة .. أيام ذاك السير في الدرب وعراً جداً تحفوه المخاطر ، لكن الأمل جذاب للأيام القادمة .. رحلة الحاضر ممهدة ، غير شائكة ، ألا إن الأمل متذبذب ..

منذ أيام أشيع في الورشة التي تشتغل فيها أن المقاول سيُعفي العشرات من العمال .. انتابك الذعر ، هاجمك الأرق لعدة ليال ، لم يشف غليلك غير جواب مسؤول النقابة ، حينها اطمأنت نوعاً ما.

أيام زمان كانت الرحلة يشوبها التعب الجسدي .. أيامنا الحاضرة ، الرحلة يفتك بها التعب الجسدي والنفسي .. ما أهون التعب الأول ... !

الناس في حركات جنونية ، استولت عليهم الهستيريا ، كأن القيامة قامت .. يتناعون في لهفة ما يروق لهم .. وما لا يروق .. تسرب المرض إلى الكل .. تسربت العدوى إلى النفوس الطيبة القانعة ، من النادر أن تلتقي بأحدهم دون أن تجد لديه حمولة للاستهلاك.. هدأت نفسك وأجمتها عن السير في التيار الجارف. حاولت أن تستكشف المستقبل بمنظار اختلط عليك في الأفق ، الأبيض والأسود .. جاهدت نفسك ، قاومت التيار ، أخيراً غلبك واقتلعك من مكانك .. تلاشى الصمود فاستكنت إلى الذل والهزيمة .. وجدت نفسك ضعيفاً لا قوة لك مدفوعاً بقوة التيار وسط الجلبة. تحاول التخلص ، بل البحث عن مكان تقف فيه فما استطعت .. هزيمتك مزدوجة ، أمام التيار من جهة ، وفقدان مكان بينهم من جهة أخرى ..

أيام زمان تدخل كان البائع تأخذ منه ما شئت ، تدفع ما تحت يدك .. وما ساورك يوما أن يزيد عليك في الثمن لا القليل ولا الكثير . القناعة تغذي الجميع .. والمحبة تطعم الجميع .. بالأمس كاد أن يفترسك البائع – لو كان بيده إزالة الناس ، لأزالك وقطع كل أثر لك – وأنت تضرب جيوبك بحثا عن ثمن علبة الحليب المسحوق لابنك الرضيع ، دون جدوى وقفت محدقا فيه مشدوها في عملية مقارنة بين بائع أيام زمان .. الهاش .. الباش الذي لا يتركك تمضي دون تناول كأس شاي منعش ، أو شرب فنجان قهوة مزهرة ، وسماعك نكتة منه ، كلما تذكرتها غرقت في ضحك متواصل ، بين بائع اليوم الذي يحسّ بك ضيفا ثقيلا عليه ، يكلمك وعينه زرعهما في اتجاه آخر.

التفكير مستمر في رحلة عبر الماضي والحاضر ... زوجتك ذات الوجه الخريفي الذابل تحمل لك الماء الساخن .. كي تغطس قدميك فيه تخفيفا من ألم الوقوف .. أرادت أن تعرف سرّ وجومك في تلك الأمسية فصرفت عنك بلطف. قدماك تعبثان ، الألم يمزق أوصالهما .. ليس من السهل الوقوف في طابور منذ شروق الشمس إلى حين توسطها السماء .. شمس يوليو .. ليته كان وقوفا فقط ، بل كان مدا وجزرا ، تارة أنت داخل الطابور .. وتارة أخرى تشعر بأن قفصك الصدري أضلاعه أوشكت أن تنطبق على بعضهما وتسحق ما بجوفها. وقفة العذاب هينة لو كان يمكننا الحصول على ما جئت من أجله ، إنما بعد عذاب وانهيار عصبي وجسدي يخرج الموظف ، متكاسلا .. متثائبا ، يداه على فمه .. ببساطة يقول :

– لن نوزع السميد اليوم .. حساباتنا لم نُكملها بعد .. يزرع الناس عيونهم في الأرض ، ينصرفون في مسيرة صامتة ، سرعان ما يتفرقون .. لا يتجرأ الواحد منهم

على الالتفات إلى الوراء .. إنهم يعلمون عاقبة ذلك .. معناه الحرمان من مادة السميد.

أنت الآن تعاني ألما من جراء وقوفك في طابور الحصول على السميد .. طوال ثلاثة أيام على التوالي .. وقوفك طابور الحصول على الخبز .. طابور الحصول على الدواء .. طابور الحصول على الغاز .. الحصول على .. الحصول .. الألم النفسي في هذه اللحظة يوشك أن يقضى عليك .

جارك كاتب المقالة عاتبك هذه الأمسية .. سمع من زوجته أن بيتكم يفتقد لما هو ضروري .. أنت عامل دخلك محترم يكفل لك ولأسرتك حياة لائقة .. لماذا تحرم أبنائك .. هكذا قال لك .. احتكر مجال الكلام متحدثا عن نفسه بأن كل شيء متوفر .. وما رغب في شيء ألا تحصل عليه دون معاناة ..

راودتك الرغبة أن تفتح فمك شارحا .. لكنك وجدت أن الصمت أفضل جدار .. خشيت لو تكلمت أن يمتد بكما الحديث ويتشعب إلى أنواع كثيرة ، ربما تفلت منك حقيقة لا يعرفها ، هو أنك في الصباح الباكر جدا كل يوم ، قبل مرور شاحنة المزابل ، تهرع تحت جناح الظلام إلى صندوق القمامة أمام منزله ، تلتقط الخبز اليابس ، كي توفر على ابنك مشقة الوقوف في الطابور أمام المخبزة حماية له من البداية .. بداية السير في الدرب الوعر ..

أمنية واحدة تدغدغك في هذه اللحظة .. أن تزول كل الطواير ... وتحلّ من جديد المحبة والتعاون .. وتنزل الألفة على القلوب .. وتحل القناعة محل اللهفة .. عندها يتم القضاء على كل الدروب الوعرة المملوءة شوكا ووحلا ...

□... وآه يا زمن !

حتى السملء ذلك اليوم ما استقرت على حالة واحدة آونة صافية ، وآونة غاضبة مكفهرة ، تنذر بالزوبعة وإغراق الناحية بسيول جارفة تكاد القلوب تنخلع لها ، غير أن هذا كله ما حدث ، إذ تتطلع عيون الجميع صوب السحب القائمة الزاحفة حتى تنقشع أخيرا فوق رؤوس مطلقة أشعة باهتة لشمس فاترة ترمق الناحية باسترخله وكسل ، عندها جلس أحد الشيوخ وفرك لحيته القطنية الكثة ، ثم قلب نظره الذي لا يزال يحتفظ بجدته ليستقر على حلقة واسعة من كتل بشرية التصق أعضاؤها بالأرض وانقادوا للصمت ، مركزين أنظارهم على مساحة دائرية الشكل ، نطق الحاج مبروك :

— كل المفاهيم انقلبت في زماننا ، لا حول ولا قوة إلا بالله ..

تبادل الحاضرون نظرات عدم الفهم ..

تشجع جاره سي الأخضر واستوضحه ..

— نريد منك أن تشرح لنا ، ماذا تعني بالضبط يا حاج ؟

— الواقع لا أعني شيئا ، ما دمت لم آت بمجديد ، وما ألاحظه أنا هذا اليوم تلاحظونه بدوركم ، أنا أردت القول : أن المناخ في هذا اليوم صورة صادقة لحالاتنا النفسية ، فكما ترون لم يثبت على حالة واحدة ، ولم يتغلب عامل من عوامل الطقس على عامل آخر لوقت طويل .. ألم تلاحظوا أننا بدورنا لم نستقر على حالة واحدة .. إحساساتنا نحو الفقيد الذي واريناه التراب ، وأودعناه ذمة الله ضحى هذا اليوم ، غير مستقرة ، فها نحن تارة يشدد بنا الحزن .. لحظة أن يحوم علينا طيفه ، ونركن إلى

الصمت والتفكير في مناهات الدروب الوعة التي قادته ذات يوم إلى موقع حتفه ..
وتارات أخرى .. نكاد ننسى الموقف، ونسلم أنفسنا إلى تصرفات وسلوكات شاذة ،
أبعد ما تكون عن جمع كهذا أتى للمشاركة في العزاء والمواساة .

عند هذا الحد ، تكوّم الحاج مبروك.. تدثّر بـنوسه الصوفي ، ألزم نفسه بالصمت
وعدم الحركة .. كأنه ما كان المتكلم قبل لحظات وتعلقت بشفتيه الأنظار .. أطبق
الصمت من جديد .. لولا سعال حاد ارتفع من نقطة من المحيط تكلم صاحبها بنبرة
هادئة :

— الحاج مبروك ، بالفعل عبّر واقعيا على حالنا ، ويبدو لي أن صمته ليس عبثا ،
وأضيف إلى قوله :

— علّة عدم استقرار مشاعرنا على حالة واحدة ، ناتجٌ على أن المرحوم تقريبا ،
ثلثا الحاضرين لم تكن لهم معرفة مباشرة به ، بل وأجزم أن هذين الثلثين لم يروا
وجها له ... وما يجيئهم هنا إلا مشاركة منهم في مواساة هذه العائلة المنكوبة ،
وهذين الولدين المسكينين .. بل أنتم كبار السن ، اسألوا أنفسكم .. ألا تزالون
تتخيلون وجها غادركم منذ ثمانية عشر عاما ؟ هل لا زلتم تذكرون صوت امرئ
هاجر .. غاضبا عليكم منذ ثمانية عشر عاما ؟

ارتفعت همهمات هنا وهناك .. تحركت رؤوس علامة الموافقة ، وأردف

المتحدث :

— آخر عبارة فاه بها ، والحافلة شرعت في التحرك حينها لا تزال عالقة بذاكرتي ..
نعم لا تزال ! لم ولن تنجح الأيام في محوها وأنا حي أرزق .. لولا خطورتها .. ولولا
الفاظها المسمومة لاندثرت كغيرها .. ولو أن السبب الذي دفعه إلى ذلك قد زال من

هذه الأرض الطيبة - والحمد لله - غير أن ما يصدر عن أبناء هذه الأرض بالذات أشدّ مرارة للنفس ممّا لو صدر من الغير ...

الكل متلهف إلى التقاط العبارة في تلك اللحظة ، بينما كان المتكلم أطبقت شفته على كأس مرتشفا شايًا ساخنًا ، قدمه في صينية إلى الحاضرين أحد أفراد الأسرة .. ثم حول عينيه نحو الطريق المعبد ، حيث كانت شاحنة بترولية ضخمة تسابق الريح ، صادمة الأذان بصوت محركها الضخم .. مرت دقائق والحاضرون في تلهف إلى سماع البقية .. لكن الصمت وضع ثقله من جديد .. فنفض صبر أحدهم :
- هه أكمل بحقنا عليك يا سي لخضر ...

الح أكثر من واحد عليه .. وفضل الإجابة المقتضبة :

- ليس الآن ! فاللحظة غير مناسبة والموقف الحاضر لا يسمح بذلك .. وأشار بطرف خفي إلى شاب يجلس بعيدا عن الحلقة مطأطأ الرأس صامتا .. غارقا في همومه وأحزانه .. قبل دقائق كان لا ينفك بين آونة وأخرى يقلب طرفه هنا وهناك .. بيد أنه أخيرا سمر نظره في الأرض ، حيث تناهى إلى سماع كل ما قيل في الحلقة .. وقد لا حظ أحد الحاضرين عبرات راحت تنحدر من عينيه منزقة على مساحة وجه شاحب ، فقد نضارة الشباب ، برزت عظامه ، وقد أنهك التعب صاحبه ، وعز عليه النوم طيلة ثلاثة أيام لبلياليها .. لتستقر تلك العبرات على شعرات تفتقر إلى الكثافة فوق شفة عليا .. لشاب طوى العقد الثاني من عمره قبل سنتين...

استرجع محمود شريط الماضي .. ماضي طفولته وشبابه .. بحثا عن قارة .. واضحة .. يلجا إليها تربطه بأبيه الراحل .. الطريق كانت خالية .. إلا من محطة واحدة ضعيفة البنيان .. واهية الأركان .. باهتة اللون .. كل الذي لا يزال عالقا

بذاكرته ، ومن الصعب خلّوّ الذهن منه .. أن طفولته ومراهقته افتقرتا إلى شخص في الأسرة يقال له الأب .. فمنذ أن تعرف على من يحيطون به حينما بدأ يعي هذا العالم ، تعرف على شيخ كبير يملأ عليه الحياة إلى جانب والدته وأخيه .. في أوائل عهده بمرحلة المراهقة ، رحل ذلك الشيخ إلى العالم الآخر وترك في حياته فجوة ، تطلع إلى من يشدها .. فما وجد .. وتزاحمت الأسئلة في دماغه .. فكان بين الحين والآخر يطر بها والدته التي كانت تركز إلى الصمت تارة ، وتتهرب تارة أخرى من الإجابة ، وتراوغ تارات أخرى .. إلى أن أكمل محمود دراسته .. ودخل الحياة العملية .. واقتحم ميدان الشغل .. امتلأت جيوبه بالمال .. ترفّسه في العيش. يجب أن يتسع ليشمل إنسانا آخر ، عضو من العائلة ، أن له أن ينضم إليها ، لتكتمل السعادة.

كان محمود يشتغل في الجنوب في عمق الصحراء ، اختصاصيا في التنقيب عن النفط وكان نظام العمل المعمول به يقتضي منه أن يشتغل طيلة ثلاثة أسابيع متواصلة ، على أن يستريح الأسبوع الرابع ، يتحول في بدايته إلى بلدته ، حيث يقضيه مع والدته وأخيه إذ يجدهما في انتظاره بشوق كبير .. يوم وصوله لم تترك الوالدة تعويذة إلا ورددها ، ولا بخورا لديها إلا وأحرقته تيمنا وبركة ، ودفعا للحُساد والحاسدات من الجيران .. كانت ترى وجودها ، وما تبقى لها من سنوات العمر مجسم في محمود .. وهو الهواء الذي تنتفّسه.. الدم الذي يجري في عروقها ، ولا يقل عنه منزلة أخوه سعيد ، بيد أن هذا الأخير كما تقول :

— لا يزال صغيرا يتابع تعليمه ، فلم يتعد العام الثامن عشر بعد ..

خلال السنة الماضية والصيف على الأبواب .. أخذ محمود إجازة طويلة ،
وبينما ذات يوم بالقرب من والدته يتحاوران في بعض الشؤون ، إذ بادرها بالقول :
— تعلمين يا أمي أنني أخذت إجازة مدتها شهران ، فما قولك ، لو أقوم بجولة عبر
بعض المناطق من بلادنا تعرفاً عليها وترفيهاً على نفسي ؟
— لا .. لا يا ولدي ! الوقت غير مناسب بعد للقيام بهذه الجولة ..
— لماذا أفيها مضرة ؟ إن كان كذلك فأنتحلي عنها ..
— في الحقيقة يا ولدي ليس فيها ما يضر ، وفرحي عظيم بمثل هذه الجولات بالنسبة
لك ولأخيك ، إنما أرى أن تأجيلها إلى وقت آخر أفضل ..
— إذن .. فكيف ترينني أقضي عطلتي ؟
— قد وضعت لك خطة لجولة .. بل لبحث تقوم به في مكان خارج بلادنا .. وآمل
أن تقوم بالمهمة على أحسن وجه .. وسوف لا أنسى لك هذه المهمة أبداً ، وأنا على
قيد الحياة .
— عرّيني بالخطة التي أعددتها .. والبحث على ماذا .. أو على من بالضبط ..
— مهلاً يا ولدي .. لا تسبق الزمن .. بعد لحظات تعرف كل شيء .
ازداد محمود اهتماماً بالموضوع .. تعلق عيناه بشفتي أمه ، كل لفظة ستفوه
بها هي نفسٌ ستردد في جسمه ليعطيه الحياة .. تضاعفت دقات قلبه .. يسمعها
بوضوح تام .. خيم السكوت .. انقطعت الحركة .. أحس بالرهبة .. بالعظمة .. كأنه
في معبد.. خاصة لما لاحظ تغير وجه أمه .. الوجه الذي لم يفقد البشر والبسمة ..
سكنه العبوس وازداد صعود وهبوط قفصها الصدري .. تركز نظرها على نقطة
بعيدة في الفضاء .. تستشف منها الوقائع .. ثم ما لبثت أن شاهد دموعها غزيرة

تنفلت هابطة بسرعة .. إنها نصل خنجر حاد يمزق فؤاده سرعان ما ارتقى عليها واحتضنها باكيا ..

— حدث ذلك يا ولدي قبل الآن باثنتين وعشرين عاما ، عندما تزوجنا .. ولم تمض غير سنة واحدة حتى رزقنا الله بك ، فغمرتنا الفرحة والسعادة ، عندما أحسّ والدك أن دوره في الأسرة ازداد ، فضاعف من عمله الفلاحي ، نتيجة لذلك ازداد المدخول .. استطعنا أن نشيد هذا المنزل الذي نحيا بين جدرانها والذي فيه رأيت النور وترعرعت فيه .. حقا يا ولدي إنها لأيام سعيدة شملنا الرخاء .. خاصة تلك السنة وأنت في عامك الثالث تجري وتمرح بيننا .. نشوة السعادة تغمرنا .. والأمل الباسم يظللنا.. وإذا بأبيك يتلقى رسالة من ابن عمه مسعود أرسلها له من المهجر طلب منه الالتحاق به هناك ، حيث يكثُر العمل المدرّ للأموال .. نزل عليّ الأمر نزول الصاعقة ، إنه خطر مهدد لهذا البيت العامر .. وحرب مدمرة .. مشردة لأفراد هذه الأسرة الفتية .. أما أبوك يا بني قد أسكرته نشوة الفرح وخدرته عبارة : العمل المدر للأموال .

بذلت جهودا مُضنية في صدّه عن الرحيل ، أو على الأقل تأجيل الرحيل .. لكنه صمم ولا فائدة في رده عن تصميمه .. رحل أول الربيع بعد ما ترك لي القليل من المال تكفي لشهور قليلة .. ووعدني بإرسال المال كل شهر ما دام العمل والمال متوفرين ، كما أكدوا له .. على أن يقضي شتاء كل سنة معنا ، انقذت للوعود يا ولدي ورأيت أنها ما دامت لصالح الأسرة فلا مهرب منها.

وبتوالي الشهور الأولى تهاطلت علي رسائله .. وصلني البعض من المال .. وحلّ الشتاء ورأى أخوك سعيد النور ، ونزل إلى الحياة ، إذ صرنا ثلاثة ، وبذلك

ازدادت حاجتنا إلى المال .. رحل الشتاء ولم نر أباك حيث أخلف وعده ، ومن ثمة بدأت مخاوفي تتحقق وبالفعل ما أن أقبل الصيف لتلك السنة حتى قطع علي امدادات المال والرسائل. لا أكذب عليك يا ولدي ، لما أقول لك أنني منذ ذلك الصيف لم أتلق منه مالا .. أو رسالة ، أو مجرد خبر مع أي قادم ، وهم كثيرون كما تعلم ، أنت تدري وتذكر كيف كنا نعيش في جزء من طفولتك وشبابك ، ومواردنا ، إذ كان جدك - رحمه الله - أكبر مساعد لنا ، فضلا عما كنت أقوم به أنا من نسيج لبعض الملابس الصوفية .. ثم رحل هذا الجد الطيب عن هذه الدنيا ، فضاغت عملي .. قد مرت تلك الأيام العصيبة ، وهلت علينا بدوها أيام الفرحة والسعادة يا ولدي على يديك ، وعوضتنا ما حرمننا منه ، فرحتنا وسعادتنا ، من الواجب أن تشمل أباك .. نعم أباك رغم ما حصل فهو أبوك يجب إسعاده ..

— لكن .. كيف العمل يا أمه ! ونحن نجهل عنه كل شيء ..

— ليس الأمر بالصعوبة التي تراها .. الأمر هيئاً ، بالفعل نحن نجهل عنه كل شيء ، إلا أن المدينة التي يقيم بها معروفة لدينا .

— هي باريس يا أمه ...؟

— بلى .. حتى الحي المقيم فيها معروفٌ ، فمجرد الاتصال بالعمال الذين يعرفونه .. عمال بلدتنا هذه . بل وطلب المساعدة من البعض لكفيل بالعثور عليه ..

— ماذا تريد مني بالضبط أن أعمل الآن ؟

— أريدك أن تتحول في إجازتك هذه إلى هناك وتبحث عنه ، وتبذل كل جهودك على إقناعه بالعودة.

— أنا مشتاق لرؤيته يا أمي ، بل إلى ملاقاته ، سأعمل على تحقيق ذلك ، غير أن الصعوبة تكمن في إعادته ، إن كان غير راغب في العودة.

— لا صعوبة يا ولدي ، إجازتك طويلة ، لديك من الوقت ما يكفي لهذه المهمة . أخوك لا يعرف أبدا . أمن الحق والإنصاف ألا يرى الأب ابنه قرابة العشرين عاما .. وكلاهما على قيد الحياة ؟.

قطع عليه استرسال الشريط ، وصول أحد المعزين لحظة اقترابه منه ، وتقديم عبارات العزاء المؤثرة ، أدرك أنه أحد أفراد العائلة وصل للتو من المهجر . كان ممّن قدموا مساعدات مهمة لمحمود خلال الصائفة التي كان يبحث فيها عن والده .. لعل كلمات العزاء المؤثرة والنابعة من الأعماق لأكبر دليل على أواصر القربى ، وأصدق تعبير على الوفاء للعائلة .. لذلك كان الاقتضاب فيها كافيا ، مما أدى بمحمود إلى متابعة الشريط .

تمكّن من قطع البحر خلال ذلك الصيف ، وحلّ بباريس التي لم يبهره شيء من معالمها الحضارية ، حيث لم يكن هدف ذهابه إلى هناك تلك المعالم ، بل كان هدفه شيء آخر ، ويفضل بعض العناوين التي أخذها معه استطاع الاتصال بالكثير من عمال بلدته الذين لم ييخلوا عليه بمساعداتهم ، وما مضت غير أيام قليلة حتى تمكّن من الاتصال بأبيه في أحد مستشفيات الأمراض الصدرية ، وحالته سيئة جدا . كان اللقاء مؤثرا جدا .. لقاء والد بابنه رحل عنه وهو في عامه الثالث ، لقد أصبح شابا قوي البنية ، يملأ الدنيا ، يترك والده في نفسه ذكرى يعيش على طيفها . بين هذه وتلك ، هذا اللقاء اللعين .. في المستشفى .. وأي مستشفى ؟ إنه مستشفى الأمراض الصدرية ...

انتهى اللقاء .. مرت الأيام وزيارات محمود لوالده متكررة .. وشرع يعرض عليه فكرة العودة .. والأمر لا يتعدى فكرة الموافقة .. كل شيء جاهز.

في البداية كان الوالد يعتمد إلى التأجيل ، ريثما يبرأ من العلة الخبيثة ثم صار يلجأ إلى الصمت .. طالت الأيام ، وأوشكت الإجازة على نهايتها. صمم محمود على أخذ والده معه مهما كانت الظروف .. حينذاك انتفض الوالد :

— عدّ يا ولدي إلى هناك .. أعدك وعدا صادقا أنني حالما يُسمح لي بمغادرة المستشفى ألتحق بكم.

— بل الآن ، فالطبيعة عندنا تساعدك أكثر ، والعلاج أحسن ...

— ليس من المعقول أن أعود عليلا .. كمية مهمة إلى بلدتي .. بلدتي التي خرجت منها بصحة كانت مضرب المثل .. لا يا ولدي ..

— ليس في الأمر ما يعيب .. لست الوحيد الذي عاد مريضا ..

— أرجوك يا ولدي أن تعود ..

محمود يعلم في قرارة نفسه ، أن الوعود لم تعد لها مكانة في هذا العالم حتى من أقرب الناس .. وازن يومها بين وعوده قبل عشرين عاما لوالدته ، وبين وعوده له ، أدرك أنها مكملّة لبعضها. بقية من الأمل ترسبت في داخله. ما فتئت تدغدغه بين آونة وأخرى ، بعد عودته الأم بدورها في قرارة نفسها نتيجة رفاهة حسها ، وبجدسها الذي لا يخطئ ، وتجربتها في الماضي ، فقدت كل أمل .. لكنها كانت متفائلة أكثر أمام ابنيها.

تساقطت الأيام من عقد السنة .. وما وصل الوالد .. وما ورد خبر عنه ، إلى أن كان يوم ، ومحمود في أسبوع الراحة كعادته مع الأسرة ، إذ سمع دققة غير عادية

على الباب الخارجي .. أسرع .. إنه ساعي البريد يسلمه برقية ، التهم كلماتها ..
مُرْسِل البرقية أحد العمال المغتربين من الأسرة :

— عليك بالحضور حالا ، لتأخذ أباك معك ، كفاه غربة ...

أُشْكِل الأمر على محمود .. وزاده تعقيدا فزعُ الأم التي راحت تلطم وجهها
وتصرخ :

— كنت أعرف .. نعم أعرف.

— ماذا تعرفين ؟ أفصحي ..

— أعرف أنه يفضل العودة ميتا ، على أن يعود حيا ..

— كفى يا أمي ، من قال لك هذا الخبر المشؤوم .. لقد شفى من علته..

— لا يا محمود ، قلبي يحدثني عكس ذلك .. كنت أعرف أنه ...

— تعرفين ماذا ؟ هناك سر في القضية ؟

— لا يا محمود ... ولكن ..

— أيّ لا .. وأية لكن ؟

خطر له أنه يُرغم سي الأخضر على البوح له بما رآه غير مناسب قوله
للجماعة ، بيد أن رهبة الموقف وجلال الموت ، وذكرى الراحل العزيز ، أدت به إلى
الصمت سيما وأنه متعب جدا .. ثلاثة أيام بلياليها ما طرق الكرى جفنيه .. وما
دخلت بطنه لقمة عيش. بعد أيام أربعة ، خلا المنزل من كل منْ هبَّ ودبَّ
للمواساة والعزاء .. يومها انفرد بوالدته راغما إياها على البوح له بما أخفته عنه
ذات يوم ... الأمر لم يعد في حاجة إلى الإخفاء .. آن لمحمود أن يعرف :

— الحق يا ولدي ، لا سرّ أخفيه عليك ، إنما حاولت ألا أُصدمك بتصرف غير لائق صدر من أبيك حين غادر بلدتنا .. تصرف شاذ ربما ندم عليه ، ولعلي لا أخطئ ، إن زعمت أنه السبب الوحيد في عدم عودته.

— أسرع .. أذكره ..

— حينما وضع رجله في الحافلة لعن هذه البلدة .. بل أهلها والوطن كله وأهله .. ودينه .. ولغته .. وأقسم يومها ألا يعود إلى هذه البلاد .. بالطبع ما سمعت أنا منه ذلك الكلام .. ورأيت بعدها أنها نزوة سرعان ما تندثر تحت طيات الأيام ... وبدا أنها غير نزوة ..

— إذن فلماذا أتعبتني كل ذلك التعب يوم كلّفتني بالبحث عنه وإعادته ؟

— أو أنت نادم يا محمود ؟

ارتبك واحمر خجلا .. وركن إلى الصمت ..خطر له لحظتها أن يشكر أمه ، معترفا لها بالوفاء والتضحية فارتمى عليها ...تصور لحظتها أنها القلعة التي طالما صمدت أمام العواصف وحمته داخلها ، ولسوف تحميه ، ما دام فيها نفسٌ يتردد .. ثم رفع رأسه وأخرج ورقة بيضاء من جيبه في أعلاها كُتبت هذه العبارة .. " رخصة الخروج من التراب الوطني " ... ومزقها شر تمزيق ، بحقد وتشفٍّ أثار انتباه والدته :

— ماذا مرّقت ؟

— لا شيء يهم ، إنها ورقة فات أوان استعمالها فقط.

أقسم داخله ، ألا يغادر هذه الأرض ، إلا مرسلا في مهمة خاصة أو بعثة.

نشرت في مجلة " الأديب " البيروتية

حتى العصافير أعلنت الحداد

بالأمس مات إبراهيم .. ودّع هذه الدنيا .. دون أن بنس بكلمة واحدة ..
دون أن ينطق بحرف واحد.. هوى كما تهوي ذرة غبار من الأعالي على أديم الأرض
.. لفظ أنفاسه في المستشفى خلال الليل ، فالساعة والدقيقة مجهولتان ، إذ أن
الممرض المناوب أعلن :

— أنه توفي خلال الليل .. رحل إلى العالم الآخر وغير بعيد من سرير ممرضة تفرق
العلكة منتشية في حوار هادئ رومانسي مع ممرض يطوفان دنيا الأحلام.

لم يكن حادث وفاة إبراهيم الطفل مفاجئا ، فالذين شاهدوه وهو ملقى
ينزف دما بغزارة على حاشية الطريق.. ثمرة ناضجة .. طرية .. ريّانة .. سقطت من
الشجرة فوق صخرة صلبة ، وبفعل قوة السقوط وثبت لترتمي أخيرا على الحاشية ..
فقدت الثمرة شكلها الأصلي .. تعودت الأنظار هذا السقوط .. تبدل الإحساس
والشعور .. التفوا حول بعضهم في حلقة مكثفة .. اشأبت من بينهم بعض
الأعناق.. بصق أحدهم على الأرض بعدما انفلت من الحلقة ، معلقا :
— هه .. أرانب تلد ، وتلقي بصغارها على قارعة الطريق.

وافقه آخر بإشارة من رأسه .. اندفع ثالث مقتحما الجمع بمنكبيه صارخا :

— لنخط خطوطا تحدد مساحة الضحية .

— لا يا رجل .. لنقم بعمل أسرع أراه مفيدا في هذه اللحظة .. ما قولكم في البحث
عن وليّه ؟

رفع أحد الشيوخ رأسه إلى السماء وتمتم :

— الله يلعن هذا الزمان ..

شكّلت خيوط حمراء متدفقة من الضحية مساحات ذات أشكال هندسية غير منتظمة .. عينان شاخصتان إلى الفضاء .. انزاح منهما اللون الأسود .. تاركا الحرية للون الأبيض الفرصة كي يحتل مساحة العين.. تمددت الأطراف مرتحية شيئا فشيئا .. دنا أحد الحاضرين من الضحية .. وضع أذنه على الصدر ، هتف :

— أنفاسه ضعيفة يا ناس ، لا يزال بإمكاننا إنقاذه ، لكن .. لكن كيف العمل ؟

— لنترقّب رجال الدرك ، فوجود الضحية في مكانها يساعد على معرفة الحقيقة ...

اندفع شيخ متصابٍ بقوة الشباب .. بعزيمة الفتوة المتبقّاة لديه ، فاتحا لنفسه طريقا .. انحنى بلطف واحتضن الضحية .. وانطلق بها عدّوا .. سريعا ما لحقت به سيارة ابتلعتة بحمله .. وغابت عن الأنظار.

بجسم حطّ الكبر عليه ككله الثقيل المرعب .. صيّرهُ شبه إنسان .. تتردد في داخله أنفاس ضعيفة واهنة .. بقلب يخفق بجنون .. صعقته الصدمة .. لم يدر ما حدث بالضبط .. عبارة واحدة التقطتها أذناه ، فاه بها جاره منذ لحظات حينما أطل من الباب :

— جمع كبير من الناس تجمعوا قبل لحظات .. قيل أن سيارة تجري بسرعة جنونية دهست طفلا في السادسة من عمره .. السائق لم يعثر عليه بعد .. والسيارة واقفة هناك .. داخلها تغني كوكب الشرق.

اندفع لحظتها كالبرق الخاطف صوب المكان .. خيوط كثيفة من سائل أحمر ضمخت المادة الزفتية السوداء كان الكل على جانبي الطريق بعيدين .. عيون

شاخصة ، وأخرى تشير إلى مكان الحادث .. بعض الرجال في حوار ساخن يوزعون الجرم الفضيح .

أطل من منعطف الشارع ، لم يتضح الموقف لديه بعد .. رشقته الأنظار جميعها .. أثخنه جراحا .. كاد أن يتعثر .. استند إلى جذع شجرة جانب الطريق .. ثم اقترب من أحدهم .. بصوت واهن ترتعد نبراته .. مخاطبا إياه :
— ماذا حدث منذ لحظات هنا .. حركة غير عادية تبدو لي ؟

—

— أرجوك .. افصح ، إنني على استعداد أن أصغي إليك بشجاعة وصبر .. هذه الأنظار المتجهة إليّ والهمسات التي تصلني .. تُوحى إليّ بأن مكروها حدث .. وقلبي يقول لي :

— أن مكروها حدث يمس قريبا لي ، أليس كذلك ؟

— بلى .. يا محمد .. مجرد حادث بسيط جدا ، أصيب فيه ابنكم إبراهيم ، حينما كان يقطع الطريق .. احتكاك بسيط بسيارة قادمة من الجهة الشمالية .. أسقطته أرضا .. مجرد سقوط .. الواقع حالته لا تدعو للخوف ..أسرع به لتلقي الإسعافات الضرورية ...

— مسء الخير يا أخي .. ألم تحضر سيارة منذ حوالي الساعة إلى هنا تحمل طفلا جريحا ؟

سؤال طرحه على أحد الحراس أمام باب المستوصف .

— لا أدري بالضبط ، فكما ترى سيارات كثيرة تدخل وتخرج في كل دقيقة تحمل المرضى أو الأطباء .. أو العمال .. أو غيرهم ..

— لكنك بالبـاب على علم بكل شيء.

— يا سيدي أنصحك بالتوغل داخل المستشفى ولسانك دليلك ..

مرّت الثواني والدقائق .. وشرع الليل يُرخي سدوله على الكون .. في الأفق البعيد من ناحية الغرب ، تشكلت مساحات حمراء وصفراء ، وبرتقالية متداخلة في بعضها .. كاشفة عن وجوه وأجسام ذات هيئة غريبة وخيفة .. مربعة .. بشعة على ضوء باهت لمصاييح تحتضر ، كان يقطع العنابر والممرات ولسانه دليله ، كرهت أذناه الإصغاء إلى جواب سمعه للمرة العاشرة :

— والله يا أخي لست أدري .. لكن أشير عليك بالتوجه إلى قاعة رقم واحد ...

دلف إلى قاعة رقم واحد .. دافعا الباب بعنف .. سلاحه حَقْدُ تجمع منذ سنوات ضد كل الأبواب الحاملة للأرقام .. للكلمات .. اندفع كوحش هائج هرب من قفصه للتو .. دخل القاعة رقم واحد للمرة الرابعة .. ما أكره العبارة الكاذبة إلى نفسه في كل مرة : " والله يا أخي .. والله يا أخي " ...

بخطوات عملاقة ، ارتعدت لها أرضية القاعة ، قادته إلى باب تحميه حروف انضمت إلى بعضها مكونة صفا دفاعيا .. بل هجوميا ضد من يجروء على الاقتراب .. اقترب بثبات .. حدجته الحروف بنظرات قاسية عنيفة ، لا تخلو من الإيقاع به ، غير أنه تمكن من الاقتحام بنجاح ، ودخل الحصن المنيع الخروس .. سقط نظره عليهما .. كانت المفاجأة مذهلة له ، ولهما .. همسات رقيقة .. وأنفاس ملتهبة حارقة .. والشفاه تلتهم بعضها بعضا .. وأطلق الزناد لرشاش كلماته النارية الحارقة المدمرة ..

حقناه .. خدرناه .. قرب من حالته العادية .. نفسه الخيري عادت إليها الطمأنينة التي لا تخلو من شك وخوف مشوب بالخذر :

— اطمئن ، قد تلقى الإسعافات الأولية ، وحالته على أحسن ما يرام .. لا تخش مكروها عليه .. الآن قد أقبل الليل .. انصرف وطمئن الأسرة .. عد غدا إن شاء الله.

— لكنني أحسّ بشوق لرؤيته .. نفسي تتحرق إليه .. أريد أن أراه بربكما ..

— ألا تتق فينا يا سيد ؟ ثم إن الطبيب في مثل هذه الحالات يمنع الاتصال بالمريض ، إلا بعد إجراء الفحوص الكاملة، والتعرف على نوعية الإصابة .. عد في الغد أفضل .

اكتظّ الحوش بالنساء قدمن من كل أحياء البلدة .. بأعينهن الماكرة يلتهمن مبروكة التي طورا تغيب عن الوجود في إغماء طويلة تعود إثرها إلى رشدها بفعل إسعافات تُقدم لها من لدن الحاضرات، وطورا آخر تكون شاردة الذهن ساهمة ، وعيناها جاحظتان .. وبين هذا الطور وذاك ، لا تتوقف عن ترديد :

— إبراهيم ، تَوًّا كان يلعب قربي .. ها هو الرمان أحضره إليّ من غرفة المؤونة .. إنه لذيذ وحلو المذاق .. أكل منه وترك الباقي لي .. طلبت منه أن يذهب إلى سعيده أختي .. سيحضر حالا كما أمرته .. من غير شك إنه عائد الآن .. كعادته سيطالع دروسه .. محفظته هناك .. يا فاطمة .. يا بنتي ، تطلعي من النافذة إلى الطريق .. راقبيه عله قادم .. قمن يا نساء .. الليل جله .. عدن إلى منازلكن ..

— أسعد الله صباحك يا محمد ، هل اتصلت بالمستشفى هذا الصباح ؟

— نعم اتصلت بنفسي قبل بزوغ الشمس ، غير أنني لم أتمكن من الدخول رغم محاولاتي مع الحارس الليلي بيد أنه غاب عدة دقائق .. وأعلمني عقب عودته .. أن حالة الطفل تحسنت .. ومن المحتمل جدا موافقة الطبيب على إخراجه .

— صباح الخير محمد ... ما الأخبار ؟

— بخير إن شاء الله ، قيل لي أن حالته تحسنت ..

— هل رأيته هذه الصبيحة ؟

— ما رأيته .. إلا أن الحارس طمأنني ..

كبرت الحلقة .. تضاعف عدد أفرادها .. توالى الأسئلة الصادرة من هنا وهناك .. أحس بدماعه يكبر ويكبر .. ويتناقل وزنه .. والصداع يقتحمه في غزوة همجية .. كاد يسقط .. تمددت ضبابية كثيفة أمام عينيه انسل من الحلقة ، لاحقته الكلمات .. حروفها سهام مسمومة رشقته .. أثختته جراحا .. بخطى متعثرة .. ابتعد بعيدا .. بعيدا .. وحيدا ..

بوجه حزين فقد نضارته ، هجرته دماء الفتوة فاجأه هول الحادث ، لم يصدق ما حدث أبدا .. أفي ساعات قليلة يفقد وحيدته ؟ الابن الفريد الذي رُزق به بين بنات ثلاث .. وبعدهن جميعا .. أفي أقل من يوم يغيب عن عينه إلى غير رجعة ؟

من أجله اشترى قطعة ترايبية وشيّد عليها منزله ، لتقيم به الأسرة حتى يتمكن إبراهيم من دخول المدرسة والتعلم ، وتحقيق أمنية الأب محمد .. التي حُرم منها في طفولته . لم يصدق ما أرادوا.. أن يتقبل التعازي .. مكتفيا بتحريك رأسه أحيانا ، فاقد الشعور والإحساس بالزمان والمكان أحيانا أخرى .. حركة غير عادية حوله .. أيادي كثيرة امتدت إليه .. شفاه عديدة تحركت .. أصدرت أصواتا تذبذبت بين عالم الغيب وعالم الواقع ..

بغثة توقفت سيارة فخمة .. ذات زجاج أخضر .. تحمل رقم هوية أجنبية .. تقيأت عبثها .. ثلاثة رجال يبدو أنهم من أعيان بلدة مجاورة .. رابعهم شابٌ انسدل شعرٌ كثٌ طويل على قفاه .. بنهم غريب راح يمتص من غليونه البُنيّ.. من وراء

زجاج نظارته السوداء .. انبعثت نظرات الاحتقار نحو الجالسين .. إنه عائد لتوه من بلاد المهجر .. بعد التحية وتقديم التعازي من الثلاثة .. انفردوا به بعيدا .. مربع زواياه رجال أربعة قائمون ، كان هو نقطة الوسط ، قال أكبرهم وأفصحهم :

— نأسف والحزن يحزّ نفوسنا ، ويؤلم أعمق أعماقنا لما حدث ، وهذه مشيئة الله ولا رادّ لها .. ألا تؤمن بالقدر يا سيدي ؟ المؤمن صبور .. جئنا باسم السائق .. هذا الشاب الحاضر معنا .. بل باسم البلدة نطلب منك العفو أمام الله أولا ، ولا نطلب منك التنازل عن حقّك المادي ، ففي هذا الشأن أتينا ، نعرض تسوية القضية من خلال هذه الكمية الوفيرة من الأوراق المالية .. خذْ إنها لك وحدك .. على الأقلّ تخفف من ألمك .. وعلى المدى البعيد تُنسيك هول المصاب الجلل .. الله رؤوف بعباده .. سيعوضك غيره.

— مجرد حادث فقط يا سادة .. ابني ابراهيم كما اعلمني الممرضون بالمستشفى حالته تحسنت .. نعم بالفعل تحسنت .. إنني رأيته .. هل تشكون في ذلك ؟ كان وجهه منيرا كالبدر .. سأذهب لآتي به .. سيعود إلى مدرسته بحفظته الجديدة التي ابتعتها له الجمعة الماضي .. مكافأة له على رتبته الممتازة في صفّه .. مجرد حادث بسيط.

اقترب أحدُ الجالسين من الرجال الأربعة وخاطبهم بلهجة لا تخلو من عتاب

وزجر :

— أفي مثل هذه الظروف يا سادة .. وفي هذا اليوم بالذات تأتون ؟ أغربوا عن وجوهنا .. قَبّح الله وجوهكم ..

نُشِرت في مجلة «الثقافة

ذئابُ في المنعطف

هجره النوم .. زميل الرحلة في المقعد كان يغطّ في سبات عميق .. ما وجد هو إلا فرصة الحديث مع نفسه :

— الحافلة تطوي الأرض طيّاً .. ما بقيت غير ساعة واحدة وتصل إلى الهدف ..
خيوط الفجر تعلو منتصرة .. جيوش الظلام تنسحب مهزومة .. كيف أنزلُ من الحافلة بعد غياب امتد إلى أكثر من ثلاثة أشهر ويدي فارغتان ؟ لا شك أن الحافلة تحط رحالها .. وتلقي بحمولتها في المحطة المركزية .. المكتظة بالمسافرين والفضوليين .. ربما يكون من الفضوليين الكثير ممّن أعرفهم .. أصدقائه .. جيران .. أقارب .. البعض من هؤلاء أوصوني بهدايا .. بحاجات حلموا بها .. تمنوا أن يمتلكوها ذات يوم .. لعل ابني الكبير يكون في المحطة في انتظاري .. منذ عشرة أيام أخبرته بقرب عودتي .. حددت له وللأسرة الموعد بالضبط

النور ينتشر أكثر .. والأشياء تزداد وضوحاً .. وجوه المسافرين المرهقة المكدودة ، بدأت غشاوة النعاس تزول عنها .. الأيدي تمتد والأجسام تتحرك .. تقف جامعة الأشياء المبعثرة على الرفوف العلوية وأسفل المقاعد .. لم تبق إلا مسافة قصيرة وتصل الحافلة .. كان جامداً في مكانه فاقد الحركة .. فاقد الشعور بكل شيء .. تنعدم الأسباب التي تدعوه إلى الحركة .. إلى الوقوف كغيره .. فجأة تذكر أن الحافلة ستتوقف بالقرية القادمة لتزود بالوقود .. انتفض في مكانه .. كهربة سرت في جسمه الجامد.

وصل قبل يومين إلى مدينة عنابة .. تصحبه أربع حقائب حديدية ضخمة ..
حصيلة بقاءه ثلاثة أشهر في باريس ، تلبية لرغبة صهره المقيم هناك منذ عشرين
سنة .. وتلبية أكثر لنداء داخلي يلح ويؤرقه بشد الرحال إلى باريس .. المدينة
العجيبة التي سحرت أكثر شباب وشابات بلدته .. في زياراتهم المتكررة لها .. الكثير
منهم لا يصبرون حتى على قضاء موسم العيد مع أسرهم .. ويؤثرون قبل حلول
شهر الصيام أن يكونوا هناك .. كل سنة يكثر عليه صهره برسائل تدعوه إلى القدوم
.. ربيع هذه السنة ألحَّ عليه أكثر .. أغراه بالسكن .. بالعمل .. بقضاء عطلة آخر
كل أسبوع في مدينة فرنسية، أو سويسرية ، أو بلجيكية ما حلم يوما بزيارتها جموع
أو الشاب والشابات وأصدقائه من الموظفين والعمال .. يتحينون أية فرصة لربط
علاقة هناك .. حتى يتمكنوا من زيارة باريس .. كانت الرسالة الربيعية الأخيرة
مغرية من صهره .. التزوي والتفكير في نتائج الزيارة .. أخذ من وقته الكثير إلى أن
كان ذات يوم .. في جلسة هادئة مع زوجته الشابة التي اقترن بها منذ خمس سنوات ..
وأنجبت له ثلاثة أطفال .. قالت له :

— عطلتك طويلة تمتد إلى أكثر من ثلاثة أشهر .. ولم يبق عليها غير شهر .. هلا
فكرت في عرض والذي لزيارته .. منذ زواجنا لم يأت إلى البلد .. دعوته فرصة
لزيارته من جهة .. وجولة لنا كغيرنا ؟

— ما فكرت في الموضوع بعد .. حقيقة رسالة والدك مؤثرة جدا .. ودعوته مغرية
تنبئ عن نفس كريمة و روح طيبة .. إنما كما تعرفين لي مشاريع أثقل العطلة أنوي
إنجازها و.. و ...

- كامل السنة وأنت موجود هنا .. وباستطاعتك إنجاز مشاريعك .. ووظيفتك .. أبدا .. لن تكون عائقا.
- من حديثك هذا .. أفهم أنك ترغيبين في السفر .
- أجل .. وألح في أخذي معك.
- لم أقرر بعد .. وما فكرت في الموضوع كما أعلمتك قبل الآن .. ويبدو لي حتى في حالة اتخاذ قرارى بالسفر .. لا أرغب في اصطحابك معي هذه المرة.
- لا تظهر لي عوائق تحول دون سفري.
- بل هناك عائق كبير يفسد علينا رحلتنا .. بل وربما يضايق والدك هناك في مدينة تكتظ بالسكان ويعيش المغتربون فيها أشدّ أزمة للسكن.
- بالعكس والذي مسكنه واسع حسب قوله في رسالته .. ثم إنه مشتاق لأبنائنا وسوف يرحب بهم .. إنهم أبنائوه.
- وزوجته الفرنسية .. وأبنائها الثلاثة منها .. هل مشتاقون بدورهم لأبنائنا ؟ هل زوجته مستعدة لتقبل أبنائنا الثلاثة بضجيجهم ، وصياحهم ، وعبثهم بمحتويات منزلها وبنظام تربيته ؟ هل تقبل أن تبقى في بيتها للاعتناء بهم .. حتى تتمكني أنت من الخروج للتعرف على معالم المدينة .. كونك ضيفة عليها ؟
- إنها إنسانة طيبة .. هل نسيت تحياتها الحارة التي توجهها لنا في رسائل والدي ؟
- أشك بأنها طيبة .. لعلني إذا سافرت سوف أذهب وحدي هذه السنة حتى أعاين الأمور على حقيقتها بنفسى .. فإن بدت لي حسنة .. والصعوبات قليلة ، سوف أخذك معي خلال السنة القادمة .. خاصة الأطفال يكونون قد كبروا شيئا ما.

وصل قبل يومين إلى مطار عنابة قادما من باريس .. كانت الساعة السابعة مساءً في محطة القطارات بوسط المدينة .. قذفته سيارة أجرة بحقائبه الحديدية الأربعة .. حملٌ ثقيلٌ جدا .. إنه يجهل المدينة تماما .. ما زارها من قبل .. فيها معارف كثيرون من أبناء مدينته .. تجار .. عمال .. طلبة في جامعتها. لكن عناوينهم غير موجودة عنده .. أثناء قطع المسافة بين المطار والمدينة .. استوضحه السائق عما إذا كان تحت يده عنوان .. أو فندق يذهب إليه بالضبط .. نفى ذلك .. حقائب حديدية أربعة .. حمل ثقيل جدا .. قال له السائق وهو يودعه :

— الليل على الأبواب كن حذرا جدا .. راقب حقائبك .

وضع حقائبه الأربعة فوق بعضها .. عيون كثيرة تراقبه .. من الواقفين خارج المحطة .. من الجالسين على المقاعد الحجرية في الحديقة النخيلية الصغيرة المقابلة .. وبينما كان يفكر في الاتجاه الذي يأخذه .. أذهب سائلا عن أحد المعارف ؟ أم يذهب باحثا عن مكان في الفندق ؟ كيف تكون وضعيته بالحقائب ؟ من سيساعده على ذلك .. بينما كان عقله عرضة لهذه الأسئلة ، تقدم منه رجل واسع الصدر .. عريض المنكبين .. مفتول الذراعين .. وارتمى عليه محتضنا .. مشبعا إياه قبلات حارة على الخدين .. مُحييًّا إياه بحرارة الصديق :

— يا مرحبا .. يا مرحبا .. منذ أيام وأنا في انتظارك .. راهنتهم اليوم على وصولك .. وقد صدق ما توقعته .. كيف حالك يا أخي ؟ كم اشتقنا لك طول هذه المدة .. إنها لغيبة طويلة ...

— أهلا وسهلا يا أخي .. لكن أشك أنني تشرفت بالتعرف عليك سلفا .. ثم أنني لست من سكان هذه المدينة.

— اطمئن يا أخي .. إنك تعرفني جيّدًا .. سنوات الطفولة قضيناها معا .. وبدوري لست من سكان هذه المدينة .. اطمئن نحن من مدينة واحدة .. أأست من مدينة (ص) ؟ هل تستطيع نكران أنك من عائلة (س) .. هل تذكر عادل .. عمر .. إبراهيم .. أحمد .. الجنيدى .. الذين كنت تنتمى إليهم في طفولتك ؟

— بلى .. أدلة .. ليس بمقدوري نكرانها .. إذن فأنت من بلدتي .. ومن زملاء الطفولة .. بل أنت صديق ساقك الله إلي في هذه الساعة الصعبة .. وفي هذه المدينة التي لا أعرف عنها شيئا ..

— ستكون في مأمن .. ومتاعك محفوظ .. اعتبر نفسك وصلت دارك ..
— شكرا أخي .. قد ذكرت لي أسماء أصدقائه الطفولة .. فالأسماء التي ذكرتها إلي موجودة بالبلدة .. تركتها هناك قبل سفري .. ماعدا واحدا ..

— لا تكمل .. ذلك الواحد الذي لم تراه منذ مدة ، ومقيم بهذه المدينة .. هو الجنيدى ..
— السنوات تجري .. تُرى أين حظّ رحاله ؟
— بل هو الذي أمامك يا أخي بعظمه ولحمه ..

— إذن فأنت هو .. اقترب مني لأعانقك أكثر .. كنت الصديق المقرب إلي من بين المجموعة .. هل تذكر من كثرة ملازمتنا لبعضنا البعض .. كانوا يطلقون علينا اسم التوائم ؟ ..

— أذكر .. أذكر يا صديقي .. ما أعذب تلك السنوات .. وما أرسخها في الذاكرة .. والكلام عنها لا يملّ الإنسان .. ستكون لنا ساعات طويلة نواصل فيها الحديث عن الموضوع .. أما الآن لا شك أنك تعاني من مشاق السفر هيا بنا نتوجه إلى المنزل ..
حيث الأسرة في انتظارنا لطالما سألتني عنك ..

— إلاً المنزل .. لا يا صديقي .. أنا تعبان جدا .. وأرغب في الراحة .. فوجودي معكم ربما يقلق الأسرة ويقلل من راحتها .. ثم أنني أرغب البقاء لوحدي .. حتى أتمكن من الاستعداد للسفر إلى العائلة في بلدتي .. حيث الكل ينتظروني ..

— أبدا غير معقول يا صديق الطفولة .. أنا هنا وأنت تقضي ليلتك في الفندق .. كيف ستصبح نظرتك إلي مستقبلا ؟ وماذا سيقولون في بلدتنا عني ؟ .. لا .. لا .. لا يا أخي .. رجلي .. ورجلك.

بحملهما الثقيل الذي تقاسمه .. قطعاً ساحة الثورة .. ثم انعطفا إلى شارع مجاور .. حيث لاحت لافتة ضوئية عليها « فندق السعادة » . ألقى بحمله أمام باب الفندق ..

— سوف أقضي ليلتي في هذا الفندق ..

— قلت لك في منزلي .. وإذا صممت على المبيت هنا .. فشيمتي وكرامتي تدعواني إلى عدم فراقك .. حتى تغادر المدينة يوم الغد آمنة مطمئنا على نفسك ومتاعك.

وما أن تسلّم مفتاح الغرفة حتى انتحى به جانباً، وكأنه يكمل معه حديثاً :

— صاحب هذا الفندق إنسان طيب .. فندقه في أكثر الليالي .. لا تجد به مكاناً .. لحسن المعاملة .. واللفظ في القول .. والنظافة .. النظافة التي هي روح عالم الفندقة .. إنه يعرفني جيداً .. لولاي .. لرفض منحك هذه الغرفة أو غيرها .. هذه الغرفة بالذات .. دوماً يسلمها إلا في آخر لحظة يتركها للأصدقاء .. للمعارف .. للأصدقاء .. هل الإنسان قادر على العيش بدون أصدقاء ؟ هم الذراع الأيمن .. أنت على سبيل المثال لولاي أنا لقضيت ليلتك تحت سقف محطة القطار .. لا أحد يهتم بك غير أولاد الحرام.

— مجهوداتك معي لن أنساها أبدا .. هيا بنا نتوجه إلى مطعم جيد الخدمات نتناول طعام العشاء به ، ثم نعود لنسلم للنوم .. أشعر بتعب شديد ..
— تذكر رقم الغرفة إنه عشرة .. عليّ بعد العشاء أتوجه إلى المنزل في زيارة سريعة لأطمئنهم .. ولأخبرهم بأنني سوف لا أقضي ليلتي معهم.

غادرا المطعم بعد تناولهما عشاء فاخرا .. أصرّ الجندي على دفع ثمنه .. أمام باب المطعم لاح لهما مقهى المغرب العربي بساحة الثورة .. بمقاعده المريحة .. تحت الأشجار المنساب تحتها نسيم البحر .. أضواء النيون في الواجهات تكشف المعروضات .. الكتل البشرية تقطع ساحة الثورة في مناجاة شاعرية .. عرض الجندي عليه أيضا الجلوس بعض الوقت لتناول بعض المشروبات .. رحّب بالدعوة رغم تعب الشديد أخذا مكانهما في طاولة قصية نوعا ما .. وضع النادل مشروبات منها ماء معدني ، جرع من كأسه .. ثم همس الجندي في أذنه :

— انتظري هنا قليلا .. لا تقلق .. لي كلام مع صاحب المقهى.
من باب خلفي من الجهة الأخرى من المقهى .. توجه إلى الفندق هرولة .. حاذاه شاب آخر لا يتعدى العشرين سنة كان في انتظاره بفرحة الظفر قال له :
— رأيت كيف أعطيك معلومات صحيحة أوقعته في الفخ .. لو كنت أنا بنفسني المتقدم إليه فمن الصعب أن أنال بغيتنا .. لأنه يعرفني ويعرف عائلتي .. بل وزميل للطفولة ..

— انتظري أمام باب الفندق .. احذر الصعود حتى لا يكشف أمرنا صاحبه.
في الفندق لاحظ صاحبه العرق المتصبّب منه وصدره يصعد ويهبط :
— ما بك يا ولدي .. أنفاسك متقطعة وسحتنتك متغيرة .. كأن مكروها حلّ بك ؟

— لا شيء .. لا شيء يا حاج .. إنما أتيت عدوا حيث وجدنا سيارة سنسافر عليها الآن .. عوض أن ننتظر إلى يوم الغد .. أعطني من فضلك مفتاح الغرفة رقم عشرة .. سأُنزل الحقائب .

— صاحبك أين هو ؟

— في الأسفل في انتظارنا مع صاحب السيارة .. آه تذكرت .. ثمن الغرفة .. اتركه هدية منا إليك .

— خذ يا ولدي .. المفتاح ..

الساعة التاسعة ليلاً .. ساحة الثورة تناقص روادها .. عمال المقهى شرعوا في جمع الكراسي والطاولات .. أفرغ في جوفه ما تبقى من زجاجة الماء المعدني .. هبّ واقفاً .. توجه إلى المقهى الذي كان خالياً إلا من عماله وصاحبه .. البعض شرع في عملية التنظيف لأرض المقهى .. البعض يغسل الأواني ..

اقترب من صاحب المقهى الذي كان وراء الحسب .. يعدّ حصيلة اليوم :
— مسله الخير .

— مسله الخير .. ماذا تريد ؟

— ألم يكن معك منذ حوالي الساعة شاب صديق لي اسمه الجنيدي ؟

— لا يا أخي .. ما سمعت بهذا الاسم من قبل .. وفي هذه الأمسية بالذات لم يكن معي أحدٌ إلا عمال المقهى .

— لكن تركني منذ ساعة ودخل إلى هنا .. طالبا مني انتظاره .. ليتصل بك في أمر يخصكما ..

في الفندق الذي وصله على جناح السرعة .. قال له الحاج مندهشاً من عودته :

— لماذا عدت يا ولدي .. أنسيتم شيئاً في هذه الغرفة ؟

— ما هذا الكلام يا حاج .. كل متاعي لا يزال في الغرفة .. خرجت أنا وصاحبي لتتناول طعام العشاء فقط، ويوم الغد إن شاء الله سأسافر .. صاحبي الذي معي صديق قديم من البلد .. لم نلتق منذ سنوات .. أبى إلا أن يرافقني ولا يتركني في هذه المدينة التي لم أزرها من قبل ..

— لكن يا ولدي ..

— لكن ماذا يا حاج .. تكلم .

— اصاحبك هذا، أو صديقك المخلص .. جاء منذ حوالي الساعة .. وأخذ الحقائق وودعني .. حسب قوله وجدتما سيارة وستسافران هذه الليلة .

أخذت الحافلة تخفف من سرعتها الجنونية .. امتدت الأيدي أسفل المقاعد .. وإلى الرفوف العليا .. جمّعا للحقائب والصناديق .. تذكر رجل الأمن الذي حرر محضرا عديد الأوراق بالآلة ، بعدما طلب منه الإمضاه تحت أقواله .. قال له ببرودة :

— تأكّد تماما أننا لهؤلاء بالمرصاد .. وحالما نلقي القبض عليهم .. سنوجه إليك استدعاءً للقدوم إلى هنا حتى تعالين بنفسك وتتعرف على حقائبك .. لا تيأس يا أخي.

توقفت الحافلة في القرية المجاورة .. لفظت بعض الركاب من جوفها .. كان هو من بينهم .. اقترض قيمة مالية من أحد التجار القدماء الذين كانت لهم علاقة بوالده .. أخذ أول سيارة إلى مدينة أخرى مجاورة لا تبعد كثيرا عن بلدته .. قضى نصف يومٍ في سوق البضائع الأجنبية .. المستوردة والمباعة على الرصيف .

مع الغروب دخل منزله محملاً بحقيبة حديدية والإرهاق الجسدي والنفسي
أخذ منه الكثير.

دائرة الفراغ

في الساعة الثامنة تماما تقدم إلى موضع شرطي البلدية الجالس على الكرسي.. المتنفخ البطن كبرميل حطبي تقلصت أطرافه وانتفخ بطنه. بنظرة واحدة استوعب الشرطي قامته الضامرة وحدّق في وجهه ، المتقلصة عضلاته طورا والممتدة طورا آخر والتي صاحبها ينمّ عن قوْل شيء ما ، ولكن نخونه الشجاعة ..

سمّر الشرطي عينيه في الأرض ، حينذاك ما انتظر الرجل أمر الدخول ، وتقدم بخطوات متعثرة إلى داخل المبنى مجتازا العتبة التي يجلس على الجانب الأيسر منها السيد الشرطي ، أحسّ بالقيّد يتراخى قليلا .. منطلقا نحو مصلحة الحالة المدنية استوقفه الشرطي :

— إلى أين يا رجل ؟

— إلى مصلحة الحالة المدنية ..

مرّ بهما موظف لا تزال عيناه شبه منتفختين .. انتفخ الشرطي كديك داس مملكته نَدُّ له ، وجد فرصة الانتقام :

— أبهذه السرعة تدخل ؟ الموظفون لم يصلوا بعد .. وأنت بكل وقاحة تتقدم دون أن تعلن عن سبب قدومك.

— ولكنها الساعة الثامنة يا سيدي ، وموعد بداية العمل قد حلّ .

— الله يسود وجهك ، اخرس يا غبي .. حتى أنت تعرف مواعيد العمل.

آثر الصمت .. بخطوات قليلة تأخّر إلى الورا ، وقف مستندا إلى الجدار.

بالأمس في حديث طويل مع جاره سي الحاج حسان ذي اللحية الصوفية
يشرح له موضوع الوثائق المطلوبة منه ، يستعرضها له واحدة.. واحدة ، وفقا طويلا
عند الوثيقة التي جله من أجلها إلى البلدية ، أكّد له الحاج أن كل الوثائق سهل
الحصول عليها ، ما عدا وثائق البلدية ، تساءل عن السبب ، ما تكرم الحاج في
إسعافه بالجواب ، ولكنه أودعه إلى الصبر والعمل من أجل الحصول على الوثائق
كيفما كانت الطرق ...

أقسمت الشمس أن تكون أشعتها نارا حامية ، شاوية منذ الصباح ، جمعة سكان
الحي تواردت عليه :

— يا خوي ، أقسمت يمين الله ألا أدخل البلدية وذلك الشرطي الكلب فيها.
— أنا دائما أرسل الطفل ابني ، حينما أحتاج إلى وثيقة.
— والله يا خاوتي ، توصّل الخبيث إلى البصق على وجهي ، كما استقرّت كفّه
الحديدية على وجهي في صفقة قوية.

— شكونه كما تعرفون إلى رئيس المجلس الشعبي البلدي وما تلقينا ردا.
— إذا لم يتلق منك قيمة نقدية مهما كانت قيمتها ، فإنه لن يسمح لك بالدخول إلى
المبنى.

— حاولنا اللقاه برئيسه مباشرة لنشرح له القضية ، فبعت محاولتنا بالفشل ، ويبدو
أن لديه أعمالا أخرى خارجية.

أقسمت الشمس أن تكون أشعتها نارا حامية ، شاوية منذ الصباح .. دقائق
الساعة نزلت على مخّه بعنف، وعقاربها يتعانقان أمام الرقم التاسع. تحسن

بأصابعه القطع النقدية الغريبة في جيبه. قبض عليها معا ، داهمه وجه زوجته حزينا
:

— احذر أن تنسى الخبز ، ليس لدي ما أطبخ ، الأطفال كما تعلم لم يتناولوا شيئا
هذا الصباح .

انفتحت أصابعه ، أعطت الحرية للقطع النقدية التي استقرت من جديد آمنة
مطمئنة في زاوية جيب السروال.

— يا رجل إن كنت تريد الدخول ، وقّرْ على نفسك التعب ، واحم نفسك من
الحرارة الشديدة.. اعملْ مثلما يعمل غيرك ...

— كيف يعمل غيري ؟

— على بالك ، يدهنون — السير —

— آ آ فهتم يا سيدي كيف غاب ذلك عن بالي ؟

أمام شبك الحالة المدنية ، رفع الموظف الكهل صاحب النظارة الطبية
السميكة عينيه إليه بكل برودة ، ودون أن يعرف مطلبه بادره قائلا :

— إن كان قدومك يخصّ البطاقة العائلية ، عليك أن تنسحب ، إذ المطبوعات غير
متوفرة لدينا بكل أسف .

— ولكن يا أخي

— لا أخي ، ولا هم يحزنون ... ولا كلمة واحدة من فضلك .. لا تُضيّع وقتي
الشمين

— متى أعود إذن ؟

— حينما تتوفر لدينا المطبوعات ، فإنك تسمع من الناس ...

أسودّت الدنيا في وجهه ، ضيّع طريق الخروج من المبنى .. قادته قدماه المتعثرتان إلى ممرٍ آخر ينتهي بمكتب جلس على يساره شرطي ، لا يختلف عن نظيره سحنة في الوجه والشكل .

أدرك أنه تائه في دروب وعرة شائكة ... رأسه يغلي ، يكاد ينفجر الأوراق غير متوفرة لدينا ، عليك أن تنسحب .. الملفّ يا خوي أوراقه يجب أن تكون تامة ، لا يا أخي ... ولا كلمة واحدة .. أعمل كغيرك ، ادهن السير ، وجه امرأته الحزين يطالب الخبز للصغار .. الوجه يقترب ويكبر ويملأ عليه الممر :
— احذر نسيان الخبز ، ليس لدي ما أطبخ .

الأطفال يحيطون به ، يتشبثون بتلابيبه :

— بابا ، بابا ... هل أحضرت لنا الخبز ؟ نكاد نموت جوعا ..

ضاع منه الطريق ، أحسّ بالحياة تنفلت منه ، وتفرّ بأقصى سرعتها ، حاول أن ينطلق .. أن يجري .. ألقى نفسه مشدودا بقيد قوي .. فتح فمه كي يصرخ ، يستغيث ، يطلب النجدة ، استقرت عيناه على شرطي المدخل ، تسمّر في مكانه مشدوها.

لمحه الشرطي يقطع الممر خارجا ، ملاحه متغيرة تُنبئ على أنه جندي مهزوم عائد من معركة أُجبر على خوضها ، والنتيجة لغير صالحه :

— يا رجل أراك تكوّر يديك كأنك على حلبة الملاكمة وتتعثّر في مشيتك .. لسانك لا يكف عن الهذيان — اعمل الله في بالك — إنك مؤمن .
— سبحانه وتعالى ...

— اقترب كي نتفاهم ... ولأتعرف على ما أغضبك وأقلقك ...

- وهل تعلم ما يقلقني ؟
- بالتأكيد ...
- وكيف العمل يا سيدي ؟
- الأمر بسيط جدا ... بالفعل الأوراق غير متوفرة لديهم ، وهم في انتظار وصولها..
- إلاّ مَنْ يحتاجها بسرعة ليس معقولا أن يُضَيّع وقته .. والأحسن أن
- أن ماذا .. كيف العمل ... أرجوك .
- من الممكن الحصول على الورقة بعشرة دنانير ...
- هاتها يا سيدي ، وسوف أسرع بالإتيان بالدنانير من المنزل.
- لا يا رجل ، أبهذه السرعة ؟ لست تاجرا ولا بائع أوراق ... إنما أقوم بإرشادك فقط.
- إذن أين يمكن الحصول عليها ؟
- في الكشك الواقع في ساحة الشهداء .
- من وراء زجاجة نظارته السمكية ، رفع موظف الحالة المدنية عينيه مستمعا إليه بكل انتباه ، ثم دفن رأسه الأصبع في ملء البطاقة خلال ثوان عديدة . بسمّة خبيثة همس له وهو يسلمها إليه بعدما أمهرها وأمضاها بنفسه :
- أين أمكن لك الحصول على الورقة.
- من الكشك الموجود بساحة الشهداء.
- إنك رجل ذكي ، المهم قضء المصلحة.
- بيدٍ مرتجفة سلّم الملف إلى موظف مكتب اليد العاملة ، الذي ما إن وقع نظره عليه حتى قال :

- أبهذه السرعة أحضرت كل الوثائق المطلوبة ؟
- نعم وتحملت في ذلك الكثير ، حتى أضمن لأبنائي الصغار ، ولوالدتهم مصدر رزق يقيهم غائلة الجوع .
- حسنا ، اطمئنْ ملفك في مكان أمين ، لا تتصل بنا مرة أخرى ، فنحن سنوفر عليك ذلك ، بواسطة مراسلة رسمية نعلمك فيها عن إيجاد العمل ...
- ومتى يتم ذلك من فضلك يا أخي ؟
- متى ... متى ... يبدو أنكم لا تعرفون غير هذه الكلمة .. كلكم تحفظونها عن ظهر قلب.
- شعر بسكين تقطع أحشاءه، والموظف يُلقى بالملف على طاولة بعيدة في حركة تشي باللامبالاة ، بنظرة كسيرة ، حزينة ودّع البناية الفخمة .. يجرّ قدميه الخائرتين جرا .. عرّج على الشارع المجاور .. داهمته رائحة الخبز الجذّابة .. تراءى له وجه زوجته الحزين تجري وراءه وتذكره :
- احذرْ أن تنسى الخبز .. الأطفال لم يتناولوا شيئا هذا الصباح .

نُشرت في مجلة الثقافة

خمسُ قصص قصيرة جداً

1 - الدواء البديل

كنتُ شبه نائم عندما صفقت الرياح خشب النافذة بشدة .. الوقت بعد منتصف الليل .. حاولت النهوض .. فجأة صرخ ابني الرضيع ذو العام من العمر .. صراخا حادا .. متواصلا أنهضنا جميعا مذعورين. احتضنته أمه .. هدهدته .. حاولت إرضاعه .. رفض الحلمة .. آثر الصراخ .. ليس من عادته ذلك .. اللجوء إلى ذلك عادة حينما يشتد عليه المرض .. يجوع .. أو يُخيفه أحد من إخوته .. من أبناء الجيران.

أبناء الجيران كلهم يحبونه .. يلاعبونه .. يتسابقون لإرضائه .. لإضحائه .. إخوته أكثر من ذلك .. مِحنة مرض المغص والإسهال عاودته خلال اليومين السابقين ..

أخذته إلى الطبيب الشاب المتخرج حديثا .. كان يتلوى بين يدي .. يصرخ .. احتج أحدهم في قاعة الانتظار .. إنه يفتقر إلى الهدوء .. إلى الصمت .. طلب مني الطبيب أن أشرح له حالات المرض للطفل .. تحركت يداي لتمديده على سرير الفحص .. قبل أن أفعل ذلك .. قبل أن أكمل شرحي نهض من مكانه مودعا .. سلمني وصفة سجل عليها قائمة عدة أدوية .. سرّبت أصابعي إلى جيبي .. أوشك فؤادي أن يغادر مقره .. القطع النقدية التي تحسّستها أصابعي ، هي ثمن الخبز .. أعادها إلي ابني الأوسط بعد عودته من المخبزة خائبا .. باكيا نهره صاحبها.

الصيدلي الشاب الذي تسلم الإشراف أخيرا على الصيدلية الحديثة ..
حدّق طويلا في رموز الوصفة .. سلمني الأدوية .. اكتشفت أن أسماءها لا يتطابق مع
أسماء أدوية الوصفة .. فتحت فمي متسائلا .. طمأنني .. غير مهم الأسماء .. المحتوى
واحد.

قطع علي شريط التذكر .. صوت قسيء الطفل في جوفه في حجر أمه ..
لحظتها تذكرت قول الصيدلي الشاب .. وأنا أغادر الصيدلية :
— إذا لم يتعاف عما قريب .. لا تنزعج .. تأكد بأنه في حاجة إلى عملية غسل للمعدة
.. اتصل بالمصحة .

2 - الممثل البارع

ضبطوه يهجم على أطفال لم يتعدّ كبيرهم السنة العاشرة من العمر ،
الكبير وحيد أمه .. أنهضته قبل الشروق بكثير .. علّه يحصل على خبزتين من
المخبزة ... منذ ثلاثة أيام ترسله مع الشروق فيعود خالي الوفاض .. نجح اليوم في
الحصول على نصيبه .. الطفل الثاني ابن الجيران لا يجد صعوبة في الحصول على
ثلاث خبزات .. ما إن يطل برأسه حتى يمدّه الخباز بمطلبه .. الطفل الثالث أخ
للآخر يرسله ذووهما أنيسا لأخيه .. كل من الأول والثاني يده تضم مجموعة من
القطع المختلفة.

ضبطوه يفتكّ منهما الخبز .. سلّمه إلى ابنته التي فرّت وتوارت عن الأنظار
.. قطع النقود بعضها في يده وبعضها الآخر في يد الطفل الأكبر .. لم يصدق الجيران

الذين هبوا للنجدة .. لم يصدقوا أنه هو بعينه .. ليس شخصا غريبا .. ادعى أنه كان يساعدهم .. الظلام لم ينقشع بعد .. خشي عليهم من الأحداث واللصوص القابعين في الناحية .

يوم السوق الأسبوعي .. يتظاهر بالعمى .. تقوده ابنته إلى مدخل السوق .. أين يفرش أمامه منديلا .. يتكوم حول نفسه .. رأسماله لسان طويل يستدرّ الرحمة لرب عائلة ذات عشرة أفراد .. لا معيل لهم غيره .. حصيلته من الحياة المرض .. فقدان البصر .. نفس الدور يمثل به بعد منتصف النهار من يوم الجمعة أثله دخول وخروج المصلين إلى، ومن المسجد الكبير .. قطع لا حصر لها تتساقط على المنديل .
كان قوي الجسم .. مفتول العضلات .. سليم النظر .. حاول أن يفلت .. أن يسلم ساقيه للريح .. كان دليل الاتهام ثابتا .. أقوى من الزيف .. أعظم من تقمص الأدوار الكاذبة ..

أحد الذين ضبطوه قال :

— لنشرح زيفه ، وخداعه لكل السكان ..

قال الثاني :

— ما أسهلها من تجارة مريحة ومُربحة !

أردف الثالث :

— لنحترس من أمثال هذا المخادع .. وما أكثرهم !

3- اليد الآتية

للمرة الثانية ينزل ضيفا على العاصمة .. قبل ساعة هبطت به الطائرة .. أقلته الحافلة إلى وسط المدينة .. وقف على الحاجز الحجري يرقب الميناء .. تعجب من النشاط والحركة به .. خلية نمل لا تكف عن الحركة .. أخذ يعد البواخر الراسية خارج الميناء .. عددها كثير جدا .. الميناء أيضا ترسو به سفن أخرى مختلفة الشكل والحمولة .. تطلع إلى الأفق البعيد .. زرقة البحر جميلة .. تبعث في النفس النشوة .. تزيل الكآبة، والضيق .. رائحة البحر تشرح الصدر ..

تذكر أطفاله وهو يودعهم : طارق ليلي - منصور - متعلقين به يرجون منه أخذهم إلى البحر .. إلى البحر فقط .. وعدهم بذلك حينما يكبرون .. طلب منه طارق أن يشتري له دراجة .. ليلي طلبت دمية لها شعر طويل .. وعينان تتحركان .. ورجلان تمشيان .. منصور طلب قطارا يجري على السكة كالذي رآه عند الجيران .. تذكر طلباتهم جميعا .. ابتسم .. شعر بالزهو .. الحفظة الصغيرة في يده محشوة بالأوراق النقدية .. سيلبي طلب الجميع .. سيشتري الدواء لوالدته المقعدة .. الدواء المفقود الذي لم يعثر عليه .. الدواء الضروري لوالدته .. إنها عزيزة عليه .. في يده اليمنى علق الحفظة الصغيرة المحشوة .. حمل حقيبة السفر بيده اليسرى ..

سار في شارع شي غيفارا بمحاذاة الحاجز الحجري .. المطل على الميناء .. يُشبع نظره بزرقة البحر .. يُزيل عنه كآبة الروتين .. فتح أزوار قميصه الصيفي .. تسرب الهواء البارد المشبع بالبخار إلى سطح جسمه .. شعر بالراحة ..

وجد نفسه بعد دقائق يقطع ساحة الشهداء .. لاحت له القصة يتصدّرهما
جامع كتشاوة .. بكبرياتها .. بخلودها .. بتحديثها للزمان .. للإنسان .. لاحت له
بأسرارها .. بكنوزها .. تآقت نفسه إلى التوغّل في جوفها .. مكتشفاً المجهول .. باحثاً
عن أسرار التاريخ .. وكنوز الزمان.

يعود القهقري ليجد نفسه أمام أحد أكشاك ساحة بور سعيد .. وقف لبيتاع
بطاقة بريدية يرسلها إلى العائلة .. وعدهم بذلك لحظة وصوله .. همّ بدفع الثمن ..
لكن يده اليمنى فارغة لا تحمل شيئاً .. لم يصدق .. وقف كالأبله مشدوها جاحظ
العينين .. ثم كالجنون .. راح يفتش جيوبه بغير جدوى .. مسح الأرض أسفل بعينيه
.. وسّع المساحة المسوحة ..

عاد أدراجه إلى باب عزون .. فساحة الشهداء .. رصيف شارع شي غيفارا ..
محطة الحافلة الرابطة بين المطار و وسط المدينة .. انتقلت عيناه إلى مسح وجوه
المارة .. تسمرت عيناه عند كل محفظة يدوية محمولة من أحدهم .. كل الوجوه .. كل
الأيادي تأمرت .. شاركت في المؤامرة .. سرقت منه الحفظة الصغيرة المحسوة.

قبل دقائق .. خلال مروره بباب عزون .. أعالي القصة تودعه .. كان يتحاور
مع التاريخ .. يستنطقه يبحث عن إجابة لأسئلة كثيرة تدور في رأسه .. من أولئك
الذين رابطوا .. أقاموا بهذا الباب .. دافعوا عن شرف المدينة وكبرياتها .. دفعوا
الكثير من أجلها .. امتدت يد آئمة إلى الحفظة الصغيرة الجلدية .. فصلتها عن
صاحبها بقصة من مقصّ حادّ .. دفع بدوره مع الدافعين من أجل هذا الباب الخالد
من أبواب العاصمة .. إنما بغير رضاه ..

4- عندما تتفرقع الأكياس البيضاء

حينما ثارت في وجهه زوجته هذا الصباح لم ينزعج . تقبل ثورتها هادئا .. يدرك بأنها مُحَقَّة دائما في ثوراتها .. الأطفال الصغار سيكون .. الكبار لووا رؤوسهم ولاذوا بالصمت .. خرج باكرا كعادته كل يوم .. كي يجلب ثلاثة أكياس من دكان بائع الحليب في الشارع الآخر .. بائع الحليب في الشارع الذي يقيم به يجري تغيرات على دكانه .. قرر تحويله إلى دكان لبيع الخضر والغلal .. الموسم صيف .. الطلب عليها يتزايد .. راجعه العقلاء في قراره .. بالنطق ناقشوه .. منذ عشرين عاما يزود سكان الناحية بالحليب ومشتقاته .. حتى الصغار أول دكان يتعرفون عليه ، دكانه .. أسكت الجميع بقوله :

— ما لي وما لكم يا ناس ... أنا حُرٌّ في تصرفي.

بائع الحليب في الشارع الثاني منذ حوالي أربعة أشهر يتردد عليه يوميا بنفسه .. يأخذ النصيب اليومي من الحليب رفض في البداية بيعه .. قبل تزويده بوساطة من بائع الحليب الأول .

الزوجة غاضبة ، ثائرة ، لاعة قسمتها من الحياة .. الصغار سيكون .. خرج اليوم كعادته .. هدفه دكان الحلاب في الشارع الآخر .. ردّ الأخير تحية الصباح بفتور .. وضع أمامه الورقة النقدية على المحسب .. انتظر الأكياس كالعادة .. حمد الحلاب في مكانه .. ثم تحرك ببطء .. أشعل سيجارة .. جذب نفسا طويلا منها قال ببرودة :

— كنت أمل أن استمر في بيعك الحليب كل يوم .. لكنهم قد أنقصوا الكمية المقررة لي يوميا .. لا حلّ عندي غير الاستغناء عن الزبائن الجدد .

— لستُ زبونا جديدا .. ثم إنَّ أطفالي صغار .. وغير منطقي حرمانهم من هذه المادة الضرورية .

— أعرفُ ذلك .. هم الذين حرموهم ولست أنا .. ما باليد حيلة يا صاحبي .
.. جرَّ ساقيه مغادرا دكان بائع الحليب .. نفسُ الرفض سمعه من بائعين آخرين بالحلي . الكمية المسلمة لهذا الحلي قليلة .. جلَّ سكانه عمال بسطة .. ربما شاحنة توزيع الحليب تحشى على نفسها من العطب .. السير في طرقات مُحفرة مهدمة .. في حي يلفّه الظلام كامل ليالي السنة .

الكمية المسلمة قليلة .. مطرقة تكسر رأسه .. تدقه .. تفتته .. تذكر الأكياس البيضاء المنتفخة المكوّمة .. قبل يومين خارج المدينة على جانب الطريق العام كانت النار تلتهم أكواما من أكياس بيضاء منتفخة رائحتها تُزخم الأنوف .. أصواتُ تفرُّعها تُسمع من بعيد .. غير بعيد تقف شاحنة سائقها يرفع الأبواب .. قطرات من سائل أبيض تتساقط منها .

5- صداقة سَفَر

.. دخلتُ مقصورة القطار الليلي في المحطة المركزية .. كانت خالية .. لم يسبقني أحد إليها .. ثم دخل شاب وسيم رفقة زوجته الحسناء .. ليس لهما أطفال .. استأذن الزوج قبل الدخول .. بإشارة من رأسي نافية لوجود غيري .. رحبت بقدميه .. استقر كل في مكانه .

وفتَحًا لحوار يطوي مسافة الرحلة. وتكسيرا لجدار الصمت الذي غالبا ما يقف سدا منيعا بين ركاب تجمعهم مقصورة صغيرة.. قلتُ وعلامات الارتياح بادية على وجهي :

— الطقس جميل جدا هذا اليوم .. سوف ننعيم برحلة ممتعة .. أليس كذلك ؟
— من المفترض أن يكون ذلك .. إذ السماء صافية والهواء معتدل ..
تحرك القطار متباطئا من الحطة .. ثم زاد في سرعته .. ما وفد علينا ركاب آخرون .. العتمة تلف كل شيء .. الصمت يخيم على القطار .. إلا صوت هدير المحركات وأنين القضبان .. وتمايل العربات .. ثم تباطأت السرعة تدريجيا وتوقف القطار في محطة صغيرة .. تعالت الأصوات للركاب الصاعدين والهابطين.. تحرك القطار من جديد متباطئا .. ثم ازدادت السرعة .. من جديد العتمة تغلغلت في كل شيء إلا من أضواء القطار الباهتة المختصرة .. في الممرات والمقصورات .. ضاعف القطار من سرعته .. فجأة .. فُتِح الباب بعنف .. هجم خمسة شبان .. الخناجر تلمع في أيديهم .. تقدم الأول من الزوجة .. أخذت أنامله تبحث عن القطع الذهبية .. اقترب الثاني من الزوج الذي أخذت نار الغضب تأكله .. الثالث أصابعه تغزو جيوب الزوج المسكين المقهور .. الرابع في الممر مراقب .. أوشك الخامس أن يضع الخنجر على صدري تخويفا لي .. يده الأخرى تتحرك لبداية غزو جيوبي .. تمالكت أعصابي في البداية .. الزوج المسكين جمد في مكانه .. صعقته المفاجأة .. تحدرت أطرافه .. أخذ أحدهم يتغزل بالزوجة المنهارة .. يعبث بشعرها الفاحم .. يقطع السلسلة الذهبية من رقبتها .. تصنعتُ الهدوء .. أوحيت للخامس بالرضا لما سيقوم به.

بخفّة وقفْتُ .. بكل قوتي أركل الأول على الجهاز التناسلي .. أفاجئ
الخامس بضربة رأسية .. خرَّ الأول صريعا يتلوى .. انبثق الدم غزيرا من وجه
الثاني .. لاذ الباقون بالفرار .. قيدنا الاثنين. الضابط المسؤول في دائرة الأمن مرتاح
لنهاية الحادث .. تحاورنا كثيرا معه .. الخلاصة أمن المواطن وسلامة حياته يشترك
فيها الجميع.

زميلي في القطار يودعني .. يحتضني .. يسلمني عنوانه ودموع الفرح تترقق
من عينيه .. همس :

— في السفر يتحول أحيانا لقاء الركاب إلى صداقات متينة .. إلى أخوة دائمة.



بشير خلف

الشموخ

قصص

منشورات التبیین / الجاحظية

سلسلة الإبداع الفني

الجزائر 1999

الإهداء إلى

... كل من أحبّ هذا الوطن

.. وأخلص قولاً وعملاً في ترسيخ وتدعيم ثوابته الوطنية.

بشير خلف

الشموخ

1 - خلود -

حزّ في نفس جدّي أن يقع أضحوكة عند أحفاده . بقامته المديدة غادر المكان. بكبريله وعزّة نفس اختفى. كأنّ ضربات السنوات السبعين أخطأته. قالت جدتي التي كنّا متحلقين حولها :
- جدّكم عظيم يا أولاد ..تخطّى السبعين من العمر وما يزال يقف نخلة تعانق السملة في شموخ، مستقيمة الظل.

عرضوا على جدّي عملاً مريحاً بعيد الاستقلال. أبو شهيد ارتوت الأرضان الجزائرية والتونسية بدمه الزكي .بين الأسلاك المكهربة التي تمكّن من قصّها وهو يتقدم فرقتة الحمّلة بالسلاح فاضت روحه الطاهرة. عزّ على رفاقه أن يُترك وحيداً، تنهشه الوحوش الغريبة.. تتلذذ بمنظره.. تتشمّت به، وقد تحمله إلى التجمّعات السكانية المجاورة، فتُلقي به أمام الأهالي المتجمعين جبراً.. نكاية وتشفيا.. حمله الرفاق وروحه الطاهرة تُنير لهم الدّرب.. وغير بعيد غرسوه شجرة خالدة اصلها ثابتٌ وفرعها في السملة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها فيتغذّى منها الطير والإنسان من كلا الشعبين الشقيّين.

2 - توصية -

عرضوا عليه عملاً مريحاً في أيّ إدارة يختارها ..

في أحلك أيام الثورة التحريرية، والأفق يتراءى من قريب دهليزاً .. ما سلّم
الجد في العمل .. كان يؤمن في الأعماق بأن حياة الإنسان حركة.. وكل حركة فيها
بركة .. يومها كان نخلة قوية ترتفع هامتها في كبريله إلى عنان السماء.
لما يهوي على الأرض بفأسه، ترتعد الأرض تحت قدميه.. وعندما ترتفع يده
بالمسحاة إلى الأعلى، تنشق الأرض الصلبة تلقائياً..

كان الجدّ ... كان ...

عرضوا عليه عملاً مريحاً وتركوا له الخيار.. الحوا عليه وألحوا .. ولما بدا لهم أنّ
عُوده لأنّ أفهموه:

— إنه عملٌ مريحٌ، لا يتعدّى حراسة باب المسؤول الأول بالإدارة.
استوضح:

— أحرصُ باب المسؤول مِمَّنْ؟

— من المتطفلين الكثيرين، المعيقين لكل عملٍ في الإدارة؟

— ومن هم هؤلاء المتطفلون؟

— الذين يدّعون المآرب .

— وبما أنهم ذوو مآرب فلماذا يغلق المسؤول الباب في وجوهم؟

— النظام الإداري يفرض ذلك؛ وإذا انعدم النظام فالسيرورة الإدارية تنعدم.

— ما وظيفة المسؤول في الإدارة إذا؟

..قالوا وقال الجدّ.. وقالوا...وقال..

3 — رائحة الماضي —

اعتدلت جدتي في جلستها. برقت عيناها اللتان لا تزالان سليمتا الرؤية أكثر. ثبّتهما بعيدا وكأنها تستمدّ من ماضيها العون.. ثم ضحكت وقالت بصوتٍ خافتٍ: — آه.. لو كنتم تعلمون يا أولاد كيف كان جدّكم.

سبقت أختي ليل الجميع:

— كيف كان يا جدتي؟ نحن لا نعرف من حياته إلّا القليل..

فتنقلت العبارة من فم إلى فم:

— كيف كان يا جدتي؟ حدثينا عن بعض من مُجريات حياته.

— كانت صحته تعادل صحة جملٍ.. يُضرب بها المثل حتى اليوم من أبناء جيله، كنت إذا تعبْتُ ونحن عائدون من الحقل مساءً.. سريعاً ما يُلقني بي على أكتافه كأنه يُلقني بسلة ملاي فاكهة وخضراً.

أوقفها الصغير بقوله:

— جدّي ما زال قوياً.. أمس رأيته يُلقني بأكياس القمح المملوءة على العربة دون توقّفٍ.. أمّا أبي..

طلبت منه أختي ليلي أن يكمل:

— أبي اكتفى بأربعة أكياس فقط.

واصلت جدتي كلامها وكأن حوارنا لم يصلُ سمعها:

— ما اشتكى يوماً من مرضٍ .. كان نعم العون لكل مريضٍ .. والمواسي لكل حزينٍ،
واليد اليمنى لكل ذي مشروع.. لا أذكر بأن الأيام قهرته .. كان قويّ الإيمان بالله..

ذات يوم ونحن نفتقد دفء الشمس.. كان الجوع يحاصرنا، والأحزان تكبر في
عيوننا، وفي سماء العمر تبدو غير الغيوم السوداء، ونحن نحلم بفاكهة يتلذذ بها
الغربة في أرضنا. كان رجال القرية بأناملهم يحملون بطاقات التموين.. يتسلّلون
بذلة عند أقدام الغربة ... خرج جدكم خاوي البطن، سلاحه عزّة وكبرياء زاده همّة
وإبله.. متحديا نكبات الأيام.. صامداً يفتح باب المستحيل.. غاب عنا بعض الأيام.
احترنا عليه، وبحشنا فعشرنا عليه.. وجدناه بساعديه المفتولين قد انتصر على التربة
البكر، فانتقادت له ذليلة .. كان قويّاً ولا يزال.. مضت غير أيام وشرعت التربة في
العطلة، فانتشينا حدّ الجنون .. فرّ الجوع مذعوراً .. استقرّ في ديار غير ديارنا، حيث
وجد فيها العافية والأمان.

سَلّموه بطاقة العطب لأنه أبو شهيد.. لأنه مسبل قديم تشهد له الأرض
والسماء.. لأنه ابتلى البلاء العظيم في ثورة التحرير.
قالوا له :

— .. بهذه البطاقة تسافر بالجان ..

— .. بهذه البطاقة تتموّن في أمان، ويكون لك شرفُ السبق قبل الأنام.
أعادها إليهم قائلاً :

— خدمة الأوطان والإخلاص لها سلوكٌ فطري لدى النفوس الحرّة.. لا تحتاج إلى
بطاقة عطب، ولا بطاقة عطف .

كان جدكم نخلة باسقة وارفة الظلال، ولا يزال ظلها المستقيم يتمدّد بثبات.

تلك حوادث قديمة رويت لكم بعضاً منها يا أبنائي...
لا أحد سمع من الأحفاد.. كان يهدد الجميع بين ذراعيه.

4 - نور الفجر -

أدى الجدّ صلاة الصبح في المسجد كعادته مع الجماعة .. وجد زوجته في انتظاره وقد أدّت صلاة الصبح بدورها ..تناولا طعام الفطور.. حمدا لله على نعمته التي أفاض بها عليهما وعلى العائلة.
.. ثم خرجت الزوجة عائدة إلى المطبخ حاملة الصينية.
.. تبعها الحد إلى حيث يهجع الأحفاد.
نصف ساعة مرّت ..كانت نخلة باسقة في سنّ السبعين شاحخة تشقّ ما تبقى من جحافل الظلام.. تمشي بخطى ثابتة، تتبعها نخلات تمتلئ حياة في عنفوان الشباب..
تنتظر بلهفة وشوق تربةً معطاء .

الحلم والأسوار

— اللقطة الأولى —

الوقت ليل ...

وباريس غانية ألفت مجسدها بضاعة رخيصة .. الوقت ليل والمكان مخزن عامرٌ بشتى أنواع البضاعة الباريسية .. مخزن ملحق بمغازة تتصدّر شارعاً رئيسياً في منطقة نانثير .. جدران المخزن كتاب تاريخ يروي أخبار من مروا على المكان، وأغدقوا عليه بعرقهم كرهاً أو طواعية، وجيب المعلم صاحب المغازة بقدر ما تنقطع الأنفاس، وتئنّ الأجساد الحاملة بالفردوس، وهي تقطع الفيافي، وتركب البحار، وتشقّ الجو .. يزداد جيب المعلم انتفاخاً.

.. المعلم الباترون الذي حجّ في الموسم الفائت حجّته الثالثة .. المغازة قبلة العرب والعجم .. فيها ما تشتهيهِ النفس ويستلذه البطن .. المخزن كتاب تاريخي يحكي أخبار الماضي، وأخبار الحاضر .. وسيحكي طالما الجيوب تنتفخ .. أسماء محفورة .. أرقام منقوشة .. صورٌ فاضحة تبشّر بموسم العري .. ملصقات دعائية تُغري باقتناء الخمور المعتقة، والعطور الباريسية الشهيرة، والملابس الداخلية الناعمة.

.. الوقت ليل .. وباريس غانية ألفت مجسدها بضاعة رخيصة لكل طالب .. وأنت وحدك يا صالح في هذه المدينة مع رفاقك تغدقون عرقكم كرهاً أو طواعية .. الجيب انتفخ ويتنفخ وأنتم كرات تحت الأرجل الخشنة .. أنت تحمل أفكاراً مشتة وتعيش عالمك الخاص .. زملاؤك يحلمون بأشياء كثيرة .. وأنت .. أنت حلمك العودة إلى البلد .. سالماً إلى الأهل .. العوة بالغنيمة سراب .. نعم بالنسبة إليك سراب.

— اللقطة الثانية —

— عمّار يا ابن بلادي ثبتْ إبرة الراديو على محطة البلاد.. الجزائر البيضاء. زدْ في الصوت.. البلاد عزيزة .. آه ! يا ربي.. قلبي شاعلة فيه نار.

— وجه الشؤم والنحس .. تتذكّر البلاد ليلاً ونهاراً تنسى حتى نفسك.

لفظها عمار ابن قريته بسخرية وهو يبصق على الأرض .. مواصلاً:

— لو كنت مكانك لـ ...

— لو كنت مكاني فاقداً لكل بطاقة تثبت الهوية .. ماذا كنت تفعل يا بطل .. يا فارس الفرسان ؟

— لعملتُ المستحيل .. لأتحصل عليها، ولو بالتوجه إلى أقرب نقطة للبوليس.

عمّار الشوق يكابد الشوق نحو البلد.. الحنين يسكن جوارحه تجاه الأهل والديار. كل سنة يقضي عطلة يتنعم فيها بدفء الأهل والخلاّان .. شهر يناير بالنسبة إليه أعزّ الشهور .. اختاره عطلة سنوية .. مطلبٌ وحيدٌ ألح عليه لدى المعلم فاستجاب له.. يناير أعزّ الشهور .. أيّامه أحلى الأيام .

اهزأ بي يا عمّار يا ابن بلادي. عشر سنوات كفأر يسكنني الرعب أعيش في الظلام .. لا يرى لي وجهه في ضوء النهار.. اضحكْ يا عمار.. شهادة الإقامة كنز ثمين في جيبك تصونه.. تتحرك في هذا العالم الرحب أينما أردتْ، ومتى شئت .

جئنا قبل عقدٍ من الزمن ...حططنا الرحال في هذه المنطقة الباريسية، واخترنا حي مفترق الطرق بعاصمة النور - كما يطلقون عليها - ..عشر سنوات مرّت عليك أيامها ولياليها نزهة .. بالنسبة إليّ لياليها كابوس، وأيامها سجنٌ .

— عمار يا خويا يا ابن بلادي.. ثَبَّتْ الإبرة جيدا على محطة العاصمة البيضاء.. زِدْ في الصوت. أخوك النار تلتهم قلبه.

— البطاريات يا صالح تسرّب إليها الوهن.. بالأمر والنهي أتحرك. المعلم يؤكد على أن كل شيء بالفلوس.

— على حسابي يا عمار.. غيّر هذه البطاريات الملعونة.. صوت البلاد عزيز.. آه يا ربي ذوو العيون الزرقاء يلاحقوني كالكلاب الجائعة.. كادوا ينجحون في الإمساك بي في الليلة الماضية.. لو كنت متيقنًا أنهم إذا ما قبضوا عليّ سيلقون بي في أول طائر.. و في أول باخرة تتجه نحو الجنوب حيث الأشعة الدافئة؛ هرولتُ إلى أقرب نقطة لهم.. آه يا عمار الكلاب الجائعة تلاحقني بوحشية والصوت الآتي من هناك جذابٌ.. حنونٌ.. القلب نارٌ والنفس حيرى .. زِدْ في الصوت يا عمار يا خويا.. البطارية على حسابي.. صببتُ في جوفي هذه الليلة على حسابي ثلاثة كاملة.. اخترتها معتقة ذات جودة عالية.. ذات درجات قصوى .. وماذا تساوي بطاريات للراديو يا عمار بجانب ثمن السائل الأحمر المعتق؟

— اللقطة الثالثة —

عشر سنوات يا صالح وأنت تقيم بباريس، لا يرى منك النهار غير شبح يتحرك داخل المخزن.. عضلاتك المقتولة التي كانت تهدّ الجبال تنفّقها بسخلة مقابل سائل أحرّ يفعل فعله في إفناء جسدك، وجيوب غيرك تنتفخ لقله قوتٍ تزدرده بمعية أشباه لك جاؤوا يحلمون بالغنيمة والعودة بسلام.. من وراء الأبواب عيناك تتلصّصان على الداخلين والخارجين للمغارة..

الرب يسكنك، وكل عين زرقاء ترى فيها كلبا جائعا اقتحم المكان يريد
افتراسك.. وكل عين سوداء تحسّ الحنين يجذبك إليها.. وفيها تقرأ أخبار البلد
والأحباب، ومن لونها الجذاب تتعرّف على خريطة الوطن. كالوباء محكوم عليك
بالحصار والعزل.. كالنملة تتحرك لترتيب هذه البضاعة أو تلك.. لتهيئة هذه السلعة
أو تلك..

زملأوك غلّ لا يختلفون عنك في العناء.. يتميّزون عنك بالتحرك في وضح
النهار.. بالضحك.. بالكلام الجمهوري.. برؤية الشمس.. بانعكاس ضوء النهار على
وجوههم.. ككتفك يا صالح انهدأ تحت ثقل الصناديق والأكياس والرزم.. الصناديق
الملاّئ بالسوائل المختلفة الألوان.. المتنوعة الطعم.. وحدك تعايش هذه السوائل
باستمرار أكثر منهم.. تكونت صداقة بينك وبينها.. حدث تألف بينكما.. أحيانا
والنفس ضعيفة تغريك بفتح زجاجة وصبّ جرعات في جوفك.. لكن نزاhtك
وحدها حصنٌ يقيك شرّ النفس.. نظافة يدك وحدها أبقتك هذه السنوات فأرا
يحتمي بالظلام.

المعلم مطمئن على سيرة عمّاله الزهاء. في قصره بجيدة يا صالح يتعاطى للذة
تجرّع العرق، ويخطّط للمزيد.. ينتقلّ بخيلاء في سيارته الفخمة بين العاصمة البيضاء،
وبين بساتينه بجرجرة والواحاح.. أملاكه تبرز من الأرض كل يوم كفقاقيع برية
سرعان ما تتطاوّل مُخفية أملاك الغير.

يحطّ في هذه المدينة أو تلك، ويديه حقيبة دبلوماسية بفتحها أمام الفقراء..
يوزع عليهم منها بعض الوريقات النقدية، فترتفع الرؤوس إلى السماء، وتتحرّك
الشفاه داعية له بدوام العافية والتعويض.. وتنبت الأملاك في كل يوم فقاقيع برية

هنا وهناك في الشمال والجنوب.. في هذه الضفّة وتلك مطمئن من عمّاله النزهاء.. راضٍ كل الرضا على سلوك محمود الوكيل المتولّي تسيير المغازة.. مثمناً مهاراته الإدارية والمالية.. مطمئن من سيرة كل العمال بمن فيهم أنت.

الالتزام الوحيد الذي أخذه منك أن تكون حيواناً نشيطاً لا يثير المشاكل.. يعشق العمل المتسّرع وراء الجدران.. قنوعاً لا يطالب بأكثر من الإقامة السرية والكفاف من القوت، وربّع مرتّب الآخرين.. الالتزام الأهم الذي أخذته منه هو أن يضع ذات يوم في يدك جواز سفرٍ به تركب البحر.. تشقّ به عنان السماء.. العشر سنوات توالى ثقيلة.. التزمت بوعدك يا صالح.. محاولتك بلاء بالفشل في الفوز بجواز السفر.. كيف والكلاب ذات العيون الزرقاء تطاردك.. لم تنس بعد فرارك منها قبل ست سنوات، وحتى إذا نسيت فإن ذلك الكلب " ميشال " الذي سدّد له لكمّتين في حانة الشمس بالحى بعد ما وقعت مشادةً بينكما برغم صداقتك له.. صداقة تكوّنت بتوالي الليالي، وقضائكما ساعات طويلة كل ليلة في نفس الحانة تثرثران.. تشربان.. تخططان لمشاريع مشتركة..

ست سنوات ولم يغفر لك.. عشر سنوات يا صالح كنت وفيًا والتزمت.. المعلم نسيك في غمرة مضاعفة أملاكه المنقولة والثابتة.. وحدك الكائن البشري المهمّش في المكان.. وحدك الذي لا يستشار لا في حلال ولا في حرام.. سنوات عشر لا تعرق من جسم باريس غير منطقة مفترق الطرق وما حولها.. كالفار المصاب بالطاعون مفروض عليه العزل.. وحده يعاني سكرات الموت..

وحذك تخرج ليلاً أحياناً متسكعاً في بعض الشوارع الخلفية.. شارد الذهن.. تعيش مع أفكارك في عالمك الخاص المهمّش.. لحظتها تنسى حتى زملاءك الذين قد

يكونون كعادتهم يخططون لعطلة الأسبوع في مونبرناس، أو في لا ديفانس، أو في مغازات " TATI " التي تغري بتدني أسعار معروضاتها، وبعضهم قد يختار يوم عطلته بيقال بسان ديني لدواعٍ غريزية تلح لإسكاتها.. وحدك تسير والحنين يملدك، والذكرى تصلبك على أوتاد الشوق إلى البلد.

— اللقطة الرابعة —

الأكياس المحزّمة ترتسم على سطحها أحرفٌ متحدية بوقاحة.. مشكلةٌ بالتآزر فيما بينها لفظة - TATI - تمتد يد عمّارٍ إلى إحداها .. يأخذها برفقٍ .. يحتضنها بين يديه .. ينظر إليها بحنانٍ .. يقلّبها يمينا ويساراً.. أسفل وأعلى .. تنساب الكلمات من شفّتيه رقاقةً :

— كم أنا مشتاقٌ إليهم يا صالح.. قد اخترتُ لكل منهم ما يناسبه ويُرْضيه، وبالزيادة.. لن أخسر شيئاً فالزائد عن حاجتهم يبيعونه.. هناك هستيريا فظيعة على هذا النوع من البضاعة.. ما أكثر المآسي التي حصلت بسبب الحصول عليها.. آه يا والدتي الحنون حتى أنتِ اجتهدتُ في اختيار ما يُرضيك، دون شكٍّ سيشعر الجميع بالسعادة.. لما تصل إليهم هذه الأكياس .. فالزوجة نصيبها مُضاعفٌ . لقد أخبرتني منذ أيام أن دعائم المنزل الجديد وجدرانه، وسقفه قد انتهي من بنائها.. أنا مشتاقٌ إليهم .. الحياة بالنسبة إليّ بدونهم لا قيمة لها.

ويكثر اللغط في المرقد.. المخزن يختنق بدخان التبغ الحروق بين الشفاه المطبقة على السجائر.. الأيدي مشغولة بتقليب أحجار الدومينو.. الأعصاب متوتّرة.. العيون حذرة ومتلصّصة :

— هات خمسة .. هات.

— خطيُّ يا صديقي .. ضعْ ما في يدك خمستك ملغاة.. جاءت متأخرة.. منْ فاتك ليلة فاتك بجيلة.

— عمّار يا ابن بلادي .. قهوتك الليلة أثارت أشجاني، وحرّكت حنيني .. مزهرة كرائحة البلاد، الله يخليك.

وتتوزّع فناجين القهوة المزهرة.. الرائحة الطيبة تعتق المكان.. وحدك يا صالح تحمل في جرابك أفكاراً مبعثرة تعيش معها في عالم خاص صيّق قد اصطنعته لنفسك.. تنسى الناس، نفسك أيضاً تنساها.. والبلاد لا تنساها .. تركب البحر على سفينة الخيال.. تشقّ بها الأمواج العاتية.. تستقبلك بشوق إحدى المدن الجميلة الملقاة بعُنجٍ على شاطئ الضفة الأخرى.. تستقبلك بحنوٍ .. أمّ تستقبل عودة ابنها الضال.. ويخرجك من دائرة الحلم الجميل ابن قرينك عمّار.. ويده تعيد ملء فنانك بالقهوة العبة.. كم أنت طيبٌ يا عمّار.. كم أنت صبورٌ تحمل هموم الحاضرين والغائبين.

ويكثر اللغط.. والتوتر يسكن الجميع دون رحمة.. الكل يريد النصر.. الهزيمة مرّة.. والذلّ جلاّد لا يشفق.. التفت لك عمّار الطيب.. ألقاك كعادتك تحت وطأة عالمك الخاص، همس في أذنك :

— لا تحملْ همّاً يا ابن بلادي.. الفرج قريب.. المعلم أخبر هاتفياً اليوم عن قدومه القريب.

تحركّ الألم وسيرى تيّاره الناري في جسدك.. انتصبت العشر سنوات بوقاحة أمام عينيك يسقيها عرقٌ لم يتوقف نزيفه.. الجيب خاو.. والأبناء هناك نسوكة

..ونسيت أنت أسماء بعض منهم.. الأملاك هنا وهناك تنبت كفقاقيع، وجيوب المعلم
تنتفخ.. المعلم راضٍ على عمّاله النزهاء.
واصل عمّار:

— نحن في ساعة متأخرة من الليل.. تُوشك الجماعة أن تسلّم زمام أمرها إلى النوم..
قم يا صالح وخذ مكانك.

أنت لا تعرف معنى للوقت، ليس له قيمة عندك .. قد تتصور أحياناً أن
قيّمته موجودة.. إنك تتذكّر وعدّاً من المعلم صاحب البطن المنتفخ، والوجه الناتئ
المستدير.. له كلمته هنا وهناك.. العديد من ذوي الحلّ والربط يطلّون عليكم
برؤوسهم وفي أيديهم وصايا مكتوبة .. محمود وحده يعلم مضمونها.. إنه يعرفهم
واحدًا واحدًا.. هو شحيح البوح عن هوياتهم، أو ذكر شيء عنهم.. المعلم له كلمته
المعتبرة هنا وهناك.. ماضيه أيام الثورة التحريرية غامضٌ.. تأويلات كثيرة قيلت في
شأنه.. ذات يوم في مرحلة يأس قلتَ لحمود :

— المعلم له كلمته.. وعده لي كلمة والتزام.. الأيام تمرّ وأيام العمر تنفلت وجواز
السفر لم يقع بيديّ. أجابك :
— قد يأتي الفرج .. لا تيأس .

.. واليأس يمزّق أحشاءك .. انزلت كلمات يتيمة منك:

— كيف يتذكّرني في خضمّ أرقام أعماله المتصاعدة ؟ وهل يتذكر واحدًا مثلي من
بين عشرات أشباهي ينزفون عرقًا.. يقدمون أعزّ أيام العمر لرفع تلك الأرقام في
ممتلكات تنبت كنباتات برية.

ردّ بجوابه الموزج .. ووراء جوابه أحسستَ بحقائق يتجنب الإفصاح عنها:

— لا تئأسْ يا صالح، قد يأتي الفرج... ويهدأ اللغظ في المكان.. وينسحب كل إلى مضجعه وتبقى غيرُ نقاط حمراء تزداد لمعاً بين آونة وأخرى في المكان.. الدخان المتلولب وجد ضالّته في الظلام الدامس الذي عمّ المكان، حيث يسهل عليه غزو الأجساد المنهكة.

— حرّكْ إبرة الراديو يا عمّار.. الشوق يجلدني.. الحنين يزيد في اشتعال القلب.. آه يا ربي.

— استسلم للنوم يا صالح يا خوي.. الليل يمرّ سريعاً.. أرخْ نفسك.
ويهدأ المكان.. تهمد الأصوات إلّا من شخير بدأ يعلو.. والليل أبّ حنون تحت جناحه يُخفي الجميع.. فيشعرون بنشوة الانقياد للنوم الذي يخدّر الجميع.

— اللقطة الخامسة —

كالفأر مختفٍ في حجره طول النهار.. يتحرّك إلّا ليلاً.. يقتات من فضلات الآخرين.. ضاقت بك شوارع باريس الصاخبة ليلاً، وأسواقها العامرة.. تقزّزت منك.. في بعض الليالي تتسلل من المكان صوب حانة معزولة.. الذعر يسكنك خوفاً من الكلاب الشرسة.. تقضي في إحدى زواياها وقتاً يسيراً تعبّ كأساً.. تجترع زجاجة من بنت الكرمة وحدك.. أو مع أحد أبناء جلدتك وهم كثيرون ممّن يرتادون تلك الحانات المنزوية.. لا يختلفون عنك، الفارق بينك وبينهم أن الحنين يدعوك إلى هناك.. أمّا هم فصوت النداء همد في دواخلهم.. وما عادوا يعون.. فقدوا التمييز بين الهويّة الحقيقية لهم وهوية غيرهم.. عيون الكلاب الجائعة تطاردك أينما حللت.. تبحث عن أمثالك وغير أمثالك.

لفظتكَ الشوارع الصاخبة.. تنكرت لك الأسواق العامرة .. وهزأت بك الشقراوات.. وتنظر إلى المعلم يمتصّ السيجار البنيّ الضخم.. ويعود بك الزمان في لحظة خاطفة إلى ما قبل الستين، فتراه يمشي الأسواق الأسبوعية يتاجر في الماشية.. يصطاد الفرائس بدهاء كالطاعون يحطّ على من اضطرتهم الظروف المناخية لبيع مواشيهم.. ولما يكثر التأويل في موضوع نشاطاته أيام الثورة تلزم الصمت وهو وليّ نعمتك.. فتح لك محله وآواك والكلاب تلاحقك وما تعبت .. تنظر إليه يمتصّ السيجار الهافاني .. يمشي مختالاً بشبابه الغربية الأنيقة..

أمام باب المغازة حينما وصل تقدموا وفتحوا له باب السيارة الحديثة الطراز. رأيته من الداخل فانتفض قلبك، وتضاعفت خفقاته، ولما دخل كغيرك يدك ترتعش وأنت تصافحه .. في انتظار أن تقع عينك على جواز السفر.. وأنت تهتمّ بالكلام سبقك إليه:

— الأهل بخير يا ولدي.. وهذه رسالة منهم.

— و ...

— ماذا ؟

— جواز السفر المتفق عليه الذي وعدتني به.

— اطمئنْ يا ولدي، سوف أساعدك ولن أتخلّى عنك .. أنت هنا بخير.. سوف أضاعف لك الأجر.. ليس من اللياقة أن تغادرنا فنحن في حاجة إليك ولأمثالك.. أليس كذلك يا جماعة ؟

— اللقطة السادسة —

وحدك تفكر في ضياعك في باريس. الحنين يجلدك كل ليلة، والذكرى
تصلبك على أعمدة الشوق.. لست كالآخرين يرفعون هاماتهم، يسرون في ضوء
النهار مخترقين الشوارع الصاخبة، مقتحمين الأسواق العامة..
وحدك ضائع في حيّ مفترق الطرق بنانتير.. فأر يسكنه الرعب من الضيعة..
تفر منه المغامرة ويسكنه اليأس.. يحمل في دواخله أفكاراً مبعثرة لعالم خاص.. ينزف
دمًا وعرقًا.. يحلم بركوب البحر كل ليلة، وشقّ السحاب والتلذذ بدفء الأهل
والوطن.

لصوص من نوع آخر

— قبل البداية —

لو أخذتَ بنفسك النافذة إلى أقرب نجار حتى وإن كان ثمن اللوحة الزجاجية المراد تركيبها مكان اللوحة المكسورة مرتفعاً لكان أفضل.. ليست المرة الأولى التي تفرّ فيها إلى جيبك منذ أن تسلّمتَ إدارة هذه المؤسسة التعليمية، وأنت تفرّ إلى هذا الجيب المسكين مرّة تلو الأخرى .

يحدث الصراع بين طلبات الأسرة التي لا تنتهي، وبين طلبات المؤسسة التي لا تنتهي بدورها، ويبدو أنها لن تنتهي.. عدة مرّات انتهى الصراع لصالح المؤسسة، وما وجدت وقتها غير صبر أيوب درعاً تتقي به ردّ فعل أبنائك الخمسة، ووالدتهم الغاضبة دوماً.

بعض مديري المؤسسات التعليمية القدامى المتمرسين في المهنة والإدارة التعليمية أرادوا غرس تجاربهم في دماغك بمرور الأيام قبلتَ البعض منها متحفّظاً، وسلّمتَ بغيرها بداهة، ورفضتَ البعض من نصائحهم التي قبلتها بتحفظٍ ولم تعمل بها.. تحذيراتهم المستمرة إليك بعدم اللجوء إلى جيبك الخاص، وعند الضرورة الملحة ينبغي اللجوء إلى هيئة الأولياء بعد البلدية، وإذا انعدمت المساعدة عند هذه وتلك فالأجدى لك صحياً ونفسياً، وحتى تكسب صداقة الجميع لا تحمل همّاً حتى وإن توقفت العملية التربوية نهائياً .

أنت مدير تُسيّر مؤسسة مجتمعية تربوية، الجميع ينظرون إليك من هذا المستوى .. مستوى المدير الذي يأمر وينهي مرؤوسيه، ويستقبل الأولياء في اليوم

الذي يحلو له، ويتدفع عن الاقتراب من الطلاب، ويشمخ بأنفه غالباً باب الحوار والتشاور مع مساعديه المدرسين.. من وظائفه رفع تقارير منمقة دورية إلى الهيئات المعنية.. تقارير تنوّه بالسير الحسن للمؤسسة.. مثمّة المستوى الرفيع للطلاب والمكونين؛ أمّا غير هذا فهو من اختصاص أطرافٍ أخرى، لا يهمّ ما هذه الهيئات وحتى تحمي نفسك، وتتصل من تبعات المسؤولية، وتضعها على كاهل غيرك، استنسل واستنسخ هذه التقارير كي تتمكن من توجيه عدد كبير منها إلى تلك الهيئات.. هم يريدون ذلك منك..

الواقع اليومي كشف عن عصيانك لنصائح زملائك المديرين، وفرار يدك المستمر إلى جيبيك الخاص.. الصراع مستمرٌ بين طلبات المؤسسة وطلبات الأسرة.

— البداية —

الحياة تجارب.. أردتَ أن تجربَ حتى تتعلم.. التعلم ينبني على الخطأ والصواب.. فيه الفشل، وفيه النجاح. في شهر جانفي الفارط لمّا اشتدّ البرد على طلاب المؤسسة وخاصة الصغار منهم طلاب الصفوف الدنيا، وكانت الحجرات الدراسية غير مجهزة بأجهزة التدفئة المازوطية، والبلدية تتذرع بضالة الميزانية المخصصة لها طلب منك أحدُ مدرسي الطلاب الصغار ضرورة تغيير لوحة زجاجية مكسورة لإحدى نوافذ الحجرة الدراسية المواجهة للباب.. المتسببة في مرور تيارات هوائية باردة شتلى، وساخن في أواخر الربيع.. تيارات في كلا الفصلين مُضرةٌ بصحة الطلاب.. كنتَ مخيراً يومها بين أن تأخذها إلى أقرب نجار لاستبدالها في وقت قصير كعادتك، أو تُوكل الأمر إلى المدرّس نفسه، فقد يتطوّع راضياً بذلك شفقة على

طلابه، ولكنك بلباقة صرفته، وأردت أن تجرّب والحياة تجارب.. كم أوكلت الأمر إلى الهيئات المعنية - وما أكثرها - ثمّمت التقارير.. وجهت لعدة هيئات.

الأيام تجري.. الرد يتغلغل داخل عظام الطلاب، وخاصة الصغار منهم، فترتعد فرائسهم الضعيفة كالفراخ، وتصطك أسنانهم دامعي العيون.. المدرّس وحده يتكلم .. يشرح ويشرح .. وحده يتكلم.. يستحثّ على المشاركة.. يتودّد .. يلحّ في التودّد .. يصرخ.. يغضب.

هدّدت بالرحيل من المؤسسة تضامن معك بعض الرفاق من المديرين.. البعض من الرفاق تذرّعوا بوجود هيئات معنية لها صلاحيات الإشراف المادي.. وعدوك بإنجاز ما طلبته وما ستطلبه في وقتٍ لاحقٍ قريبٍ.

أردتَ أن تجرّب والحياة تجارب.. ازدادت الفجوة اتساعاً بينك وبين البعض من المدرسين .. اتهموك علناً بالبيروقراطية الإدارية.. بالكسل.. بالابتعاد عن التسيير البيداغوجي الفعال.. تظاهرت بالصمم.. باللامبالاة بينما داخلها تتعذب.. لا بدّ من التضحية كي تتعلم.. لتجرّب.. التجربة تعلّم.. والتعلّم ينبي على الخطأ والصواب. انتهى الموسم الدراسي.. قضى الطلاب الأيام الأخيرة من الموسم تحت قسوة الحرّ.. لكل واحد منهم قريرة مملوءة مله يحضرها معه .. يضعها قريباً من موقع رجله، وما ينفكّ يجرع منها بعض الجرعات كلّما أحسّ بالضّم.

كان أمرا غير محتمل بالنسبة إليك حينما طلب منك بعض الأولياء ملفات أبنائهم سعياً منهم لتحويلهم إلى مؤسسات أخرى، وكان أشدّ ألماً على نفسك لما تحوّل ثلاث من خيرة المدرسين بالمؤسسة.. تحمّلت وكنت وفير الزاد من الصبر..

أردت أن تجرّب .. وها أنت جرّبتَ، ومن الشجاعة الأدبية أن تتقبّل النتيجة كيفما كانت.

أوّل الموسم الدراسي الجديد عقدتَ العزم على إنهاء التجربة .. صرختَ في وجه رئيس البلدية .. ضربتَ مكتبه الفخم بعنفٍ.. تطايرت الأوراق.. اختلطت الوثائق.. ضغط على زرٍّ تحت رجله.. دخل رجلان ذوا بأسٍ .. ألقيا بك في الساحة خارج المبنى.. في مكتبك ذاك اليوم وأنت تجتريّ مرارة الإهانة هتف لك أحدٌ من البلدية، أبى أن يفصح عن اسمه، مُنبئكَ بقدوم فريق عمل في اليوم الموالي بغية القيام بالإصلاحات المطلوبة في المؤسسة.

- المشهد الأوّل -

توقّفت شاحنة البلدية على الساعة الثالثة ظهرا أمام الباب الخارجي للمؤسسة. في غرفة القيادة جلس رجلان أحدهما أمام المقود، والثاني بدا من الأوامر التي يعطيها للسائق ولعاملين على ظهر الشاحنة أنه رئيس فريق للعمال بالبلدية. نزل العامل الأول، ولما استوى على الأرض أمده الثاني من أعلى الشاحنة بلوحة زجاجية مستطيلة الشكل، ثم نزل ويده بعض أدوات النجارة البسيطة.. غادرت الشاحنة المكان.. تقدم العاملان حتى وصلا مكتب الإدارة، خرجتَ تتجلّى الأمر.. وصلا .. تبادلتم التحية، فأفصحا عن هويتهما وما جلا من أجله.. قدتهما إلى الحجرة الدراسية.. أريتهما اللوحة الزجاجية المحطمة بالنافذة، وقبل أن تتركهما استوضحتهما إذا كانا في حاجة إلى شيء يفتقران إليه، أو أمرٍ يحتاجان إليه.. أجاباك

في آن واحد، وبعبارة متطابقة لفظاً وحركة كأنهما اتفقا مسبقاً على صياغتها والنطق بها، أو انهما تعودا تكرارها في مواقف شبيهة بهذه:

— إبريق من الشاي الأخضر الساخن المنعنع .. لا تنس من فضلك سيادة المدير شيئاً من الكاوكاو الناضج.

وافقت بحركة من رأسك، ومضيت تأمر من في البيت بإعداد الشاي وفق المواصفات المطلوبة، ثم عدت إليهما بعد لأيٍ محملاً بما طلبا علاوة على مرطبات ، ودار في ذهنك أن الأمر انتهى؛ ولكم كانت دهشتك واللوحه الزجاجية في مكانها ما تُبَتَّتْ، وكل شيء على ما كان عليه.. وضعت الصينية، وابتعدت مكسور الخاطر، وأكثر من سؤال يدور في ذهنك، وما خطوط غير خطوات حتى تنهى إلى سمعك صوت أحدهم :

— برّبك سيادة المدير، نريد أن نتوضأ.. دلّنا على مكان الوضوء.

- المشهد الثاني -

أتيا على ما في الصينية من مرطبات.. صبا في جوفيهما ثلثي ما احتواه الإبريق.. أنفقا وقتاً غير قليل بين المرحاض، وحنفية الماء المثبتة على أنبوب مغروس جزء منه في التراب، ثم انتحيا جانباً، وأديا صلاة الظهر معاً.. عادا إلى الإبريق، وأتيا على بعض ما تبقى منه.. اتجها صوب الحجرة الدراسية.. تقدّما من النافذة المستهدفة، ألقيا عليها نظرة شاملة، قبل أن تتعاظدا أيدي أربع لنزعها من مكانها، وتحملها مدللة برفقٍ إلى خارج الحجرة لتجري عليها عملية تخليص من القطع المكسورة المتبقية بعد

تناثر القطع الأخرى، وإزالة العجين الماسك.. ثم واصلت الأيدي الأربعة عملية الكشط لموقع اللوحة الزجاجية الجديدة.

- المشهد الثالث -

الساعة الحائطية المتصدرة ساحة المؤسسة دقت الرابعة مساءً، لحظتها ارتفع آذان العصر يبعث السكينة في النفوس فتتسامى إلى عالم نوراني تتسرب معالمه إلى الوجوه المؤمنة تزيدها نورانية، وإشراقاً.. وضعا النافذة المدللة جانباً.. توجهها نحو المرفق الصحي من جديد.. جدداً الموضوع.. تقدماً إليك وأنت أمام المكتب بعينٍ ترقب المؤسسة، وبالأخرى ترصد عن مضى حركاتهما، وقبل أن يصلاك خشيت أن يفلت زمام نفسك، فيحدث ما لا تُحمد عقباه.. استعنت بالله، وتعودت من الغضب الأشبه بالنار التي تأتي على الأخضر واليابس، استوضحك أحدهما إن كان يوجد مسجد في الحي يؤديان فيه صلاة العصر مع الجماعة، أشرت مكرهاً إلى اتجاهه، وما نسيت أن تؤكد لهما بأنه بعيد، ولا بد من قطع مسافة معتبرة للوصول إليه داخل أزقة متعرجة، وضيق تفتقد إلى النظافة، فتؤدي المار، وخاصة من هو متوضئ، فأجاباك في لحظة واحدة، وبعبارة تطابقت لفظاً وحركة :

— إن الصلاة فرض عين، لا يمكن أن يحول حائل بينها وبين المتقين مهما كان نوع الحائل، وتأديتها مع الجماعة ثوابها مضاعف.

وهما يقتربان من باب الخروج فلتت من لسانك عبارة :

— بإمكانكما يا إخواني أن تؤديها هنا في مكتبي جماعة، والدرجة واحدة، وليؤمنا أحدكم فلا نُحرم من الثواب، ونربح الوقت.. صرخ أحدهما في حماسٍ ودون أن يتوقف، أو يلتفت إليك :

— الصلاة في بيت الله أفضل، وأكثرها ثواباً.

— ما قبل النهاية -

حينما كانت الساعة الحائطية تدقّ معلنة للطلاب والمدرسين أنها الخامسة، عاد العاملان واتجها صوبَ الحجرة فجرفتها جموع الطلاب التي تنفلت من الصفوف، وما أن ابتعدت الجموع حتى تقدما من جديد، وأخذا يبحثان عن النافذة، واللوحه الزجاجية.. عثرا إلاّ على أدوات العمل، حيث كانت مجموعة في صندوق.. دخلا الحجرة ليتفاجأ بالنافذة ثابتة في مكانها بجدار الحجرة، واللوحه الزجاجية مثبتة بإحكام في مكانها.. وبدا أنهما فهما الرسالة، فسرعان ما أخذا الصندوق مغادرين المكان، قاطعين المسافة الفاصلة بين الحجرة والباب الخارجي مطأطي الرأسين، ترشقهما نظرات حارقة..

- نهــــاية -

قلت للحاضرين معك لحظتها بمرارة :

— ما أكثر لصوص هذا الوطن المسكين !

وأكمل أكبر الحاضرين :

— الغريب أن الكثير من هؤلاء اللصوص يستترون وراء مبادئ وثوابت هذا الوطن، ويتمظهرون بنقله الدين.

الحلم في العيون الصغيرة

- 1 -

الأستاذ بقامته المديدة يشرح الدرس بهدوء.. بعد لحظة وأخرى يعيد العبارة لتأكيد الفهم لدى طلبته.. المفاهيم الرياضية تتوالى من الأستاذ . يركّز نظره الثاقب في وجه هذا الطالب أو ذاك .. واصل:

— الزوايا القائمة موجودة في كل مكان نحيا فيه، أو يحيط بنا.

انكمش فريد ذو الثلاثة عشر سنة حول نفسه.. شعر بالبرد القارص يتسرّب داخل جسده الغضّ.. يتوغّل عبر المسامّ الجلدية.. صفير الرياح يولول في أذنيه.. يتذكّر قول أبيه الذي غادر الحياة منذ سنة:

— يا بني .. المعدمون في هذه الحياة يقضون أيامهم بين الأمل المدغدغ وبين الحلم الجميل.. يمضون أيام أعمارهم بين الأحياء الحقيرة أمثالنا.. يحلمون بالانتقال إلى ماوي أخرى لائقة.. ما أعذب الأحلام يا ولدي، وما أسوأ نتائجها لمّا تطول...

— منْ يُعرّف الزاوية القائمة يا أبنائي تعريفاً تاماً.. لا ينسى خصائصها، وحتىّ أسهّل عليكم التعريف فالزاوية القائمة عادة نجد تطبيقاتها في الشوارع الحديثة.. في الدّور العصرية.. المخطّطون في إنجاز المشاريع بالأحياء الراقية يعتمدونها قبل غيرها. تتمم فريد: « والزاوية الحادّة بدورها يعتمدها الفقراء في حياتهم.. ليس بالعادة، ولكن للحاجة المعيشية ... »

— أعتقد أنكم جميعاً عرفتم الزاوية القائمة.. أليس كذلك؟

— وكذا الزاوية الحادّة يا سيدي .. أضاف فريد.

همَّ الثُّوري أن يرفع أصبعه لولا زميله في المنضدة الذي لكزه بضربة مرفقٍ..
هامسًا في أذنه:

— خَفَّفْ يا صاحبي علينا ثقل هذا الدرّي المملّ.. أشعر بالنعاس.. أخشى أن يلاحظ ذلك الأستاذ أثناء إجابتك، فأنال عقوبة لا يحتملها جسمي الواهن.. ما نمتُ ليلة البارحة من قسوة البرد.

— الآن بعد أن عرّفنا الزاوية القائمة.. منْ يستطيع إعطاء مقارنة بينها وبين غيرها من أنواع الزوايا.

— سيدي، في حينّا عائلات كثيرة تحتمي بأكواخٍ مُنجزّة من الطوب والقصدير.. تكوّن في داخلها زوايا حادّة.

— سيّدي تفصل بين أكواخ حينّا دروبٌ متعرّجة أشبه بخطوط منكسرة تشكّل هنا وهناك زوايا حادّة.

— سيّدي في حينّا...

— سيدي في ...

— سيدي...

— سي...

— كفى .. ما طلبتُ منكم إخباري أين توجد أنواع الزوايا الحادة.. طلبت فقط المقارنة لفهم موضوع الدرس أكثر.

— سيّدي يمكن أن أُجيب عن السؤال...

— تفضّل بالإجابة دون إطالة.

— الزاوية القائمة يَحْطُّط لها المخططون لإنجاز الأحياء العصرية.. بقربها مرافق مختلفة.. تفصلها معاً طرقات معبّدة فسيحة على جانبيها أشجار خضراء باسقة تُوحى بالأمل.. تُغري بالحياة.. تُرغّب في المستقبل.. أمّا الزوايا الحادة ...
— كفى يا سعيد...

لاحظ الأستاذ طالباً يتلهّف على الإجابة.. استجاب لطلبه:

— سيّدي أنا أكمل ..

— أكمل دون إطالة..

سيّدي.. الزاوية الحادة لا يَحْطُّط لها المخططون في مكاتبهم الجميلة.. في دروس التربية المدنية قيل لنا بأن المخططين في مكاتبهم الفخمة تُعتمد لهم ميزانية ضخمة.. الزوايا الحادة سيّدي، لا تحتاج إلى ميزانية ضخمة.. تنبت كالأعشاب البرية دون تخطيط.. تتناسل.. تتكاثر كالنمل.. تنمو كلّما ابتعد عنها المخططون.

يبدو أنكم ما فهمتم مضمون السؤال يا أبنائي.

ابتسم فريد ابتسامة مكرة، وأردف:

— سيّدي، السؤال مفهوم.. الإجابة ممّا في اعتقادي كافية .

- 2 -

دون وعيٍ .. ردّد الأستاذ جواب فريد لفظاً ومعنى.. سرح به الفكر بعيداً.. حملته الذكريات.. عادت به إلى الورا، إلى ما قبل عشرين عاماً.. المشاهد على الشريط واضحة أمامه.. الوجوه بارزة الملامح كوجوه طلبته.. كان جالساً يومها قُرب

النافذة في قسم البكالوريا.. شارد الذهن كعادته.. يحلم.. وما أكثر أحلامه حينها..
أفاق على صوت أستاذ العلوم الأجنبي.. يفتكه من شروده.. ينزعه من حلمه الجميل:
— كفى من الأحلام يا سعيد.. الأحلام لا تغير من واقع الإنسان شيئاً.. برّبك كنت
تحلم أشركنا متعة حلمك يا بني..

لاذ سعيد إلى الصمت.. احمرت وجنتاه خجلاً.. ثمانون عيناً كانت ترمقه
بنظراتها.. أنقذ الموقف رفيقه الجالس بمحاذاته.. أجاب:

— سيدي، في رأيكم الأحلام لا تغير من الواقع شيئاً.. أستاذ التاريخ طالما ردّد على
مسامعنا في كل حصة تاريخية بأن الحضارات التي حقّقها الإنسان أينما كانت، ومتى
حدثت سواء ما بقاياها لا تزال تشهد على عظمتها، أم تلك التي سادت في عصرها
ثم اندثرت، قبل تحقّقها كانت حلماً دغدغ عقول أقوام.. تآزر الجميع على تحقيق
الحلم.

— حقاً يا بني.. أوافق أستاذك في رايه.. لكن هذه المقولة لا تصدق في كل البيئات.
— لماذا يا سيدي، ألم تشرّ في حصة ما قبل الأمس أنت إلى مصداقيتها.. بأن الوصول
إلى المفاهيم العلمية يخضع لقواعد معروفة من فرضيات، ونظريات، وتجارب مختلفة
وصولاً إلى الحقائق العلمية اليقينية.. العالم قبل الشروع في أبحاثه، وتجاربه، وتعامله
مع المادة يحلم.. يتعامل مع الخيال.. بقدر ما يكون خياله خصباً يبتكر.. يكتشف.
— بلى يا ولدي.. لا أزال عند رأيي.

— وجهه المقارنة لا يصحّ هنا.. أنت ولدٌ طيّبٌ وذكيٌّ.. بيئتكُم غير البيئات التي
تنطبق عليها المقولتان.. تنطبقان على مجتمعات عريقة في المدنية.. أمّا ...

— أمّا مجتمعنا المنهك بأعباء التخلف بجميع أنواعه سيدي لا تنطبقان عليه.. أليس كذلك؟

— ذلك ما أقصده بالضبط.

— المجتمعات التي نسبتكم إليها التخلف، كأنه وضمّة عارٍ على جبينها.. المتسبّب فيه غيرها.. نحن أبنّاؤها يحقّ لنا أن نحلم.. لا متعة في الحلم كغاية، بل من أجل التغيير إلى الأحسن.

— أحلامكم كثيرة.. أمانيكم غير محدودة.. بغيتكم تغيير الوجوه الكالحة، والأعضاء الضامرة في وقتٍ واحدٍ.. هدفكم القضاء على الأخاديد التي شقتها قرون وقرون.. أسرعتم في الغوص إلى داخل الإنسان بحثاً عن القدرات الذاتية.. تنقيّاً عن إمكانية بعث الإنسان من جديد بعد نوم طويل.. ليس الأمر بالهين.. عملتم على ذلك منذ انبعث ثورتكم.. حقّقتم الكثير خلاها.. بعدها حصلتم على بعض النتائج.. خطاكم تعثّرت كثيراً.. صدمكم الواقع بثقله.. التجأ بعضكم إلى اللامبالاة.. الاكتفاء بالنظر من وراء الستار.. كالعلق البعض الآخر يلحق ما قدّم الآخرون.. يقدم لهم ولا له شيئاً.

— كلّما سرّنا شوطاً يا سيدي.. اعتزّزنا بما حقّقناه فيه.. بقدر ما تنمو أحلامنا تنمو مكاسبنا.. التعثّر يقلّ كلما ملكنا الخبرة، وتعلّمنا من أخطائنا.

- 3 -

— سيّدي لم تكلمنا كثيراً عن الزاوية المنفرجة والزاوية المستقيمة.
تقطّع شريط أمام ناظري أستاذ الرياضيات.. اقترب من طالب لا يهدأ:

— ما حرفة أبيك؟

— لا حرفة واحدة لوالدي يا سيدي.. حرفة كثيرة.. متعددة الاستعمالات.. في الشتاء تزدهر حرفة ترقيع الأحذية يشتغل مرقّع أحذية وراء صندوق خشبي.. يحشر نفسه في زاوية حادة بين كوخنا وكوخ عمّي.. يعمل في الصباح إلى منتصف النهار فقط، وفي المساء يقيم الأكواخ لقادمين غربيي الوجوه عنا.. العمل كثير، والعائد قليل.. إنه يحثني باستمرار على الدراسة.. لا يريدني أن أتخلف.. يريدني أن أصبح إنسانًا مهمًا في المستقبل يا سيدي.. أبي كبير السن.. ورثنا أحيانًا كثيرة أوفر شيء، وأثمنه لدى الفقراء.

— الحلم هروبٌ من الواقع.. الحلم لا يغير من.. من ..

— أكمل سيدي .. لا يغير ماذا؟

— لا ضرورة .. مجرد فكرة خطرت ببالي.. عدلتُ عن قولها، ليست مهمة .. قبل لحظات تكلمتَ يا بُني عن أحلام أبيك الكبيرة.. كيف يريدك أن تكون؟

— يريدني أن أصبح مهندسًا معماريًا.. أخطّط الأحياء الجديدة.. أكونها بخطوط هندسية مستقيمة.. تُكوّن زوايا قائمة متناسقة.. تفصلها طرقٌ واسعة معبّدة نظيفة تحت سطحها أنابيب الخدمات.. الصحية.. أحياء حديثة تحلّ محلّ الأحياء القصديرية.. لمح الأستاذ عبّر النافذة المحاذية لمكتبه المدير مُقبلًا نحو القسم، أمر طلابه بالانتباه أكثر.. أخذ في قراءة التمرين:

— بالمدور كوّنوا زاوية قائمة تجاوزها زاوية حادة .. قبل القيام بالرسم راقبوا الأدوات التي ستستعملونها.

— سيدي غير ممكن تكوين زاوية قائمة تجاوزها زاوية حادة.

- الزاوية سيدي شاهدها إلا على الأوراق، أو في قسمنا.. في مدرستنا..
- سأرسم زاوية حادة رسمًا دقيقًا.. هذا النوع من الزوايا أشاهده أينما حللتُ بحينًا.
- الهدوء.. كفى من الضجيج.. إن هذه الفوضى تُوحى وكأن الفصل لا قيَمَ عليه..
- أفاق الجميع على صوت المدير الذي دخل لتوّه.. اقترب من طالب نحيل الجسم.. زرع عَيْنَيْهِ على مساحة وجهه الصفراء.. أمره بالوقوف:
- أَلستَ أنتَ القائل: غير ممكن تكوين زاوية قائمة تجاوزها زاوية حادة..؟
- بلى سيدي المدير.
- السبب يا ولدي؟

دومًا أسمع النساء القاطنات في المنازل الفخمة الجميلة يشتمن نساء الأكواخ.. ينلنّ منهنّ نصيبهنّ من السخرية والإهانة.. ألفاظ وعبارات بشعة تُعاد في كل فرصة بقولهنّ مثلاً: شوّهتم حينًا يا قدرات.. مستحيل أن ننعم بالسعادة إلاّ إذا أبعدناكم من هنا.. علّمنا أستاذنا سيدي المدير أن الزوايا القائمة بواسطتها تُؤسس الدور الحديثة.. المرافق العصرية.. الطرق الفسيحة.. الشوارع الواسعة المعبّدة.. ذات يوم أمرنا بالبحث عن أنواع الزوايا.. عثرنا في حينًا على أعدادٍ لا حصر لها من الزوايا الحادة.. قرب العمارة الجميلة الغير بعيدة من حينًا القصديري هجم عليّ الأطفال القاطنون بها، أشبعوني ضربًا مبرحًا.. كان هدفي التعرف على الزوايا القائمة.

حوّل المدير ناظرِيه عن هذا الطالب.. مسح كل الوجوه الأخرى بنظرة سريعة.. نفس الملامح.. نفوس لها نفس الإجابة.. شعر بالضيق.. أسرع نحو الباب..

أشار بطرفٍ خفيٍّ إلى الأستاذ كي يتبعه بعيدا عن القسم.. وكمنٌ يكتُم غيظًا.. لا يريد إظهاره إلاَّ عند الحاجة.. قال للأستاذ:

— ما هكذا تُعلِّم الرياضيات.. والهندسة خاصة يا أخي.. أنت رجل علم، ولست رجل إصلاح.. قدِّم الدرس بمضمونه العلمي.. بعيد كل البعد عن القيم..

— طلابنا السيد المدير.. نعدِّهم إلى الحياة.. في مجتمع مشبع بالقيم الثابتة، وغيورٌ على الحفاظ عليها.. مجتمع أحلامه كثيرة.. مطامحه المشروعة غير محدودة.. قيمٌ زادتُ هؤلاء الطلاب في مسيرتهم الطويلة.. حافزٌ لهم في تحصيل العلوم وتطبيقاتها المختلفة لتغيير تركات بشعة.. سنَّة الطبيعة تحتم التغيير..

— ليس هذا مطلوباً منك يا أخي.. أتركه لغيرك من المختصين في العلوم الإنسانية..

— المعارف بجميع أنواعها هدفها واحد.. سعادة الإنسان.. نعم سعادة الإنسان..

- 4 -

في مكتبه الفخم.. ألقى بكتلة جسده على الأريكة الوثيرة.. استقرَّت عيناه على محتويات المكتبة الغنية بشتى الكتب عناوين، ومواضيع.. كتب ذات أحجام مختلفة قديمة وحديثة.. عناوين كثيرة لم تُفتح بعد.. لم تُقرأ منذ أن ودعت الرفوف كواجهة ديكورية مقابل ميزانية محترمة.. تُقتطع من ميزانية المؤسسة كل سنة..

تمت وهو يستعرض العناوين:

— الحلم تحوَّل إلى حقيقة.. تيار الوعي لدى الأجيال الجديدة.. طوفان جارفٌ عنيفٌ لا يرحم من يقف في طريقه.. هي سنَّة الكون.. ما دمت حيًّا عليَّ أن أفتح قلبي لهذه الأجيال الصاعدة بجميع أعمارها.. مستفيدًا ومفيدًا.. إنها طبيعة الحياة...

اليأس

أشار إليّ أن أتبعه.. تردّدتُ في البداية إذ بالرغم من أنني أراه مسله كل يوم يؤمّ أحد المطاعم الرخيصة في حيّنا الشعبي.. تبادلنا الحديث معاً منذ أمدٍ بعيد؛ حينما أشار إليّ بأن أتبعه دفعني أيّكة الصداقة القديمة أكثر ممّا دفعني الفضول الإنساني، أو الاستجابة لطلبه.. كيف تستجيب لطلب شخص بأن تتبعه، وحبل الصداقة مقطوع بينكم منذ أمد بعيد؟ .. بل حتى مجرد السلام العادي المتناول آليا بين الناس مقطوع بينكما..

أخطو خلفه في جراءة مقاوماً التردّد الذي كبّلي في بداية الأمر.. أخطو خطوات قليلة وسرعان ما داهمني شعورٌ بالدونية، وأنا أسير وراءه هو بالذات .. نعم هو بالذات بالرغم من قرابته لي دماً.. فضلاً عن توطّد صداقة حميمة بيننا في زمن مضى.. صداقة كُتب لها الصمود عدّة سنوات.. مددّت خطواتي أكثر لأقترب منه.. لكن وأنا أكاد أحاذيه يميناً نظراً إليّ في غيظ، وتجاهل يدي الممدودة لتحيته.. فسحبته مهزوماً، وإحساسٌ من الحق يغزوني.

ونحن ندلف أحد الأزقة الضيقة بالحي القديم بالمدينة أين يقيم وحيداً في بيت عتيق ورثه عن والدته التي ودّعت الحياة تاركة إياه في أواخر سنّي المراهقة.. رجته حينها، وكرّرت رجاءها بأن لا يفرط في هذا البيت كيفما كانت طبيعة الظروف التي قد تلمّ به..

طالما تمسّك به أبوه معها، واعتبراه ملكاً ثميناً لهما، وازدادا ارتباطاً به لما أنجباه فيه.. إنك تشعر بنكهة أخاذة محبّة لنفسك تعبق المكان، وأنت تدنو من هذا

البيت العتيق.. بَيْتٌ لا يَخْتَلَفُ عن باقي البيوت القرية منه، أو الحاذية له.. بيوت محمية ببعضها كاحتماء القاطنين بها في مواجهة نكبات الدهر، وغوائل الزمان؛ وما أكثرها في هذا الحي التراثي بالمدينة، وكما تصنّفه أيضاً دائرة السياحة، لكن في نظر قاطنيه ذوي الطبقات الاجتماعية المسحوقة من مقعدين، وبطلّين، وفقراء مهمّشين غير هذا التصنيف.. هم مصرّون على أنّ حيّهم هو القلب النابض بهذه المدينة التي بدأت تتمرّد على أصلاتها، وتتكرّر لشوابتها.

في أيامها الأخيرة انتابها شعور رسخ في ذهنها، وانعكست آثاره على حركاتها، وسلوكها اليومي بأن الأيام المتبقية لها والتي تفلت تباعاً منها دون رجعة.. أعادت على مسمعيه عدة مرّات أن يصمد فارساً في وجه الزمن العصي.. غير مفرطٍ في البيت، متممًا مصف دينه في رحابه، مقترناً مع ابن خالته فاطمة.

روائح نفّاذة عبقة تدغدغ أنفك، وأنت تقترب من مركز الحي.. روائح منبعثة من أكثر من مصدر.. اقتربا من البيت.. دفع بالفتاح الصغير في ثقب القفل.. أداره فانفرج الباب كاشفاً عن باحة متوسطة المساحة.. ترامت في جنباتها أشياء عديدة بعضها ذو قيمة ملقاة بغير عناية، وعوامل الطبيعة تركت بصماتها واضحة عليها.. الغبار شكّل طبقة رمادية على أرضية الباحة، إذ يبدو أن المكنسة لم تمرّ عليها من زمان.. الباحة عذراء تنبئ أن لا آثار إنسانية تشي بوجود بشرٍ ينزلون بالحل، ويقيمون به.

قال وهو ما تخلّص بعد من نظرتة الجانبية.. رمقي بغیظ، ونحن نقرب من إحدى الغرفتين اللتين تُفتحان على الباحة، فضلاً عن غرفة أقلّ مساحة تُستعمل مطبخاً:

— لا تلمني وأنا أجهل يدك الممدودة إليّ، وأرمقك في غيظٍ منذ البداية.. لا يدفعنك
الوهم بأنني أكرهك، أو أنني نسيت صداقتنا التي كانت ذات يوم جنةً فيحله.. لا تقل
أنني نسيت قرابة الدم..

— على الأقل من باب المجاملة.. والدعوة صادرة منك إليّ أن أتبعك إلى بيتك هذا
أن تكون ليّنا بعض الشيء ولو إلى حين.. ثم ليذهب كل شيء إلى الجحيم.. ما عدا
أواصر القرابة.

— ما جدوى القرابة إذا أصبح الإنسان في الحياة غصناً مكسوراً تعبت به رياح
الدهر، وتستغني عنه شجرة العائلة، فتسلّمه هدية للعاصفة الهوجاء تتقاذفه دون
رحمة، وما فائدة الصداقة.

حاولتُ أن أرسّم ابتسامة باهتة، وكأنه تفتّن إلى محاولتي فأكمل:

— أرجو الصمت.. أنا أعلم بما قد يصدر منك.

دخلنا الغرفة التي كان بابها مفتوحاً عن آخره.. الحاجات مبعثرة.. أواني
للشرب تبيّس بها السائل .. مواعين للأكل النصقت بها بقايا الأطعمة.. ملابي
متسخة تكوّمت هنا وهناك.. أغطية فوق سرير قديم خشبي مكورة، وقد فقدت
ألوانها الأصلية بفعل التقادم والوسخ معاً.. أرضية الغرفة اختفت لتبعثر الأشياء..
كل شيء في الغرفة في غير مكانه.. ما عدا بعض الصور ملصقة بعناية على الجدار
المقابل.. كانت عيناى منذ وصلتُ تجوسان فضلاء الغرفة الفوضوي وعلامات الدهشة
بادية على مُحيائي.. لتثبتا في النهاية على صورة بعينها.

ساد الصمت دقائق بيننا وكفّت الكلمات عن أداء وظائفها، وكأننا اكتشفنا
أنها فقدت معانيها، وأضحت مجرد تحريك روتيني للشفاه.. وكأنه لحظتها أفاق لنفسه

أنه ما أتى بي إلى بيته ليُغرقي في بحرٍ من الصمت الحزين، أو يفرض عليّ جَوْاً من أجوائه الخاصة التي اعتادها، ودون أن يلتفت فتح علبة السجائر، وقال:

— بالتأكيد لقد لاحظتَ الفوضى السائدة في البيت.

— فوضى غير عامّة على أية حال.

— ماذا تقصد؟

— كالصور المعلقة بعناية على الجدران مثلاً.

— فعلاً برغم إحساسي بالمرارة والخيبة من لا جدوى القرابة، فإني أنظر بقدسية خاصة إلى هذه الصور.. إنها بالترتيب من اليمين إلى اليسار: صورة جدّي لأبي، فصورة جدّي لأمي، صورة والدي، فصورة والدتي.. في بعض الأحيان تنبجس صورة مشرقة في ذهني فجأة فأخال الحياة تسري في هذه الصور، فأرى الشفاه تتحرّك، وأصحابها يملؤون هذا البيت حركة وحياة.. يعبقونه بضحكاتهم، وأحاديثهم الحميمة.. حينها تتناوبني نشوة عارمة، وتحتضني سعادة لا متناهية؛ لكن سرعان ما تنطفئ تلك اللوحات الجميلة من حياتي، وتحلّ محلّها صورٌ بشعة تسودها العتمة والجذب، فأختفي داخل نفسي.. أتكوّم.. تتساقط أيامي من عقْد العمر البئيس.. ثقيلة رتيبة.. عوادي الزمن تعوي كذئبٍ جائعٍ دوماً يبحث عن الفريسة.. يلتهم أيام عمري في نهمٍ وشراسة، وأنت ترى أنني بلغتُ مرحلة الكهولة.. الوحدة وحشٌ فتاكٌ يبتلعني.. الوالدة رحمها الله في ساعاتها الأخيرة تُوصيني بإكمال نصف ديني.

قبل أن تُسلم الريح إلى خالقها بساعات، وهي تملك يديّ في لهفة.. بصعوبة فلتت من فمها كلمات:

— يا ولدي.. تمسّك بهذا البيت.. لا تفرّط في ابنة خالتك فاطمة.. أكمل نصف دينك.

دخلت معركة الحياة كما تعلم صغيرا.. كان سلاحي معارف بسيطة فشلت في تنميتها، وقد انفضّ عني الأقارب وأنت أحدهم. عقب دفن الوالدة بثلاثة أيام، ومن أجل الحفاظ على البيت، والفوز بفاطمة كان عليّ أن أخرج سلاحي الوحيد.. الجهد البدني لفتى يغادر مرحلة المراهقة، والأيام كانت كفيلة بتعليمي، وتقوية عودي، حيث أنفقت الجهد البدني في أشغال، ونشاطات مختلفة، وبتوالي الشهور والسنوات حطّت بي عصا الترحال في مدنٍ عديدة من البلاد، وفاطمة ما فتئت وردة متفتحة في البال.. أيكّة مشرقة في الفؤاد.

ذات سنة والقلب وردة حمراء تتلهّف في شوق إلى الندى الصباحي.. عدت إلى البلدة، وأنا في طريقي إلى هذا البيت أعبّر أزقة الحي.. كان وجيب قلبي يومها يرتفع، إذ كنت أشعر أن نسله الحيّ يعرفن كل شيء عني، وبمجرد ما تلمحني إحداهنّ فإنها تغمز الأخريات بطرف خفيّ، فيتركنّ أشغالهن، ويهمسن لبعضهن بكلام كثير تعرفه غير النسله الخبيرات.

مسء ذلك اليوم وأنا ألتقي بأصدقائه في الحيّ وهم بين مشدوه ومُعجب بي، وكأني السندباد البحري الذي جال أكثر البلدان، وخبر الشعوب والأوطان، وعانى الأهوال، وغنم الأموال.. عاد محملا بالكنوز.. كانت أسئلتهم تتهاطل دون توقّف، وكانت إجاباتي مقتضبة.. قرّرت أن تكون كذلك حتى أبقى لغزًا محيرًا لديهم، ولا يعرفون من أمري إلّا القليل، وبدوري ما انفككت أن أمطرهم بوابل من الأسئلة

عن الحيّ وقاطنيه، وبتمعنٍ ركّزتُ على من تزوّج من شبان وشابات الحي، حتى أن أحدهم أدرك مقصدي، وهمس بجبّث في أذني:
— يبدو أنك صرّتَ عاشقًا يا عفريت.

ما حاولتُ يومها كتمان ما في قلبي عن البعض من الأصدقاء عندما حاصروني بأسئلتهم الملحاحة حول عدّة مواضيع تخصّ اهتمامات الشباب؛ وبمجرد ما لفظتُ اسم فاطمة ابنة الخالة حتى ساد الصمت بينهم، وتبادلوا النظرات.. هم بالتأكيد يعرفون ما لا أعرف.. خالتي المتبقّة على قيد الحياة منذ طفولتي اعتبرتها أمًّا لي وفاطمة أكثر من أخت.. بل حبيبة القلب، ووالدتي أوصتني عليها وأوصت.

وفي طريقي إلى بيت الخالة الغير بعيد، التقيتُ بابنها الذي يكبرني بسنوات قليلة، اتجهنا سوياً، وبوصولنا دفع الباب، وأنا أتبعه، وفي تصوّري أنه يفتح لي قصر أميرتي، وأنه يعدّ لي بساط الريح.. أنا وحبيبي فاطمة طائران فوق السحاب.. كان استقبال الخالة حارًّا لي، وحفاوتها بي أثارت ذكريات عزيزة في نفسي، وأحيت لديّ روابط الدم، وأشعرني بأهمية الرباط العائلي.

قد بدا لي الأمر كذلك، وأطلّت فاطمة، وانبهرت لعنفوان أنوثتها، وفوران جمالها.. كانت بديعة الحسن، رائعة التكوين، وراعني منها ما راع سحر البراءة، وربما السذاجة إلى حدٍّ ما.. شعرتُ بالارتباك حتى في ردّ التحية لها، وهي تصافحني.. لاحظت الخالة ذلك فطلبت منها إعداد القهوة للضيف ابن الخالة.. تناولت طعام الإفطار صبيحتها مع كل أفراد عائلة الخالة، والسعادة تغمرني.. ثمّ وأنا أهمّ بمغادرة البيت وعدتُ خالتي بزيارات أخرى، وقد تكون أولها خلال اليوم القادم، وقد

تفطنت لمقصدي.. لحظتها استقرت عيني على فاطمة التي بدا من ملاحظها أنها في موقفٍ حرجٍ، وعيناها مزروعتان في الأرض بانكسار:
– البيت بيتك يا ولدي، ومفتوحٌ لك مت شئت، ونحن فرحون بوجودك بيننا خاصة في هذه الأيام لتشاركنا فرح فاطمة في عرسها.. أنت ترى أنها أصبحت عروسا.. الله يبارك، أليس كذلك؟

كانت الضربة قاضية، وقبل أن أنسحب مهزوماً أجزّ أذيال الحية كانت فاطمة قد سبقتني فارةً إلى إحدى الغرف القريبة، وصوت نشيجها يشقّ الصمت الذي ساد المكان.. من الغد حملت حقائبي من جديد، والقلب صحراء قسا عليها الجذبُ فسلب منها الحياة.. السند باد مرةً أخرى يجوب الفيافي والبراري، لا لكي يبحث عن الكنوز كالمرة الأولى، ولكن عساه يتناسى، ويعرف نفسه أكثر، ويدد لها مكاناً ضمن الخريطة البشرية.. مضى بي العهد، وجرفني تيار الزمن، وتساقطت الأيام والشهور من عمري، وأنا غير آبهٍ بها، وتارة أخرى أكون فارساً مغواراً.. أحلامه ومغامراته لا نهاية لها..

عرفتني أكثر عواصم العالم مشاغباً خطيراً.. نزلتُ أكثر من ضيفٍ على السجون والمعتقلات.. اندمجت في أكثر الحركات تطرفاً، أو اعتدالاً.. نعتوني في محاضر التحقيق بالمشاغب الخطير.. بالجرم.. بالخارج على القانون.. إنما لا محكمة أفلحت في تحديد تهم واضحة ضدي.. اشتركت في المناظرات الساخنة بين أهل اليمين، وأهل اليسار.. تقدّمت المظاهرات، وقلتُ كل من عندي من رؤى، وأفكار أو من بها، أو لا أو من سواء لها معنى سياسي، أم هي مجرد كلمات يتمسك بها غيري ويحلّو لي ترديدتها، حتى ولو كانت بلغة أجد صعوبة في فهمها، وأعجز كثيراً

عن التواصل بها مع أهلها.. أقذف بها الآخرين صانعاً من نفسي ثائراً حيناً،
وعريداً حيناً آخر.. الأيام مرّت وتمرّ وعوادي الزمن تفعل فعلها.. وها أنت ترى
أنني تجاوزت مرحلة الكهولة..

قلتُ له وأنا ازداد إعجاباً به وهو يروي مغامراته العديدة، وغير نادم .. كما
هو غير مقتنعٍ بالتشاؤم:

— لا بدّ للبشر الأذكياء ذوي النفوس العالية، والهمم الطموحة من المعاناة في
حياتهم، فالمعاناة شرطٌ لبقائهم، وهي سرّ البقاء لخلود أسمائهم في سجلّ التاريخ.. ألا
تعلم أن وجودك وماهيتك لهما اعتبارهما الخاص في هذا العالم.. ربّما نجهل هذا..
الحياة تنطوي على الكثير من الأسرار، لم يكتشفها الإنسان حتى اليوم ومهما أوتي
من وسائل العلم، وأعقد ما توصلت إليه التكنولوجيا الحديثة المتطورة.

— حقاً ما تقول.. اسمعني جيّداً ما أتيتُ بك إلى بيتي هذا لتضيف معارف إليّ في
معرفة هذا العالم.. لقد شبعْتُ من الحياة حتى التخمة، وكلما ازددتُ توغلاً في
دروبها ازددتُ معرفة أكثر، كما ازددتُ ألماً.. أتيتُ بك إلى هنا لا لأسرد عليك قصة
حياتي التي قد لا تعني لك شيئاً كشابٍّ في مقتبل العمر وجد الدنيا ضاحكة في
مساره منذ أن نزل إلى هذا الوجود، وإنما فقط لتستخلص من حياتي أمراً قد
تجاهله، أو لا يخطر على بالك وأنت في هذه السن اليافعة من مرحلة الفتوة
باعتبارك قريباً لي.. القرابة في أيماننا هذه أصبح لها طعمٌ خاصٌ في فؤادي، وعليّ أن
أرعى مكانتها فيما تبقى من أيام العمر.

— افصح وأنا لك سامعٌ.

— هناك محطاتٌ في حياة الإنسان تعترض طريقه.. إمّا أن تسلمه إلى اليأس والخيبة، وتُترغمه على امتطيه جواد مجدور، وإمّا أن تحمله على أجنحة الرعاية واللفظ والسعادة.

كنت صامتًا خلالها، كمن أجمه أمرٌ قاهرٌ.. ثم قلتُ في حماسٍ لأُنقذ الموقف:
— علينا أن نوطن العزم على أن نتناسى على الأقلّ الصدمات التي تعترضنا، ونتحمّل نتائجها في ثباتٍ ورباطة جأشٍ.. ولنسّع جاهدين على ألاّ نطلّ فرائس لأفكارنا السوداء.. وليكن إيماننا راسخاً بأن القضاء والقدر يؤديان وظيفتهما باكتمال.. أليس كذلك؟

انقضت عدة شهور على ذلك اللقاء، وتلتها لقاءات أخرى بيننا وذات يوم فوجئ البعض من أصدقائه، والقلّة من أقربائه باختفائه، ولأنني أعرف ما عاناه في المدة الأخيرة، ولأنني أعرف مسار حياته العصبيّ فلم أفاجأ باختفائه.. غير أنّ ما فوجئت به أن تصلني فيما بعد رسالة منه رفقة صورة له في لباس عسكري، وهو يحمي رشاشاً من نوع كلاشنكوف، وعلى ظهر الصورة كتب: لقد عرفت الكريق الحق يا بني، وأدركتُ رسالتي السامية أنها هنا مع أشبال تحرير القدس.. الحرم الثالث الشريف.

السقوط في الوحل

قال له أحدهم ذات يوم:

— لقد تراكمت عليك الأدران.. إنك تحتاج إلى صقل.. ولن يصقلك غير التوقف النهائي عن السير في طريق الوحل الذي تغوص فيه رويدا.. رويدا..

تملأ في مكانه كمن ينوء بحملٍ ثَقِيل:

— إذا توقفتُ عن ذلك كيف أفي بوعودي لأصدقائي بتوفير طلباتهم.. وكيف أفي طلبات أبنائي الكثيرة المتنوعة.

هرب منه النوم طيلة الليالي السابقة.. غير أن الليلة الأخيرة التي قضاها بمنزله كانت أطول ليلة بالنسبة إليه.. فرَّ منه النوم.. قضى ليلته في أرق.. تحت عذاب القلق الغير المحدود.. ضجَّ السرير من حركاته المستمرة.. كثرت تقلباته.. ما كان يتوقع أن يحدث له ما حدث في تلك الليالي، وفي تلك الليلة خاصة.

* * * * *

قبل خمسة أيام من تلك الليلة.. عاد إلى منزله نشيطاً بعد سفرة ميمونة.. السعادة تغمره.. كالعادة أحاط به أبنائه.. التصقوا به.. تنازع الصغار على الجلوس في حجره.. كل واحد منهم سعى إلى الفوز بحمله بين اليدين.. تعالت أصواتهم الستة.. اختلطت.. كان تعبُ الطريق قد امتصَّ الكثير من قواه.. غير أن احتفله الأبناء، وتبختر الزوجة أمامه، وإخباره تارة عن الأحداث التي طرأت بالبلدة أيام غيابه، وتارة في جلب صينية القهوة، أو الشاي، والمرطبات.. أعاد له قدرًا من الحيوية

.. وأنساه نصيباً من التعب وعناء السفر.. جميعها خففت من الإرهاق، وأشبعَتْ جوعَ الشوق الذي كابده نحو الجميع طوال أيام الغياب.

ما لبثت الزوجة أن جلست قبالة.. هي تعلم أنها ليست المرة الأولى التي يغيب فيها عن المنزل.. غير أنها أحسَّت بلهفة أكثر على عودته.. إنها تعلم السبب.. في المرات السابقة خلال عودته تحتفي به مع أبنائها.. وسرعان ما تذهب لقضاء مآرب منزلية - وما أكثرها - والحديث بينهما يتناول في فرص موالية.. هذه المرة فقدت الصبر بدورها.. هجرتها الرزانة المعروفة بها.. أكثر نظراتها مركزة على الحقائق المغلقة.. خاصة الثقيلة التي استعان ببعض الحمالين لإيصالها إلى المنزل.. الحياء صدها عن استئذانه في فتحها، والاطلاع على محتوياتها.. لما أكثرت التحديق وكأنه تفتن إلى غرضها، فأصلح من جلسته ولم ينبس بكلمة.. فهمت مراده، وسبقت إلى القول:

— يا أولاد وعدكم أبوكم قبل سفره بأن يجلب لكل واحد منكم هدية خاصة به..
أعتقد أنها موجودة بالحقيبة الكبيرة الحمراء.. أليس كذلك ؟
— لا بل بالحقيبة البيضاء.. حذار من فتح باقي الحقائق.. فيها ملابس، وحاجات أخرى ليست لكم.

من كلماته التي ركز خلال النطق بها على وجه زوجته ذات الحدود المتوردة، والشعر الفاحم الطويل، والعينين الفاترتين الناعستين اللتين طالما عزا إليهما هيامه بها وإعجابه.. ولا يزال يرى في حركاتها، وبعض تصرفاتها الطائشة برغم رزانتها.. مرحلة من مراحل ما قبل الثامنة عشر سنة من عمرها حينما تزوجها.. فكانّ الثلاثة عقود التي قطعتها من حياته لم تؤثر فيها.. من تركيز عينيّه في عينيها

استشفت أن ما بالحقيبة الحمراء يخصها هي وحدها.. وما بالحقائب الأخرى يخص
بعض الأصدقاء.. وربما هو أيضاً.. أوعزت بإشارة خفية إلى أكبر الأبناء كي يحمل
الحقيبة البيضاء.. هتفت بارتياح:

— حسنًا.. هات المفتاح لنفتح الحقيبة.. هل بها هدايا كثيرة.. ترى ما هي؟ وكيف
سنوزعها عليكم يا أبناء؟

— لا تحملي همًا عزيزتي كل هدية اسم صاحبها مرسوم عليها.

— حسنًا فعلت.. إذ أرحتني وأرحتهم..

— ما أجل هذه الحاجات.. هي لي ماما..

— لا تعطيها لها.. بل هي لي.. ها هو اسمي مكتوب عليها.

— أنت خوي لا تعرف القراءة والكتابة.. لا تزال صغيرًا.. فالاسم المكتوب اسمها
هي.

— ما أروع هذه الساعة.. ماذا ومعها آلة حاسبة إلكترونية.. جميلة.. لمن؟ لمروان.

— أسرعني أمي أعطيني تلك الطائرة.. اسمي مسجل عليها.. هاتيها.. ما أجملها.

كلّ تسلّم هديته راضيًا.. كانت آخر هدية للابن الكبير الذي تسلّم كيسًا
خاصًا.. به مجموعة من هدايا ثمينة.. ما هدأت أصابع الزوجة داخل الحقيبة.. منقبة..
متلمسة.. اكتشفت أن هناك أشياء أخرى ثمينة.. لاحظ الحيرة بادية على وجهها
ليسارع مبتسمًا:

— هدايا أخرى للأبناء.. أتركها لهم إلى حين.. الخير كثير، ولكل نصيب مضاعف..
أحسّت بالراحة.. رفعت يدها من الحقيبة.. أعادت غطائها.. أوحّت لها عبارة " لكل
نصيب مضاعف " .. شعرت أنها معنية بدورها.. مسحت الغرفة بنظرات عينيها..

كانت شاغرة إلاّ منه ومنها.. إذ انفضّ الأبناء الذين ارتفع صياحهم، وعلت ضحكاتهم خارجًا.. أوحّت لها العبارة بالكثير.. تذكّرت جارتها التي جلهتها قبل ثلاثة أشهر، وعنقها الأبيض تتلألأ منه حباتُ بيضاء ترسل وميضاً خلاّباً من عدة اتجاهات.. وفي معصمها أساور ذهبية رائعة.. وأقراطُ تتدلّى من الأذنين.

* * * * *

ما هدأ قلبها ذلك اليوم إلاّ عندما أعلمها بقرب سفره إلى فرنسا كعادته كل سنة في الفصل الشتائي للقيام بزيارات للأصدقاء هناك.. سأله أحدهم ذات مرّة: — تكثر زيارات أبناء الوطن في فصل الصيف إلى هذا البلد، أو إلى غيره من البلدان الأوروبية المجاورة.. يتهافون على شراء كل شيء.. من أجل العملة ينعدم كل شيء عندهم.. تشعر وأنت تراهم في حالتهم تلك أن الوطن أفلس.. ما عدا القليلين يختارون فصل الشتاء، وأنت أحدهم.. في الحقيقة أمرٌ لا يخيّرني بقدر ما أنا فضولي كعادتي أريد أن أعرف ليس إلاّ.

قال له وهو يستشفّ طبيته:

— اصغِ إليّ يا صديقي.. إذا حللتُ ضيفاً على صديق، أو قريبٍ.. وربّما أنا الوحيد في هذا الفصل، فاهتمامه بي كبير، كما احتفاؤه بي ليس كما لو كنته مع غيري.
— نعم وهو كذلك.. قد فهمتُ مرادك يا صديقي..

* * * * *

رآها شاردة الذهن.. باغتها:

— سارحة الفكر كأنك في عالم آخر..

— لا يا زوجي الحبيب.. بل كلّي هنا معك قلبا وقالبا.. أفكر فقط في سعادة الأبناء ..

إن سعادتهم سعادة لكلينا.. أليس كذلك؟

* * * * *

تذكرت أثناء أن سرح بها الفكر جارتها زوجة مدير إحدى الشركات
الجهوية، والحديث الذي دار بينهما في حوارٍ جافٍ مشوبٍ بالغيرة، والحسد .. قالت
الجارّة:

— ما ألبسُهُ من مصوغات أهدها إليّ زوجي أخيرا.. إنه وعدٌ وعدني به منذ أن
تولّى وظيفته الحالية:

— ما أروع هذه المجوهرات.. نعمت بها أختي..

— وعدني ايضاً بهدايا أخرى لم يكشف لي عنها بعد.. سيتركها مفاجأة لي كعادته..
جميع العمّال والموظفين يدينون له بالولاء والطاعة العمياء.. لمقدرته في حُسْنِ
التسيير، وحبّه للمهنة..

مجاراة للجارّة أضافت هي لمدح الجارّة لزوجها:

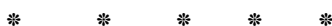
— والإخلاص أيضاً.. والنزاهة ونظافة اليد..

حرّكت الجارّة ساعدها الأيمن.. ورفعت الكفّ المحنّى إلى أعلى .. انزاح الكمّ
.. برزت الأساور منضمةً إلى بعضها.. محدثة صوتاً.. يشعّ منها بريقٌ أخاذ.

بحُبِّثٍ ماكرٍ قالت الجارّة:

— برّبك أصدقيني القول فيما سأسالك عنه.

- بالطبع أنت صديقة قبل أن تكوني جارة.
- زوجك منذ سنوات مسؤول كبيرٌ على موادّ البناء بالمقولة البلدية.. تحت إمرته مجموعة كبيرة من العمّال يأتّمرون بأوامره.. أسفاره كثيرة لجلب موادّ البناء.. لا شكّ أن مسؤوليته الكبيرة، ومهامّه العديدة يتقاضى مقابلها أجرًا، وتعويضات معتبرة تساعد، وتساعدكم على توفير ما أنتم في حاجة إليه، وأدّخار البعض من المال.
- الحمد لله.. وفرّ لنا كل شيء.. النعم موجودة.
- لتحرّك بأصبعها الحبات البيضاء المسترخية على عنقها الأملس.. رسالة بريقًا أخاذًا.. لتباغت هي الجارة:
- زوجي بدوره إذا ساعدته الظروف سيقوم بزيارة خاطفة إلى فرنسا للقاء أصدقائه كعادته كل سنة.. وعدنا بجلب هدايا.. تُرضي الكبير والصغير.
- معنى ذلك أن بعضها سيكون من نصيبك.
- هل في هذا شكٌّ يا صديقتي.. نعم وعدني وسيفي بوّعه.



- قال الزوج وهو يتحرّك من مكانه فانقطع حبل تفكيرها :
- أشعر بشيء من التعب.. أريد أن أرتاح قليلًا.. إذا أردت البيت فارغٌ افتحي الحقيبة الثانية الحمراء، واطلعي على ما احتوته.. ستجدين مفاجآت كثيرة تسرّكِ.. وترفع رأسكِ عاليًا أمام جاراتكِ.. مفاجآت تحالف ما عندهنّ نكايه بهنّ..

انبسطت أسارير وجهها أكثر.. احتارت بين أن تترك فتح الحقيبة إلى ما بعد نوم الجميع، أم تفتحها في تلك الآونة.. لو يدخل عليها أحدهم سيعرف ما بالحقيبة .. سيقطع عليها المتعة.. لتقم بذلك الآن.. لا .. لا.. ليكون ذلك بعد نوم الجميع.

* * * * *

بعد عودته من فرنسا ييوميّن سلّم له مدير المقابلة استدعاء من فرقة الدرك الوطني .. يتضمّن المثول أمام قائد الفرقة في مدى الأربع والعشرين ساعة القادمة.. من لحظتها والصور المتوقعة المزعجة تدكّ رأسه.. ما استقرّ له المكوث لا في العمل، ولا في المنزل.. تنفّس الخبر بين العمّال.. انتشرت الإشاعات الاحتمالية كانتشار النار في الهشيم.

ما كان يخطر بباله أن يُستدعى يوماً في حياته إلى مخفر الشرطة، أو إلى مقرّ الدرك الوطني، أو يقف أمام محكمة..

لَمَّا دخل مكتب مدير المقابلة وأخبره بعزمه على الذهاب إلى مصدر الاستدعاء.. بتأثّر مفتعل قال له المدير:

— لا تقلق.. أعتقد أنه مجرد استيضاح حول وضعيتك تجاه الخدمة الوطنية.

تنهّد بعمق، وكأنه يزيح عن صدره حملاً ثقيلاً.

— أعتقد ذلك السيد المدير.. لَمَّا أعود سأخبرك بكل شيء.

ما أن انصرف، وأغلق الباب وراءه .. حتى تتمم المدير:

— ليست القضية كما تعتقد يا سي الهادي .. هي أخطر ممّا تعتقد.

خرج الهادي من مكتب المدير سالكا اتجاهها غير محدّد.. يريد أن يخفّف عن نفسه من الكابوس.. من الأفكار المزعجة.. من النداءات الداخلية التي أخذت ترتفع أكثر.. لاحقه.. تدقّ أذنيه.. من نظرات العمّال التي ترشقه كسهام حادة مسمومة.

في مكتب قائد فرقة الدرك الوطني كان يجلس قبالة قائدها الذي كان يمسك بصحيفة الشعب اليومية.. لاحت منه التفاتة إلى الصفحة المقابلة له.. داهمته عناوين كثيرة.. ثارت انتباهه:

— المخطّط الخماسي أقرّ مشاريع جديدة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية.
— قطاع البناء حظي بعناية خاصّة في كل الولايات.
— محاربة التبذير، والإهدار في موادّ البناء لتفادي النقائص الملحوظة في العديد من المشاريع.. الضرب بيد من حديد دون رحمة لكل متلاعبٍ بهذا القطاع الحساس.
جفّ ريقه.. شعر بمرارة في فمه.. وفي عمودٍ آخر من نفس الصفحة .. قرأ العناوين التالية:

— عقوبات صارمة ضدّ كل متلاعب بالمال العام في الداخل والخارج.
— الصرامة والردع لحماية الاقتصاد الوطني.
عيونٌ خفيّة تراقب حركات عينيه على صفحتي الجريدة.. ثم أزاح بصره بتبرّم.. اقترب منه أحد الأعوان، وربّت على كتفه بهدوء.. موجّهاً دقّة الحديث إلى قائد الفرقة عمداً:

— يا قائد.. أطلنا عليه البقاء في هذا المكان الذي تأكّيدا لا يجبّد القدوم إليه.. قد اقتطعنا جزءاً من وقته الثمين.. إنك تقرأ في قرارات حكومية هامة لحماية الاقتصاد،

وتنشيط حركية التنمية، وحماية موادّ البناء من الاختلاس والسmsرة.. لكن ماذا يهّمه من هذا كله.. أليس كذلك يا سيّ الهادي؟

ارتجّ جسمه.. ارتعدت مفاصله.. تزايد نبضه.. وضع القائد الصحيفة على طرف المكتب.. أشعل سيجارة استلّها من علبة الهقّار.. مدّها إليه:

— أريد منك سيّ الهادي أن تشاركني الدردشة.. وأن نتكلم بهدوء كإخوة.. بصراحة، وبصدق.. أتعذّني بذلك؟

— صراحتي تعرفونها..

— ما وظيفتك بالضبط في المقابلة؟

— مسؤول موادّ البناء..

— حدّد بالضبط..

— مسؤول جلب موادّ البناء بجميع أنواعها بما في ذلك مادة الحديد من الشركات.. من الخواصّ.. كما من الموائى..

— ثم ماذا؟

— أنا مسؤول أيضا على إيصالها إلى مواقع إنجاز المشاريع، والسهر على استعمالها إلى حين إتمام المشاريع المبرمجة.

— هل توفّر لكل مشروع منذ البداية الكميات الكافية وفق الدراسة والمخطط إلى نهاية الإنجاز؟

— بالتأكيد..

— لكن المشاريع ما تسلم في التاريخ المحدّد للإنجاز.. لأنه لم يكتمل لنقص في موادّ البناء.. ما الأسباب سيّ الهادي؟

— أسباب كثيرة منها ما يعود إلى تهاون العمال.. إلى عدم جدية وحرص البنائين، وشعورهم بالمسؤولية في الاستعمال الأمثل للواد خاصة مادة الإسمنت.. كما للعوامل الطبيعية نصيبٌ في إفساد كميات كبير منها.

أضاف قائد الفرقة:

— وهناك أيضا أسباب أخرى خفية.

— أعتقد السيد القائد أن لا أسباب أخرى غير الذي ذكرتها..

حتى تلك اللحظة والحديث الدائر بين الهادي وقائد الفرقة كأنه بين صديقين حميمين .. دخل أحد الأعوان، وأومأ إلى أن لديه أمراً مهماً .. فهم القائد قصده.. سمح له بالكلام:

— سيدي القائد بعد اقتحام المخازن التي علمنا بتخزين الإسمنت بها من طرف سي الهادي، واطلعنا على ما فيها، وإحصائنا الدقيق لها.. الحصيلة كالتالي:

— سبعمائة كيس من الإسمنت.. عشرين طنّاً من الحديد.. أعداد كبيرة من أحواض الحمامات، والمراحيض، والمطابخ.. الكثير من مادة اللوح الخشبي الجديد.. والكثير من أعمدة الدعم الحديدية.

القائد وكأنه يوجه خطابه إلى العون:

— القائمة التي تحت يدي طويلة .. تضمّ عشرات الأسماء التي اشترت من صديقنا الهادي مواد بناء مختلفة كثيرة وبأثمان مضاعفة .

انتفض الهادي واقفاً.. صارخاً:

— إنه اتهام باطلٌ .. لا صحة، ولا أدلة مادية تدينني.. أنا إنسان معروف بنزاهتي، ويشهد الجميع على هذا.. وشهادة مدير المقالة كافية لبراءتي.

فتح القائد ملفاً كان أمامه.. أخرج منه وثيقة قدّمها إلى الهادي.. انكبّ على قراءتها وهو يرتعش:

— السيد قائد فرقة الدرك الوطني المحترم.. نرجو منكم فتح تحقيق معمّق حول تسرّب موادّ البناء من مخازن المقاوله، ومن مواقع مشاريعها.. تسرّب متواصل منذ أشهر.. ومساعدة لكم تخوم شكوكننا حول مسؤول موادّ البناء بالمقاوله.. السيد الهادي.. الإمضاء : مدير المقاوله.

عزم الهادي على مغادرة مكتب قائد الفرقة، وهو يهدر غاضباً:

— اتهام باطلٌ .. المدير هو المختلس.. الأخرى أن تلقوا القبض عليه، ويخضع للتحقيق.

— اهدأ من فضلك.. اجلس.. نحن لم نوجّه إليك أيّ اتهام حتى هذه اللحظة.

أخرج القائد ملفاً آخر يحتوي على عدّة وثائق.. تعلوها وثيقة بيضاء مرقونة، ومؤشّر عليها بجثم رئيس المجلس الشعبي البلدي.. قرأها القائد بهدوء:

— السيد قائد فرقة الدرك الوطني .. نرجو منكم فتح تحقيق معمّق مع السيد الهادي مسؤول موادّ البناء بالمقاوله البلدية.. إذ وصلتنا شكاوي كثيرة من مواطنين عاملين بالمهجر.. أغرهم بعزمه على بناء منازل لهم مقابل تسليمه الأموال بفرنسا بالعملة الصعبة، لكن لما عادوا ما وجدوا أيّ منازل، وأنكر على أغلبهم تسلّم أموال منهم هناك، أو حتى التقى بهم.

نطق العون الجالس بجانب الهادي:

— والآن ما رأيك سي الهادي في هذه التهم الصريحة المثبتة بوثائق رسمية.

— حتى اللحظة أؤكد لكم أنها تُهمُّ باطلة.. هي مكيدة مِّن يكرهوني، ويغارون من نجاحي في وظيفتي، ونزاهتي التي يشهد بها الجميع.
— بل هي صحيحة.. التحقيق يتواصل، ويتعمَّق .. ستنال الجزاء الذي تُوجبه العدالة وفق القانون الذي يحمي حقوق الشعب..

* * * * *

خلال الجلسة الأولى .. استمرَّ القاضي يستوضح.. يفسّر .. يشرح الحِثيات..
ثم وكيل الجمهورية زجر، وتوعَّد.. محامي الدفاع يعلِّل ويبرّر.. المتهم حرَّفُ نفْيٍ ورفضٍ للتهم.
في الجلسة الثانية ارتفع صَوْتُ :
— بعد الاطلاع على القضية رقم 65 والمتهم فيها السيد الهادي، وبعد.. وبعد.. وحيث أن..

في تلك الآونة قلبه عصفور يخفق في لحظة احتضار.. ساقاه عجزتا عن حمل كتلة من الشحم واللحم.. في تلك اللحظات لا يهَمُّه من الحِثيات، والعَدَيَات غير النطق بالجملة الأخيرة التي تتوجَّها.. الجملة التي ما انتظرت زوجته سماعها، لترفع صوتهما في رواق المحكمة:

— إنه بريء .. يداه نقيتان .. شريفتان .. سأختار له أمهر محامٍ في المرَّة القادمة.. سنطعن في هذا الحكم القاسي أثله الاستئناف.. سأرهن كل ما لديّ من مصوغات..

* * * * *

ترأت له ضآلته .. شعر بغربته .. مساءها تطلّع إليه جاره في العنبر بالسجن

المركزي:

— إنه المكان الوحيد الذي يألفه الجميع مكرهين.. لا تحزنُ .. إن الأيام كفيلة بإزالة الحزن.. ستألف المكان..

— كيف تريدني أنْ أَلْفَ المكان.. والأيام به طويلة ومُوحشة.. إنها عشرة أعوام كاملة..

— لو أُلجِمْتَ طمعك لوفّرت لنفسك، ولعائلتك هذه الأعوام الثمينة.

ليلة في فندق عاصميؑ

أفتت من نومك والنور يُبهر عَيْنِكَ .. نظرتَ فرأيتَ نورَ الغرفة مُضئاً، ولا أحدَ في الغرفة غيرك.. نهضتَ بصعوبة .. كانت عقارب الساعة تشير إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. اختلط عليك الأمر لحظتها.. تراءى لك أن نور الغرفة قويٌّ، وما اعتادت عينك على مثله، وما دريتَ سببَ إيقاظك.. أهذا الضوء الباهت الذي تراءى لك قوياً.. متدفّقاً من مصباح يتوسّط سَقْفَ الغرفة الواطئِ؟ أم أنك نلتَ من النوم الهادئ ما أزال عنك إرهاق الرحلة الطويلة صوبَ العاصمة؟ لكن يبدو أن الاحتمالين بعيدان.. إذ لمّا عاد إليك هدوءك وسيطرت على نفسك، ووعيك بالمكان، والزمان.. تذكّرتَ أنك في فندقٍ عاصميٍّ من فنادق وسط العاصمة البيضاء.

وصلتَ مساءً ذلك اليوم الصيفي عقب سفرٍ مُضنٍّ في حافلة هرمة من حافلات النقل العام.. ابتدأتَ الرحلة منذ الفجر.. سبقها انتظار طويل مسبوق بوقوف مزعج ضمن طابور طويل للحصول على تذكرة.. امتدّت الرحلة الطويلة حتى الساعة السادسة مساءً.. ما شعرتَ خلالها بجوعٍ، ولا أحسستَ بعطشٍ.. فالإرهاق أنساك هذا وذاك..

بتكرار زيارتك إلى هذه المدينة العريقة المتكررة صرتَ وكأنك واحد من ساكنيها.. عليم بأسرارها.. خبيرٌ بنجباياها.. لا يحكم أنك من أهل السياسة، وذوي الحلّ والربط بالبلاد، أو أنك من أهل الفكر فقط، وإنما باعتبارك أقيمتَ بها طالبا

مدة خمس سنوات فيما مضى، ومقتضيات عملك الحالية تستدعي التنقل إليها دورياً،
واتصالك بشبكة الأصدقاء الذين نبحث في اكتسابهم، والحفاظ عليهم.
لماً حطّطت الرحال بالمدينة مساءها.. تذكرت كل أصدقائك، وبالكاد أنك
تعرف مقرّات إقاماتهم، وتحمل أرقام هواتفهم.. كان بإمكانك أن تهتف إلى أيّ
واحد منهم كي يأتيك، وأنت تفاجئه بمكالمته.. آثرت اختياراً آخر.. لماذا لا تشارك
الناس العاديين حياتهم.. معاناتهم اليومية ؟ لماذا لا تندمج في حيوات أولئك
الطيبين الذين رافقوك، ورافقتهم رحلة الحافلة؟ واستمعت إلى همومهم باهتمام
يتحدثون عنها بعفوية دون تكلفٍ ونفاق.. العفوية تنساب، وتعلن عن نفسها
بصدقٍ كلما امتدّت الرحلة، وابتعدت أكثر عن نقطة الانطلاق.. نزلت من عليائك
وجاريتهم أفكارهم، وهم يحللون ويتناقشون فيما يجري في البلدان الأخرى.. ألفت
نفسك قريباً منهم.. ما تعاطفت معهم فحسب؛ بل ألفت نفسك لا تختلف عنهم..
قارنت نفسك بهم.. وجدت شخصك أحاً لهذا، وابناً لذاك.. منهم من تعرفه جقّ
المعرفة، ومنهم من هو من مسقط رأسك.. ومنهم من لا تعرفه.. في الرحلة تلك
صاروا جميعاً أصدقاء حميمين لك.

قرّرت أن تترك الأصدقاء في حالهم مثلما اعتذرت لذلك الرجل الطيب الذي
كان بجوارك في الحافلة، وهو يعرض عليك بلحاح أن ترافقه صوب منزل صهره
الكائن بحي من أحياء العاصمة القريية.. قرّرت أن تعايش واقع الناس الطيبين
العاديين البسطاء.

.. وبدأت السير بحثاً عن غرفة في أحد الفنادق المزروعة بكثرة في شوارع
المدينة.. خاصة في الوسط.. قادتك رجلاك إلى أوّل فندق.. جذبت انتباهك إليه لافتة

جميلة مُضَاءة.. وأنت تدفع الباب الزجاجي السميك، قابلتك في اسفل السلم المؤدي إلى الطابق العلوي حيث توجد إدارة الفندق بطاقة جميلة.. برّاقة.. ذهبية الزخرفة مدوّنة عليها بحروف لاتينية منمّقة أيّما تنميق " كامل " ..إنها البداية.. الرحلة إلى العاصمة مرهقة، والطريق طويل.. وخز الإرهاق حينها يذكرك بالرحلة، وقول أحد الطيبين في الحافلة:

— بالنسبة إليك الأمر سهلٌ أن تمتطي الطائرة كالعادة.

.. وبطيّة محدثك قلت له بصدق، وبغفوية:

— وهو كذلك يا عم .

وكأنه غير مقتنع بتلك الإجابة، أو رأى فيها غموضاً.. أردف بطيبته :

— فإذا لماذا اخترت لنفسك هذا العذاب.. أتركه لأهله الذين تعودوا عليه.

وأجبت بصدق أيضاً:

— نفسي تشتاق يا عم إلى مشاركة الطيبين أمثالكم بعضاً من عذابهم.. إن كنت

ترى أنّ رحلتنا هذه نوعاً من العذاب.

... والإرهاق سكن العظام.. لا بدّ من مأوى يضمك هذه الليلة كيّفما كان

حال هذا المأوى .. ويستأنف القدمان الخطو من جديد، ويقودانك من بداية شارع

عبّان رمضان إلى ساحة الشهداء.. مروراً بشوارع رئيسية، وأخرى خلفية.. نفس

البطاقة " كامل " تقابلك بتحدٍّ فوق المكتب.. على الجدار المقابل.. أسفل السلم..

أعلاه.. على الباب .. المضمون واحد.. وكيفيات التحديّ متنوعة.. ما فرقت بين

التصنيف، وعدد النجوم كيّفما كان عددها، والبسيط الذي لا يحمل في الخارج غير

الواجهة البرّاقة، والاسم ذي الرمز الوطني.

وبعد لأيّ تُفاجأ وأنت غير مصدّق بعدم وجود تلك البطاقة اللعينة لا في الجهة العليا من الباب، ولا فوق المكتب المقابل للباب الرئيسي.. تُحيّي بصوت واهن مشوب بنبرة استعطاف، والقلب عصفور في القفص يخفق.. يأتيك ردّ التحية بارداً كالثلج.. بحكم الخبرة أدرك مُرادك .. تأكّد من وجودك بين يديه لقمة سائغة.. الإرهاق ساكنٌ في الأعماق.. حاولتَ أن ترسم ابتسامة على شفَتَيْك الجافَتَيْن تُلين بها الموقف.. سرعان ما تأكّدت بأنها البلاهة بعينها إذا ما تماديت في ذلك والسيد غير آبه بك طالما عيناه تلتهمان بغريزة وحشية تضاريس جسم امرأة جميلة تؤدي دورا رئيسيا في مسلسل مصري دون أن يلتفت إليك.. أزاح شفَتَيْه عن بعضهما، وكأنه يؤدي دوراً في مسلسل يومي حفظ أدائه لكثرة تكراره.. وتعوّد لسأله على ترديد عبارات آلية:

- يبدو يا سيدي أنك في حاجة إلى غرفة في فندقنا ؟
- وهو كذلك يا أخي.. وإلاّ ما الداعي إلى مجيئي هنا..
- في الواقع كل الغرف بفندقنا مشغولة باستثنائه واحدة.. عادة ما نتركها للأحباب الذين قد يأتون في آخر لحظة.
- اعتبرني من هؤلاء الأحباب .. نزلتُ ضيفاً عليكم هذه الليلة.
- أهلاً وسهلاً بك يا سيد .. لعلمكم أنها غرفة ذات سريرين أحدهما لشخصين، وثانيهما لشخص واحدٍ.
- .. الرحلة طويلة استغرقت يوماً صيفياً كاملاً.. وخزات الإرهاق تزداد موجاتها.. والجسم ينشد الراحة.. تخيلتَ النوم يحمّلك، ويطير بك إلى الفردوس الجميل، والمدينة في انتظارك يوم الغد.. يفتكّ منك صاحب الفندق الموافقة:

— ليكن..

— أترك لي بطاقة التعريف، ومعها خمسمائة دينار، ووقّع على هذه البطاقة البيضاء.

وأنت تنزع خطواتك انتزاعاً.. تسأله:

— في أيّ طابقٍ من فضلك ؟

ويحيبك وعينه النهمتان تمسحان تضاريس جسم الممثلة الحسناء في المسلسل:

— إنها الوحيدة في السطح.. قد تُفاجأ بعدم وجود المرحاض، فهو في الطابق الموالي أسفله.. لا تنزعج من عدم وجود الماء بالحنفية.. الزجاجة معبأة.

وأنت تأخذ المفتاح من اللوحة باغتنك لوحة جميلة كتبت بالحرف العربي "

بسم الله الرحمن الرحيم"، وغير بعيدٍ منها غُطّيت عدّة مساحات من جدران المكتب بأوراقٍ عادية نُمّقت بحروف لاتينية بُذلَ جُهدٌ كبيرٌ في إبراز جمالها.. تحمل عبارات: " بدون إحراج.. الدفع مسبقاً. "، " لسنا مسؤولين عما يضيع من متاع غير مصرّح به. "، " الرجل عدم الإحراج فيما يخص نقص الماء."

— يا سيد إنّ زجاجة واحدة من الماء لا تكفي للشرب في مثل هذا الجوّ الحار، وفي هذا الفصل بالذات.

— ليلة وتزول.. لا تنس أن الغرف كلها مشغولة من زبائن دائمين.. عليك بإخلاء الغرفة صباحاً.

أفقت من نومك، والنور فوق راسك يرسل أشعته العمودية.. تذكرت أنك لما دخلت الغرفة أوّل مرّة فوجئت بوضعيتها المزرية: جدران تأكلت بفعل الرطوبة التي نخرتها، وما بقي من لونها الأوّل غير رُقعٍ باهتة هنا وهناك.. الأسلاك الكهربائية الأصلية ما عادت تؤدي وظائفها فعوّضت بأخرى ظاهرة للعيان.. الباب

نالت منه عوامل الطبيعة والبلى أينما نيل، وأعراض الزمن أكلت من حواشيه، وحوّلت قامته الفارعة ذات زمنٍ إلى جسمٍ أعرج تركّز ثقله تجاه جهة واحدة.. السريران بالرغم من الطلاء الذي جُدّد بهما عدة مرّات، فالصدأ بارزٌ ما قدرت عمليات المكيّجة المتواصلة أن تستر أعراض الشيخوخة بهما.. والهيكَل الخشبي القابع قُرب الباب كتمثال في وسط شارع رئيسي كثيف حركة المرور.. التلوّث وعوامل الطبيعة بصماتهما واضحة عليه.. هيكَل خشبي من يدقّ النظر جيّدًا قد يتأكّد من أنه كان خزانة ذات يوم.. الأبواب منزوعة، والرفوف مُغيّبة.

أفقت من نومك والنور فوق رأسك يرسل أشعّته العمودية بوقاحة.. ألقيت جسدك ينزّ عرقًا، ونُدّر بظهور دمايل بجسمك المرهق.. برزت في أكثر من مكان، وأنت تسرع بفتح دفتي النافذة العجوز عن آخرهما.. لاحت منك التفاتة إلى اللحاف الأبيض الذي كنت تفتّرشه، فراعك ما شاهدتَ : بُقع حمراء هنا وهناك.. وتتبع طيّات اللحاف فتهرب من أمام عَيْنِكَ حشرات سوداء، وأخرى بُنية اللون.

لَمّا أدخلتَ المفتاح في ثقب القفل لأول مرّة كان الإرهاق يغزو جسمك، فما قمتُ آنذاك بمسحٍ شاملٍ للغرفة.. إذ سرعان ما وضعت حقيبتك ثم توجّهت صوب المسجد القريب من الفندق مؤديا صلواتك لذلك اليوم، وما نسيت أن تناولت طعام العشاء في أقرب مطعم.. وأنت عائِدُ التقيتَ بصاحب الفندق.. في حوار متبادل بينه وبين شخص بيده حقيبة يدلف الفندق.. التقطت أذناك بعض ما دار بينهما:

— كل الغرف مشغولة دائمًا لزيائن دائمين معنا.. فقط بقيت لنا غرفة واحدة عادة ما نتركها للأحباب الذين قد يأتون في آخر لحظة .

أفقتُ من نومك وعقرب الساعة يشير إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل..
عاد إليك وعيك بالمكان والزمان.. تذكّرتَ أنك في فندق من الفنادق التي لا تحمل
أية نجمة من فنادق العاصمة البيضاء .. عروس البحر الأبيض المتوسط الجميلة !!

عزفٌ على أوتارٍ مقطوعةٍ

— اللوحة الأولى —

فتح عَيْنِيهِ.. ضوءُ النهار يملأُ الحجرة.. امتدَّت يده في سرعةٍ إلى ساعته تحت الوسادة.. ما بقي غير نصف ساعة عن التحامِ العُقبَيْنِ أمامِ الرقمِ الثامن.. سيصل متأخراً بالتأكيد.. انتهى من ارتداءِ ملابسه خلال دقائق.

نظر إلى زوجته.. كانت تجلس غير بعيدٍ.. ما تفتأ ترمقه بنظراتٍ مأكرةٍ ينبعث منها التشفّي.. تذكّر بسرعةٍ مشادّتهما قبل النومِ الليلة البارحة.. ودّعها بنظرةٍ عتابٍ دون أن يكلمها، وهو يغادر المنزل.. عرف بأنها نهضت باكراً كعادتها.. أيقظت الأطفال الثلاثة.. اعتنّت بهم.. ثم رافقتهم حتى أمامِ المنزل في طريقهم إلى المدرسة.. أمّا اعتناؤهما به كان في نظراتها المأكرة، ورائحة التشفّي تُشتّم منها.

في ذهنه المضطرب لن يجد إجاباتٍ لأسئلتها المتلاحقة.. أسئلة تمطره بها كلّما حلّ بالمنزل عائداً من العملِ المُضني اليومي:

— كيف تحضر إلى المنزل وليس معك القهوة، والزيت، والحليب يا سيادة المهندس المعماري القدير؟

— لماذا لا تأخذ عطلة، وتنضمّ إلى الطوابير كسائر الناس لتتحصّل على نصيب مثلهم؟

— أين عواطفك الأبوية - إن كانت - وفلذات كبذك لا يتذوّقون قهوة الصباح؟
— يا إلهي.. ماذا سنأكل اليوم ومادتا الطبخ الأساسيتان: الزيت والطماطم لا اثر لهما في المطبخ؟

تذكر وهو يضرب الباب وراءه بشيء من العنف.. لا يدري مبعثه.. أأستيقاظه المتأخر؟ أم اضطراب الذهن بسبب المشادات المتكررة بينه وبين الزوجة؟ أم عدم تمتعه بنكهة قهوة الصباح؟ .. حُرْم منها مدة أسبوع كامل بلياليه وأيامه، وصباحاته في المنزل والعمل؟ أم كل هذه مجتمعة؟ .. ربّما تذكر وقتها سؤالاً طرحته عليه زوجته في آخر مشادة لهما خلال الليلة السابقة، ولأول مرة، وهي غير مقتنعة بضمونه.. إذ تفتنّ من طريقة الطرح:

— حقاً يا عزيزي.. أنا مدركة لكثرة مشاغلِكَ، ومن غير المعقول أن نبقى هكذا دون تموين.. هل تسمح لي بالنزول إلى السوق لاقتناء ما نحن في حاجة إليه؟
— فعلاً مشاغلي كثيرة.. ارتباطاتي عديدة بالمشاريع المختلفة التي تنبت كل يوم كالقُطر في هذا الوطن.. لكن لا تشغلي بالكِ بهموم صغيرة كهذه..
— كيف لا أشغل بالي برَبِّكَ؟ منزلنا نفد منه كل ما يلزم للطبخ.. أوشكنا التعود على الوجبات الباردة.

انتهت المشادة كالعادة ببكائها المصحوب بعبارات السخط، والحسرة على حظّها المنكود:

— لعنة الله على مَنْ أشار، ودبّر لربط مصيري بهذا الرجل المتخاذل.. نُوشك أنا وأبنائي أن نموت جوعاً ولا يحرك ساكناً.
خطواته المضطربة تبتعد عن المنزل الذي غرق في الصمت.. كان وجه الزوجة التي بقيت بمفردها يشي بظلّ ابتسامة فيها مزيجٌ من التلذذ والأسى معاً .

— اللوحة الثانية —

التقت عيناه غير بعيد من البيت ببائع الحليب ومشتقاته.. أدرك هذا لتوّه مغزى النظرة المركّزة من المهندس الشاب، وحرارة التحية لفوره.. قال:

— إنكم في البال يا ابني محمود.. لا تظن أنني نسيتكم - لا قدر الله - وحتى لو حصل فالصغار يمرّون أمامي عدّة مرّات في اليوم الواحد.. إنهم يذكّرونني.. إنما كما ترى اليد فارغة.

قبل أن يعطف إلى موقف السيارات أين تقبع سيارته الصغيرة.. خطر بباله أن يمرّ أمام دكان البقال، فواصل السير، ومن باب التمويه توجه إلى بائع الصحف المخاذي لذاك الدكان.. امتدّت يده إلى جريدة " الشعب " اليومية، أخذ نسخة .. نقد البائع الثمن، ومرّ أمام دكان البقال مباشرة.. استوقفه هذا الأخير الذي كان واقفاً بالداخل أمام المحسب.. بتحية صباحية حارّة ما عهدا منه قبلاً.. فاه :

— صدّقني يا ابني محمود كل سكّان الحي، وخاصة من هم في شارعنا هذا يكتّون لك جميعاً الاحترام والموتة، وبدون مجاملة، ولا نفاق وأنت أمامي تسمعي.. بل هي الحقيقة تفرض نفسها أن بلادنا يا ابني أنت وأمثالك من يرفع لها هامتها بالكفاءة، والمقدرة، والنزاهة.. وكذا التحكّم في المعارف والعلوم، والانتفاع بهما.

— أشكركم على هذا الإطراء.. في اعتقادي يا سيدي كل منّا مطالب بأن يتقن عمله، ويكون أميناً عليه .

لحظتها لما كان البقال مستغرقاً بحماسٍ في الفوه بعبارات اطراء، كانت عينا محمود في حركات كاميرامية تمسح ما بالداخل مسحاً.. أدرك البقال مغزى حركة عيني محمود.

– المنطق يا ابني يفرض نفسه، ويجب الاعتراف به.. إنَّ إتقان العمل، والإخلاص مرهون بقيام الجميع بالواجب.. ونتيجة هذا تتحقّق مطامح الجميع.. بما فيها الضروريات..!

عنَّ لمحمود أن يضيف:

– حتى الموادّ الأساسية..

كان البقال أسرع ليضيف :

– أخباراً سارّة تروج هذه الأيام.. يُقال : ستُغرق السوق الوطنية بالموادّ الضرورية الأساسية.. أدرك محمود ما يرمي إليه مكلمه من استعمال فعل - يقال - لحظتها قطع الأمل تماماً من الحصول على شيءٍ منه.. ومجازاة له قال محمود بلهجة تشي بالحسرة والألم:

– بالفعل وتصديقاً لقولك.. ها هي الجريدة تعلن بأنّ المشكل ليس من ندرة الموادّ، ولكن في سوء التوزيع، وحمّى التخزين والاحتكار.. أليس كذلك يا عمي ؟

استوقفه البقال مرّة أخرى بعد ما قطع عدّة خطوات في اتجاه العودة نحو موقف السيارات.. كانت دقّات الساعة الثامنة تُسمع من مئذنة المسجد الشامخ بكبريله وسط الحيّ :

— معذرة يا ولدي.. أخذتُ من وقتك الكثير هذا الصباح.. غير أنَّ اعتزازي بك يفوق كل شيء، وهو كفيلاً بأن يدفع بي إلى طلب شيء منك.. أنا متأكد بأنك لا تتخلّى عني .

اشتّم محمود بفراسته أنَّ الطلب المطروح بهذه المقدّمة قد يُخفي في طيّاته منفعة ذاتية لصاحبها قد تضرّ الغير.. شعر بتوتّر جديد ينتابه، واضطراب إضافي ينضمّ إلى ما يضطرم داخله من قبل.. بلهجة باردة خاطب محدّته :

— افصحْ عن مُرادك يا عم إبراهيم.. أنا لك سامعٌ.

— أنت في مكانة ولدي أمين.. لا أخشى إنْ أعلمتُك بأنني اشتريتُ منذ سنتين خفية قطعة أرض واقعة جنوب الثانوية التقنية بالحي الجديد - الشهداء -

— لكن يا عم إبراهيم ...

— لا تواصلْ يا ولدي .. أعرف ما ستقوله.. قد سمعتُ أن هناك مشروعا لتوسيع الثانوية قصدَ إنجاز مرافق إضافية بها.

— بالفعل .

— وأنت المسؤول المباشر على المشروع حسبما علمتُ.. أليس كذلك ؟

— بلى ..

— هنا مربط الفرس كما يقول المثل.. إن الخدمة التي أرغب منك تقديمها إليّ هي تحويل المشروع إلى الجهة الشمالية من الثانوية.. هناك مساحة أوسع من مساحة الجهة الجنوبية التي اشتريتها، وفي صالح الثانوية استغلال المساحة الشمالية.. عليك بمساعدتي يا ولدي بإقناع ذوي الأمر بهذا.

— مستحيل العدول عن المشروع يا عمي في الناحية الجنوبية.. المخططات أنجزت..
الميزانية رُصِدَت .. إنه مشروع مهمٌ جداً في فائدة مئات الطلبة.. مشروع يرفع حجم
الاستيعاب من سبعمائة طالب بالمؤسسة إلى ألف وثلاثمائة طالب.. تصوّر يا عمي
إبراهيم.. زيادة ستمائة طالب كل سنة معناه تلبية طموح ستمائة عائلة.

— لا تتصوّر بأني أجهل ذلك يا ولدي.. لكن أموالني دفعتها في تلك الأرض..
— لِمَنْ؟

— للذي باعني الأرض..

— ومنْ باعها إِيَّاكَ؟ ألا تعلم أنها من أملاك الدولة؟

— آسفٌ لا أعلن عنه.. لا يهمّ هذا .. اسع يا ولدي إلى مساعدتي وستجدني تحت
الطلب في أيّ مطلب.. ! بالمناسبة لك حصّتك من الموادّ الأساسية المفقودة هذه
الأيام.. إنّها مُعبّأة في كيسٍ.. سيحمله بعد قليل ولدي جمال إلى منزلك.

وجد محمود من صالحه مغادرة المكان، وتوديع مُحدّثه بعبارة مبتورة كانت
هي فصل الخطاب بين الإثنين:

— لا تفعلْ ذلك من فضلك.. المنزل عامرٌ بكلّ شيءٍ.

خطر له وهو يقطع الشارع الرئيسي بالمدينة أن ينضمّ إلى طابور الواقفين أمام
باب الأروقة المُغلق.. حُمي التناكب، والتزاحم تُرى من بعيد.. التراشق بالكلمات
السافلة تُسمع من بعيد.. زوجته مصيرها البائس ارتباطها بزوّج - في رأيها - حتى
لا يكون متخاذلاً، ينبغي عليه الانضمام إلى هذه الطوابير.. المتحرّكة في عدا..
المتنافرة في خصام.. ليذهب العمل إلى الجحيم في رأيها.. ولتتوقف المشاريع.

عقربا الساعة يتسارعان.. الساعة الثامنة مضت.. موعد بداية العمل قد ولى.. العمّال في مواطن الشغل عادة لا ينتظرون قدومه.. عودهم على الانضباط، وتقديس قيمة الوقت..

بالأمس جله قبلهم جميعاً.. كانت الساعة الثامنة وقد حضر منهم الثلثان.. انطلقت الأشغال في وقتها.. تجاهلوا في البداية أسئلته عن تغيب زملائهم.. ولما ألحوا نظروا إلى بعضهم نظرات خاطفة تشي بمعانٍ عدّة.

حلى له السير في شوارع المدينة.. كان يتعجّب من تناحر الواقفين في الطوابير.. قارن بين تخلّفه هو اليوم، وتخلّف العمّال بالأمس.. ربّما يغيب البعض الآخر غداً، ولعلّه اليوم أيضاً.. ردّد في داخله:

— من الأليق أن تُكوّن لجنة على مستوى البلدية تضع خططاً لأيام الشغل، وتسهر على تنفيذه مع هيئات توزيع الموادّ الاستهلاكية الأساسية.. تُحدّد بدقّة أيام التوزيع.. ولتكنّ أيامٌ للتوقّف عن العمل.

- اللوحة الثالثة -

عندما دخل مكتبه بمقرّ المديرية كانت الأحداث لا تزال تتزاحم في ذهنه.. ملفّات كثيرة فوق بعضها، كُتب على الملفّ الأوّل بخطّ واضحٍ وبحبرٍ أحمر: مشروع مستعجل.. وضعه جانباً.. فتح الملفّ الثاني صفحته العبارة التالية: أجلّ المشروع مؤقتاً.. الغطاء المالي غير كافٍ بسبب التأجيل المستمرّ للإنجاز.. سحب غلافاً أصفر، قرأ على الورقة الأولى المؤشّرة من الرقابة المالية: المطلوب التحقيق في المشروع، والتقدير الدقيق للغطاء المالي.. قلب الورقة الثانية هاله المبلغ المخصّص لتعبيد

ممرٌ قصيرٌ يربط المؤسسة (ن) بالشارع الرئيسي، مع تبليط رصيف جانبي، وإنارته..

دون أن يشعر صاح:

— كلاب.. كل هذا المبلغ من أجل تعبيد ممرٍ قصير، وتبليط جانبه، وإنارته.

تناهى صياحه إلى بعض زملائه في مكاتبهم المجاورة.. سرعان ما هبوا إليه:

— ماذا جرى يا محمود؟

— مالك تصي هكذا؟

— هل حصل مكروهٌ لا قدّر الله؟

ألقى بالورقة أمامهم، وصاح مرةً أخرى:

— تمنّوا في هذه الأرقام الخيالية.. هل تصدقون هذا؟.. مشروع صغير تُطلب له هذه

الميزانية؟

— نصدّق ماذا يا رجل؟

— تصدقون هذه الأرقام الخيالية، والموافق عليها من عدة هيئات لإنجاز مشروع صغير

كهذا؟

الأرقام تتراقص بشيطنة أمام عينيّه.. تتحدّاه في وقاحة.. نظر إليه زملاؤه في

دهشة واستغراب.. ما اهتمّوا بالأمر وكأنما كانت عيونهم تسأله:

— ما هذا الذي تقوله يا محمود؟

— هل أصابك شيء في عقلك يا رجل؟ ماذا تريد أن تقول بالضبط؟

أحسّ بنظرات زملائه كسياط ناريٍّ ينهال على رأسه، فصاح:

— ماذا فعلتُ حتى تنظروا إليّ هكذا؟ لقد اكتشفتُ في هذا الملفّ جريمة اقتصادية..

أخلاقية في حقّ الاقتصاد والبلد أيها الرفاق.

أزاحوا الورقة بعيدا لتستقرّ أمام عينيه من جديد.. الأرقام تتراقص بشيطنة ..
تتحداه.. ثبتوا أنظارهم عليه.. قال وهو يقاوم في نظراتهم من تأنيب:
— ألا تصدقون ؟

بيطنه البارز المترهل دلف المكان رئيسُ المصلحة.. يعصّ بأسنانه الذهبية
السيجار البنيّ الغليظ، دفع الواقفين بعيدا.. ثبت نظره في محمود وقال:
— أنا معجبٌ بحماسك يا محمود.. أنت تذكرني بسنواتي الأولى في هذه المهنة
المضنية، كنتُ مثلك أو أكثر حماساً، واندفاعاً.. كنتُ أدقّق في كل شيء.. لا أقتنع إلاّ
عندما أتحقّق بنفسي.. إن الحياة تصبح جحيماً إذا ما أضحى الإنسان يشكّ في كل
شيء.. من الأنانية البغيضة أن يعتقد المرء أن الغير غير أمنه.. لا .. لا يا ابني أصول
التعامل بين الناس هي نزع الشكّ.. المصالح العامة تقتضي حُسن العلاقة بين
المتعاملين.. عليك أن تتعلّم أصول العمل.. هي الحياة هكذا .. علينا أن نتعلّم قواعد
اللعبة.

— يا سيدي ما كان قصدي نزع الثقة، ولكن...!
— تقصد.. أو لا تقصد.. قواعد اللعبة هكذا.. لا تعطلّ من فضلك انطلاق
المشاريع.. البلاد ورشة عمل.

...رأى محمود الأشياء في المكتب كما لو كانت أشباحاً تسبح في الظلام.. بدت
له وجوه زملاء وسط خيوط الدخان المتلولة التي ينفث حممها رئيس المصلحة في
عصبية ظاهرة شاحبة كوجوه موتى عيونهم مفتوحة.

- اللوحة الرابعة -

المرارة تغزو فمه: الطريق مُتْرَبٌ، ومنتوءات الصخور الصلدة تطلُّ برؤوسها في تحدٍّ هنا وهناك.. القلب كما لو أنه طَيْرٌ صغير ضعيف يلفظ أنفاسه ليرتطم فتتلقفه الأرض مغشياً عليه.. لَمَّا أفاق كان كل شيء ضبابياً أمامه.. ولَمَّا بدأت الأشياء تتضح، وتعود إلى طبيعتها، وملامح الوجوه تظهر واضحة.. كان يقف حدو رسه كشيطان مردي.. حذاؤه اللماع يبعث رائحة تُزخم الأنف، وتُحدث اختناقاً.. لَمَّا همَّ بالجلوس كانت القدم الضخمة تدوس بوحشية على القفص الصدري الغض:

— لِمَ انقطعتَ عن الحجيء إلى مزرعتي أنت ووالدتك يا ابن الكلب؟

— كُنَّا نأتي لمساعدة أبي المريض الذي كان يعمل عندك أجيراً.. بعد وفاته انقطعنا.. أنا صغيرٌ كما ترى، ووالدتي لازمت البيت تقضي العدة.

— لا رحم الله أباك.. لتذهب أنت وأمك إلى الجحيم.

حدث ذلك منذ عشرين سنة.. يتكرر المشهد اليوم.. ثقلُ الجثة الضخمة يتكرر اليوم.. وجوه الزملاء الشاحبة تنبعد كأشباحٍ يطاردها الموت، ويغيب بها في عالم غير مرئي.. صاحب الحذاء اللامع يسحق تحت قدمه الضخمة ما تبقى من السيجار البُنِّي.. مُحَرَّكاً مقدمة الحذاء يمينه ويسرة في عصبية.. بابتسامة لها عدة دلالات.. أذنا محمود تلتفتتا بتقرُّز تفاهات الشيطان:

— البلاد ورشة شاملة.. علينا تسهيل الإجراءات لإنجاز المشاريع لفائدة المواطن.. التعطيل بيروقراطية يا ولدي.. عليك أن تفهم هذا جيِّداً.

أعاد محمود الملفّات إلى حيث كانت.. بقايا الدخان الهمجيّ تغزو فضله المكتب.. أحسّ بالاختناق يضغط عليه أكثر.. ما تحرّك.. لازم مكانه.. قفزت في ذهنه عبارة:

— علينا تسهيل الإجراءات.. التعطيل بيروقراطية.
اشربْ عنقه نحو النافذة المغلقة.. امتدّت يده لتفتحها.. تدفّقت نسماتٌ نقية منعشة .. كانت السماء صافية زرقاء.. المدينة عروسٌ تُلقِي بمفاتنها ليلة الزفاف.. تحتضنها بجنان الأرض الخضراء المترامية.. أصوات الأطفال مزققة كعصافير تدغدغها إشراقة الصباح.. تذكّر ابنائه الثلاثة: ليلي، نبيل، سمير.. بيد قوّة ضرب المكتب وصاح:

— بئس ما يفعلون، لا.. لا.. والله لن يتحقّق ما ييغون.
فتح الجريدة التي كانت مطوية أمامه قرأ:
— ستنتعش السوق الداخلية بفضل الإجراءات الجديدة.
— العقلنة في التسير، والتحكّم في الإمكانيات المتوفّرة هو مطمح الجميع.
— حادث مرور أليم يؤدي بحياة ستّة من عناصر فريق رياضي.
— محكمة الجرائم الاقتصادية تُصدر عدّة أحكام في حقّ مسؤولين خانوا الثقة.
— مجلس المحاسبة يُعلن عن عمليات فساد كبيرة في عدة مؤسسات عامة.
اكتفى محمود بما قرأ من عناوين.. كما أنه في تلك اللحظات أحسّ بثقل الهموم يخفّ.. ما غادر مكتبه، وكأنّ ما يجري في هذه المصلحة لا يهمّه من قريب، ولا من بعيد.. سرعان ما انفتح الباب.. أطلّ البوّاب الكهل الذي يشعر نحوه بعاطفة حميمية خاصّة أشبه ما تكون بين الابن وأبيه.. كلّما التقى به، أو رآه سرى الألم في

داخله.. إنه يتصور هذا الرجل الطيب تحترق جسده رصاصات خمس من رشاش أحد الحركة باع نفسه للشيطان:

— محمود يا ولدي .. إنهم يتقاسمون بعض المواد الاستهلاكية الأساسية.. اسرع لتتال نصيبك.

— البركة فيك يا عم اسرع أنت .. لا تفرط في نصيبك.. لتكن حصتي لك أيضاً.
— وأنت ؟

— البيت عامر يا عمي .. الحمد لله.

— والله أنت من معدن طيب يا ولدي.. كثر الله من أمثالك في هذا البلد..
— لي الله ..

قالها محمود والبواب يغادر المكان جذلان..

- اللوحة الخامسة -

عاد محمود مساء متأخراً.. أدار المفتاح بهدوء.. دلف إلى الداخل، وتعمد عدم إشعال النور، بينما نفسه كانت مضطربة، وعينه مفتوحتان عن آخرهما في الظلام الداكن.. لولا خيوط رفيعة من أنوار الشارع متسللة باحتشام إلى الداخل.. مخترقة سطح الزجاج الذي يعلو الباب الخارجي.. فانعكست على جدار الممر، مما يسمح على قطعه، والوصول إلى حجرة الأطفال الحاذية لحجرة نومه التي كان بابها مفتوحاً.. بخطى مضطربة دلف إلى الداخل، وهو يدنو من الفراش ليندس فيه.. سبقته إلى إنارة الغرفة، وارتمت بين ذراعيه.. طوقته بلهفة، وشوق وكأنها ما هي التي أعدت له منذ البارحة يومه هذا المليء بالمفاجآت.. راحت أناملها تتحسس مساحة وجهه:

- لماذا تأخرتَ يا عزيزي .. تركتنا تتلظى نارًا.
- لا شيء يا عزيزتي.. أنتِ تعرفين مشاكل العمل، وتراكم المشاريع هذه الأيام..
- عملٌ.. مشاريع، دائمًا مشاريع.. نعمة مللتُ سماعها.. ألا تتذكّر بأن لك زوجة وأبناء؟
- أين الأولاد؟
- الأولاد، هه .. هه .. لو كنت تحبهم حقًا لما تركتهم يسقطون عيله بحثًا عنك.
- كيف تركينهم يفعلون ذلك ؟
- فيما بعد أشرح لك كل شيء.. تعال معي إلى المطبخ.. قد أعددتُ لك عشاء لذيذًا من النوع الذي تهواه.
- في المطبخ جذب نظره صندوق مليء بالمواد الاستهلاكية المفقودة.. شلّته المفاجأة .. تقدّم إلى الداخل أكثر.. كانت الكميات وافرة.. يبدو أن الزوجة المحترمة استعملت منها ما يكفي لإعداد الوجبة التي دعتّه إليها.. أدرك سرّ احتفائها به بكيفية قلّما تصدر منها.. بدورها فهمت ما دار في ذهنه.. طوّقته من جديد بساعديها البضيين .. وبإغراء قلّما تجود به عليه.. لتقرّب وجهها ذا الخدين الورديين.. بدلال همست:
- هو عشاء فاخر أعددتُه.. إنك سيّد الرجال.. يبدو أنك نجحتَ في إقناع ذلك البقال الخبيث.. وضعتّه في الفخّ.. ها أنك ترى ما بعته إلينا مع ولده.
- دفعها بعيدا عنه بقوة.. ارتطمت بالجدار.. صارخًا والشرر يتطاير من عينيه:

— قد فعلها الخبيث.. لعنة الله عليه، وعلى أمثاله.. لن أستسلم.. لن أدعهم يحققون
أطماعهم.. كلابٌ شرسةٌ قابضةٌ في كلِّ مكانٍ.. فيما انخرطت هي في بكاء صامتٍ
كعادتها.

بشير خلف.

أحد الذين بنوا بصوت وبنوا صرح الأدب الجزائري

الحديث.

اشتهر في قمار بولاية الوادي، يلحق الأجيال الصاعدة العالم

ويشرب المكتبة الوطنية.

انضم إلى الجهادية عند تأسيسها، وواصل معها ما دنا وأربيا،

وعندما سررتنا، على أجواءنا بتسامته المداينة، ويتناقله.

هذه السمعة لدى المحبوسين اللتين، رخصتها الجهادية، لهذا

الموسم الأول من عام 99.

لما لخصته أحدى من بشير، ومن الجهادية، تأمل في قدرها

الشاهو طر

الغلاف من تصميم علاوة ورائسه

بشير خلف



الدفع المفقود

قصص

بشير خلف

الدَّفءُ المفقودُ

مجموعة قصصية

منشورات التبيين / الجاحظية

سلسلة الابداع الأدبي

الجزائر/ 1999

الرسام

النسمة الباردة التي هبت من الشمال جعلته ينتفض.. شعر بالسمة تدنو منه رويدا رويدا، حتى الأفق أحبّ شيء لديه.. لا تخلو لوحاته منه.. بحث عنه وراء السحب القائمة الزاحفة.. حدّق باحثا عن أيّ شيءٍ.. عن الأفق يرسمه خلفية للوحة الصملاء.. القابعة أمامه لم تتحدد ملامحها في ذهنه بعد منذ الأمس .

اللوحات الجدارية الست التي وضعتها الشاحنة منذ أكثر من أربعة أشهر، لا تزال قابعة في مكانها تحت رحمة عوامل الطبيعة.. عاتبه رئيس البلدية في مكالمته الهاتفية العاشرة بالأمس :

- الثورة حركة مستمرة .. حركة متجددة لا تتوقف عند نقطة معينة .. التوقف معناه الموت...

- نعم الموت .. قالها بحماس.. وامتدت يده الى اللوحة البيضاء الباردة الموحشة كليالي الشتاء الثلجية.. أطل التأمل فيها.. دبت أمامه عبر مساحتها حركية الحياة بكل عنفوانها تتم :

- يا الهى.. ما أصعب عملية المخاض لفصل الربيع.. إنه الفصل الوحيد الذي لا يكتفي بالمقاومة؛ بل يستمر في الهجوم مستعملا كل طاقاته لدحر الخمول والموت..

اللوحة أمامه بيضاء ثلجية يسكنها الموت.. خاض سابقا عدة تجارب في رسم لوحات كهذه لعدة بلديات.. ولوحات إشهار لمؤسسات عديدة.. مضت السنون والشهور

والندم يحز في نفسه .. قال له أحد أصدقائه ذات يوم :

— ألا تشعر بالسعادة والرضا عن نفسك.. وأنت تشاهد لوحاتك الجدارية عبر الشوارع الرئيسية بالمدينة تُبهر المارين بمضامينها الثرية.. وطريقة إنجازها الفذة.. الكل يجد فيها ما يرضيه :

— لستُ راضيا يا صديقي.. ولسوف يلاقني الندم بشأنها ما بقيت لي حياة على الارض.

— حتى تلك اللوحة الرائعة الشاملة لمسيرة البلاد.. المتربعة وسط ساحة المدينة الرئيسية ...

— بلى يا صديقي.. لوحاتي تلك تعبر عما أنجزه الانسان في زمن معين، ونتيجة حركية معينة.. والحركة ظاهرة لا تتوقف.. في لوحاتي تلك أردتُ أن أجعل الحركية مستمرة لا تتوقف.. أردت عملقة الانسان، وجعل الجدلية واضحة بينه وبين ما ينجزه.. أتدري ما قال لي أحدهم يوم أن جئته طالبا منه مساعدتي في إقامة معرض بالجهة . بعد أن أشغل غليونه بالتبغ الهولندي .. وحرك مقعده الوثير الدوار ..ماسحاً محتويات المكتبة المحتوية على المجلدات الذهبية والتحف الطريفة :

— الرسم يا بنى في رأيي لدى أمة لا تزال تبحث عن خبز ينبغي ألا يتعدى هذه الظاهرة.. إننا مضطرون إلى مخاطبة الجمهور على قدر تفكيره واهتماماته اليومية .. فاللجوء إلى التبسيط يطمس الفوارق بين الطبقات المختلفة خاصة في ميدان الرسم ذي اللغة المفهومة من الجميع.. وإلاّ وجد الرسام نفسه في عزلة.. ويوم ان تصل الجماهير الى مستوى لائق من الثقافة والتوعية.. حينئذ يُمارس معها الرسم وفق أساليبه المختلفة المعروفة .

أحسستُ وكأنه يستبلهني .. قلتُ:

— الثقافة مُمارسة يومية ..حركة مستمرة غايتها التغيير ..ولا بد من الإيمان بضرورة التغيير، والتحول وعدم الجمود .. فكلما تغيرت الظروف من حولنا وجب ان نغير من أنفسنا لنلائم الوضع الجديد الذى يحدثه الانسان يوميا بفعل الحركة المستمرة ..الثقافة بشتى جوانبها تعبر عن الحركية ..بالمناسبة أريد معرفة ما تساهمون به في هذا الميدان .

— خلال عدة اجتماعات ناقشنا قضية تنشيط الثقافة من جميع جوانبها في هذه الجهة .. ومِمَّا عزمنا عليه تكوين جمعية الرسم التي كانت محظوظة، حيث حدّدنا لها اختصاصاتها، بل حتى المواضيع التي سينجزها الاعضاء .

— ما دمتم خصصتم لها عناوين المواضيع ، بالطبع حتى الميزانية رصدتم لها..
— ما اتفقنا بعد في شأنها ..

— في رأيكم أن الفنان يمكن في إبداعه أن يخضع لتعبير فوقي ، يحدّد له اختصاصاته، وحتى مواضيع إبداعه كسائر العاملين في أية ورشة .
— الثورة حركة افقية وعمودية ..

وأضفتُ :

— ومستمرة أيضا ..بالمناسبة ألم تعملوا على إنشاء جمعية أو بالأحرى - ورشة - غايتها نشر المكتبات، وإفادة الأهالي بالكتب التي ترفع من ثقافة الجمهور ..واستثمار مئات المجلدات ذات العناوين الذهبية المزينة لمكاتب الكثيرين من الم...أعني مكاتب المؤسسات العامة..

— هي في طريق التكوين.. قبل أن تُنهي حوارنا هذا أشير عليك كفنان أحلامه الوردية لا حدود لها... ما رأيك أن تساعدنا في حملة تزيين المدينة، وقاعات

الاجتماعات والمكاتب بالمؤسسات، برسم لوحات تُبرز معالم الطبيعة الساحرة في هذه الناحية تدعيماً للسياحة.. بلا شك أنك تشاهد يومياً العشرات من السياح الأجانب يؤمّون الجهة .

— يوم أن يحلّ اليوم الذى أرى فيه محتويات هذه المكتبة، وغيرها في قاعة يؤمّها الكل من جميع الاعمار ، ينهلون من معينها يمكن ان أساهم في الحركة الثقافية .

هبت نسمة باردة مُشبعة بالملء.. اقشعرّ لها بدنه.. الدقائق مرّت سريعاً. تمكن آنذاك من تحديد أفق اللوحة الذى كان يعلوه قرص الشمس يبعث الدفء والحرارة والطبيعة.. فوق رأسه سحابة قائمة متحركة.. متشكلة باستمرار تصارع وتصارع.. الرياح تزداد عنفاً.. مزج الألوان.. كان أول رسم وضعه على اللوحة الصماء إنساناً تنير الشمس وجهه.. يبيديه القويتين الحاملتين لفاس تلمع.. يهوى بها في حركة عنيفة تُوحى بالاستمرار .. مُحطّماً أصنافاً مختلفة الوجوه والاشكال .

لا يزال يذكر يوم أن استدعي من طرف جمعية ثقافية بإحدى المدن الكبرى.. لقي الرعاية والتبجيل.. في الفندق الفخم الذى نزل به.. تكرر وقوفه في شرفة غرفته كل ليلة.. يستعرض محاسن المدينة التي ألقت بها بسخلة.. كصبية حسنة تنمو باطراد ومظاهر نمو مرحلة المراهقة تدغدغها.. قبل استسلامه لسلطان الكرى يمسك قلم الرصاص المحب لنفسه .. القلم الذى يجسّم الحركة في كل الاتجاهات.. من أيّ اتجاه يمكن التخطيط به.. مرونة تامة.. يرسم أيّ شيء.. صبية حسنة تسكنها البراءة.. تماهت مع الطبيعة الضاحكة.. الافق يبتسم.. السملة تغمرها بالحنان رسوم كثيرة متنوعة المواضيع تتحد في البراءة والطبيعة..

لاحظ في اليوم الثالث أنّ رسومه تغيرت من مكانها .. من فوق مكتب
الغرفة .. تكررت العملية في اليوم الرابع .. صباح اليوم الخامس، أحسّ بصداع أبطأه
على النهوض، أفاق على صوتها الدافئ:
— صباح الخير ...

أزاح الغطاء عن وجهه وفرك عينيه كبَحَّار خرج لتوه من قبو زورق بعد هدوء
العاصفة .. استقرت عيناه في عينيها .. أبحر في اليم الأزرق .. اختطفته الموجة العاتية
ونزلت به الى الأعماق ..

همست والعطر يُنعش المكان :

— أهوى الرسم الى الجنون .. اكتشف أستاذ النشاط هذا الميل عندي في السنة
الثانية من التعليم المتوسط .. لا تؤاخذني على اقتحام معبدك .. لا تلمني على
ثرثرتي هذه ونحن ما تعارفنا سابقا .. قلت اكتشف الأستاذ عندي هذا الميل إلى
الرسم .. سعى مُخلصا إلى توجيهي، والأخذ بيدي .. رعى موهبتي ونمّاها
.. أنجزتُ عدة أعمال جلبتُ لها اهتمام الجميع .. عمل مدير المؤسسة على تشجيعي ..
سهّل لي المشاركة في عدة معارض بالمؤسسة وخارجها ... استفدت من خبرة
الكثيرين من الرسامين .. السّمة الظاهرة في اعمالي .. البراءة ، الطيبة والجمال ..

— رسوماتك التي وجدتها على المكتب جلبت نظري .. أغرتني بالتأمل .. أشياء خفية
استشففتها منها .. شجعتني على التحدث إليك .. أنتِ أعدتني الى تلك الايام
الجميلة .. ذكّرتني بأولئك الرسامين الذين كانوا لي مدرسة .. انه الفن النقي .. الفن
الذي ينبغي أن يكون غاية في حدّ ذاته .. إنه التعبير الصادق عن أحاسيس الانسان

..التعبير الذى لا يخضع لمقاييس مسبقة ..لا شعوريا ينسكب على الورقة ..على اللوحة ..نورا يضيء الدروب أمام الآخرين ، وإلاّ ليس فنًا.
— من اللوحات الستّ نريد واحدة تشخّص ما سنقوم به من مشاريع على تراب البلدية ...

نطق بها بحماس نائب رئيس البلدية المكلف بالثقافة .. وأخرى لِمَا أنجزناه ..

الانسان الذى انتهى من رسمه عملاقا يهوى على الأصنام يحطمها ..حرك الألوان مرة أخرى.. بالريشة أبرز عضلاته المفتولة التي زادته قابلية للحركة المستمرة .. بقلم الرصاص في الزاوية القرية رسم صبية حسنة تغمرها البراءة والطيبة ..تنظر بلهفة الى صاحب العضلات المفتولة.. ووراءه زهرة تتفتح رويدا... رويدا...أشعة الشمس تتسرب عبر وريقات الزهرة فتستقر على مساحة جسم الصبية فيزداد إشراقا، وفمها ابتساما ..قلم الرصاص مرّ في حركته المستمرة ..يخطط يخطط ... يخطط...

عمى حمة

كان ذلك على ما أذكر في أوائل الخمسينات، ونحن أطفال صغار أكبرنا ما تجاوز السن العاشرة ، عندما بدأت أجهزة الراديو الأولى في الظهور، ذات الحجم الكبير التي تعمل بالبطارية التي تماثلها حجماً ..تظهر في بلدتنا الصغيرة بعد ان جلبها تجار قلائل معروفين كثيرا ما يسافرون إلى مدينة بسكرة البعيدة شمالا عن قريتنا بمسافة مائتي كيلومتر في آخر كل أسبوع متسوقين للخضر والفواكه.. مدينة بسكرة أطلق عليها بحق بوابة الصحراء الشرقية وعروس الزيبان ..

كانت نقطة تخزين، وتجميع، وتوزيع لكل المناطق المجاورة ..حتى أصبح كل ما يُجلب من هذه المدينة من غلال وخضر يُنسب إليها فيقول أهل منطقتنا : طماطم بسكرة ،برتقال بسكرة ،بطاطا بسكرة ..ولعل ما هو أعجبُ من ذلك أن كبار السن الأحياء بقريتنا لا يزالون يرددون هذا النسب لمدينة بسكرة ،وإن اعترض معترض وأتى بالبرهان القاطع على أن ما كان يجلب من تلك المدينة ينتج محليا، وفي كل مكان وبالجودة نفسها ، أو ربما أفضل ،كان ردّ هؤلاء الشيوخ :
— أن البذور مجلوبة من هناك .

تجار قلائل سمحت لهم إمكانياتهم المادية ،وطبيعة تجارتهم الاحتكاك بأوساط أخرى، استطاعوا أن يجلبوا إلى القرية أجهزة الراديو أيام ظهورها ، وبلد انتشارها بالبلاد ..من هؤلاء عمى محمد البوكي الذى كنا ونحن أطفال ندعوه (عمى حمة) تقربا إليه كي يرضى علينا فيشغلنا معه كعمال من الدرجة الثالثة خلال أيام الجمعة حيث تُقام السوق الاسبوعية .إذ نقضي اليوم معه في ترتيب الخضر، والفواكه ،

وعرضها بشكل جذّاب ، وتنقية ما يبدو في طريق التعفن منها ، وقد تكون ظهورنا مطية لصناديق مملوءة من البضاعة قد جلت بها الحافلة الرابطة بين مدينتي الوادي وبسكرة .

عمى حمة دائما ساخط ، ناغم يشتم القريب والبعيد ...حتى وهو يعدّ ما تجمع من نقود كثيرة ليوم كله خير وبركة ، يبتدئ من قبل شروق الشمس، وينتهي بعد غروبها .

قبل صلاة العشاء من ذلك اليوم - الجمعة - نعود إلى ديارنا مُحملين بما جادت به علينا يدا - عمى حمة - من غلال وخضر يكون الزبائن قد عزفوا على اقتنائها .. فقبل العودة بعد أن يكون الارهاق قد أخذ منا كل مأخذ خلال يوم كله حركة لا تهدأ ، تنسابق في استرضائه ، والفائز منا يُضاف الى حصته شيء من الفواكه الجيدة ، وعادة لا تزيد على الأربع برتقالات .

ذات يوم خرج عمى حمة على عادته المعروفة من صمّت يُخفى تحته السخط، والغضب اللذين يلمحهما كل من يراه حتى من بعيد.. وبدلا من إلحاحه علينا كعادته بمدح البضاعة جلبًا للزبائن ، تولى المهمة بنفسه ، وتهلل وجهه وامتلا بشراً فاندھشنا في بادئ الأمر، وسرعان ما توضّح لنا جزء من الأمر، ونحن نسمعه لا يني مخاطبا كل من يُأنس فيه قرابة أو صداقة

— لديّ مفاجأة هذه الليلة ،هلا شرفّنتي بالحضور إلى الدكان بعد صلاة المغرب .

الواقع بقدر ما كانت هذه الدعوات مفاجأة لكل من يسمعها ،كانت عندنا أكثر وقعاَ لأننا ما سمعنا منه ولا مرة واحدة يدعو أحدا لا لجلسة أخوية، ولا لشرب كأسٍ من الشاي الذي يجلبه معه صباح أيام الجمعة فيخفيه تحت أقرب صندوق إليه

، وما ينفك بين الآونة والأخرى أن يرتشف من كأس صغيرة يكون قد صبّها لنفسه ، دون إحداث أيّ صوت ، حتى طريقة صبّ الشاي في الكأس المعروفة والتي تستدعي رفع الإبريق إلى الأعلى فينسب الشاي ذهبيا .. رقرقا مُحداثا فقاعات ، تُكسب لون الشاي في الكاس تألقا ورونقا .. أيضا لا تتفطن لعمي حمة وهو يرتشف بتلذذ إلا حينما تشمّ رائحة التبغ الحلى النفاذة المعروفة بالعرعار ، وتلمح الدخان منفلتا من بين شقوق الصناديق .

الناس يومها تساءلوا عن أسباب الدعوة .. عمي حمة لازم الصمت عن أسئلتهم مِمّا دفع الفضول بالكثير من الذين لا تربطه بهم علاقة قريى أو صداقة متينة من الوقوف أمامه ، واستيضاح الأمر... فكان جوابه للجميع :

— أنتم مدعوون بدوركم .. لكن عليكم بكتمان الأمر ، وعدم إشاعة الموضوع ، فالمكان اتساعه محدود .

في ذلك اليوم أمرنا والشمس لا تزال أشعتها الذهبية تغمر السطوح ، وأعالى الجدران أن نحمل ما تبقى من البضاعة الغير المباعة إلى مخزن ملحق بالدكان .. تولّى بسرعة للممة نقوده دون عدّها .. ففي غمرتنا بإنهاء العمل المبكر، وغموض الموقف علينا خاطبنا بود :

— مفاجأة سأباغت بها الجميع هذه الليلة ، إن شئتم البقاء فأنتم مدعوون بدوركم . وبعد أخذٍ وردٍ بيننا تمّ الاتفاق على البقاء .. اشترط علينا حينها المساعدة في استقبال المدعوين، والترحيب بهم .

عقب صلاة المغرب مباشرة، وعوداً عن انفضاض المصلين، وتوجه كل منهم إلى حيث تقوده رجلاه توجهت الأكثرية إلى دكان عمي حمة أين وجدوا الاستقبال والترحيب الحارين.

... عمي يقود المدعوين بنفسه إلى داخل الدكان أين أعد لهم فراشا يعتبر لائقاً في ذلك العهد.. حصائر تعلوها أكياس الحبوب الفارغة.. ابنه البكر يطوف عليهم بكؤوس الشاي الساخن العابق برائحة النعناع .. لما امتلأ الدكان اعتذر للبقية باسقاطهم الفراش خارج الدكان على جانبي الزقاق قبالة باب الدكان .

مضت فترة قصيرة... اعتلى فيها عمي حمة كرسيا وأخذ يعالج عدة أسلاك نحاسية ، وما لبث أن ربط طرف واحد منها على طرف عصا طويلة طلب من ابنه تثبيتها في أعلى السطح .. الحاضرون يتابعون ما يجري باهتمام .. ثم عمد إلى صندوق وأخرج منه جسماً أسود اللون، بعض من وجوهه مربعة الشكل، وبعضها الآخر مستطيل.. استعان بأحد منّا لوضعه أسفل صندوق مرتفع يتصدر الدكان .

تململ أحد الحاضرين، وما لبث أن قال :

— يبدو أنّ السيد مُسّ بجنون .. هل سيُسَيّر شاحنة أو حافلة هنا ؟

لكزه أحدهم برفقه وعينه توشكان على الخروج من محجريهما:

— كفى هراء ، ما موقع الشاحنة والحافلة هنا ؟

— ما رأيت أغبى منك والله.. هذه تسمى بطارية ، وهي مشحونة بالكهرباء

وظيفتها أساسية في سير الشاحنات والحافلات .

— ما شاء الله ، متى قرأت هذه العلوم يا هذا ؟

— يبدو انك نسيت، أو تتناسى بأنني كنت عاملا لدى شركة النقل ببسكرة ، والتي يملكها الطالبان.

توارى عمي حمة عن الانظار بضع دقائق ، ثم خرج مزهوا بنفسه ، يحمل بين يديه صندوقا خشبه يختلف عن الخشب يختلف عن الخشب المعهود، والمعروف لدى الحاضرين في الدكان.. يمتاز بالملامسة والبريق ، ثُبَّت على أحد وجوهه مفاتيح ، وفي الوجه الآخر برزت نتوءات صفراء مستديرة بجانبها ثقب دائرية الشكل.

خيم الصمت على المكان إلّا من أصوات بعض من هم بالخارج ممن لا يلمحون ما يجري بالداخل.. اشرأبت الاعناق.. تفتحت العيون أكثر لتتابع أصابع عمي حمة ، وهي تضع الصندوق البراق بعناية في مكان الصدارة .. ثم أوصل الطرف الثاني من السلك الممتد الى الأعلى بأحد الثقوب بالصندوق البراق.. وما نسي وصل الصندوق بالبطارية بواسطة سلك ثانٍ .

علق احد الحاضرين :

— يظهر أن عمي حمة لديه بالفعل مفاجأة هذه الليلة لا ندرى كنهها.

رد جازاً له كان يجذب نفساً طويلاً من سيجارة عرعارية برمها لتوه :

— لو لم أكن أعرفه من قبل لقلت انتمى لعالم السحر، والسحرة .

ردّ عليهما العامل السابق بشركة النقل الايطالية ببسكرة ، دون أن يلتفت

إليهما :

— هوّنا عليكما يا صاحبي ، ليس في الأمر سحر، ولا سحرة .. ولا هم يحزنون .

— اذا ماذا في الأمر يا أيها المطلع على كل شيء...

— إنه جهاز راديو ليس إلّا

قطع الحوار الدائر صوتُ عمى حمة المشيع زهوا، وعزة بالنفس، وهو يدير
مفتاح الاضاءة في الصندوق :

— لكم الاختيار أيها الأعزاء في سماع أغانٍ، او أخبار حول ما يجري في العالم، أو
أحاديث ممتعة شيقة من تونس، أو القاهرة أو تريدونها من بلاد الأنكليز .. ماذا قلمت
يا أحباب ؟

ما ترك الاختيار للحاضرين ؛ بل سارع يدير إحدى المفاتيح ليتوقف على
صوت نسائي عذب النبرات يعلن :

— هنا القاهرة ، أيها الإخوة والأخوات نقدم إليكم النشرة الإخبارية الثالثة لهذا
اليوم .

اندفع من كانوا بالخارج.. دلف البعض منهم للداخل.. تراصّ البعض الآخر
في المدخل.. انقطعت الأصوات إلّا صوتُ المذيعة.. جالت عدة دقائق في أنحاء العالم
.. حطّت رحالها عند أكثر من نقطة ساخنة تهزّ العالم يوم ذاك.. المقاومة المسلحة في
تونس والمغرب تزداد توسعا .. الزعيم النقابي التونسي فرحات عباس يُغتال من
طرف القوات الاستعمارية الفرنسية.. المعارك تزداد ضراوة بالهند الصينية ضد
الاستعمار الفرنسي.. الثورة الصينية تخوض غمار معركة البناء على أكثر من جبهة .
أعجب الجميع بالجهاز العجيب، وسهولة استعماله، وفائدته في التبليغ . بما
يجري في العالم ، وإمتاع الناس بتغيّر الاخبار .. ليلتها تكاسل ثلثا الحاضرين عن
أداء صلاة العشاء بالمسجد كمعادتهم.. ومن تغلّب على نفسه، وأداها بالمسجد عاد
مسرعا وكأنه افتقد عزيزا لينظم الى الموحدين بالدكان .

عدت ليلتها متأخرا إلى المنزل، وأنا أفكر في هذا الجهاز العجيب.. كنت أسير دون وعي، ويدي فارغتان وأنا لا أعلم بذلك.. أعادني من شرودي إلى وعيي صوت أمي التي كانت جالسة على عتبة الباب بمفردها حيرى، وقلبها لا يُوحى لها بخير ... فاجأتني بصوتها الملائكي الحنون :

— مالك يا ولدى تأخرت كثيرا ؟

— لا شيء يا أمي كل ما في الامر أن عمي حمة ، وصلته بضائع جديدة وبوفرة، فاستعان بنا في خزنها إعدادا لبيعها بداية من يوم الغد .

تلبية لإلحاح الحاضرين على ترتيب مثل هذه السهرات مرتين على الأقل في الأسبوع ، ما يخل عمى حمة بإعدادها ، وما عاد نشاطه منحصر في الجلوس قرب الجهاز وتشغيله فقط ؛ بل امتدّ إلى إعداد الشاي على موقد فحمى تتأجج ناره فيسري دفئها في المكان منعشا في ليالي الشتاء الباردة .

وتضاعف الرواد، وضاق بهم المكان.. سعى عمى حمة إلى توسيعه بإضافة مساحة المخزن اليه.. وتضاعفت الطلبات على كؤوس الشاي التي ما عادت بالجنان ..وخصص ركنا لبعض الحاجات التي يكثر عليها الطلب في السهرة : شمة ..علب تبغ مبروم ..تبغ عرعارى محلي ..كوكاو ..حمص لبلابي ذهبي هش ..فول مقلي مملح ..ثم اتسعت المساحة لتجد بعضُ البضائع الاخرى المطلوبة مكانا لها : زيت ، سكر ، قهوة

سُحر عمى حمة بالجو الجديد ..قلّت سفرياته الى مدينة بسكرة .. وما عادت تصله غير كميات من الخضر والفواكه يبعث بها إليه أحد أقاربه من هناك ..ليقطع وصولها نهائيا.

أذكر أنني قلت لوالدتي في تلك الليلة الأولى بعد حضوري مع الحاضرين
تدشين فتح الجهاز، وأنا اتناول طعام العشاء :
— سأعمل يا أمي، وسأكدح حتى أجمع ثمن جهاز أبتاعه لك، فتنجتمع نساء القرية
عندك ، وأنت كالمملكة غادية رائحة مزهوة فخورة بنفسك، ومعتزة بابنك الذى جلب
لك الجهاز .
— أيّ جهاز تقصد يا ولدى .
— ستتعرفين عليه فيما بعد .. لنترك ذلك الى حينه .

مرّ الحول وبمرور كل يوم منه يترأى لي أفقٌ كالحُ، وبقدّر ما كان دكان عمى
حمة يعمر بالبضائع المختلفة ويكثر رواده ، نهارة بقدر ما أخذ يتخلّى عَنّا واحدا بعد
الآخر .

ذات يوم وهو نشوان يصبّ الشاي للزبائن، والمطرب عبد الوهاب يترنم
بإحدى أغانيه الشجية الحزينة ، ناداني، وسلّمني ورقة نقدية تكافئ عمل أربعة أيام
من أيام الجمعة وقال لي بعطف مبالغ فيه وليته ما قال :
— أشكرك يا ولدى ، ولن أنسى أخلاقك الطيبة، وسلوكك القويم ..تأكد من أنني
كلما احتجت اليك سأتصل بك .

وفهمت ما يقصده . من يومها بقدر ما كان إعجاب الناس يزداد بذلك الجهاز
ويُقبلون على اقتنائه ، بقدر ما كان كرهى له يتضاعف وأعزّف عن اقتنائه حتى في
أعزّ تطوره التكنولوجي، والعلمي .

شيء لا يقاوم

كان يوما مشرقا بلغ روعة في الإشراق ، فالسماء رائقة زرقاء ، وأشعة الشمس التي أطلت من خدرها خجلى ، بدأت تمتد ذهبية ، تدغدغ صفحة البحر الوديع في تلك الصبيحة وأنت تقترب من المحطة الرئيسية للحافلات ، بدا لك أنّ ذلك الاشراق تسرب الى الوجوه البشرية التي تصادفك .

شعرت صبيحتها بحبٍّ غامر نحو الجميع ، وأنت فوق جسر المشاة ، قبل أن تنزل إلى المحطة.. نظرت يمينا إلى أسفل الجسر ، كانت السيارات في سباق جنوني تطوي الأرض طيًّا ، تابعت المشهد ، نظرك امتد ، وامتد ليقف وجها لوجه مع مقام الشهيد الشامخ فوق الربا ،الواقف بكبرياء ينظر للعاصمة باطمئنان ورضًا ، وكأنه يقول لها :

— واصلي المسيرة يا أمه ليبارك الله .

توقفت في تلك الأثناء.. اعترتك قُشعريرة ما دريت كُنْهها ، ولا عرفت مأناها ..تراءى لك ذلك البناء الشامخ يمتد ويمتد ،ويشمخ ويزداد شموخا ليتشكل في النهاية في وضع أشبه بخريطة الجزائر ، وتلك الخريطة حوت كل أبناء الوطن.. كيف ما كانت أعمارهم ،ومن فوق وجه مشرق نوره يصل الجميع ، ينظر في رضا ويحتضن الكل في رفيقٍ وحنان ...وددت لو كنت ذلك البناء .

أيقظك من حلمك منبهٌ قطارٍ للمسافرين.. كان تحت الجسر، واصلت النزول ،توجهت صوب رصيف الحافلة التي ستنتقلك ، اتسع صدرك للجميع حتى لبائع الجرائد الذي طلبت منه جريدة الشعب فأمدّك بصحيفة المجاهد اليومية .اتسع

صدرك له لمّا ثار في وجهك وأنت تنبهه إلى خطئه، وتطلب منه جريدة الشعب التي ألقى بها بعيدا وكأنها دخيلة على محله .. كان يوما مشرقا ، بلغ روعة في الإشراق والبهاء .

جلستَ في المقعد رقم ثلاثة وراء السائق ، ولحظة أن صعدت الحافلة أُلقيت المقعد فارغا كأنه كان في انتظارك ، التذكرة كلفتك الحرمان من النوم، ومغادرة الفراش حوالى الساعة الرابعة صباحا لتتحصل عليها في الساعة الخامسة حيث شرع عونُ الشباك في العمل ، إثرها قصدتَ أقرب مسجد للمحطة حيث نعمت بأداء الصلاة مع الجماعة ، وقضيت وقتا بين يدي الله تتلو القرآن الكريم، وازدادت نفسك إشراقا، وغمرتك موجة من التفاؤل لمّا لاح لك من بعيد مقهى علقت في أعلى مدخله لافتة بخط عربي جميل "مقهى السلام " وتناولت فطور الصباح ، شكرنا الله على نعمه .

ابتلعت الحافلة الجميع .. المقاعد كلها مشغولة ما عدا المقعد الرابع بجانبك ، لا شك أنه لشبيه لك ، وإن كان غير ذلك فبالأكيد سيكون للقابض.. رواق الحافلة شغله الواقفون الكُثُر ، ترجّوا من القابض أن يأخذهم ، ولو وقوفا .
لَمّا شرع أحدُ المراقبين في مراقبة التذاكر، ومقارنة أرقامها بورقة في يده ، شرع شابٌ في التقدم ، انسدل شعرٌ أملس طويل على قفاه، وأحاط معصمه الغضُّ بسوار أبيض نُقش عليه حرفان باللغة اللاتينية .. كان يرتدي صدارا ذا لونٍ أصفر صارخ كُتب على الصدر منه بخط لاتيني من الحجم الكبير " لاكوست " لما اقترب من المقعد الثالث أين تجلس ، شعرت بنظرته الموجهة للمقعد الشاغر بجانبك.. قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة ، تفتّن السائق إليه :

- لا تجلس يا ولدى من فضلك ، إن هذا المقعد محجوز لغيرك
- من هذا الغير بربك؟
- لمعطوب من معطوبي ثورة التحرير .
- أي ثورة تحريرية تعنى يا هذا ؟
- ثورة أول نوفمبر المباركة .
- إنك تخرف يا سائق ، تلك ثورة الماضي، ومن قاموا بها أصبحوا شيوخا أدوا دورهم، وعاشوا حياتهم وأخذوا كل شيء ، ليذهب الماضي ، بأهله الى الجحيم ..
- لم تتمالك نفسك لتقول :
- الحاضر بالماضي، والمستقبل بالحاضر يا ولدى .
- يكفيننا وعظا يا ناس .
- التاريخ سلسلة، وكل جيل يضيف حلقة لهذه السلسلة .
- والثورات يقوم بها الشباب ، وقد قمنا بالثورة وأثبتنا وجودنا في هذا البلد ، ولو كان السائق موضوعيا لقال إن المقاعد الأمامية كغيرها للجميع .
- شعرت بضيق ، وكنت تنتظر مؤازرة بعض الركاب ، ففوجئت بالصمت المطبق ، حتى السائق أثر الصمت ، تمت لما كان الشاب يخطو بوقاحة منتصرا نحو المقعد الشاغر :
- أبنائنا مزعزعو الهوية .. أبنائنا اقتلعتهم الأعاصير الهوجاء من منبتهم فألقت بهم شرقا وغربا ... لا يكفي أن يوجد وجه مشرق نوره يصل الجميع .. والعاصفة لا ترحم .

كان في البداية يوما مشرقا بلغ روعة في الاشراق والبهاء .. كلما زاد السائق
في سرعة الحافلة ازدادت ضيقا وشعورا بالاختناق .. لكنك غير حائق على أحد حتى
على الشاب الجالس بجانبك .

موتُ الشَّحاذِ

(1)

ذلك الصباح استيقظ محمود مبعوثًا على صراخٍ وهرجٍ في الشارع ، فهرول نصف مستيقظ، يرتدى قميصه الطويل الأبيض، أشعث الشعر حتى عتبة بابه ، فأعلموه أن العروسي الشحاذ قد فارق الحياة .
كلّ من عرفه أدلى بدلوه:

— عاش أتعس واحد بيننا في هذا الحي الذي استوطن به البؤس مذ استهدفوا زرعه .

— إنه يملك المال الوفير .

— لم يسعد به يوما في حياته .

— الغريب أن لا أحد من أهل الحي يعرف مكان هذا المال .

— أو حتى أقاربه لا يعرفون ذلك.

— صلّوا على النبي يا ناس، إن الاعمار بيد الله ، الرجل مات وروحه صعدت الى خالقها .. كما سمعنا وسمعتم ، فإن كان الخبر صحيحا ، ترحّموا عليه ، وإن كان غير ذلك اطلبوا له الشفاء، والعمر الطويل .

قالها الشيخ مبروك إمام المسجد العتيق بالبلدة ، مُهيّبا ببعض السكان الذين اشرأبت أعناقهم من الشرفات ، ومن عتبات منازلهم، أو كانوا في وسط الشارع .

خيّم الصمت دقائق حينما كان الإمام الوقور يوجّه نصائحه ، وما أن ابتعد بعض الامتار حتى عاد الحاضرون إلى ما كانوا عليه . أطلّت الصافية برأسها

الأشيب المخضَّب بالحناء ، تستطلع الخبر ، والرأفة استأثرت بها متظاهرة بالاسى ،
وقد اشتهر عنها أنها إحدى أبلغ الندابات، وأغلاهن ثنا لمواكبة المآتم مثلما هي أبلغ
المداحات في مواسم الأفراح.. تقود فرقة معروفة في ذلك فشرعت لتوها تندب
وتنوح .. وتُعدّد محاسن الراحل .. أوقفها محمود بقوله :

— يا هذه اتقي الله فينا ، وفي نفسك ونحن نستقبل يوما جديدا ، كُفّي عن هذا
النواح — كيف تريدني يا محمود أن أكفّ ، والمرحوم قرابته لي متينة .

— لا تتعجّلي الأمر ، إن خبر الموت لا يزال غير مؤكد ، وقد يكون إشاعة .

في تلك الأثناء غطّى على حوارهما صوت أحد الواقفين :

— بل هي الإشاعة ولا تستغربا.. ألقى بها أحد المارين الغير القاطنين بهذا الشارع
تنفس محمود الصعداء وأردف :

— هلا وفّرتِ على نفسك هذا العناء، وأنتِ تستقبلين يومك الجديد .

ثم أسرع محمود إلى الداخل، وارتدى ثيابه على عجل.. وأطل بعد هنيهات
في هيئة مقبولة.. وخواطر عديدة تدور في دماغه ، لا يدري مأناها .. متداخلة ، اقترب
من المقهى المتصدر لساحة الحي ودون أن يقتعد مقعدا، بقي واقفا ونظره زائغ ،دنا
منه النادل الذى سريعا ما همس في أذنه :

— عم محمود هل وصلك الخبر الذى هزّ الحى منذ فجر اليوم ؟

— أيّ خبر هذا ؟

— خبر موت العروسي الشحاذ .

— وهل تُوفي فعلا ؟

— الإشاعة يا محمود متداولة، وسمع أكثر سكان الحي بها ، لكن في الحقيقة لا أحد منهم حضر وفاته، أو رآه وهو يعاني سكرات الموت، أو حتى عرف وجوده ، باستثناء ربّما أقاربه .

— وكيف برزت هذه الإشاعة، وانتشرت انتشار النار في الهشيم في هذا الصباح الباكر فقط .

— منذ أيام قيل إنه مريض، وتوالت الأخبار يوما فيوما كاشفة عن اشتداد مرضه .

— لكن هذا ليس كافيا كي ينتشر خبرُ موته .

— قيل إن البعض من أقاربه أشاعوا الخبر حتى يُحضّروا الرأي العام، فيقتنع بأن له أقرباء ، ومن حقهم اقتسام تركته الوفيرة .

— لا جدوى من ذلك ، اذا كان الرجل لا يزال على قيد الحياة ، حتى ولو كان في النزاع الاخير .

اقرب النادل أكثر وهمس :

— لا تنس يا عم محمود بأنه رجلٌ ثري ، وإن عاش فقيرا.. مرحى لكل أقاربه ، بئس أنا المقطوع من شجرة لا جذور لها .. لا أقارب ولا هم يحزنون ...لي الله ...آه نسيت

لعنة الله على الشيطان ماذا تشرب يا عم محمود ؟

— قهوة مركزة ساخنة تزيل عن عيني الغشاوة.. علّها تساعدني على التركيز .. قبل أن تذهب الا ترى يا رجل بأن الموت حقٌ ، والناس يموتون كل يوم في هذا الحي، وموتهم لا يثير اهتمام احد ، لا من السكان أنفسهم ، ولا من أهل الحل والربط الذين يعرفون أدواء هذا الحي ومعاناته اليومية.. يتذكرونهم فقط لما تبدأ الحملات الانتخابية، فيشبعونهم وعودا بتحقيق جنات تجرى من تحتها الانهار.. يوميا يموت في

هذا الحي البشرُ من جميع الاعمار، ولا أحد يكلف نفسه عنه السؤال.. من الموتى من حالته تشبه حالة العروسي، ومن حالته تشبه من أحسن منه ، وأيضا من أتعس منه.. لماذا مَوْتُ العروسي أعطاه الناس اهتماما أكثر؟

— ألم أقل لك يا عم محمود إنه رجل ثري، وليس له الولد والزوجة ، والأصول فارقوا الحياة من زمان ، والأقارب منذ حين يتعجلون موته ، بل ويعلنون ذلك جهارا نهارا..

— حتى أنت يا محمود توشك على تصديق الاشاعة ، ثم هبْ أن العروسي مات ، فماذا أنتَ جان من موته ؟ ..

كان العم محمود يخاطب نفسه لما ابتعد النادل .

(2)

أثار العروسي اهتمام الفضوليين من سنوات مضت ولا يزال ، حوالي عقدين من الزمن يشغل شحاذا محترفا.. يتوجه كل يوم فجرا صوب عاصمة الولاية ، متوغلا في السوق الذى لا تهدأ الحركة به إلاّ عند الظهر فيعود العروسي الى مسقط رأسه أين يقطن .. يتوغل من جديد في سوق بلده الذي ينتظم عصرا ، ويُعرف بالجهة — بسوق العصر — شغلٌ يومي يحترفه العروسي ، يترأى للناس في هيئة تستثير الشفقة ، وكم من مرة أنفق عليه البعض فابتاعوا له ألبسة لائقة تليق بالإنسان، وتُظهره في هيئة محترمة ، غير أنه سرعان ما يقلع ذلك اللباس، ويعمل على بيعه في السوق.. أثار اهتمام الفضوليين ، وحرص أقاربه الذين ازداد عددهم بتوالي السنوات .

(3)

لَمَّا تقرر إلغاء الورقة النقدية ذات الخمسمائة دينار خلال تاريخ ما من الأعوام السابقة .. في ذلك التاريخ فُوجئ أعوان مصلحة البريد بالبلدة بالعدد الكثير من المواطنين، وفوجئوا أكثر ببعضهم وهم متجاورون في الطابور الطويل حيث انكشفوا لبعضهم في تلك الأيام القليلة .. الكل تحت يده كمية معتبرة من الأوراق النقدية الملغاة .. والكل اكتشف أيا مئذ وجوهًا ما كانت تخطر على البال أن تقف في مثل هذه الطوابير.. قال أحد هؤلاء الواقفين للعروسي الذي أخفى تحت قشايبته المتسخة كيسا :

— حتى انت تزاحم غيرك هنا ، اما كفاك السوق ؟

— وما العجب في هذا ، ألسنُ ؟ مواطننا كغيري ؟

— حقا لا عجب في وقوفك هنا في الطابور، أو بالقرب منه فتلك حرفتك الحبيبة اليك ، أما العجب فيما أنت واقفٌ من أجله معنا هنا .

كان احد الشحاذين غير بعيد واقفا في الطابور بدوره يتصنت إلى الحوار الدائر ، ما لبث أن أقحم نفسه :

— يا هذا أما كان أجدى لك ولغيرك أن تهتموا بأنفسكم وتتركونا وحالنا ، هل العروسي افتكّ منكم أموالكم ؟ ثم لماذا تنظرون إليه وإلى من يمتهنون مهنته بغير الرضا ، اتقوا الله يا ناس في ضعفائكم ، إن مخاطبة الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم : "و" أما السائل فلا تنهر " لا تتوقف عند حسن مخاطبة السائل وصرفه بالحسنى ، بقدر ما تتوقف على حسن المعاملة والأخذ باليد .

(4)

بعد لأيٍ وقف العروسي أمام العون المكلف . فاجأ الواقفين بالقرب منه
بُحزم كثيفة من الأوراق المالية يطلق أسرها من الكيس، ويضعها أمام العون ، ما
سبقه أحدٌ إلى مثلها من حيث العدد .. انبهر الكل بما يشاهد .. ساد الصمت
دقائق .. جحظت الأعين وكأنَّ أصحابها في حُلُم.. ما عادوا يدرون أهم في حلم أم
في يقظة ... لاحظ العروسي ذلك على وجوه الحاضرين، فرأى أنَّ أحسن طريقة
يسلكها معهم لصرفهم عن الحُزم المالية الكثيفة اصطناع شبه خصام .

— ومن شرَّ حاسد إذا حسد.. عين الحسود فيها عود .

الألسن آنذاك سُتلت .. إلّا من أجسام واقفة تتنفس، وعيون منبهة بما تشاهد .
الشيخ إمام المسجد العتيق بالبلدة كان مثل غيره يراقب ، ولما كان الصمت
مُطبقا على المكان إلّا من شقشقة الأوراق المالية تنزلق تباعا بين أصابع العون
المكلف ، كان الشيخ الإمام لا يني يرفع صوته بين آونة وأخرى بالتسبيح، وطلب
اللفظ من العليّ التقدير مكررا الدعاء : " ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا "
وحبات السبحة تنزلق بين أصابعه .. همس أحد الواقفين في أذن مَنْ خلفه :

— حتى سيدنا الشيخ الذى أفنى عمره معلما وإماما في هذه البلدة ، ما حلم يوما في
حياته بامتلاك مال كهذا .

— رأيت يا رجل ؟.

أضاف ثالث من الطابور :

— مالٌ كهذا وبهذه الكمية لا يملكه غير أثريه الحرب، وتجار الشعارات المزيفة
وسماسة السوق ، أو الشحاذون مثل هذا.. ليته مستثمراً في مشاريع ذات نفعٍ للناس

أوقف هذا الحوار الخافت العروسي الذي يبدو وأن اذنيه التقتت بعضا منه :
— ومن شرّ حاسدٍ اذا حسد.. نعم لي مالٌ وفيرٌ.. موتوا بغيضكم والله لن تنالوا منه شيئا .

وفي تلك الأثناء وضع أمامه العون وصلا فالتقطه .. قلبه يمينا ويسارا .. أعلى أسفل ، وما كان ينتظر ذلك فانفجر في وجهه :
— أتلعب بي يا هذا وأنا في هذه السن ، وأنت بمثابة حفيد لي لو كُتب لي الزواج وأنجبت .

— معاذ الله يا سيدى ، هذا إجراء قانوني نعمل به منذ الأمس حينما شرعنا في هذه العملية ... نقدم وصلا لكل من يسلمنا مبلغا ماليا من الورقة المالية الملغاة كيف ما كانت قيمة المبلغ إلى حين ، والحين كما ترى على الوصل إذا كنت تحسن القراءة مُحددا بأيام معدودات ريثما نجلب الأوراق النقدية بالكمية الكافية
— إذا كنتُ أحسن القراءة .. القراءة .. أي قراءة تتحدث عنها يا هذا ؟ أنا لست في حاجة إلى القراءة ... بأميتي أشتريك أنت ومن معك في هذه المصلحة البريدية .
— يا سيدى بارك الله لك في مالك وضاعفه لك مرارا .. أرجوك أن تترك المكان لغيرك ، كما ترى والغير كثيرون، والوقت المعطى إلينا في هذا الامر محدود
— أتريدني أن أسلم في مالي بهذه السهولة.. إلّا هذا والله ، كيف تسعى إلى إقناعي بان وصلا يقابل أموالا مسلمة مني إليك هي حصيلة العمر ، جمعتها بشقّ النفس ؟. لن أغادر هذا المكان إلا اذا سلمت إلي مالا بالأوراق المتداولة المعروفة .

— يا سيدى لستَ مجبرا على تسليمها إياي.. اتق الله في غيرك، انظر وراءك تر الواقفين ينتظرون دورهم .. آن لك أن تختار بقبول الوصل، ومغادرة المكان، أو أخذ ما سلمته إلي كما هو عددا، وورقا نقديا مرة أخرى .

في تلك الآونة ارتفع صوت الشيخ الامام : "ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو اخطأنا " ثم أخذ بيد العروسي وجذبه إلى أحد الممرات :

— يهديك الله يا لعروسي، بتصلبك هذا تضع حقك وحق غيرك ، إن الوصل المسلم إليك وثيقة رسمية تضمنها الدولة ، ولا أحد هنا يبتغي سلبك مالك ، عد في الأجل المحدد ، واصطحبني معك إلى هذا المكتب إذا رغبت في ذلك يوم أن تأتي .
— شكرا يا سيدى لقد أعدت الطمأنينة إلى نفسي سأغادر المكان ..

علق أحد الحاضرين والعروسي يبتعد :

— من كان يخطر على باله أن شحاذا عَفِنا تُزخم رائقته الحامضة المزعجة المكان الذى يحلّ به يملك هذا الرصيد من المال .

أضاف آخر :

— ما يحيرني ،،ين كان يحتفظ به ، أو عند من كان يضعه .

تنهد الشيخ الإمام مَوْقِفًا الحوار الدائر بصوته الجوهرى:

— لا حول ولا قوة إلاّ بالله ، يا لمفارقات هذا الزمان ..تقدموا ، خذوا أدواركم ، إنّ الزمن سيفُ حادٌ .

(5)

تمتّع بالقهوة يا محمود.. إنها منعشة.. لماذا تفكر في موت العروسي ؟ حينما كان على قيد الحياة ما كنتَ تبادر حتى بردّ التحية له ، وما تذكرُ أنك تصدقت عليه

بشيء ذي بال ، أو تكرّمتَ باستدعائه في يوم ما إلى فرحٍ من أفراح العائلة الكثيرة ..
إنك في حيرة من أمرك.. لكن ما لا تفكر فيه إطلاقاً موت هذا الشخص ، لأن
حياته أو مماته سيان عندك ، لا تتحدّع نفسك ، أنت تفكر في شيء آخر تريد ألاّ
يضيع منك بعد أن يُوارى العروسي التراب إذا مات فعلاً .

في ذلك اليوم تأكّد موت العروسي ، وحُمل إلى منزل أقرب أقربائه بالحي ،
منزل ما وطئت قدما الراحل عتبته ، حُمل اليه في موكب كبير ذي شان ، حيث أُقيم
له مأتمٌ ترأسه الصافية في جناح النساء ، وقضى عددٌ من الشيوخ شطراً من الليل
يتلون القرآن على روحه الطاهرة في جناح آخر ، فيما صاحب المنزل وإخوته وأبناء
عمومتها اصطنعوا الحزن مرتدين ألبسة تُوحي بالأسى على الراحل.. قابعين في
جناح ثالث يتلقّون التعازي، ويترحمون على الراحل ، منوهين بخصاله الحميدة ،
معدّدين مواقفه من الحياة والناس .

لمّا أشرقت الشمس في صباح اليوم الموالي، وأنارت الكون ، تجند الأقربة
الذين تضاعف عددهم من الليل إلى الصباح لإعداد مراسيم الدفن.. فكر محمود في
الانضمام اليهم ، وبينهما هو في أخذ وردّ ، وقف غير بعيد منه الشيخ الإمام ،
يراقب ما يجري ، وكعاداته شفته تتحركان، وحبّات السبحة تنزلق بين أصابعه آمنة
مطمئنة، اقترب منه محمود وحياه.. وفي تلك الأثناء أطلّ من الشرفة شخصٌ من أهل
المنزل وخاطب المتواجدين بالمكان بصوت مسموع :

— رحم الله العروسي ، قد كان نعم الصديق للجميع.. ووجودكم اليوم هنا لتوديعه
الوداع الأخير بهذا العدد الغفير ما هو إلّا برهان محبة ووفاء له.. وعلى أية حال

فالمنزل ترون لا يسع الجميع ، فالمطلوب من الأقارب فقط البقاء، حتى نتمكن من تجهيز الراحل استعدادا لأخذه إلى المقبرة .

الأقارب يتخطّون عتبة المنزل إلى الداخل، والشيخ يحوّل وبين آونة وأخرى يرفع رأسه الى السماء مردّداً :

— غفرانك يا رب.. " ربنا لا تؤاخذنا إنّ نسينا أو اخطأنا ."

— للعروسي كلّ هذا العدد من الأهل والأقارب ، وحسبما قيل لي: إنه قبل أيام لمّا اشتد عليه المرض لم يجد من يقدم له يد المساعدة حتى بأخذه الى أقرب عيادة صحية

قالها بحسرة احد الواقفين من سكان الحى .

أردف الشيخ الإمام :

— عاش بئيساً، ومات بئيساً وسيُشيع إلى مثواه الأخير مُكرّماً ولكن يا ولدى ما لجرح بميت إيلام .

— يا سيدى قد فتك الطمع بالناس.. مسكين العروسي استعجلوا رحيله لأسباب معروفة .

مرّت دقائق قليلة وتكلم الشيخ وكأنه يُلقى حكمة :

— إنّما المفاجأة التي ستصدم هؤلاء جميعا بعد دفن الراحل، أن لا أحد منهم، أو من غيرهم ممن لا يمتّون إليه بأيّة قرابة ، يعرف أين توجد تركته.. وأذكر أنه أشار إلى ذلك يوماً وهو في حالة غضب .

وكأنّ محمود كان في انتظار جوابٍ غير هذا ، فصُدّم بما تفوه به الشيخ فسرت قشعريرة في بدنه، وكأنّ زلزالاً أصابه من أخمص قدميه إلى قمة الى قمة رأسه..

شعر بدوار يستولي عليه ، فاستند الى الجدار القريب ، والتفت إلى الشيخ مخاطبا
إياه :

— لماذا يا سيدى قضيتَ على أحلامي التي منها وضعتُ مشاريع عدّة كنتُ عازما
على تنفيذها .

ابتعد الشيخ يداعب بين أصابعه حَبّات السبحة متمتما :

— لا حول ولا قوة الا بالله .. يا لمفارقات هذا الزمن " ربنا لا تؤاخذنا إنْ نسينا أو
اخطأنا " .

في دُجى الليل تنمو الأشواك

— اللقطة الاولى —

أفقتَ من غيبوبة لا تدري كم دامت.. وجدت نفسك مجردا من ثيابك تماما حتى الملابس الداخلية منزوعة.. أفقت شبه مخدر.. تساءلت : عجبا ، أنا على قيد الحياة ؟ حركت يديك ، حاولت مدّهما لتتحسس مساحة جسمك.. الأم حادة في حركات تموجية تسري في كل الأعضاء.. سقطت اليدان.. تساءلت من جديد : إذا أنا مصاب ...أين ..لا أدري ... ولا بد أنني طريح مكان ما.. ولكن ما سبب هذه العلة ؟ حاولت فتح العينين.. ما استطعت.. ثقلُ في الجفنين.. شعرت وأن حجم العين اليسرى تضاعف ...غلالة رمادية تغطي على مجال الرؤيا لدى العين اليمنى.. الصداع لا يرحم.. هممت برفع الرأس.. بالتخلص من الأرض.. سرعان ما انتفضت على وجهك .. قدّم غليظة ألصقتك بالأرض من جديد ..

التقط جهازك السمعي الشبه المعطل كلمات متقطعة.. مبتورة .. ميزت منها :

— أين أخفيت بقية النقود يا حشرة ؟

— عثرتُ إلّا على القليل منها داخل أوراق هويتك ...

— دلي عليها حالا.. يبدو أن كتم أنفاسك حتمي هذه الليلة ...

— أهذه ساعة تبرق في يدك.. لا بدّ من نزعها ، والخاتم أيضا ...

— اللقطة الثانية —

غمرتك السعادة يومها مع الثلّة.. مطيتكم السيارة الجديدة التي يمتلكها أحدهم ، جبتم الشوارع.. قطعتم الساحات.. من وراء زجاجها الأخضر التهمتهم

الجامد والمتحرك بأعينكم النهمة.. طفتم بالأسواق.. اقترح أحدهم أن تكون الأمسية عنده.. الليل ليل الشتاء الطويل.. البرد قارس يخلخل العظام.. ما أجمل الدفء في سمرٍ يللم شمل الأصدقاء.. وسائل الدفء كثيرة.. متنوعة يمكن لكل واحد منا اختيار ما يحلو له... نطق أحدهم :

— لتكن ليلتنا هذه من أمتع ليالينا.. فرصٌ كهذه نادرة يا أصحابي ، وبمنظرة مآكرة وجهها إلى مرافقيه في المقعد الخلفي من السيارة...مضيفا :

— لا ريب أنك توافقني يا أبا محمد.. إيه.. إيه، وإن كانت المحترمة زوجتك تأخرَكَ عن الدخول إلى المنزل في وقت متأخر سيثيرها كعادتها.. أنا متأكد أنها ستغص حياتك أياما .

شعر أبو محمد بالإهانة.. أحسّ بالندم يفور بداخله.. قطع عليهما الكلام صوتُ صندوقين وُضعا بعنفٍ في مؤخرة السيارة.. التحمت هذه بحملها صوب منزل في ضواحي المدينة تُبعث فيه الحياة إلا في هذه المناسبات.. همس السائق في أذن مجاوره :

— لعلك نسيت اللحم

— أبدا ما نسيته .. ابتعتُ كمية تكفيها وضعتها في الصندوق الثاني.

ارتفع صوت المطرب محمد عبد الوهاب في أغنية كليوباترة من مذياع السيارة :

— ليتنا خمر، وأشواق تغنى حولنا .. وشراع سابح في النور يرعى ظلنا.. هتف

أحدهم نشوان:

— ليلنا خمر وأ

— أكمل يا صديقي.. وأشواق تغني حولنا.. ابنة الكرمة لا تحلو إلا بالارتواء من الشوق و ...

— غنّ يا صاحبي.. إنها من ليالي المتعة.. أينك يا أبا نواس ...

— اللقطة الثالثة —

أُفرج عنه للمرة الثانية من السجن.. التهمة بالكاد دائما متشابهة.. سرقة .. تسكع.. اغتصاب .. اعتداء.. أمضى بالسجن في المرة الاخيرة سنة كاملة.. تجواله في الطرقات والأزقة عبر الاسواق لا تنتهي . قال له أحد رفاقه ذات يوم أثناء جلوسهما في إحدى المقاهي بالسوق :

— كأني بك خرجت من السجن بعبرة.. تحدّثك على التزام الاسواق، ومعاينة البضائع الثمينة فيها ، والاهتمام بأصحاب الأناقة

كثيرا ما شوهد في ساعات متأخرة من الليل يجوب الطرقات .. يتطلع إلى الواجهات المضيئة.. يطيل الوقوف في الدروب والممرات المتطرفة.. يُكثر الاختفله في المنعطفات الغير المضيئة.. ليلتها عبّ من الخمرة المُعتقة في حانة تقبع في شارع خلفي في احتشام مصطنع.. أخفى في خصره سكينه حادة أوتوماتيكية...نشوة لعبت في رأسه ... قصد وسط المدينة كعادته...كانت الشوارع والأسواق خالية...إلا من قطط ضالة تتصارع في صناديق القمامة.. خلال مروره بأحد الشوارع الخلفية لاحظ دكان أحد الخياطين لا يزال مفتوحًا.. قادته رجلاه إلى الحُلّ .. وقع نظره على رجلين يتسامران .. فتح السكين في وجهيهما :

— أخرجنا ما لديكما من مال حالا.. سلّمناه إليّ..

جذب الخياط دُرج الآلة دفعة واحدة:

— السوق كاسدة .. الملابس الجاهزة موجودة في كل مكان .

— سلمٌ ما لديك دون نقاش.. وإلاَّ غرزت هذا السكين في رقبتك ..

في هذه اللحظة لا حظ يد الرجل الثاني تمتد الى المزلاج الحديدي للباب..
بادر هو الرجل بضربة قاضية من القدم على وجهه تهاوى مغمى عليه.. يتلوَّى من
شدة الألم.. ثم لاذ بالفرار.

استقرت به قدماه عند مدخل المدينة في منعطف مُؤدٍ لأرض مهجورة
...تحولت الى مزبلة تؤمّها الكلاب الضالة، والقطط الجائعة كل ليلة لما تسود
العتمة، ويخيم السكون على المنطقة.. حوالي الساعة الحادية عشر طرقت سمعه
أصوات أقدام تدق الارض قادمة نحوه .. ما لبث أن ظهر شخصٌ في جُح الظلام
...وباقترابه من المنعطف تفتن الى الشخص الكامن فيه .. همَّ بإطلاق ساقيه للريح
.. لكن اللكمات القوية على الوجه ، والضربات الحديدية على الأحشاء سبقت ...
فتح الضحية عينيه.. بانث له ملامح وجه الجرم واضحة .. يعرفه.. أدرك
هذا خطورة ذلك ..عاجله بضربة أخرى أشدَّ عنفا على مساحة الوجه وجزء من
الرأس ...

وشرع في البحث عما هو ثمين.. رحلة الصيد بعد العناء أسفرت عن وريقات نقدية
قيمتها قليلة .. حرّكته شياطين الغضب أكثر.. عزم على الانتقام من هذه المهانة
الجديدة .ولتكن الضحية الجديدة منْ تكن.. الانتقام لا مفر منه .. وما مرّت غير
دقائق ولاحت الضحية قادمة مترنحة.. التقط زجاجة.. كمن في المنعطف ... ما أن
اقتربت حتى انهال بها على مؤخرة الرأس بكل قواه.. تطايرت القطع ..تهاوى
الجسد ..متلويا .. ثم سكن ..

— اللقطة الرابعة —

أفقتَ من غيبوتك.. كانت الساعة السابعة صباحاً .. سمعت بكاء صامتاً مرفقاً بهمس ما تبينت هويت صاحبه.. أحسست بحرارة مفاجئة تقترب من وجهك.. أدركت أن هناك شيئاً غير عادي .. الآلام كوخز سكاكين حادة تهز الجسد.. تمزق الخلايا.. امتدت أصابع حنونة.. بلطف فكّت الضمّاد من عينك اليسرى.. أهدأبك مطبقة.. متشابكة.. حملت جميع ما تبقى من قوة في كيائك إلى هذه الشعيرات القصيرة، ومع ذلك ما استطعت تحريكها قيد أنملة.. دبّ القلق في نفسك.. هممت بالصراخ.. استبدّ بك خوفٌ مفاجئ.. ها هو سمعك قد رهِف الى حدٍّ بعيد.. خشيت أن تكون هذه الحاسة قد نمت على حساب حاسة عزيزة أخرى لا تتصور أبداً أن تفقدها خلال يوم ما ...

جحافل الصداع بمعاولها الهدامة تخرب ثنايا الدماغ.. الحرارة أثرت الإقامة.. أنفاس الطبيب القريبة من وجهك توحى بمصير غامض.. لا تدري كنهه.. خيل إليك أنك تسمع دقات قلبه المتلاحقة.. وهو في حيرة من أمرك.. تخيلت أنك تدري ما يدور في رأسه.

— حذار من فتح عينيك ..ابق مكانك ..عينيك اليسرى مصابة ...

— ماذا ؟

— العين اليسرى مصابة ..علاجها ممكن..

— ساعدنا على ذلك بالصبر والهدوء ..والتقليل من الحركة .. والآن حاول فتح عينك اليمنى ، هل ترى شيئاً ؟

— أشباح ضبابية فقط يا دكتور .

— حسنا ستتحسن الرؤيا.. اطمئنْ

الغيبوبة أخذت تفارقك.. كابوس الخدر.. بدأت قوته تنهاوى.. انكشف سرّ
الظلام الذى وجدت نفسك تسبح فيه حتى أخص قدميك .. ما تكلمت حينذاك
عن السر، أو حاولت الاستفسار... ما جدوى أن تسأل عن أمور أخذت تتضح من
تلقيها نفسها .. آثرت الصمت .. أيقنت أنك مصاب في العين اليسرى إصابة بالغة
.. العين اليمنى لحقتها إصابة خفيفة .. الجسم يعانى رضوضا مختلفة .. الوجه بالونة
حمراء.. تحسّست بلسانك الأسنان واحدة تلو الأخرى لقيتها كلها ملازمة مواقعها ..
الاماميات ترسل إشارات مصحوبة بألم، وإن كان غير قوى .

الدكتور في حديث مع أحد الحاضرين بالغرفة:

— علاجه سيتم على مراحل ... البداية بعملية جراحية للعين اليسرى من
الأولويات، ثم نواصل العلاج للأعضاء الأخرى ...

— لكن يا دكتور

— لا مفرّ من ذلك يا أخي.. حتى لا يفقد المصاب عينه ...

— اللقطة الخامسة —

ها قد خفّت عنك الآلام.. أزال الطبيب بالأمس الضمادة عن عينك اليسرى
لبعض لحظات.. جربت الرؤيا ..كانت واضحة ..طلب منك المكوث بالبيت ريثما
تلتئم الجراح ...

خلال الليلة السابقة...دموع زوجتك انحدرت من مقلتيها غزيرة.. بصوتها العذب الحنون...ما فتئت تكرر على مسامعك:

— الحمد لله الذى أبقاك حيًّا كنت هدفًا لموت حقيقي

كانت المسكينة تتضرع لله أن يلهمك الطريق السليم.. أن يبعدك عن قرناه السوء.. قبل منتصف النهار بقليل أطل صهرك من الباب ..من بريق عينيه ..اكتشفت انه يحمل جديدًا :

— أُلقي القبض اليوم على الجرم.. تبين أنك الضحية الرابعة له في تلك الليلة المشؤومة.. امتد التحقيق الى الثلة التي كنت واحدا منها ، وإن كانوا قد أفرج عنهم مؤقتًا.. صدر الامر بإغلاق الحانة التي كانت سببا رئيسيا في بيعكم الخمر.

— إيه ..غلق الحانة معناه القضاء على الوبلاء...إن غيرها كثير من حانات تعمل في السر أو العلانية ، والتي تعمل في السر ما أكثرها ..إن العلاج لا يكمن في غلق هذه الحانة أو تلك ...

— على أية حال هو إجراء إيجابي اذا عُمِّم ... يقلل من خطر الوبلاء .. وفي رأيك كيف العلاج ؟

— في القلب يا صهري العزيز.. وأحسن منْ يعبر عن ذلك أحد الشعراء في بيتٍ شعري :

لا ترجع الأنفس عن غيِّها ما لم يكنْ منها لها زاجر

اللعب بالمكشوف !

عند باب البلدية الخارجي وجدَ العمّ محمود الحارسَ الليليَّ إبراهيم واقفا في قلق ، غير بعيد منه وضع أرضا كيسًا نيلونيا جُمعت داخله بعض الحاجات .. كاظمة قهوة ..أواني أكل.. بقايا فاكهة موسمية ..واقفا في قلق في انتظار زميله .. يبدو أنه ما سمع تحية الصباح التي تكرّم بها عليه العمّ إبراهيم الذي أعاد التحية بصوت مرتفع أكثر...

دنا من الحارس الطاعن في السنّ، والذي سلخ من العمر أكثر من ستين عاما قضى أكثر من نصفها حارسا ليليا في المدخل الرئيسي للبلدية ، يُؤنسه في ليالي الشتاء الطويلة غيرُ جهاز راديو صغير ينجح في التقاط محطتي تونس والجزائر فقط ، وأصوات القطط التي تكون أحيانا في قتال مُميت للفوز بالأنثى ، أو تقطع عليه تتبعه لحديث ليلي يُرسل به الأثير.. أو أصوات بعض شبان سكارى في خصام، أو ثرثرة انفرادية يفوه بها أحدهم وهو عائد الى مسكنه بعد أن يكون قد عبّ من الخمر الرخيص رفقة أنداد له ..يمضون ليلتهم في احتسائها ، ويقضون الجزء الأكبر من اليوم نائمين ... الأمسيات يبذرونها في التخطيط للسهرة لاعتين الحظ ..ناقمين على الحياة ..

الحارس الليلي قلقٌ.. نتيجة السهر، والعين المفتوحة التي عليها ألا تغمض ..والتعب بادٍ عليه بوضوح ..اقترب منه العم إبراهيم :

- أراك غير طبيعي هذا الصباح .. لستَ كما عهدتك دوما مشرق الوجه باسمّا حتى في أشدّ الضيق .
- كيف تريدني أن ابقى طبيعيا يا عم ، وعقارب الساعة تقترب من الساعة والحبيث ما وصل بعد .
- هوّن عليك سيصل بدون شكّ .
- ليست الأولى قد سبقتها مرّات أخرى .
- لعل مكروها أصابه، أو أصاب من يلوذون به .
- كنتُ أعتقد ذلك فيما مضى ، ولكن تبين لي فيما بعد شيء آخر .
- لا.. لا هوّن عليك، وهدّئ أعصابك.. دقائق وقد يصل .
- لن يصل يا عم ..أنا متأكد بأنه قضى ليلة حمراء رفيقة ...
- رفيقة منّ بربك ..أكمل من فضلك ...
- لا داعي لذلك أنت تعرف مع منّ، وربما حتى أين ...
- ...في الواقع لا أفهم ممّا تقول شيئا .. ماذا اعرف .. وماذا لا أعرف ؟
- استغفر الله يا عم ، عفوا يبدو أن اعصابي مرهقة.. ربّما صرتُ أهذي بكلام مبهم .

العمّ إبراهيم يعرف أن الحارس الذي لم يحضر بعد كثيرا ما يقضي ليلاه الحمراء إلّا رفيقة رئيس البلدية في وكر رئيسي أصبح معروفا من أوكار الدعارة، واحتساء الخمر وذبح الفضيلة ، حتى طريقة توظيفه محلّ نقاش بين العمال والموظفين ...القوانين الصادرة عن وزارة الداخلية تمنع كل توظيف ، حتى تحت عنوان تعويض من تقاعدوا.. العم إبراهيم السائق الخاص لرئيس البلدية أكثر من

غيره يعرف العلاقة الوطيدة بين الرئيس، والعائلة التي عادت من المهجر منذ حوالي سنتين...متكونة من أم شابة في نهاية الثلاثينات تتمتع بجمال أخاذ لا يزال يُبهر كل من يراها..اورثت جمالها لبنتين لها .. الأولى في العشرين من العمر، والثانية تصغرها بعام واحد.. إضافة إلى العنقود وهو طفل في الخامسة من العمر.. يكبر الجميع مراد ذو الثلاثة والعشرين سنة ... عادت العائلة برفقة الوالد المسيحي في الصندوق.. قضى نحبه رفقة اثنين من عمال المغرب العربي تعرضوا لاعتداء بشع في مدخل حي باريسى يقطنه المغتربون .

أحاط رئيس البلدية منذ البداية بمزيد من العطف الخاص هذه العائلة.. سعى جاهدا لتدبير المنزل اللائق لعائلة فقدت عزيزها وعائلتها .. وتعود أبناءها على نمطٍ من الحياة خاصٍ ... ويجهلون جهلا تاما مسقط رأسي والديهما...حتى الوالدة منذ أن برحت البلاد عروسا ما وطئت قدمها البلاد ...

ودع العمّ محمود صباحها زوجته مبروكة ..تناول قبلها فطور الصباح ، ما انتظر أبناءهما الثلاثة الذين يحلو لهم النوم أكثر في الصباح ، خرج مسرعا.. توجه الى مقر البلدية ككل يوم .. بعد دردشة مع الحارس الليلي الغاضب اتّجه إلى موقف السيارات أين القى نظرة شاملة على السيارات الجاثمة واحدة بعد الأخرى هذه من نوع تويوتا متوقفة منذ مدة ..محركها معطل.. لا تزال جديدة .. ذات يوم أخذها نائب للرئيس لا يملك رخصة السياقة ، أراد ان يتعلم بها .. فعطل محركها نهائيا.. كان دون ماء، وما روقت من أحد منذ مدة ...وتلك من نوع نيسان قيل إنها تستهلك الوقود بشكل فضيع، فأحيلت على التقاعد المؤقت ...

تذكر العم محمود ما دار من حديث ذات يوم بين أحد أعضاء المجلس الشعبي البلدي، وبين رئيس البلدية الذي قدّم للمجلس صورة عامة عن ميزانية البلدية تسييرا وتجهيزا.. وفي معرض كلامه عن مصاريف التسيير ضرب مثلا بما يُخصص سنويا لحضيرة السيارات.. فتكلم العضو في المجلس، والذي يمتهن الفلاحة، وصمّم على فتح نقاش في الموضوع.. فأغلقه الرئيس برد سعى من ورائه الى إسكات العضو وطيّ الموضوع :

— هذه سيارات بالفعل تستهلك الوقود بشكل مُخيف.. لكن الدولة قد استوردتها وهى على علم بما تقوم.. ونحن لا حيلة لنا في الأمر يا أخي .

نقل العم محمود نظره عبّر النوافذ .. ثم الهياكل .. ثم العجلات ليتوقف طويلا عند موقع محرك إحدى السيارات.. تارة وعند لوحة الارقام الأمامية تارة اخرى ... صدرت عنه تنهيدة من الاعماق ، ثم ألقى ممّا تجمع في فيه تخلصا من المرارة... وأسرع الخطى الى سيارة رئيس المجلس ذات اللون الازرق.. جاء بها العم محمود من مينئه سكيكة قبل سنتين .كان طابه الوحيد من الرئيس الا يقودها أحد غيره : فأجيب طلبه حينذاك... تقدم منها.. ألقى عليها نظرة أبوية حانية ، ثم فتح بابها ودلف إلى الداخل ، أدار محركها.. ضغط على دواسة الوقود برفق.. انتظر دقائق ليرتفع مقياس الحرارة إلى مؤشر الأمان واذا كان يهّم بإطلاق عنانها ، داهم سمعه صوت ملح صاحبه من المرآة العاكسة :

— عم محمود أنت تبني وغيرك يهدم .

— ما فهمت قصدك والله .. ماذا تقصد بالضبط ؟

— أنت ترأف بهذه السيارة، وغيرك يقسو عليها ...

- لكن لا أحد يقودها غيرى .
- اسمحْ لي إنْ قلت لك إننا من جيل كله نية خالصة يا عم محمود .. وكل واحدٍ نيته تخلصه .
- ما فهمت من هذه الألغاز شيئاً ؟
- أقصد أنك بنيتك الخالصة ، ونفسك الطيبة لم تلاحظ بعد أيام العطل الاسبوعية، والمواسم آثاراً لاستعمال السيارة من دونك... أقصد أنها مسخرة لأهل الرئيس وأقاربه .. وحتى في بعض الأحيان الخاصة للثلة.. ويقودها بنفسه ..
- ثلة منْ ؟ وأقارب منْ ؟ لقد حيرتني والله هذا الصباح .
- لا حيرة في هذا الزمان مع هذا الجيل يا عم محمود .. كل شيء جائز.. كل شيء ممكن.
- لكن مفتاح السيارة لا تبرح جيبى، أو يدي .
- وهل سألت عن المفتاح الثاني أين هو يا عم ؟
- ضاع من زمان .
- وممن ضاع ؟
- قيل لي ضاع وكفى ..
- ذاك هو بيت القصيد يا عم محمود.
- العم محمود مضى عليه كسائق في البلدية ما يقرب العقدين من الزمن ...نال رخصة السياقة بالجزائر العاصمة أواخر الستينات . بعد الاستقلال عمل سائقاً مدة سنتين لدى تاجر خاص يقود شاحنة صغيرة.. أرهقته السفريات الطويلة، أثر الانضمام إلى البلدية.. استقراراً، وقرباً من العائلة، والأبناء الصغار يومها..

عايش كل رؤساء البلديات الذين تداولوا على كرسيها الأول .. كل واحد منهم له قصصٌ معه.. قصص منها الممتع، ومنها المقرف للنفس؛ بل وحتى المبكية منها. عمله مع هؤلاء غير محدّد بفترة صباحية، ولا بفترة مساءية، ولا بدوام متّصل كباقي العمّال، والأعوان الإداريين .. عمله محدّد بنشاط الرئيس؛ بل وبمزاجه.. وحتى بنوعية علاقاته مع الغير، واتصاله بهذا الغير.. لكن غالباً ما يُنهي عمله بعد الجميع، وقد يمتدّ إلى ساعات متأخرة من الليل.. يقضي عدّة ساعات منها داخل السيارة وحيداً تلطّيه حرارة الصيف، أو ينهش عظامه قرّ الشتاء القاسي.. كل ذلك في انتظار عودة الرئيس من اجتماع.. من دعوة.. من جلسة قد تطول مع الأحباب، والأصدقاء.

مضى على محمود ما يزيد على النصف ساعة أمام مقرّ سكن رئيس البلدية.. خلال هذه الدقائق الثلاثين أعلن عن وجوده بعدّة إشارات.. ضغط كم مرّة على دواسة البنزين، فارتفع صوتُ المحرّك.. نزل من السيارة، وأغلق الباب كم كرّة بصوتٍ مسموعٍ.. تجرّأ أخيراً، وضغط على الزّمّارة.. دقائق قليلة وأطلّ الابن الصغير للعائلة .. براءة الأطفال قال:

— بابا .. ما يزال راقداً.

أسكت المحرّك.. أسند ظهره إلى المقعد.. ساورته لحظتها خواطر عديدة تداخلت فيما بينها.. ما وجد لها تفسيراً.. واصل الطفل الصغير:

— ماما ستأخذنا الليلة معها إلى عُرْسِ ليلي ابنة خالتي.. سنذهب في هذه السيارة.. أنا دائماً أركب بقُرب بابا.

أطلّت صاحبة البيت - أمّ الطفل - حمرة العينين، آثار النوم بادية على بشرتها الناعمة.. بصوتٍ أمرٍ خالٍ من كلّ دفءٍ إنسانيٍّ.. قالت:

— عم محمود.. إننا في حاجة ماسّة إلى السيارة هذا اليوم.. اتركها بعد غلق الأبواب.. وعدّ إلى البلدية.

— والمفتاح يا سيّدة؟

— خله عندك.

في طريق العودة التقى بالحارس الليلي إبراهيم مرّة أخرى، جمعهما الطريق الواحد.. خاطب الحارس العم محمود:

— صاحبنا لم يأت بعد.. قيل تواصلت سهرة الثلّة حتى الفجر.. لكن قلّ لي أين هي السيارة؟ هل تعطلّت؟

— لا والله.. السيدة أمرتني بتركها أمام منزلهم، والعودة راجلاً إلى البلدية كما ترى.

— أيّة سيّدة تقصد؟

حرم رئيس البلدية.

افترق الرجلان.. واصل كلّ منهما طريقه في الاتجاه المعاكس.. كان العم محمود يردّد في داخله:

— اللعب صار يجري بالمكشوف.

الدفء المفقود

منذ ثلاثة أيام وأنتَ في هذه الغرفة العفنة المتعفّنة وحدك.. رفاق الإقامة فيها معك صمّموا على مغادرتها في رحلة عطلة الأسبوع.. رحلوا في زيارات قصيرة لذويهم.. لم تنتهم عن العزم لقطع المسافات البعيدة، وإرهاق الطريق .

لَمَّا حملوا متاعهم، وأوشكوا على مغادرة الغرفة العتيقة.. القابعة بتعبٍ في أعلى حيّ القصبة العتيق المحتوي على كنوز حياة الأولين والآخرين.. تذاكر السفر في جيوبهم .. تغيّب أحدهم عن العمل يوماً كاملاً قبل أن تُقتطع أجرته لهذا اليوم من مرتّبه المقابل لأيام العمل.. أحسّوا بالسعادة تحتويهم.. بعضهم كان غير مصدّقٍ أنه تحصّل على تذكرة السفر.. وفي غمرة فرحهم طلب منهم زميلهم تعويض مرتّب اليوم المقتطع.. لبّوا طلبوا فرحين.. المهم الحصول على التذكرة..

لَمَّا حملوا متاعهم، وأوشكوا على مغادرة الغرفة كانت السعادة تغمرهم.. تظاهرتْ بالتأثّر.. قال عادل ابن الخمسة والعشرين عاماً الذي تزوّج حديثاً، ولم يعد إلى البلدة منذ حوالي شهرين :

— الشوق أقصّر مضجعي.. لازمني الأرق ليالي.. اشتقتُ لكلِّ شيءٍ في بلدتي حتى التراب والحجارة .

لَمْ يتركه أحدُ الزملاء يُكمل.. إذْ علّق :

— عاشقٌ ولهان .. مسكين .

صمت عادل قليلاً، وأدار وجهه صوب الجدار المتآكل.. لاحظ مبروك ابن بلدته دمعاتٍ تنساب من عينيه المغرورتين :

— عادل .. تبكي أفي مثل هذا اليوم السعيد تبكي ؟ وتنزل دموعك كطفلٍ صغيرٍ ؟
رفع رأسه.. سحب منديلاً مَسْخَا من جيب سترته العتيقة.. وقال :

— لا شيء .. لا شيء تذكرت فقط .. تذكرتُ.

كثيراً كهربائي دبّ في جسمك .. تذكرتَ أنت بدورك .. والذكريات جميلة
بأفراحها، وأتراحها.. غادر الرفاق الغرفة نازلين الدرجات الخرسانية المؤدية إلى
محطّة الحافلات في قفزات سريعة جداً.. متخطّين في كل قفزة درجتين.. ثلاث
درجات.. أربعاً مروراً بدروب القصبة الضيّقة.. والأزقة الملتوية.. قاطعين ساحة ابن
باديس .. فساحة الشهداء، ثم باب عزّون، فساحة بور سعيد .. فدرجات الهبوط
وصولاً إلى الرصيف المقابل لمحطّة القطار.

بقيتَ أنت مع الذكريات تحكيها لمن ؟ للجدران التي شاخت وملّت من
سماع آلاف الحكايات التي حكاها من نزل بهذه الغرفة العجوز طوال أكثر من خمسة
قرون .

تذكرت والدك الذي أقعده المرض، حيث داهمه منذ أن كان جندياً مغواراً من
جنود الثورة التحريرية.. آثاره لم تنمح بعد من الجبال والدروب التي كان يمرّ بها، ولا
يزال يذكرها قممها قمة .. قمّة، ودرباً درباً .. وحجراً حجراً .. تضاعف عليه المرض
في السنتين الأوليين بغد الاستقلال .. عاج وعالج ولكن بدون تحسّن إلى أن قبض
الله له طبيباً شاباً أحسّ بالراحة على يديه مدة عشر سنوات.. ثم ساءت حالته من
جديد.. يبحث عن الطبيب الشاب.. قيل له : نزح إلى العاصمة.. بحث عن أمثاله ..
أقنعوه بكبر سنّه، وباستحالة علاجه.. إنه مقعدٌ .. رهين البيت لا يخرج منه.. لا يزور،
ولا يُزار.. لولا تعلقه بما يجري في العالم عن طريق جهاز الراديو الوحيد في البيت،

لانتقطعت كل الصلات بينه، وبين العالم الخارجي.. أمنيته الوحيدة المتبقية له في حياته أن يراك - وأنت وحيدة - دائم الاستقرار بجانبه في البلدة.. عاملاً في رقعة الأرض الموروثة عن الأجداد والآباء.. الرقعة المتروكة منذ عجز والدك عن الحركة.. يوم هربتَ إلى العاصمة عرض القطعة على محمود ابن خالتك.. اعتذر بلباقة بدعوى أنه مسافراً إلى العاصمة لإكمال تعليمه.. رقعة نالت كأهلها الكثير من حقد الأعداء.. يكسو ظهرها الشوك، والنباتات الطفيلية.

تشعر بالذنب.. بالندم يعذبك .. في زيارتك الأخيرة كذبت على والدتك الطيبة التي تصدّق كل ما تسمعه منك.. استغلّلت طيبتها.. كنت تعتقد أنه نائم، وإدّ بها تخبرك فيما بعد أنه كان يقظاً .. مهموماً .. أجبتّها لمّا ألحّت عليك بالسؤال عن قيمة المرتّب الذي تتقاضاه آخر كل شهر :

— صاحب المتجر الذي أعمل عنده غنيٌّ كثيراً يا أمّي.. عقاراته، ومتاجره منتشرة في العاصمة من حي باب الواد إلى حي الحراش .

رفعت رأسها بإيماءة تُوحى بالتصديق، والتعجّب .. ثم قالت :

— لا شكّ يا ولدي أن ماله هذا لا ينعم به وحده.. ينعم به كل منْ يلوذ به، أو يعمل عنده .

— بالتأكيد .. الجميع ينالهم النصيب الوافر.

فهمتَ لتوّكَ مقصدها.. وغايتها التي تريد أن تصل إليهما.. واصلتَ كلامك :

— بالطبع.. أنا واحدٌ من هؤلاء.. ينالني الاحترام والتقدير منه.. ونتيجة محبّته لي، ورضاه عني خصّص لي مرتّباً مرضياً، غير أنه ارتأى بفعل محبّته لي أن يدفع لي

من المرتب المقرّر لي شهريا قيمة الربع فقط، والباقي يدّخره لي .. أبديتُ له ذات مرّة تحوّفاتي من ذلك.. طمأنني بقوله :

– كيف لا تثق بي ي بني ؟ أعمل هذا من أجل صالحك، وتأكدّ من أن مكافآت أخرى سأضيفها إلى ما ادّخرته لك.. ثم لو سلّمتُ لك كل مرتبك، ودماء الشباب تغلي في عروقك .. أخشى ما أخشاه أن تبعثره هنا وهناك.. لينهي الحديث معي بقوله :

– اطمئنْ .. في يوم آتٍ ستجد نفسك أمام مفاجأة لم تخطر على بالك قط، ولم تتصوّرها في حياتك.. بالطبع مفاجأة في صالحك.. ستحوّل وضعيك الحالية إلى وضعية أخرى بأحسن كثيرا .

سمعتَ لحظتها والدك يقول :

– الحمد لله .. إنّ بعد العسر يُسرّاً .

ثم ناداك وطلب منك الجلوس بجانبه.. مع مواصلة الحديث في الموضوع نفسه..
سألك :

– أيّ عملٍ بالضبط تمارسه مع هذا التاجر الثري ؟

– أقوم بممارسة الرقابة على المهام، والأعمال التي يؤديها كل العمال لديه في كل ممتلكاته .

– لم أفهم بالضبط يا ولدي.. ماذا تعني بالرقابة هذه ؟

– مراقبة سير العمل.. تنشيط العمّال، وإشعارهم بمسؤولياتهم.. الإبلاغ عن المتهاونين.. الإخبار عن التهاون، والتكاسل.. عن التغيبات، وحثّ الجميع على احترام المتعاملين.. وتقديم أحسن الخدمات لهم.

في تلك الأثناء .. كأنك شعرت بأن والدك غير مصدِّقٍ لِمَا تقول.. عَقَبَ
أثناءها على ما قلت :

— أصدقك القول يا ولدي.. إن هذ العمل يتطلَّب حنكة، ودراية في القدرة على
معرفة الناس، وتحركاتهم، ونواياهم، وطموحاتهم.. ودراية أيضا في الكتابة
والتدوين، وعلمي بك أنك لا تستوفي هذه الشروط .

— الحياة تغيَّرت يا أبي .. إن الثقافة اليوم تنوّعت مصادرها.. والمدرسة ما هي إلّا
مصدر وليست هي الكل.. فما لم يتعلَّمه الإنسان في هذه الأخيرة يمكن أن يتداركه
في غير ها وبطرق أفضل، وفي أقصر مدّة .. ثم إن صاحبي الذي أعمل عنده يُنفق
الكثير من أجل رفع مستواي التعليمي ..

— كيف ذاك يا ولدي ؟

— اختار لي أستاذًا له إلمامٌ واسعٌ بكل المعارف، وخاصة علم الحاسبة، وفن التجارة،
يقدم لي في كل مساءً بالمنزل الجميل الذي استأجره لي مُشغلي.. حصة تستمرّ
ساعتان.

خانتك أثناءها الاستمرارية في الحديث.. وبعد لأيٍ تمَدَّد والدك على فراشه غير
مُعَلِّقٍ على المقطع الأخير من حديثك .. أغمضتَ عينيك المتعبتين.. داهمك خوفٌ
من المستقبل، وأنت ترى والدك المسكين ما بقي له من شؤون الدنيا غيرك..
ووالدتك التي تحمل على كاهلها عوادي الأيام، وآلام مرض المرارة الذي لازمها ولا
يزال مدة ما ينيف عن العقدين.. من سنوات عمرها الخمسة والخمسين.. شعرتُ
بالندم يعذبك.. صوّتُ داخليّ يعاتبك :

— الكذب لا يليق بالإنسان السويّ يا رمضان ..

— الكذب جريمة.. خاصة في حق من تحبّ .

حوّلتَ نظرك عن والدك خجلاً منه، وإشفافاً عليه، فالتقتا بعيني والدتك الصامتة .. فأوشكتَ على الصراخ :

— لقد كذبتُ عليكما .. لا تأخذوا كلامي محمل الجدّ.. أنا إنسانٌ تافهٌ .. لم أستقرّ في عملٍ أكثر من شهرين، أو ثلاثة منذ حلّلتُ بالعاصمة.. أنا عدوٌّ للتعلّم، والتثقّف.. لقد بذلتما خلال طفولتي الكثير من أجل تعليمي.. حينذاك كان أكره شيء إلى نفسي المدرسة.. أنا كاذبٌ.. أنا تافهٌ.. تافهٌ..

انتابك الخوف وما دريتَ هل الخوف من المستقبل الغامض الذي لم تتسلّح له ؟ أم الخوف على والدٍ مُقعدٍ لا مدخول له غير منحة العطب المتواضعة التي يتحصّل عليها في آخر كل ثلاثة أشهر ؟ أم الخوف على والدّة تشتكي كل مرّة من عضو .. فجأة داهم سمعك صوّتٌ من المذياع الذي فتحه والدك، وهو يتمدّد في فراشه.. صوّتٌ ضاعف خوفك من المجهول.. من عتمة المستقبل :

— خمسة ملايين طفل مهدّدون بموت الجوع في إفريقيا هذه السنة..

— الثورة الصناعية في بعض البلدان النامية لن تنجح إذا لم تعتمد على فلاحٍ متطوّرة..

— نسبة قليلة م الميزانيات الضخمة المخصّصة لسباق التسلّح كافية للقضاء على الجوع في العالم .

— دول العالم الحر تتدارس إنقاذ الوضع المخيف في بعض دول العالم الثالث..
وأضاف المتكلم :

— ... والآن سيداتي .. سادتي إليكم تفصيل العناوين :

أغلق الأب المذيع معلّقاً :

— بعض دول العالم الثالث بالطبع التي تدور في فلك يُسمّى بالعالم الحرّ.. ثم أخذ يردّد الآية الكريمة: " إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم ".
أيّامها تركتَ أباك فريسة للمرض والقلق.. وأمك نهبا للوسواس والخوف..
الخوف عليك أنت البعيد.. وعلى أبيك القريب.. وعدتهم بالعودة الميمونة.. مُحملاً
بحصيلة المفاجأة السّارة التي وعدك بها صاحبك..

عُدتَ إلى أعالي القصبة.. لا تدري أأنت مختارٌ مجبرٌ على الإقامة في غرفة هرمة
عفنة متعفّنة.. لا تلتفت إليها الشمس على مدار أيام السنة.. والهواء النقيّ تحالف
مع الشمس في عدائها للغرفة.

في غرفة عفنة متعفّنة .. يقتطع منها مرحاضٌ لا باب له جزءاً من مساحتها
الضيّقة التي يقتسمها خمسة شبان قدموا من مطقة واحدة.. يوحدّهم النزوح إلى
العاصمة .. وعلى دُكر كلمة العاصمة التي تُوحى لهم بالكثير.. جاؤوا تاركين موارد
للعيش أفضل .. يقتسمون كل ليلة مساحة الغرفة الضيّقة بأفرشة أسفلها حصائر
بالية.. وأوسطها أكياسٌ خيشية، وأعلىها أغطية متسخة بالية.. تُبسط ليلاً، وتُرفع
نهاراً..

بمحاذاة الباب يقبع صندوق خشبي تسكن داخله أواني مطبخية عتيقة..
يلوّه موقدٌ غازي قديم يُصدر شخيراً مرّعباً أثله تأدية وظيفته.. منافذ الاتصال بين
الغرفة الهرمة .. المتعفّنة بعد الباب فتحة في أعلى المرحاض.. تطلّ على مرحاض
آخر خارجي تشترك فيه ستّ عائلات.. تتقاسم ستّ غُرفٍ في حوشٍ ضيّق المساحة
المشتركة.. تتحوّل في النهار إلى ميدان معارك ساخنة تارات بين الأطفال من شتّى

الأعمار تبرزهم الغرف المتجاورة ، وتارات أخرى بين المتساكنات ، ولا يريح الجميع من ذلك غيرُ سكون الليل البهيم .

في غرفة عفنة متعفّنة تأكلت أرضيتها بفعل أقدام الكثيرين ممّن وطأوها.. تشوّهت الطبقة الخارجية لجدرانها .. حُفرت عليها أسماء العشرات وتاريخ مرورهم ، أو بقائهم بها.. فوق رأس الجميع تمتدّ حبال مثقلة باللبسة ذات مقاسات متفاوتة، والألوان الباهتة.. يثقل ليلا ، وقد يُترك بحمله الثقيل لأيام.. الشمس في عداء مستمرّ التي تعلوها شبّهات لها في طابقيّن .. كاها تستغيث ولا مُغيث.. ترجّى تركها حرّة .. أمنة في سنواتها الأخيرة .. تحكي ذكريات المجد في عمرها الطويل.

ألا يحقّ لها أن تستريح ؟ أليس من حقّها أن تتقاعد ؟ وتخلو إلى نفسها بعضاً من الوقت ؟ .. إنها لا تزال تصرخ، وتُنذر نازليها بالتشقق والطقطقة.. لكن إلى متى ؟ العديد من عُرف هذا الحي الحامل للأعجاد انهارت.. انهيارها إشعارٌ للجميع بإخلاء البقية الباقية .. لا أحد يسمع، والنزلاء كثيرون .. كثيرون .. كثيرون..

ذات يوم قدّم لك صاحب الحمّام الذي تعمل فيه منظّفاً وكيّاساً كأس شاي ساخن مننع.. وبطرفٍ خفيٍّ أوماً لشخصٍ في العقد الثالث من العمر جله لتوّه، ويبدو أنهما من منطقة واحدة .. تبيّنت ذلك من حرارة الترحيب، وشدة الحفاوة.. أوماً له بالجلوس.. قال لك :

— منذ شهر رمضان المبارك لم تزرّ أهلك .. لا شكّ أنهم مشتاقون إليك.. بودّي يا ولدي أن تزورهم فإني أسمع لك بذلك .

— لم أفكّر بالموضوع بعد يا عم . ثم كم يوماً تمنحني ؟

— حسب طلبك .

— سأفكر في الموضوع .

عبس صاحب الحمام .. زمّ شفتيه .. ما لبث أن أدار كفة الحديث لجليسه..
أفرغت نصف الكأس في جوفك.. انصرفت.. قادتك قدماك إلى خارج الحمام..
وقفت أمام الباب.. استهواك جيش ياجوج وماجوج في حركات هستيرية تصاعدية
للدراجات الخرسانية.. وقف أمامك شاب قوي الجسم.. حسن الوجه.. في عينيه
لمست فقر العالم، وموت العشرات من الجياع.. في عينيه وجدت أسباب الطواير
الطويلة أمام المؤسسات التجارية العامة الكبرى في العاصمة وفي غيرها من المدن
الكبرى، وغير الكبرى .. قال بوقاحة ودون حياء وهو يمدّ يده متذللًا :

— شيئاً من المال يا أخي .. يساعدني على الغذاء، ويكمل ثمن تذكرة عودتي إلى
مسقط رأسي.. كنت نزيل مستشفى مصطفى الجامعي .

تذكرت لحظتها عشرات من الحالات المماثلة.. من ملامح وجهه تبينت
عشرات الوجوه التي قابلتك بنفس المعنى، واختلاف الكلمات .. قات :

— أنت تطلب الغاية دون وسيلة.. دون بذل أيّ جهدٍ عقلي أو عضلي، والوسيلة
بين يديك طيعة.. وأنا الواقف أمامك أحلم بامتلاك الغاية، فالوسيلة والجهد
موجودان ومبذولان معًا .. الغاية منالها جزئي.. والمنال الكلي صعبٌ .. بل مستحيل

..

برقت عيناه.. اقترب منك أكثر .. وقال :

— أنت تهزأ مني .. تتحدّث بكلام لا أفقه منه شيئاً .

— أنت تطلب وسيلة العيش الجاهزة دون بذل أيّ جهدٍ .. وأنا أعمل لامتلاكها
بطرق شرعية دون تذللٍ .. كلانا يبحث عن غايته.. ولكل طريقته الخاصة .

انصرف الشابّ دون خجلٍ .. مولّيًا وجهه شطر محلٍّ آخر..
وحدك في الغرفة العفنة المتعفّنة .. قضيتَ ثلاثة أيام بلياليها لم تذهب إلى
الحمام.. مالكة منحك إجازة بدون أجره لمدة يومين.. بدعوى ضرورة الراحة لكل
عامل.. ما غادرت الغرفة، حتى لو غادرتَ إلى أين تتجه ؟ سيصادفك في الطريق
البعض ممّن تعرفهم.. إمّا أنهم حلّوا حديثًا بالعاصمة.. جيوبهم خاوية، وقلوبهم
عامرة بالأحلام والأمانى، وإمّا جيوبهم فارغة، وأثدتهم فقدت أحلامها،
وطموحاتها، وعقولهم سُلت عن التفكير والتدبير في المصير..
الكلّ من هؤلاء إذا عاد إلى مسقط الرأس يسير فرحًا .. مختللاً .. فخورا بنفسه
أمام بني بلده.. مثيّرًا في أنداده شهية النزوح إلى العاصمة البيضاء.. عروس البحر
الأبيض المتوسط .

في نشرة الأخبار الصباحية .. قرأ المذيع :
— نهوضًا بقطاع الفلاحة، قرّر مجلس الوزراء تقديم الإعانات الكافية للفلاحين
الصغار حتى يتمكّنوا من المساهمة في الثورة الخضراء التي نشدها جميعًا .
أغلقت المذيع العجوز .. اكتفيت بما سمعت .. غمرت موجة من السكينة،
استسلمت لها بعضًا من الوقت.. سرعان ما أخذتك الذكريات من جديد فانصعت
لها طائعًا .

والدك يلفّ رجليه بالغطاء الصوفي الأبيض.. يومها وأنت تودّعه قال لك
بتأثر :

— المدينة يا ولدي بئرٌ عميقة جدرانها ملساء.. كلّما حاولت الخروج منها ارتدّت
على أعقابك خاسئًا .. صقيعها ينخر خلاياك.. فيها تفقد الدفء الإنساني الذي

ترعرعتَ فيه .. الحياة يا ولدي رحلة شاقّة في دربٍ طويل .. أرضه تارات مفروشة بالورد، وتارات بالأشواك.. وعلينا جميعاً السير في هذا الدرب مرغمين.. وسيلة السير يا ولدي تختلف أماننا، والحياة تجارب.. جرب .. سيأتي يوم تجد البرد يسكن كيائك.. ينخر عظامك، حينها تتشوّق إلى دفء الحنين الذي افتقدته.. الدفء موجود هنا في هذا البيت البسيط بساطة أهله، وطيبتهم .

في هذه الرقعة الطيبة .. في هذه التربة الزكيّة أعزّ ما نملك .. أنظرُ إليها إنها حزينة تفتقر إلى لمسة حنان من يدٍ تقدّر قيمتها.. آه يا ولدي قدّمتُ لها كل طاقتي.. كل قواي العقلية والعضلية قبل الثورة .. ثم واصلتُ بعدها إلى أن حلّ قضاء الله بي، والحمد لله على قضائه.. أنا الآن آلة معطّلة .. محرّكٌ قديمٍ بالٍ أدّى ما عليه .. تعطلت مكُوناته.

قضيتَ ثلاثة أيام بلياليها وحدك تنبش كيس الخبز المتبقّي من الوجبات السابقة بحثًا عن قِطعٍ ليّنة تسدّ بها الرّمق .. وقد تضيف إليها شيئًا من معجون الطماطم، أو رأسًا من بصلٍ.. أو .. أو .. أمك تحلم كل ليلة بالمفاجأة الكبرى التي وعدك بها صاحب المتاجر والعقارات الثريّ الذي ابتدعه خيالك.. وأبوك يحلم بعودتك كي تعوّض الدفء المفقود لديك.

بعد سماعك لنشرة الأخبار الصباحية بالأمس.. قرّرتَ قرارًا لا رجعة فيه.. سألك رفاق الإقامة في الغرفة العفنة المتعفّنة لما عادوا، وقد فاجأتهم تذكرة السفر وهي تطلّ من جيب سترتك :

— كيف خطر لك هذا السفر المفاجئ؟ أهلك بخيرٍ في البلدة .

- أنا الذي لستُ بخير يا رفاق ...
- ولكنك بخير .. وتنعم بصحة جيدة .
- ظاهريا ذلك.. أمّا باطنيا فالخير الذي تتكلّم عنه يحصل إلّا عندما أستعيد الدفء المفقود الذي فقدته هنا.. سأجده هناك مع حنان الأصول، ومع التربة الزكيّة المعطّلة .

الرجل الأنيق

- 1 -

توقفت سيارة أجرة في المحطة المركزية بعاصمة الولاية، لفظت مجموعة من الركاب، من بينهم رجل أنيق .. طويل القامة.. ممتلئ الجسم.. صفحة وجهه بيضاء مشوبة بجمرة جذابة .. له عينان تمتازان ببريقٍ أخاذٍ تكشفان عن دهله ليس من السهل اكتشافه من لدن الإنسان العادي.. في يده حقيبة دبلوماسية بنية من النوع الرفيع.. لفت أنظار الحاضرين في المحطة بمظهره ذاك.. غمز أحد السائقين مشيراً إلى الرجل زميلاً له، وهمس :

— وجهه غير مألوفٍ في منطقتنا .

وقف الرجل الأنيق .. وضع الحقيبة الدبلوماسية أرضاً.. جاب ببصره المحطة، وكأنه يبحث عن أحدٍ، ثم امتدت يده إلى الحقيبة مرةً أخرى.. تحرك خطوات قليلة، وتوقف من جديد.. أشرق وجه السائق الزميل عن ابتسامة مصطنعة، وهتف بحماس صوب الرجل الأنيق :

— مرحباً.. تفضلُ نحن في الخدمة يا سيدي.. كل الاتجاهات نعمل فيها.

ردّ الرجل التحية بأحسن منها.. والخجل المصطنع يكاد يلجم لسانه.. ثم قال في صوتٍ متهدّجٍ يبدو فيه الاضطراب، وتفكّك الألفاظ :

— أريد منكم خدمة إنسانية .. أكرمكم على الله .

— نحن في الخدمة سيدي .. أعلنّاها ونكرّرها، افصح عن مبتغاك ونحن لك سامعون.

— لي ابنٌ وحيدٌ أُصيب منذ سنواتٍ بمرضٍ عصبيٍّ، عرضته على خيرة الأطباء، عامين واختصاصيين داخل البلد، وخارجه.. صرفتُ الأموال الكثيرة من أجل تخفيف آلامه، وبدون جدوى، ولا حتى تحسّن طفيف طراً على حالته.. الحياة مسودة في وجه أمّه زوجتي، وما بقي للحياة طعمٌ بالنسبة إليّ.. خاصة وأنّ الله - وهذه حكمته - ما رزقنا غيره .

بدأ التأثّر واضحاً على أحد السُّواق الذين أخذوا يقتربون من الرجل ويحيطون به.. قال السائق المتأثّر بصوتٍ رقيقٍ تتّضح منه الشفقة على أبٍ ملتوٍ :
— لك الله يا سيد.. إن رحمته تسع كل شيء.. وهو على كل شيء قدير.

أضف سائق ثانٍ بتأثّر واضح :

— كم من مأسٍ في هذا العالم .. يا ويح البشر من أرزاء الزمان.. ويا ويحهم أيضاً من أنفسهم .

أنزل الرجل الأنيق يده .. وضع الحقيبة أرضاً متصنّعاً التأثّر والأسى.. رافعاً وجهه إلى السملة مستغيثاً.. نطق أحد السائقين بتأثّر :

— لكم يحزننا يا سيد أن تنصرف دون أن نقدم لك بعض المساعدة.. لكن افصح عن مرادك ، ولا تحجل .. نحن إخوة .

قال في أدبٍ متصنّع.. بعد تردّد مشوّبٍ باضطرابٍ :

— بعد أن عييتُ، وأوشكتُ على اليأس في العثور على طبيبٍ يُوفّق في علاج ابني المسكين.. أخذتُ أتصيّد الأخبار علنيّ أعثر على رجلٍ صالح، أو طبيبٍ يعالج بالأعشاب، والعقاقير الطبيعية.. أخيراً وصلتني أخبارٌ عن وجود رجلٍ صالحٍ في هذه الولاية يتخذ الطبّ الشعبي وسيلةً لعلاج مرضاه، وحسبما سمعتُ من زوّاره بالذات

الذين شُفُوا من أمراضهم، وعادوا مُعافين أنّ الرجل ورعٌ.. تقيٌّ يخاف الله، وليس جديداً، أو متطفلاً على هذه المهمة.. يمارسها منذ سنوات.. وشهرته وصلت كل ولايات الوطن .

التفت السائقون لبعضهم البعض، وكأنهم يستنجدون ببعضهم.. هتف أكبرهم سنّاً، وأقدمهم في المهنة، وتواجدًا بالمنطقة :

— يا إلهي.. إن هذا الرجل الصالح لا أسمع به فحسب، بل أعرفه، وكثيراً ما أوصلتُ له زبائن من هذه الولاية ومن خارجها .

أثناءها انبسطت أسارير وجه الرجل الأنيق، وأبدى للحاضرين عن ارتياحه :
— أنتم نعم الرجال والله.. سمعتُ الكثير عن خصال سكان هذه الولاية المضيفة، وها أنا أرى وأعيش أفضل ممّا سمعتُ.. كأني في حُلْمٍ .. لا يزال الخير في عباد الله .
واصل أحدُ السائقين مؤكّداً كلام الرجل الأنيق :

— تأكّد يا سيد أن الخير سيبقى في عباد الله كلّما تراحموا فيما بينهم.

أضاف السائق الكبير السنّ :

— إني أعرفه شخصياً .. تفضّل معي كي أوصلك إليه.. اطمئنْ سأوصيه خيراً بك..
تأكّد أنه طبيب ماهرٌ.. ورجلٌ تقيٌّ .. الشفاء بفضل الله مُؤكّد على يديه.. سيصدق ويخلص في معالجة ابنك .. اطمئنْ..

- 2 -

يستطيع المرء في هذا العالم أن يعمل كل شيء طالما تعلّل بالحرية التي هي حقٌّ مقدس وثمان من حقوق الإنسان، وأن يقول كل شيء طالما تعلّل بحرية التعبير،

والناس يصدّقونه.. كما يستطيع المرء في هذا العالم أيضاً أن يخلق الكثير من الأشياء اللامعقولة طالما أن الناس في هذا العالم جانبوا العقل، والعقل صار منسياً في كثير من القضايا، والمواقف.. والمتشبّث بالعقلانية منعوتٌ إمّا بالجنون، وإمّا بعدم مسايرة التغيّر الحاصل، والذي مسّ كل شيء..

خاطب الناس باللامعقول.. شيّد لهم قصوراً في الخيال.. انشئ لهم مشاريع في الأحلام سيصفّقون لك.. بالتأكيد ستفقدك وراءهم كالأنعام.. كل شيء ممكن طالما الناس في هذا الزمان يصفّقون لبرامج لا معقولة يعلن عنها هذا (الحزيب)، أو ذاك.. أحزاب تنبت كالفقاقيع السامة هنا وهناك..

الناس جانبوا العقل.. سماسرة الأحزاب اتخذوا اللامعقول طريقة لمخاطبة الناس، وهم مُصيبون في ذلك طالما الحكمة الماثورة تنصّ على مخاطبة بما يفهمون.. الناس في هذا الزمان يُقادون باللامعقول، والعقل ترك مكانه في هذه الربوع.. فرّ مهزوماً ولو إلى حين.. باللامعقول وجدت الأحزاب المتناسلة.. المتوالدة كالفطريات في مدة وجيزة حلولاً خيالية لكل المشاكل المتراكمة منذ أزمانٍ سبقت، وأيضاً المشاكل المستقبلية للأجيال التي تقف مترنّحة أمام الأعاصير الهوجاء القادمة في تحدٍّ، ووحشية من كل الاتجاهات .

في هذا الزمان اللامعقول .. لا تستغرب وأنت تدخل القرية - س - تواجهك عشرات السيارات تكشف لوحاتها الترقية اختلاف الولايات التي جلت منها، ولما تتقدّم داخل القرية تواجهك جماعات، وأفراد من الجنسين .. من كل الأعمار أتت على متن تلك السيارات.. غاية هذه الأنفس البشرية زيارة رجل صالح.. اتّخذ من مسكنه الفخم الواقف بأناقة منفرداً.. متفرداً .. بعيداً عن مساكن القرية.. تحيط

به بساتين غنله، يعتني بها بعض الأتباع المؤمنين أعمق الإيمان بكرامة الشيخ الرجل الصالح.. لك أن تختار سمّه : الشيخ.. سيدي الشيخ.. الطبيب .. الطبيب الشعبي.. الرجل الصالح.. الطبيب الورع.. سمّه ما تشاء.. فأنت مُصِيبٌ في كل حالة.. إنَّ زوّاره الكثيرين يرون فيه كلّ هذه الصفات، خصوصاً لما شَيدَ لهم أخيراً إقامة لائقة لاستقبال زوّاره، ومُريديه، والقادمين من أماكن قصبية.. ينعمون فيه بالإيواء، وحُسن الضيافة طالما هم ينتظرون دورهم .

- 3 -

قبل أن يعود السائق أدراجه.. كان وفيّاً ، إذ أوصى الشيخ غيرا بزائره الرجل الأنيق.. إضافة إلى أنه استغلّ معرفته بالشيخ من قبل فأذن له بالدخول قبل غيره .

توقّف الشيخ عقب ذلك عن استقبال مرضاه.. هبّ واقفاً لتحية زائره، وهو يدخل عليه في عيادته.. وما كانت تحية عادية.. بل كان استقبالاً خاصاً مميّزاً.. كان الشيخ في أبهة الأطبله، ووقار العلماء، ورزانة الحكماء.. هادئاً ذا نظرٍ ثاقبٍ، ووجهٍ مشرقٍ يبعث الطمأنينة في النفس.. نصائحه يشعر بها الناظر إلى وجهه.. تنساب برفقٍ لتستقرّ في القلب هادئة .

— مرحباً بك.. تفضّل ولدي.. شرفّتي بحضورك، وشرفّت هذا العيادة بزيارتك.. إنك بشير خير.. كيف لا وأنت القادم من ولاية بعيدة، وهذا يسرّني كثيراً، ويبعث الارتياح في نفسي، قدومك معناه أن السبيل الذي سلكناه منذ سنين عديدة كان موفقاً، وذا أهداف نبيلة .

— أحسّ الآن فقط يا سيدي بالأمان.. طفتُ الدنيا، وعانيت الكثير من المتاعب، وأعيتني كل الحيل بحثًا عن طبيب يعالج ابني الوحيد.. فما عثرت عليه.. وكلما أفشل يتضاعف عذابنا.. آه يا سيدي لو ترى أمّه المسكينة كم كابدت، ولا تزال من العذاب، وهي تراه يذبل يومًا بعد الآخر كالزهرة تقترب منها المنيّة .

مسح الشيخ لحيته الطويلة المخضّبة بالحنّاء، وقاطع متكلمه :

— أمّ الطفل يعني حرمكم .

— نعم يا سيدي .. كل شخص يلجأ إليك ولديه مشكلة مرضه سواء أكانت صحية، أو نفسية ، أو اجتماعية حسبما بلغنا .

— بالطبع يا ولدي.. ذلك كله من توفيق الله لنا .

— سمعنا عنك الكثير .. سمعنا أنك تبذل أقصى ما في وسعك لتساعد مرضاك.. لا تنس يا سيدي أن كل مريض يأتون به إليك وراءه مرضى آخرون.. يتعدّون لمرضه، ويتألّمون لآلامه .. إن زوجتي المسكينة تتألّم أشدّ الألم.. كيف لا وهي ترى فلذة كبدها ينهشه المرض اللعين الذي لا يرحم.. والموت يوشك أن يختطفه.. ما أقسى الحياة!! وما أكثر معاناتها سيدي الشيخ !

مسح الشيخ لحيته المخضّبة بالحنّاء مرّة أخرى، وحول نظره نحو اتجاه آخر قبّالته، وكأنه يبصره الثاقب يخترق الحُجُب.. باحثًا عن شيء مُحبّب إليه خارج الغرفة، وبرزانة الشيوخ العلمة.. نطق :

— تفاءلْ خيرًا يا ولدي.. ولا تُسيء الظنّ بالله.. فالله رحيم بعباده، ونعم الموقّق.. دون ريبٍ سيوفقنا في علاجه .

استقرت عينا الشيخ في وجه الرجل الأنيق.. تجوب صفحته.. تستشف ملامحه.. وأضاف :

— لو أحضرتَ الطفلَ وأمه معك لكان أفضلَ لكم ولنا، فالدار يا ولدي كما ترى واسعة.. نخصص لكم منها غرفة خاصة بكم، وتنزلون ضيوفاً علينا لمدة أيام.. يوفقنا الله في علاج الابن، وعلاجكما أنت والزوجة الكريمة إن كنتما تشعران بمكروه .

— أكرمك الله سيدي، وزادك بسطة في العلم والرزق.. كأني في حلمٍ .. إنني أعيش أكثر مما سمعتُ.. أمثالك سيدي - وبدون مبالغة - باعثوا الأملَ في النفوس اليائسة، وزارعوا المحبة، والأمل وحبَّ الحياة في القلوب الجذيلة.. أشعر في هذه الآونة أنني أسبح في عالم الحبَّة، والطَّهر، والنقْلة.. أنا في عالم علويٍّ كله براءة وصفاء.. يا إلهي ما أحلى الحياة لما تسود المودة وتغمر الجميع .

صمت الرجل الأنيق لحظات.. ثم واصل بصوتٍ متهدِّجٍ مشوب بالارتباك :

— سيدي ربَّما للوقت أشرُّ عليَّ بما يجب القيام به.. هل نقدم عليكم ضيوفاً كما تفضِّلْت ؟ أم آتي بالابن وحده دون أمه ؟ .. وأفضل اقتراح لو تأتي أنت معي يا سيدي تكون ضيفنا المبجل لأيام ..

— إن عرضك غالٍ يا ولدي ومؤثِّرٌ في نفوسنا.. لكن كما ترى عدد الزبائن الذين توسَّموا الخير فينا، وجاؤونا من مسافات متفاوتة البعد، ومن أماكن مختلفة.. علينا أن نؤدي الواجب تجاههم بالتخفيف من آلامهم، وبعث الطمأنينة في نفوسهم.. إن هذا البيت العامر في انتظاركم.. اعتبره بيتك أنت وزوجتك الكريمة، وابنك إنني في انتظاركم آملاً أن تسرعوا في الحضور حتى لا تسوء حالة الطفل أكثر .

والرجل الأنيق يمدّ يده مودّعاً ركّز الشيخ نظره صوب مكانٍ ما .. مستشفّاً شيئاً غير موجود بالمكان.. خطا الرجل خطوات قليلة مقترباً من عتبة الغرفة، والشيخ لا يزال واقفاً في مكانه.. التفت إلى الوراء كمن نسي شيئاً مهماً .. عاد بخطوات ارتدادية إلى الوراء، وهمس للشيخ المندهش :

— أذكرك سيدي بأني مدير بنك، ولئن كان هذا أخبرك به السائق الذي جله بي إليك.. فلا بأس بالتذكير.. في هذا الموضوع بالذات اسمح لي سيدي الشيخ أن أعرض عليك خدمة متواضعة.. في الحقيقة ليست في مقامكم السامي.. إنما هي بادرة فحسب أستهلّ بها خدماتي إليك، وردّ الجميل، وستليها خدماتٌ أخرى أهمّ، وهذا مؤكّد بإذن الله.. هو قليل مقارنة مع حفاظك بي، وحسن استقبالك، واستعدادك علاج ابننا، ثم استقبلنا كأفرادٍ من عائلتك .

— ما قمتُ به واجبٌ عليّ يا ولدي تقتضيه مبادئ ديننا الحنيف، والواجب الإنساني — لا يهدأ لي بال يا سيدي حتى أتشرف بأداء خدمة أراها ضرورية في هذا الظرف، لأن عدم أدائها منّي قد يتسبّب في ضررٍ لكم .

— إذا كان الأمر كذلك يا ولدي فأنا أقبل عرضك .

— بحكم أنني مدير بنك كما أعلمتك بمقرّ الولاية التي أقيم بها، فأنا أعلم بالكثير من الأسرار المالية، والقرارات الإدارية المنظّمة لحبايا عالم المال، ومن هذه الأسرار التي وصلتني أمس مساءً، وما أطلع عليها أحدٌ حتى الساعة.. إنما لا بأس أن أطلعك عليها سيدي الشيخ، وهي سرٌّ ..أكون وضيعاً لو لم أعلمك عنها رغم سرّيتها :

— أهو سرٌّ خطيرٌ له علاقة بي ؟

— ليس بهذه الدرجة، ولا يهَمُّك أنت فحسب، بل يهَمُّ الجميع.. إنما الحسم فيه هو سرعة ربح الوقت.. ومن يربح الوقت قد لا يضيع منه ولا ديناراً واحداً .

— حيرتني يا ولدي .. أما تفصح عما تريد قوله ..

— في الأيام القريبة القادمة تقرّر سحب كل الأوراق المالية ذات المئتي دينار من التداول العام، ويُعوّض المواطنون بدلها سندات، وقسيّمات مؤجلة الدفع .

امتقع وجه الشيخ، وارتعدت فرائضه.. فسقط من على منكبيه برونوسه المخملي الأحمر الموشّى بالتصدير الذهبية، وزال عنه وقاره.. صرخ :

— يا للهول.. إنّ الأمر خطير.. كم هم خبثاء أهل الحلّ والرّبط في هذا البلد ؟

وصمت الشيخ ليسود في الغرفة سكون الأموات، وكان صدره في تلك اللحظات الحرجة مسرّحاً لصراع داخليّ، إذ كان عليه أن يختار بين أمرين: إمّا أن يطلب الإعانة من الواقف أمامه، أو أن يخلد إلى نفسه.. كاتماً سرّاً ما تحت يده من تلك الأوراق المالية.. ساتراً عرضه، ومكانته.. ظلّ لدقائق فريسة لأفكار تتجاذبه، وتتنازع.. أخيراً تغلّبت عليه نفسه، وانقاد للطبيعة البشرية بنوازعها المختلفة، وحبّها للبقاء.. وما لبث أن ربت على كتف الرجل الأنيق، ونظر إليه بانكسار :

— أرجوك مساعدتي ما دام الأمر بهذه السرعة.

— أنا في خدمتك يا سيّدي .

— أرشدني إلى طريقة أنقذ بها ما تحت يدي من هذه الأوراق النقدية المزع سحبها من التداول..

— الطريقة بسيطة سيدي الشيخ.. اجمعها واضبط حسابها بدقّة، وسلّمها إليّ ، وسأتكفّل بكل الإجراءات باعتباري مدير بنك.. لكن من الضروري أن ترسل

أحد أتباعك، أو أقربائك معي كي أسلم له نفس المبلغ، وبالأوراق المتداولة حالياً ذات المائة دينار جزائري .

- 4 -

اختفى الشيخ لبعض الوقت، ثم عاد بكيسٍ مملوءٍ يحتوي أوراقاً نقدية منها ما هو ممسكٌ ببعضه، ومنها ما هو غير ممسك، ومتداخل في بعضه.. سلّمها الشيخ للرجل، ويداه ترتعدان، ووجهه زال منه الدّم، وكأنه خرج لتوّه من وعكة صحيّة ألّمت به عدّة أيّام.. قال الرجل الأنيق :

— هل عددتها يا سيدي ؟

— لا .. لا.. ما عددتُها.. عدّها أنت هناك في البيت مع ابننا الذي سيرا فُك، ويعود إلينا بالمبلغ مرّة أخرى.. إنّ ربح الوقت في مثل هذه الحالات لا يُقدّر بثمن.. ثقتي فيك مطلقة يا سيدي...

نادى الشيخ ولده الأكبر إبراهيم ذا الثلاثين عاماً، وطلب منه مرافقة الرجل..

خاطب أباه مندهشاً :

— إلى أين يا والدي ؟

— إلى حيث يتجه هذا الرجل الشهم .

— ما الأمر يا والدي لم أفهم شيئاً .

— رافقه، ويتعرف منه، ومَنّي الموضوع فيما بعد .. الوقت يضايقنا .

دخل الرجلان إلى البنك.. تقدّم الرجل الأنيق صوب ممرٍ ينتهي بباب فخّم علّقت في أعلاه لوحة بلاستيكية سوداء مزخرفة.. نُقشت عليها بخطٌ كوفيٍّ جمي، وبلون ذهبيٍّ لماعٍ عبارة : " مكتب السيد المدير " .. أمام الباب مباشرة تظاهر الرجل بالبحث عن المفتاح، وبدلاً من إخراجها من جيبه، أخرج قطعة نقدية ذات عشرة دنانير، والتفت إلى إبراهيم ابن الشيخ، مخاطباً إياه بلهجة جدّية مشوبة بمسحة من الحسرة على شيء ثمين يُوشك أن يضيع :

— إبراهيم كما ترى الوقت يضع بسرعة، والبريد يوشك أن يغلق أبوابه، ونحن في حاجة ماسّة إلى طابع رسمٍ بعشرة دنانير كي نتمكّن من إتمام إجراءات تبديل أوراق والدك المالية ذات المئتي دينار التي ستُحسب من التداول بأوراق العشرة دنانير، وتعود بها إل والدك .. الرجل الطيّب ..

عاد إبراهيم ويده طابع الرسم.. في اتجاه مكتب السيد المدير كان الممرّ خالياً تماماً، ولا أثر للرجل الأنيق.. انطلق إبراهيم بحثاً عن الرجل الأنيق في الممرّات الأخرى، وأمام الشبابيك.. وما دلف أن إلى قاعة الانتظار.. كانت بدورها خالية، واندفع كمن أُصيب في أعزّ ما يملك إلى مكتب المدير.. غير عابئٍ بالكاتب الخاص الذي حاول إيقافه.. وقف وجهاً لوجهٍ أمام السيد المدير، وعينه مفتوحتان عن آخرهما والشرر يتطاير منهما .

فُوجئ بشخصٍ آخر تكدّست أمامه ملفات عديدة، ووثائق مختلفة، وهو يكمل حديثاً مع أحد زبائن البنك.. وقف إبراهيم مشدوهاً، ثم خارت قوّاه، وتهالك على

أقرب مقعدٍ.. أحسَّ بغصّةٍ في حلقه.. وبينما المدير وكاتبه، والزبون انتابتهم الحيرة والدهشة أغمي على إبراهيم.. وحبّأت من العرق تتشكّل فوق سطح جبهته .

- 6 -

.. حين عاد إبراهيم ليعلم أباه بالخبر المشؤوم .. بدا وجهه مصفرّاً .. شاحباً أشبه بليمونة.. أحسَّ الوالد وهو يراه في حالته تلك أنّ مكروهاً حصل بالتأكيد.. انتشر الخبر بسرعة البرق في القرية وضواحيها.

امتنع الشيخ عن معالجة مرضاه، واستقبال زائريه، ورؤية مُريديه لمدة ثلاثة أيام.. ملازماً الفراش، واستقبل غير صديق العمر الشيخ مبروك الذي يعرف عن الشيخ الشيء الكثير، حتّى أدقّ أسرارهِ.. قال الشيخ مبروك وهو يضحك بملء فيه :

— خطّطت للإيقاع به وبزوجته.. كان ذكياً وداهية فاعدّ لك خطة محكمة، ونجح فيها .
— نجح ابن الكلب في خطّته، وخدعني، واستولّى على البعض من حصيلة العمر.. لكن لا بأس سأعوّضها منهم .

— أصدقني القول .. كم أخذ منك بالضبط ؟

— تقريباً حوالي عشرة ملايين سنتيم .. لا تحزنْ يا شيخ مبروك .. باب الرزق مفتوح، والبلهه عددهم يتزايد من يوم إلى آخر.. وقد أسترّد المبلغ في ظرفٍ وجيزٍ .

— كيف ؟

— هذا من أسرار المهنة يا صاحبي.. إنهم مغفلون، ولو كانوا عكّس ذلك لَمَّا أتوني إلى هنا ..

خرج الشيخ مبروك من عند صديقه الرجل الصالح، وتركه وحده يقهقه بصوتٍ عالٍ مردّداً :

— إنهم أغبياء ومغفلون .. سيعوضون ما فقدته.. سيعوضون ما فقدته .. سيعوضون
ما .. سيعوضون ...

في دروب الفردوس

- 1 -

فاجأه الحرّكي بلكمة في معدته، أعقبها الحرّكي الثاني بركلة في منطقة حسّاسة بين الفخذين.. تهاطلت الأسئلة : كيف دخلت ؟ كيف وصلت ؟ ماذا تحمل ؟ .. مخرب.. معك سجائر كثيرة لمن ؟ تكلم.. تكلم ..

توالت اللكمات .. شارك فيها حرّكي آخرون.. تهاطلت أسئلة الاستتطاق.. سال الدم من جبينه وأسنانه.. جرّوه ككلبٍ موبوء، وقبل أن يُلْقُوا به في غرفة ضيقة معتمّة.. صدئة الجدران بمحاذاة المراحيض سقوا وجهه الذي ألهمته الصفعات بصاقاً .

- 2 -

كانت الساعة تقارب السادسة مساءً قبل دخول حظر التجوّل بساعة واحدة حين وصلت العربّة الأولى إلى مدخل قرية " سيدي سالم " قادمة من مدينة عنابة المسماة - بون - حينذاك . كانت العربّة الأولى التي جازف صاحبها من بين مجموعة عربات لنقل الركّاب.. عربات تقف بمحاذاة محطة القطارات بالمدينة على جانب الشارع المؤدي إلى خارج المدينة من الجهة الشرقية.. عشرات العربات التي تجرّها الجياد.. الوسيلة الأكثر استعمالاً يوم ذاك فالسيارات من نصيب المعمرين الأوروبيين وحدهم.. قلّة من المواطنين يملكون سيارات هرمة عتيقة قد يستعملها بعضهم للنقل العام بعض المرات .. جازف صاحب العربّة بنفسه، كما جازف معه

سنة من سكان القرية منهم صاحبنا .. أبواً إلا أن يكونوا فاتحين للقرية : " سيدي سالم " أو " الملاحه " كما كان يطلق عليها حينذاك .

أخذ ينظر إلى الطريق، والعربة تتهدى على الطريق الرئيسي الذي عَجَّ بالعساكر الفرنسيين يجرون أذيال الهزيمة من معركة ضروس تواصلت مع جنود جيش التحرير الوطني منذ شروق الشمس حتى الرابعة بعد الظهر من نفس اليوم.. الطريق عريضة وخالية من التعرجات .. شريان حيوي يربط المنطقة بالحدود الشرقية، كما يؤدي إلى مطار الملاحه القريب من المدينة .. مدينة عنابة .

- 3 -

كان قد غادر قرية سيدي سالم صباحاً في اتجاه المدينة كعادته للتبضع للعديد من السلع.. قلّما لا ينزل إلى المدينة يومياً، من مهامه جلب البضائع للدكان الذي يعمل به.. اختاره صاحب المحلّ القاطن بالمدينة أميناً للدكان يتولّى شؤون الحسابات، وإيداع المال في البنك، والتعامل مع التجّار، والإشراف على المحلّ، وكذا العمّال الثلاثة الآخرين.

غادر القرية صباح ذلك اليوم من أيام شهر سبتمبر سنة ألف وتسعمائة وثمانية وخمسين، أيقظه حدسه الذي قلّما يخطئ إلى أنّ هناك شيئاً غير عادي سيحدث.. العربات العسكرية منذ الصباح الباكر محمّلة بالجنود المدجّجين بالسلاح.. الحوّامات.. الطائرات العمودية تغطّي بطلعاتها الكثيرة محيط المنطقة، وما جاورها.. مؤشّرات عديدة تأكيدية على أنّ هناك شيئاً سيحدث .

ازداد يقيناً بذلك حينما نبّهه جاره الجالس قبّالته في العربة كلّما توغلّت في الطريق الرئيسي المؤدّي إلى المدينة.. تزايدت السيارات والعربات العسكرية،

ورغم ذلك صمم على مواصلة الرحلة تجاه المدينة.. البقاء بالقرية أكثر خطراً في مثل هذه الظروف؛ فقد تدهم القوات العسكرية بمساعدة الحركى، والخونة المدنيين المندسين، والقاطنين بين السكّان المنازل، والحلّات.. تسوق الأهالي كالأغنام نحو الساحة الرئيسية المحاذية لقرّ " لا صاص " .. مكتب الفرق الإدارية العسكرية في حشدٍ تحت الشمس المحرقة دون تفريقٍ بين الرجال، والنساء، والأطفال، ولا بين الصغير والكبير..

قد يُشتبه في البعض من المحشورين في الساحة فيؤمرون بالمرور أمام سيّارة عسكرية مغلقة جلس داخلها خائنٌ مختفياً داخل كيسٍ لا يظهر منه عضوٌ باستثناء عينيه.. بغمزة من إحداهما لضابط المخابرات، يُلقى بالمشتبه به في السيارة العسكرية : ج ، م ، سي ، سرعان ما تنطلق به رفقة العديد من أمثاله إلى جهة مجهولة، لا يعلم أحدٌ في تلك الظروف هل يُكتب له البقاء على قيد الحياة ؟ أم إلى الدار الآخرة مصيره ؟ وقد يُترك سبيله ليحشر من جديد مع المحشورين إلى حين استنطاق كل المشبوهين حتى غروب الشمس .

- 4 -

ما أخطأ حدسُ صاحبنا.. إذ انتشر في المدينة بعد سويغات قليلة نبأ اندلاع معركة ضروسٍ بين قافلة من المجاهدين قادمة من الحدود الشرقية مُحمّلة بالأسلحة في اتجاه - جبال إيدوغ - الشّمْلَة المُطلّة على المدينة، والقوّات الاستعمارية التي تفتّنت لها منذ يومين، وما توانت في تتبّع تقدّمها بمساعدة بعض الخونة المأجورين.. ذاع خبرُ المعركة الطاحنة في المدينة.. تناهت إلى مسامع السكان أصواتُ المدافع، وما فتّت الطائرات المقبلة - ب . 52 - والحوّامات الحاملة للجنود، الطائرات العمودية

تغطّي سماء المدينة وضواحيها، خاصة منطقة " الملاحه " .. تنقضّ بوحشية على مواقع بعينها.. منْ يعرف المنطقة يدرك بدهاءة أنّ رُحى المعركة تجري داخل بساتين الحمضيات القريبة من قرية سيدي سالم .

توغّل في المدينة في الساعات الأولى من النهار، غير مُبالٍ بما يجري خارجها.. داخل المدينة نال الهلع المعمّرين المستوطنين.. بدا ذلك من وقوفهم جماعات، جماعات صغيرة، وتطلّعهم صوب العمليات العسكرية.. أو تركهم لأعمالهم التجارية، ووقوفهم أمام الحلات في حوارات طويلة.

سيارات الشرطة والدرك بالمدينة كثّفت من حركاتها.. ما انفكت شرطة القمع تُغير على بعض المقاهي، والأسواق التي تجمّع بها الأهالي.. الشرفات، والنوافذ بوسط المدينة أين يقطن جلّ المعمّرين ظهرت نساؤهنّ، والهلع بادٍ على وجوههنّ، وما فتى بعضهنّ أن وجّهنّ جام غضبهنّ إلى أهالٍ قد يمررنّ أمامهنّ، أو تحت شرفاتهنّ : شتمٌ.. كلامٌ جارحٌ.. سخرية من جنس العرب.. وبالرغم من ذلك لاحظ ارتياحاً متغلغلاً لدى الأهالي، وإنْ كان القلّة يبدوونه في شكل ابتسامة، أو تحية حماسية، أو إشارة نصرٍ، أو عبارة : هذا اليوم جميل - نه يوم عيد - أحسّ بالراحة في هذا اليوم .

تسرّب إليه بدوره ذلك الارتياح .. ما عكّر عليه مزاجه بين آونة وأخرى ما قد يؤول إليه وضع زملائه في القرية.. فقبل التفكير في مصير الدكان الذي قد يتعرّض للنهب، أو الحرق من العساكر، وكثيراً ما حدث ذلك؛ فالتفكير أوّل في زملائه أبناء مسقط رأسه، فقد يُساقون مرغمين على ترك الدكان مفتوحاً دون حراسة نحو ساحة الحشر .

توغل في المدينة اتصالاً بتجّار الجملة.. أتمّ إجراءات اقتناء العديد من البضائع.. حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، والمدينة تعيش حالة حربٍ قصوى.. اتجه نحو الطريق الحاذي لمحطّة القطارات بالمدينة.. وجد المئات سبقوه إلى هناك، إذ كانت الساحة الصغيرة تعجّ بالرجال، والنساء، والأطفال العازمين على مغادرة المدينة في اتجاهات مختلفة، كما انضمّ إلى المتواجدين أعدادٌ معتبرة من أهالي المدينة بحثاً عن مزيدٍ من أخبار جديدة قد يأتي بها شهود عيان وصلوا تَوّاً : الأقاويل عديدة.. الإشاعات كثيرة، غير أنّ ما أكّد ضراوة المعركة كثرة سيارات الإسعاف الدّاخلة إلى المدينة بسرعة جنونية في اتجاه المستشفى العسكري.. همس أحد الواقفين لرجلٍ يبدو أنه يعرفه :

– التقيتُ هذا اليوم بسي إبراهيم الوردي.. إنك تعرفه طبعاً .. سي إبراهيم الممرض .

– سي إبراهيم.. سي إبراهيم.. آ .. آ .. آ .. تذكرته.. ما به ؟

– قال لي : سرّحونا منذ الصباح الباكر من المستشفى.. أمرونا بألّ نعود إلّا بعد ثلاثة أيّام

- 5 -

فجأة جاء من يعلن للجميع بأنّ المعركة انتهت.. مُؤكّداً أنه قادمٌ من حيّ - جوانو - الواقع بمدخل المدينة من الجهة الشرقية.. التقى ببعض السيارات المغادرة للمدينة ، والمتجه بعضها شرقاً صوب المطار والقالة، أو في طريق مدينة قالة عن طريق - القحموصية - نقاط العبور العسكرية ما أوقفتها.. التفّ أصحاب العربات

حول بعضهم.. دخلوا في تشاورٍ، وجدالٍ .. سَعَوْا إلى الخروج برأيٍ موحدٍ .. فما أفلحوا.. تصدَّر أحدهم الموقف.. أَخَذًا زمام المبادرة عساه يقنعهم :

— إنها الساعة الرابعة.. ما بقي من النهار غيرُ القليل، ويُسدل الليل ستاره، ويدخل حَظْر التجوّل حيز التنفيذ.. أنتم تعرفون عواقب الليل في الحرب ..

أردف الحاذي له :

— إنه الموت المُحقَّق إذا بقينا في المدينة، وإنْ كنّا محظوظين نُفَاد قَهْرًا إلى المكتب الثاني - ويا ويحنا - من زبانيته .

ارتسمت علامات الهلع على الوجوه.. أضاف أحدُ الواقفين من الركّاب :

— مَنْ يُقْتَاد إلى المكتب الثاني قلّما يخرج منه حيًّا

أضاف راكبٌ ثانٍ :

— الله يستر .. الله لا يدخل إليه مؤمن .

واصل المتكلّم الأول :

— حَظْر التجوّل الفروض يرغمنا أن نكون بمنازلنا قبل الساعة السابعة مساء.. قد سمعتم بآذانكم أنَّ بعض العربات، والسيارات غادرت المدينة، وما أوقفته نقاط العبور العسكرية .

— يُقال : إن مَخارج المدينة لا تزال مغلقة.. من يقترب منه بتعرّض لوابلٍ من الرصاص .

اندفع سائق سيارة شابٍّ من نوع مائتين وثلاثة وسط الجماعة وصاح :

— يسكنكم الخوف، ويكبِّلكم الجبن.. إلى ماذا وأنتم في هذا الوضع المُشين.. أما كان من الأفضل أن نتوكّل على الله، وأن نغادر المينة ..

ردّ السائق الكهل بنرفزة حادة أثار انتباه الحاضرين :

— كفى هذيأنا .. يا هذا نصّبتَ نفسك فارسا هذا اليوم، وبطلاً مغواراً.. الفنطازيا ليس مكانها هنا أما النساء والأطفال.. البطولة مكانها غير هذا المكان .
ضحك الشاب من أعماقه وقال :

— تعجّبي يا عم بلقاسم دائماً في تدخّلاتك

- 6 -

دقّت الساعة الحائطية المثبتة في أعالي بُرج محطة القطار مُعلنة الخامسة مساءً.. صعد شابٌ إلى عربته .. التفت إلى الحاضرين .. ركّز عيّنه فيهم .. بكلمات فاصلة .. قال لهم :

— أنا ذاهبٌ الآن إلى قرية الملاحه.. إمّا أن أصلها حيّاً، أو ميّتا قبل حلول الظلام.. من يرافقني منكم فليصعد.. ارتفعت الأصوات مليّة النداء : أنا .. أنا .. أنا .. واحد، إثنان، ثلاثة ، أربعة، خمسة، عشرة .. يكفي من فضلكم .. امتلأت العربّة، ولا أريد أن أرهق حصانيّ.

السائقون ينظرون بشفقة، وبذعرٍ إلى الصاعدين بحماس، وثباتٍ.. خيّل إليهم أنّ زميلهم الشاب يدفع بنفسه، وبالركّاب العشرة إلى عملية انتحارية بشعة .

كان صاحبنا واحداً من الركّاب العشرة.. العربّة مُريجةٌ يجرّها حصانان قويّان، وجميلان.. كان مكانه الثاني من الصفّ الأيمن.. وضع بين رجلَيْه كرطونة ملاءى بعلب التبغ المتنوعة : كاميليا.. باستوس.. تبغ شعرة.. شمة حرشاء.. شمة رطبة .

تحرّكت العربّة متهادية.. مناسبة على الطريق الصاعد تجاه حيّ - جوانو - كعروس تُزفّ ليلة عرسها.. صوّت العجلات الخشبية المؤطرة بإطار حديدي متين

تُحدث إيقاعاً جميلاً سرعان ما تستجيب له نقرات أرجل الحصانين على أديم الطريق، فتتشكّل من الكلّ سمفونية ناعمة .. محبّة إلى آذان الركّاب داخل العربة.. مُرهفين أسماعهم إليها.. من الجهة المقابلة ما انفكت العربات العسكرية المحمّلة بالجنود المنهكين قادمة بتثاقل تتجاوزها بين الفينة والأخرى يعصرُ سيارات الإسعاف، وهي تبدو مُثقلة .

نسمات الغروب بدأت تهبّ منعشة.. السائق الشابّ مسترخٍ على مقعده في هدوءٍ.. الارتياح يغمره.. روح المغامرة تسكنه، ما انفكّ ينقل بصره هنا وهناك مستطلعاً صوب هذه السيارة العسكرية، أو تلك، أو نحو هؤلاء العساكر المرهقين.. نسمات الغروب بدأت تهبّ منعشة.. العربة تتهادى مقتربة من نقطة العبور الأولى في مدخل الجسر المُقام فوق وادي السييوس المنساب نحو البحر الأبيض المتوسط .
أسرّ أحدُ الركّاب لجاره :

— لقد اقتربنا منهم .. الله يستر .

أجابه الراكب الثالث بعد ما تلا سورة الفاتحة سرّاً:

— الموت حقٌّ لكل كائن حيٍّ يطاله مرّة واحدة.. فإذا ما حلّ فأهلاً وسهلاً .

حدّق إليهم رابعٌ في الصفّ المقابل، ما لبث أن حرّك رأسه سخريّة.. قال :

— نعم .. الموت حقٌّ .. لكن بالمقابل .

— ما فهمتُ قصّدك .. قال قارئ سورة الفاتحة سرّاً .

— ستفهم قصدي فيما بعد لما يصفو ذهنك، وتتنصر على نفسك، وعلى الخوف .

الصمت يسود، والخوف يشدّ بجناق ركاب العربة.. هي تتهادى وتدنو من مدخل الجسر : عساكر بخوذاتهم الميدانية يقفون في الدخل بالمرصاد، وغير بعيد منه

نُصِّبَت المدافع الرشاشة في أكثر من موقع يتمترس وراءها عساكر لا يرى منهم غير أعالي خوذاتهم.. العيون الزرقاء تبعث بحمم الغضب.. الأيدي تلتحم بالرشاشات.. رؤوس الأصابع تتقوّس ممسكة بالأزنده .

القلوب الملتاعة يزداد خفقانها، والرعب يغزو الأعماق.. العيون أعرضت عن النظر إلى العسكري وهو يتطلّع إلى من بداخل العربة واحداً.. واحداً.. ما لبث أن أعطى إشارة العبور للسائق الشاب دون طرح أيّ سؤالٍ استنطاقي.. ما صدّق أحد من الركّاب أنّ الأمر مرّ هيناً إلى هذا الحدّ.. توقّعوا وهم يبتعدون عن مدخل الجسر أن يُصوّب نحوهم وابلٌ من الرصاص يخترق أجسادهم فيتلوّون للحظات، أو دقائق ثم يسكنون هامدين، وقد يُلقى بجثثهم الغير مرغوب فيها في قاع الوادي .

العربة تبتعد.. اجتازت المخرج بسلام.. السائق الشاب أدار رأسه إلى الخلف مستطلعاً، ثم وهو يسترخي في مقعده من جديد.. وصل صوته إلى من بالعربة حيويًا.. باعثًا الطمأنينة في نفوسهم :

— العقبة الأولى اجتزناها بسلام.. قلبي يخبرني بأن الباقيات لا تختلف عنها .

- 7 -

الطريق تعجّ بالعساكر العائدين من رحى المعركة الطاحنة : زنوج، حركى ، لفيف أجنبي، مجنّدون يؤدون الخدمة العسكرية، رجال درك، سيارات ملأى بجنود مظلات، عساكر واقفون، أفراد افترشوا الأرض والعيلاء بادٍ عليهم .. دبّابات، ومجنزرات متوقّفة، وأخرى تتحرّك .

الإعياء ظاهرٌ على الجميع.. السحنات متغيّرة.. الوجوه معفّرة بالسواد.. الأجسام ملطّخة بالوحل.. رجال الدرك أكثر حركة من غيرهم يشرفون على حركة

المروور.. ينظمون حركة السيارات العسكرية.. يشاطرهم أفراد الشرطة العسكرية في استنهاض، ولم شعث العساكر الذين ألقوا بأجسادهم المسكونة بالهزيمة، والرعب على الأرض .

العربة تتهدى .. مفاجآت الجهول ألجمت شفاه ركّاب العربة حتّى سائقها الشاب.. تذكر صاحبنا فجأة.. تورّد وجهه.. انتقلت به الذاكرة إلى زوايا بعيدة موعلة في حنايا العمر، ورياض الأيام يمسك يدي أمه، وهي تودعه.. يحتضنها بحنان.. يشعر بدفء جذّاب.. يتطلّع إلى وجهها الذي كلّما تطلّع إليه أحسّ بالأمان.. غمره فرح طفولي عارم يومها.. رقصت عيناها، وهي تضمّه إلى صدرها بحنانٍ أسرٍ .. انبعث صوتها رقرقاً .. شذياً طافحاً بالحلم.. بالفرح.. بالحياة :

— أضحيت رجلاً يا ولدي .. كان أبوك شهماً.. ذا كبرياء.. جريئاً في طلب الحق، وإنقاذ المظلوم .

دون وعيٍ منه ألقى نفسه يخاطب الركّاب المرافقين له في رحلة المغامرة، والموت بكلامٍ غير مألوف لديهم .. علاقتهم به علاقة رحلة قصيرة المسافة .. ما سبقت معرفة لهم به :

— ما لكم يا رجال واجمين منذ خرجنا من المدينة.. كنتُ أحسبُ أنكم ستعلنون فرحكم بدون تحفّظٍ، وأنتم ترونّ الهزيمة مجسّدة.. عارية في وجوه أعدائنا.. تباركون النصر الذي صنعه أبطالنا.. أبطال هذه الأرض الطيّبة .. الخوف طرد من وجوهكم حتى الدماء.. تجوّلت إلى ما يُشبه أوراق الخريف الصفراء تلقي بها أشجارها في مهبّ الريح.. الحياة مغامرة جميلة، والمغامرات لا يخوضها غيرُ الأبطال.. أبعادوا عن أنفسكم الجبن، والتخاذل.. قطع عليه السائق الشاب حديثه :

— نحن نقترّب من مدخل القرية.. يظهر لي أن هناك الكثير من العساكر، ورجال الدرك، وخاصة الزنوج، والحركى.. اثبتوا يا الخاوة، وتفعلوا خيراً .

أشار أحد رجال الدرك المدجّج بالسلاح للسائق بالوقوف، في حين تقدّم دركيّ ثانٍ يبدو أنه ضابطٌ من العربية .. حدّق في الركّاب واحداً.. ثم اقترب من السائق.. مُشيراً إلى جهة اليمين من مدخل القرية :

— أنظرُ هناك جيداً .. هل ترى شيئاً ؟

— نعم .

— ماذا رأيت ؟

— جُشناً لعساكر في حالة بشعة .

— أنظرُ مرّةً أخرى.. حاولُ أن تعرف عددهم بالضبط .

— اثنين وعشرين إذا لم أخطئ .

— بل اثنين وعشرين بالضبط.. قضينا عليهم من قُطّاع الطرق.. فرنسا قويّة .. يجب علينا أن نتعاون للقضاء عليهم.. فرنسا أمّ الجميع.. ويُلّ لمن يعلن العصيان عليها .

— هيا بسرعة مرّوا يا خنازير.. سفلة.. أعلنوا لخنازيركم بأن يأتوا، ويرفعوا الجثث هذا المساء، وإلاّ أحرقتنا القرية بمنّ فيها، ثمّ صوّب رشاشه نحو منّ في العربية، وطلب منهم أن يردّدوا بصوتٍ مرتفعٍ : فرنسا قويّة، فرنسا أمّ الجميع، فرنسا أمّنا لخمسة مرّات .

- 8 -

في المدخل الثاني من القرية .. بمحاذاة مقرّ - لاصاص - : مكتب الفرق الإدارية المختصّة في مراقبة الأهالي، ومحاصرتهم.. أوقف حركيان العربية .. تولّيا

عملية المراقبة بوحشية.. أنزلا كلَّ ركَّابها.. طلبا أوراق الهوية .. فتشَّا العربية.. استوليا على بأيدي الركاب من حاجات، ونقودٍ قليلة.. ثمَّ أخلي سبيلهم جميعا ما عدا صاحبنا الذي اقتيد إلى داخل المبنى أين أمضى ثلاثة أيام بلياليها تحت التعذيب الوحشي.. التهمة كرطونة سجائر وشمَّة لقطَّاع الطرق حسبما جله على لسان أحد الضبَّاط الذين تولَّوا عملية الاستنطاق .

قبل أن يقوداه إلى مقرّ - لاصاص - فاجأه الحركي الأول بلكمة في المعدة، أعقبها الثاني بركلة في منطقة حسَّاسة من الجسد أسفل السرة .. تهاطلت الأسئلة : كيف دخلت ؟ كيف وصلت ؟ ماذا تحمل ؟ لمن هذه السجائر، وهذه الشمَّة ؟ سجائر كبيرة لقطَّاع الطرق .. تكلم من أين أتيت بها ؟ لمن تحملها ؟ .. تكلم .. تكلم يا ابن الزانية .

- 9 -

في اليوم الرابع ذاع في القرية خبرُ عملية انتحارية كان بطلها شابٌ اعتُقل قبل ثلاثة أيام.. كان سيتولَّى أخذه إلى قاضي التحقيق بمدينة عنَّابة ضابطٌ للمخابرات بمساعدة حركيين.. قيل أغار البطل الشاب، وبسرعة على أحد الحركيين فافتكَّ منه رشاشاً تمكَّن بواسطته من القضاة على الضابط، والحركيين قبل أن يسقط شهيدا بفعل انفجار قنبلة ألقيت عليه من أحد الحركي.. سقط وهو يردّد :

— أضحيّت رجلاً يا ولدي.. كان أبوك شهماً.. ذا كبريله.. جريئاً في طلب الحق، وإنفاذ المظلوم .



بشير خلف

ظلالٌ بلا أجساد

قصص

دار الكتاب العربي

للطباعة ، النشر، التوزيع والترجمة

الجزائر: 2007

بدعم من وزارة الثقافة

في إطار الجزائر عاصمة للثقافة العربية 2007

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أولئك الذين يُدركون ما في الإنسان من قوى كامنة ، وبإصرار عجيب
يفنون أعزَّ أيامهم في إبراز تلك القوى وتفجيرها نحو سبُل الخير...
وحدهم متيقنون أن كل شيء في الطبيعة مُسيَّرٌ ؛ أمّا الإنسان فهو وحده المخير
... وحده الإنسان يملك العقل والإرادة...وحده الذي في مقدوره أن يكون حُرّاً إذا
شاء .

... إلى أولئك الذين لم تفقدهم صدمة العولة رشدهم .
... إلى أولئك الذين يعلمون أن الإنسان لا يستطيع أن يتطور، إذا لم يجرب شيئاً
غير معتادٍ عليه ؛ وليس بدعا أن يحلم هذا الإنسان بالنجوم ، ولكن في نفس الوقت
يجب ألا ينسى أن تبقى رجلاه على الأرض راسختين .
إلى أولئك وهؤلاء أهدي هذا العمل الإبداعي المتواضع .

بشير خلف

قمار (الوادي) يوم الأربعاء : 2004/04/28

زمن الخوف

"إن ما يسعى إليه الإنسان السامي يكمن في ذاته هو، أمّا الدنيء فيسعى لِمَا لدى الآخرين."
(كونفوشيوس)

- ألسنت أنت الذي زرعت الأمن والطمأنينة في نفوس أبناء القرية ؟ أأنت أم غيرك الذي جذّر في ناسها البسطة حبّ الحياة والتعلق بالبقاء ؟ أما فتئت تكرر في كل مناسبة :

- الحياة يا ناس نعمة ..لننعم بها ..في مواساتك لغيرك تكرر دوماً : " النواب
امتحان لنا ..لِنَتَحَدَّ هذا الامتحان ..لا نستسلم بسهولة ..لا نبكي ..إن بكاه الرجال
ضعفٌ ومهانةٌ "

ها أنك بكيتَ وأبكيتَ ..ولا تزال تبكي وتُبكي ..

* * * *

كان صمتُ تلك الليلة المואلية لحدث المأساة غريباً .. ملأ الحزنُ القلوبَ كما
امتلاأت الحناجر صمتاً ..المفاجأة أصابت سكان القرية بالشلل ..بقدر ما سيطر الحزن
، انزعزع الرعب في النفوس ..غدا المستقبل غامضاً ..خيفاً ..كانت القرية آمنة مطمئنة
يأتيها رزقها رغداً من مصادر تنوّعت ..الأمن يسكن النفوس الريفية الطيبة
القنوعة ..يشعر الجميع بفضل الحياة الرحب ..فضاء يسع الجميع .

ليلتها الصمت لفّ القرية .. الظلام سربلها دون رحمة .. انقطعت الحركة .. كلُّ
أوى مبكرا إلى بيته .. أيُّ الكلمات تعبر عن الهلع .. عن الخوف .. عن السخط .. أية
حركة خارجية .. أي دقات على الباب كافية لإصابة البعض بالإغماء .. الكل يرهف
السمع ليلتها .. لا يدري قد يكون مستهدفا ..

* * * *

يوم الحدث المشؤوم تقاطر سكان القرية والضواحي .. ثم القرى والبلدات
المجاورة .. تقاطروا بدافع الفضول بداية كحال أهل الريف .. ثم بدافع التقصّي
والمعرفة .. ثم للمساعدة والمواساة .. الحدث المشؤوم وقع أمام منزلك .. استهدفوك
شخصيا .. أمنٌ حسن حظك أمنٌ سوء أنك ما توجهت صبيحتها إلى صلاة الصبح
بالمسجد القريب .. أصابك أرقٌ ليلتها فما استطعت النهوض مبكرا .

يومها الكل تلَهّف لرؤيتك .. لسماع الحقيقة منك .. أو حتى مجرد إشارة
.. تلميح بسيط يُوحى بشيء ولو بنزيرٍ عن الحقيقة .. أنت الوحيد ومن استهدفوك
تعرفون الحقيقة .

تساءلتَ بدورك .. لماذا حدث الذي حدث ؟ ولم وقع ؟ ما صدّقت وما زلت
حتى اللحظة هذه غير مصدق بأن ما وقع استهدفك شخصيا لِمَحَوِّكَ من الوجود
.. ألسنت أنت الذي عطايك وصلت الجميع ؟ كرمك اللا محدود سَعِدَ به القاصي
مثل الداني .. الأفراد والجماعات .. ألسنت مقصودا في كل المناسبات المحلية والجهوية
وحتى الوطنية ؟ مؤسستك تحتضن العشرات من العاملين والفنيين .. ما بخلت قط
في البذل والعطء .. لازلت ولا تزال ..

* * * *

يوم المأساة تسأل الناس والحيرة بادية على وجوههم :

- ماذا وقع هذا الصباح بالضبط ؟

- لا أدري ..

- أنا في حيرة مثلك

- ما فهمنا شيئا

- ما أخبار البنية ؟

- كيف هي حالتها ؟ قيل قد أُسرِع بها إلى المستشفى .

- قرينتنا آمنة ما عرفت قط حدثا مشؤوما كهذا .

- حالة البنية خطيرة جدا ..قالها أحدهم وقد نزل من سيارته .

- إننا نجهل الذي وقع هذا الصباح أمام منزل الحاج إبراهيم .

- تنأى إلينا أن البنية لما اقتربت من مدخل منزل الحاج ، لفتت نظرها ولأعة ذهبية

اللون ..براقة ..جميلة الشكل بمحاذاة أرضية عتبة المدخل ..بدهشة الطفولة ..بفضول

البراءة ..انحنى ..بالأنامل الغضة لمستها ...فكان ما كان .

- يا للهول ويا للبشاعة ..البراءة تدفع ضريبة غيرها في هذا الزمن ال.... قالها أحدهم

وقطرات من الدمع تنفلت من عينيه .

- حتى المعرفة لها ضحاياها الصغار أيضا ..نطقها أحدهم .

* * * *

عطايك فرحٌ ..نعمة لذوي الحاجة ..فرج مستمرٌ لعباد الله ...منذ أن حطَّطَ

رحالك في تلك الربوع ..يوم أن عدت من وراء البحر ..عاهدت والدك وكبار

البلدة ووجهاءها وهم يحتفون بك :

- أعاهدكم يا وجوه الخير بخدمة الجهة كلها وأناسها دون تحديد ودون تمييز ..حصاد
سنين الغربة في الضفة الأخرى أنذرته لخدمة هذه الربوع ..أشهدكم جميعا على ذلك

* * * *

صدقت في وعدك ..عطايك استمرت ومستمرة ..مؤسستك متألفة ..الكل
باركك وبياركك .

الناس حولك صامتون ..حائرون ..يريدون تقديم يد المساعدة لك ...كيف
ذلك ؟ لا يدرون ..يريدون إشارة منك ..همهموا ..حنحنوا ..همسوا لبعضهم
..أوحوا إليك أن تقول شيئا ..أن تفصح عن حقيقة ما وقع ..عن الأسباب ..عن
بعضها ..ألحوا وألحوا ..جوابك في كل مرة هو البكاء .لحظتها بكيت وأبكيت .
في لقاءاتك الحميمة مع أناس البلدة ..مع الرفاق ..مع الأصدقاء وهم
يستعرضون يومياتهم المتعبة ومآسي عصرهم التي تخنقهم وتحيل حياتهم إلى علقم
..دوما كنت تقول لهم :

- الحياة ما هي بحياة إن لم يكن بها الحلو والمر ..بها الخير والشر ..لماذا نحزن ..هي
هكذا الحياة ..لماذا نبكي؟ ..لماذا يستولي علينا الحزن فيسلبنا متعة نعمها الكثيرة
..الحزن يأس ..هروب ..والبكاء دليل الضعف ..الرجال لا يكون ..الحياة نعمة ..متعة
..فضاؤها يسع الجميع .

* * * *

كان صمت تلك الليلة الموالية للمأساة غريبا عن القرية الهادئة ..الوديعة
..ملاً الحزن القلوب كما امتلأت الحناجر صمتا ..ووريت البنية ذات الربيع التاسع
التراب عصر ذلك اليوم ..تطايرت صباحه أشلاء ..اختلطت الأعضاء المتناثرة

بوريقات الكراسات ..وريقات دُونت بها خلاصات بأنامل غضة تطايرت
..صاحبته لحظتها انحت بنية التقاط ولاعة ذهبية اللون ..جذابة الشكل وُضعت
بإتقان بمحاذاة مدخل الجار الثري صاحب المؤسسة ..قدمت البنية كعادتها ..تدق
الباب كي تترافق مع رفيقتها وندتها ابنة صاحب المنزل الثري.. تطايرت أشلاء
..تضمخت وريقات الكراسيس بدمها الطاهر الزكي .. بدهشة الطفولة ..أطبقت
على الولاعة الذهبية اللون ..ولاعة وُضعت بإحكام ..وُصلت بجسم رهيب تحت
التراب ..مصيصة كانت معدة بإحكام لجسم آخر غير جسم البنية .
تطايرت البنية أشلاء ..صعب يومها للممة الأطراف ..العضلات المتناثرة
..رحلت البراءة وهي تجهل لماذا تطايرت أشلاء ..رحلت وما تدري شيئاً عن الأجسام
الرهيبة التي تُزرع تحت وجه التربة ..

الرحيل

" قد يتقبل الكثيرون النصح ، لكن الحكماء فقط

هم الذين يستفيدون منه ."

(بابليوس)

(1)

قال لك أحد أصدقائك يوما و هو يتفحص وجهك أكثر:

- لقد تراكمت عليك الأدران، إنك تحتاج إلى صقل و لن تصقلك غير زوجة وفيه،
و فيما ذهبت أصابعك الواهنة لحظتها تعبت داخل جييك بالقطعة النقدية الوحيدة
التي ستمدها إلى القهواجي مقابل فنجاني القهوة لك وله، رحت تضحك على
حالك، و تضحك من كلامه.

في الليلة الماضية ما تمكّن منك النوم، قضيت ليلتك في أرق ثقيل، في قلق
مستمر، ضجّ السرير من تقلبك و حركاتك الكثيرة، الخيالات المزعجة تنازعت
رأسك، عصفت بك، عذمت كم مرة على مغادرة البيت هائما في الأزقة و الشوارع
تريد الترويح عن النفس. بين لحظة و أخرى تنشط الذاكرة فتعود بك إليها، فيتألق
وجهها الملائكي أمامك، كلما تراءى لك ذاك الوجه الربيعي خفق قلبك، والتهب
خيالك، تزاومت الخواطر و الأفكار، حاولت ليلتها تشويش تكوينات الصورة،
خلطَ خطوطها فما استطعت، بمجرد أن تفعل ذلك حتى تمتثل أمامك من جديد في
ثوبها البنفسجي الرائع الذي ترتديه في عطلة آخر الأسبوع و هي تنتظرك بفارغ
الصبر في الحديقة العامة لتلك المدينة الشمالية، أو في ذلك المطعم الراقى أين تُعدُّ
مأكلاً شرقية شهية.

وفي محاولاتك اليائسة تشويش تكوينات الصورة و إطفاء إشراقها الربيعية،
يطفو على السطح صوت آخر يفتكك من جاذبية الذاكرة:
- عليك بالبحث عن عمل في أسرع وقت يا ولدي كي تؤمن لنا لقمة العيش، و
لعل الله يسهل الأمر بعد ذاك فتكمل نصف دينك، آه يا ولدي لن تهدأ نفسي حتى
يتحقق الأمر الأخير، فحتى إذا رحلتُ عن هذه الدنيا لاحقةً بأبيك أكون حينئذ
راضية مطمئنة النفس.

ويلاحقك صوت أحد أصدقائك، و يزداد شدة و طرقا مؤلماً لطبلي أذنك:
- لقد تراكمت عليك الأدران ... أنت تحتاج إلى صقل ... إلى صقل ... إلى ... و
لن تصقلك غير زوجة وفيه ... غير زوجة وفيه ... زوجة ... وفيه.
أفقت على صوت أمك التي اقتربت منك مهلوعة وقد امتلكها الخوف،
فاقتربت منك بحنان مهدئة، واضعة يدها على جبينك الذي ارتفعت حرارته:
- مالك يا ولدي تصرخ ؟ أ أصابك مكروه ؟ حرارتك مرتفعة، اهدأ يا ولدي لا
تتحرك ساعدك لك شراباً ساخناً قد يعيد لك حيويتك و يخفض هذه الحمى الملتهبة.

(2)

لما كان رئيس المصلحة يتسلم منك دبلوم التخرج، كنت تبحث بعينيك عن
مقعد تجلس عليه، دلفت إلى المكتب بعد أن جله دورك والألم يسري التهاباً في
المفاصل و العظام. وقوف طويل في يوم قائف و شمس حارقة. طابور مكوّن من شبان
متخرجين حديثاً و حتى قديماً، و أنت تبحث عن شيء تجلس عليه في المكتب
الفخم، أو أي شيء قد تستند إليه في وقفتك، و كأن رئيس المصلحة تفتن إلى ذلك،
بنظرة أخفت حركتها نظارة طبية سميكة العدسة، أزاحها إلى أسفل، كاشفة عن

عينين ضيقتين لحت منهما من السخرية و الإذلال و علامات التشفي. تصنّع الودّ و حسن الاستقبال. و أنت تتأهب للتكلم و يدك إليه ممدودة بملف يعلوه الدبلوم، طلب منك الجلوس.

مسح مضمون الدبلوم بعينه، بخبرة المحترفين وضع الوثيقة المزخرفة في الملف، وضعه جانبا مع غيره من ملفات أخرى شبيهة له، ثم التفت إليك، لحت لحظتها من نظرتة علامات من الأسف و العطف الكاذبين. ما كنت تنتظر المعجزة فالجواب عرفته مسبقا قبل دخولك، لكنه الفضول و الأمل معا... إنك فضولي دوما تُصرّ على معرفة المجهول و الوقوف عليه بنفسك. رئيس المصلحة يخاطبك بنبرة تجاهلية لواقع سوق العمل في البلد:

- يا إلهي شاب مثلك في ريعان الشباب، متحصل على إجازات جامعية عالية، دبلوم الدراسات العليا في الفيزياء، يتسول، يتسول منصب عمل، كمدرس في التعليم ، وفي أي مستوى، حتى لو كان المستوى الابتدائي. أية قيمة أدبية أو اجتماعية أو حتى عملية لشهادة جامعية عليا لا توفر لحاملها لقمة العيش. أية قيمة ؟ أية قيمة بالله ؟ رددتَ حينها بنوعٍ من التحديّ وأنتَ تكتشف التخابث في ثنايا التساؤلات :

- التسول قد يكون مقبولا في وقت ما، و في ظروف ما يا سيد.

- التسول قد لا يكون حلا، هو هروب من الواقع. سننُ الحياة يا ولدي ترفض ذلك.

(3)

في تلك الآونة رنّ الهاتف. انقطع الحوار. اشتغل محاورُك لحظتها بالرد عن المكالمة. حملتك الذاكرة إلى بعيد ... بعيد، عبرت الحدود المرسومة على الخرائط . رمشة عين و ما كنت تحمل جواز سفر. استخرجت المدن المحبوسة في الذاكرة.

زرعتَ جسدك في إحدى مدن الشمال . إحدى مواطن العشق و مواطن الدراسة العليا. و الذاكرة تجوب تلك المواطن تراءى لك وجهها الربيعي في آخر لقله، تألق الجمال يومها و أفاض. بروح البراءة و الصدق استبقتك و ألحت، و ما وجدتُ غير دموعها سلاحا:

- لا ترحل أرجوك. حياتي ستكون جحيما يبُعدك عني.
- أعذريني عزيزتي، فالنداء الآتي من بعيد أقوى مني.
- أرجوك لا ترحل . أنت الأمل وأنت الحياة لي .
- لا أشك في حبك و إخلاصك لي... هناك نداء آخر أقوى مني و منك، ساعدينني على الرحيل. قد تساعدنا الظروف و نجتمع و نحقق حلمنا لا تيسري يا عزيزتي .
- أتوسل إليك . لا ترحلْ قد أعددتُ كل شيء من أجل بقائك. كل الظروف مهيئة لإقامتك . اتفقت مع والدي المدير العام للشركة كي نبدأ العمل معا في يوم واحد فيها ... عملٌ و فُق تخصصنا. إقامتك مضمونة عندنا في البيت، و إن لم ترغب في ذلك، والدي قد تعهد بإيجاد إقامة لائقة مستقلة لك، ثم بالإمكان مواصلة دراستنا من جديد معا.

مواطن العشق تتألق مشرقة أخاذة في مخيلتك و الذاكرة تجوب بعيدا .
تجذبك إليها بقوة . فجأة انقطعت تلك الجاذبية الممتعة، حلت محلها نظيرة لها أقوى و أقوى :

- أنت وحيدنا يا ولدي. ما بقي من العمر إلا القليل . لا معين لوالدتك المشخنة بسكاكين مرض القلب، فَمَنْ لها بعد الله غيرك ؟ و مَنْ لها إذا استبقتك تلك المواطن البعيدة عندها و أغرتك بملذاتها ؟

قالها والدك المرحوم قبل وفاته منذ حوالي سنة.

ويبتعد الوجه الراحل . تختفي معالمه من الإطار، و يبقى صدى الصوت يتردد.
يقترّب وجهها حزينا. نقش الزمن على مساحته الصغيرة نقوشا أفسدت نصارته
الأصلية و عوادي الأيام تركت على الجسد الواهن تضاريس و خطوطا فوضوية
صارخة.

والصوت الاستعطافي يقترب:

- بقي على تخرجك سنة واحدة يا ولدي، أتمنى أن تكون عودتك نهائية في الصائفة
القادمة . تضرّعي إلى الله مستمرّ صباح مساء كي تتخرج و تعود إليّ غانما سالما . لا
تنس أن البلد في أمسّ الحاجة إلى أمثالك.

(4)

ترافقا خمس سنوات في الجامعة قضياها في معهد واحد. منذ البداية وجدا
نفسيهما متجاورين في المدرج و في التفويج . رعا معا هذا الجوار. رعاياه في كل
شيء، و كما وجدت فيه النفس العالية الهمة والقلب الكبير و النزعة الإنسانية
الأصلية، و الإيمان القوي الراسخ بوجوب إقرار المحبة و الود والتسامح بين البشر
أجمعين، وجد فيها الفتاة العفيفة الطاهرة ذات الحس المرهف و عمق الشعور بالآلام
الغير، وما تغلبت عليها عوامل الثراء التي تنتعم فيها أسرتها كغيرها ممن جرفهم
المستوى الطبقي. أحبّ فيها التواضع و البراءة و الصدق و الذكاء الوقاد و الشغف
بالمعرفة وبالقيم الإنسانية الرفيعة.

رسخ في ذهنها أنها تعيش له و هو يعيش لها، كان يُلَمِّحُ أحيانا إلى رحيله
كانت تعتبر ذلك مجرد دعاة و دلال منه لها .

الدموع تنساب متألفة كحبات دُرٍ انسكبت فيها خيوط الشمس في جلسة
ذاك اليوم الذي تناولوا فيه غذاء شهيا ما برح الذاكرة :
- هي ليست مدينتي يا عزيزتي، فلم البقاء ؟
قالت والدموع ما توقفت :

- حينما ترحل إلى هناك أياما بين الفينة و الأخرى، في كل مساء أعود إلى غرفتي
تستوطني الوحدة . يسكنني الحزن . ولما يطلّ وجهك الوضاء مشرقا، مواجهها
سكون الوحدة و القلق تدب الحياة من جديد في الغرفة . أشعر بانتعاش غريب
لحظتها .. أنهض .. أغني.. أقرأ.. أعمل أي شيء ... أي شيء.

(5)

وتنتصب أمام عينيك أسوارٌ عاليةٌ تحجزك عنها، وترسم الأيدي تتداني،
تمتد وتمتد لبعضها، غير أنها بقدر ما تتداني تبتعد وتبتعد حتى تتلاشى في الفضل
اللامتناهي، وتكرّر رجاؤها في تحن وتلطف . تقترب منك أكثر وعطرها الأخاذ
يعبق المكان و بصوت متهدج:

- أنا مدينتك التي عشقتها. المدينة خواء، فراغ إذا ما خلت من الأجرة.

كانت الصورة تحمل وجهين: وجها استوطن به الربيع بكل بهائه و زرع
مفاته على جسد في ريعان الشباب يفور حركة و حياة و إشراقا، و وجها حمل كل
ينابيع العطف والرحمة والحنان والتضحية، وضع عليه الخريف ملامحه، بل الشتاء
بصماته. استمات كلا الوجهين في احتلال مقدمة الصورة و زحزحة الخصم، و ما
كان النصر حليف أحدهما يقتربان، يتداخلان، ينصهران، تتضبّب الصورة ...
تندثر معالمها ...

(6)

أعاد رئيس المصلحة عبارته التي قذف بها في وجهك قبل المكالمه، و بدورك تجاهلتها مجيبا إياه في سياق آخر:

- يبدو أن سوق العمل أغلقت أبوابها في وجه الجميع في هذا البلد، وكأنه فهم تجاهلك لما كان قد نفثه. باغتك بسؤال استفزازي أعنف من الأول:

- دبلوم مثل دبلومك يا ولدي لو كانت كل الأمور تسير سليمة لأهلكَ لاحتلال أعلى المناصب، ولوضعك في الريادة، إيه ... إنه الواقع فرض عليك الوقوف أمام المكاتب متسولا، بحثا عن أي شغل حتى و لو كان متعارضا مع المستوى العلمي و التخصص، إنما ما يحيرني و يشغل بالي أكثر أن دبلوما عاليا مثل هذا لا يُمكن صاحبه من التفكير الجدي، المعمق، و استعمال العقل و توظيف المعرفة المكتسبة للخروج بإجراء عملي فعال، أو أنه ليس دبلوما يدلّ بحقّ على أنّ حامله صاحب مستوى علمي رفيع وتخصص متين ...إيه يا تعليم هذا الزمن !

تصنعت الهدوء وقتها وتصابرتَ إذ سألتَه :

- ماذا تقصد بالتفكير و استعمال العقل من فضلك ياسيد ؟

- أقصد لو كنت في سنك لساعدني دبلومٌ كهذا على عبور الحدود و اجتياز الموانع بطاقة الفتوة و لزرعتُ جسدي في كل مدن العالم، و الرسو في كل الشواطئ ... فراشة حرة تنتقل هنا و هناك بحرية، تخط أينما وجدت الدفء و أينما ألفت الرعاية.. عشرات أمثالك أقفلت سوق الشغل أبوابها في وجوههم، كان ذلك دافعا لهم للرحيل، لرفع راية التحدي و الإصرار، انقادت لهم الدنيا ... مالٌ ...جاءه، اقتصاد العالم بين أيديهم، تجارته تحت إمرتهم، يا ولدي الحياة من أسلحتها الفعالة ،

الإرادة، التصميم، التحدي ... السعادة عَصِيَّةٌ و المسْكُ بها يتطلب المغامرة تلو المغامرة، إذا خلت من المغامرات المستمرة تفقد طعمها ... السعادة يا ولدي لا وطن لها و أصحاب الإيرادات القوية والتحدي في عالمنا اليوم لا وطن لهم.

- و حق الوطن يا سيد، نطقْتَ بها من أعماقك.

- الانتملة للوطن أبديُّ، وخدمته والذود عنه ليس بالضرورة دوما نافعة إلاَّ لما تُؤدَّى على أديمه .

- هذا نكران للأوطان لا يغفره التاريخ ولا الأجيال الآتية .

- قد تأتي ظروف تاريخية على الوطن فيستغني عن البعض من أبنائه حتى و لو كانوا أهل خبرة وتخصص و علم نافع و أصحاب قيم عالية، العالم يا ولدي اليوم تقاربت أجزاءه و اقترب سكانه من بعضهم، اهتماماتهم واحدة، و مصيرهم واحد ... الحياة تنقاد لأهل التحدي و ركوب المخاطر بحثا عن الجد ... ووطنك الذي يستجيب لطموحاتك ... الذي يلي رغباتك . لو كنتُ مكانك و في عمرك لبدأتُ حياتي من جديد مغامرا.

وَأنتَ غير مصدق لما تسمع اقترب منك أكثر و همس:

- فرضا أنك فزتَ بوظيفة أيا كانت هذه الوظيفة ما ستتقاضاه منها شهريا بعد تعب يتقاضاه في زماننا هذا فتى مطرودٌ من التعليم، يمارس نشاطه في سوق الترابندو أو البرنسة أو في نشاط الاستيراد في يوم أو جزء من اليوم ... و ما أكثر هؤلاء اليوم ... تحركٌ ... المجال مفتوح أمامك ... الحياة رحبة اقتحمها من أبوابها الواسعة، تأكد أنك إن لم تربح في البداية فإنك لن تخسر شيئا.

(7)

موطن العشق يتألق والخريطة ممدودة أمام ناظريك ... المدن المزروعة
مُعَلَّمَةٌ هنا وهناك تناديك بحنو ... تجذبك ... ترسم الصورة من جديد وتمتد
مساحتها مغطية كل جدران وسقف الغرفة الضيقة التي تتقاسمها مع والدتك و قد
أنهكها مرض القلب الفتاك، ويصل صوتها الواهن إلى أذنيك ... ويصل إلى
أنفك عطرها الخاص عبقاً ... منعشاً ... أخذاً من بعيد.

- لا ترحلُ أعددتُ كل شيء لبقائك و إقامتك ... اتفقت مع والدي على كل ما
يعيننا ... لا ترحل أرجوك.

وفيما كان نظرها مثبتاً على حقيبة السفر و عيناها مغرورتان بالدموع،
طمأنتها وأنت تلثم يدها الضعيفة.

اطمئني يا أمي سأعود سريعاً إليك و أنت تردد بصوت خفي:

لقد اكتشفت سر الحياة لأجرب مثل غيري ... هو سرٌّ لا يمنح إلا للمغامرين.

كان دعاؤها المفعم بالدفع و الحنان يلاحقك و أنت تنسلّ من البيت:

- اللهم احفظه في غدوه و رواحته و سعيه ... اللهم افتح الأبواب أمامه و ارزقه
من الحلال.

أشواك على الدرب

" لا يمكن أن تتعايش فكرتان في الذهن في نفس اللحظة في عالم
المعنويات ، كما لا يمكن أن يشغل جسمان حيزا واحدا في نفس
الآن في عالم المحسوسات "

(بوشكين)

قبل أن تتبعثر خارج أبواب المعمل الذي أعمل به منذ عشر سنوات ، قال
لي سائق المدير العام و البسمة تغطي وجهه، الذي شكّلت الأيام على مساحته
تضاريس جدباء:

- مراد ... أتمنى لك وقتا ممتعا خلال عطلة هذا الأسبوع.

كان يومها يرتدي بدلة جديدة بنية اللون ... يطل من تحتها قميص حريري
مرقط باللونين الأبيض والأحمر، يحتضن من الأعلى صدره الضامر و رقبتة المعروفة،
كالقمصان التي يرتديها السيد المدير العام. لحظتها التقت نظراتنا ... وكأنه قرأ
زخم الأسئلة المتزاخمة في ذهني. ولّى وجهه شطر سيارة المدير الفاخرة. بنشوة عارمة
يعيد مسح زجاجها الأمامي بنظرة سريعة احتوت جسدي المنهك، هتف:
- إما أن تكون الحياة هكذا أولا تكون.

قلت له والحيرة تستولي علي:

- معذرة، سأخذ ابنتي إلى المستشفى أستأذن.

استند إلى هيكل السيارة السماوي الناعم اللامع . تصفيرة ذات إيقاع شعبي
أطلقها عالية.. ضمّنها كل آيات السعادة.

* * *

- كما اتفقنا، سأتولّى إقناع جموع الفلاحين و أنت تَوَلّ إقناع جماعة المصلين بالمسجد . أه ... خاصة. ذلك الإمام العنيد سعيد .أنا اليوم مرتاح، استطاع مسعود أن يقنع جلّ العمال بالمعمل. بالتأكيد أن المجلس الشعبي البلدي الجديد، سيتكون من كل العناصر الموالية لنا.

نطق بها السيد المدير العام لسائقه.

* * *

خرجت أسير في شوارع المدينة مضرباً عن الانضمام إلى سيارة نقل العمال العارية ... هيكل عظمي يخترق شوارع البلدة و أزقتها المتربة. تتحرك كبهلواني يستعرض حركاته المضحكة و رقصاته. العمال يركضون لحاقاً به. احتضني الشارع الخلفي. تعلقت بيدي حقيبة صغيرة غالباً ما تكون معي صباحاً، أضع فيها بعض المأكّل . لا أدري لماذا تصرّ زوجتي المسكينة على أن آخذها يومياً. كرّرت لها مرات عديدة أن مطعم المعمل يقدم لنا وجبات مقبولة. في يدي اليسرى رقد منشور وُزّع علينا في المعمل، حمله إلينا مسعود ذلك الشاب الوسيم الذي لا يعرف له العمال وظيفة معينة، بل ليس له تخصص موكل إليه. تحركاته كثيرة داخل أجنحة المعمل . احتار العمال في أمره. يعمل في كل أجنحة المعمل و يمدّ يديه لكل تخصص . يقاسم العمال همومهم و يتحمّس لقضاياهم . ينضم إلى مطالبهم. قالوا عميل مخلص للمدير ... أذاعوا أنه نقابي متمرس. أسرّوا أنه يعمل لصالح أطراف - ما - هدفها الاستحواذ على المعمل ... إنها تتحين الفرصة للانقضاض عليه ، قضية وقت فقط ... قالوا و قالوا.

* * *

ما قدرتُ أن أكلمه في لحظة كان التعب يسكنني. يشلني . وحش ضارٍ كثيرا ما يقسو و يقسو عليّ وعلى أمثالي .

ضميني إليه مثلما ضمّ زملائي العمال. وعود كثيرة . أمانني لا حصر لها . احتضنني مثلما احتضن غيري. البسطاء في كل أصقاع الدنيا قنوعون ... يكتفون حتى بالحلم. احتضنني بعد لأيٍ . غير بعيد ترامت الأكواخ و بيوت الصفيح كثيبة ذليلة في عيلاء تترنّح . ما فتئتُ أن ولّيت شطري نحوها. اعترض طريقي في أحد دروبها صبيّةٌ صغارٌ يسبحون بمتعة وسط بركة آسنة عفنة، تستمد مكوناتها من مجاري متعددة تقيّأت بها الأكواخ المترامية. مجموعة من كبار السن تحلّقوا غير بعيد، نظراتهم مركزة على هذه الورقة التي يلقيها هذا اللاعب أو ذاك.

* * *

حافي القدمين . إفرازات أنفية مقرزة تسيل مغطية انخفاضات مساحة الوجه ، مشكّلة على ارتفاعاته سبخةً بيضاء. استقبلني بضحكة بلهاء. مددت يدي إلى جيبي ، أبحث عن قطعة نقدية يتيمة قد تكون احتمت في ركنٍ مُنزوٍ من أركان الجيب المُعادة خياطته أكثر من مرة. قطعة يتيمة ما وصلتها أصابع يدي ابني الرابع ذي الثاني عشر عاما، ابني الذي يتسلل فجر كل يوم صوب المخبزة الوحيدة بالبلدة، جلباً لمادة غذائية تتقوّت بها أسرة كُثر ويتكاثر أفرادها ، وليس في مقدورها استبدال هذه المادة بغيرها.

طمأن رجل أعمال زار البلدة السكان بإقامة مشاريع ضخمة توفر الشغل و الدخل الوفير لكل الشبان البطالين . بالأمس عاد الابن من المخبزة فارغ اليدين، صاحبها ألقع عن بيع الخبز في مخبزته، وجه زبائنه نحو الدكاكين التي تولّت المهمة.

كثيرا ما ألوم نفسي وأنا أراه في أصبح الأيام الصقيعية بهم بالخروج، و الظلام
يلفّ الحي. مضى على تثبيت أعمدة الكهرباء به قرابة الثلاثة سنوات . هياكل في
العراء تلتهمها عوامل الطبيعة ... تنخرها ... ما تسربت إليها الحياة بعد.

* * *

إن المجلس الشعبي الجديد طاقة فعالة .. برنامج واعد و طموح ... يتعهد
أمامكم بتحسين حياة كل مواطن .. عبارة تقيأ بها رئيس البلدية في المجلس السابق
خلال الحملة الانتخابية السابقة. الدرب الذي يحتضني ذليلا .. يستقبلني بوجه
حزين .. يقول لي بأسى و هو يمسخ دموعه:

- كلُّ الأيام كثيفة، تبعث في النفس الأسى .. بل النفور و البغض لهذا القدر الذي
استماتوا أن يكون محتوما .. قدرٌ حملي هموم هذه الأنفس الضائعة في مهب الرياح.
أتى صوته مشروخا كصوت صحن طيني أتت عليه عوادي الأيام، سقط من
عُلُو:

- خبز ... خبز ... عمي ...

التصق بي . احتمى بجسدي المنهك المثلث بأعباء أبناء ثمانية. ما غطى الريش
أبدانهم النظرة بعد. كقطعة صغيرة تنشد الدفء تسلل داخل معطفي البالي.
- واصل طريقك يا رجل. قالها شيخ هرم مفترش قطعة من الورق المقوى، بمحاذاة
جدار طيني فقد معالمة. تكدست غير بعيد منه أكوام القمامات ... كالذباب الجائع
تجمع الأطفال وسطها في حركات للأطراف لا تهدأ. الذباب بدوره مصر على غزو
المكان، لما أعيته الحيلة اكتفى بالطيران المستيري فوق رؤوس الصبية الغزاة . ملحاحا

. ينشد الذباب مراعاةً حقه في الغنيمة. قلت للشيخ و الفرصة خِفْتُ عليها أن
تضيع:

- تعيسُ أنا في هذه اللحظة يا عم ... رهيب أن يفقد المجتمع شابا كهذا، إنه في
ربيع العمر.

أرسل نظره بعيدا، كَمَنْ يَتَقَصَّى معالم حلم رآه منذ زمن، ويده التي فقدت
كل نضارة، راحت تعبت بشعيرات من لحية غزاها الشيب ... الزمان ترك بصماته
القاسية على وجه يحملها.. بصوت متهدج، انزلت كُليمات متقطعة من بين شفثيه
.. كأنه ارتأى ألا جدوى من كلام يُكرَّر .. ويُكرَّر:

- إنه ولدي الوحيد يا رجل ، تعيسُ أنا و الله ملّت أذناي هذه الشفقة المستمرة .
اتركوا هذا الابن التعيس. هل الحق الضرر بأحد؟ قال الشيخ ذلك.

* * *

وضع المنشور في يدي برفق، ثَبَّتَ عينيه في عيني. اقترب مني بوجهه الباسم.
بلهجة مؤدبة قال:

- أنا آسف على الإزعاج يا صديقي مراد، لا مفرّ من إعلامك توّأ: مساء الغد
الجمعة سيقع تجمعٌ كبيرٌ في ساحة البلدة .. أنت فاهمٌ ما أعني ... انتخابات المجالس
الحلية قريبا.

تذكرت حينئذ الحوار الذي تبادلته رجال الحي في إحدى الليالي. سمعتهم و
أنا عائد من العمل مارًا بالقرب منهم:

- تحمل القائمة هذه المرأة أسماء جديدة. اختفت بعض أسماء عهدناها دوما موجودة.
- أسماء في القائمة لا نعرف عنها شيئا.

- بل ما سمعنا بها، و ما رأينا أصحابها.
- قيل أنهم أصلاً من هذه المنطقة، يظهرون في مثل هذه المناسبات.
- لا يهمّ الأسماء، ما يهمّ النية الخالصة ، والصدق في العمل .
- الوعود كثيرة.
- تصدّر الرجال محمودُ الذي فقد ابنه البكر ذا الخمسة عشرة سنة، قضى عليه مرضُ التدرنّ الرئوي، كلمات الطبيب الذي فحص كل أفراد العائلة بعد مواراة الابن المتوفى التراب، تهوي على رأسه مطرقة ثقيلة ... تهصر دماغه هصرًا:
- الموت سلاحك أنت و عائلتك ، قد يقضي عليكم واحدا، واحدا طالما أنتم متمسكون بالبقية في ذلك الحي.
- برقت عيناه . أرسل نظره بعيدا ، بعيدا إلى قمة الجبل المُطلّ على البلدة ...
- شدّته الذكريات إلى ماضٍ عزيز عليه يوم أن كان هناك قائد فرقة للمجاهدين، ما انفك يكرّر على مسامعهم:
- وجه بلدنا الحزين، تأكدوا يا رفاق أنه سيتحول إلى وجه ضاحك مليء بالحياة.
- ضحكته ستضمّننا جميعا. إشراقة الشمس في ربوعه تعيد البسمة إلى الجميع.

* * *

- أرسل محمود نظره بعيدا. ابتسم بمرارة. بصوت خافت مثقل قال:
- عاش بداخلي حُلُم رائع منذ أن وعدني رئيس البلدية في مكتبه الفخم بالحصول على مسكن من أول حصة تُجز. أقسم بالله يومها أن لا يهدأ له بالٌ إلّا إذا سلمني المفتاح ، و تسلّمه غيري مرات ومرات. همس في أذني يومها :

- هل تعجبك عمي محمود الإقامة في الحي الجديد الذي ننجزه بمحاذاة الطريق الوطني؟

ما وجدتُ غير يديّ المرتجفين تشدان بحرارة على يده أوَدَّعه بهما و دمعة تنزلق من عيني التي أجريتُ لإحداهما ذات يوم عملية جراحية لاستخراج حصاة منها كانت قد تطايرت بمعية أخَيَّات لها، بفعل انفجار قذيفة من القذائف الكثيرة الموجهة من إحدى مراكز العدو المقابلة.

دمعة انزلقت تطلُّ على عالم اختنقت فيه الدموع .. سيلانها ما عاد يثير العواطف الجامدة . رؤيتها تسبب التقرُّز لدى البعض . من يومها و الحلم يكبر ... و يكبر، و النفس أرض خصبة تنتظر مَنْ يزرع فيها بيتا يحتضن عائلة. يتربص بها داء خطير .. شرس لا يرحم للانقضاض عليها في كل آن .. تتالت الأيام و فقدت الأرض طراوتها و تشقق أديمها و تصلبت قشرتها.

- ما أروع الأمل في داخل الإنسان، إنه الجنة التي لا تشيخ في الفؤاد .. قالها أحدُ الحاضرين.

قاطعهُ محمود بحدة:

- لو كنتُ أملك سلطة لأمرتُ كل مسؤول بتقديم كشفٍ كاملٍ لما أنجز و لم يُنجز في عهدته كمسؤول .

- الصبر و الأمل بلُسمان شافيان يا ولدي .. نطق بها الشيخ.

- الكلمات تعفنت . تفسخت داخلي. فقدت وظائفها مثلما تفقد الخلايا وظائفها داخل جسدي، عبارة ودَّع بها محمود الجماعة.

* * *

انفلت المنشور مني دون وعي، ولما شعرت بذلك، عنَّ لي أن أتركه حيث سقط. تشخَّص لي لحظتئذ مسعودُ بقامته المديدة وقَدَّه الوسيم يرشقي بسهام اللوم فوجئتُ وهو يسلمني المنشور، من عادتي إذا سلمني أحد وثيقة... أي وثيقة أسارع بالتهام ما بها بنظرة سريعة سخطت على نفسي فيما بعد. أحيانا كثيرة نسخط على أنفسنا إمَّا لبلاهتنا أو لغفلتنا أو لطبيتنا، أو لكلها مجتمعة... أحيانا نُصابُ بالتصلُّب... بالتجمُّد حيال مواقف تتطلب منا السرعة و التحرك لاتخاذ موقف.

* * *

في مدخل الحي الذي أقيم به و الذي سلخ من عمري عشرين عاما و هو يزداد تضخما، مثل كبد يرفض صاحبه احترام شروط الحماية التي وضعها له الطبيب المعالج . الأكواخ الحزينة مُلقاة بهمجية. لفت نظري جمعٌ من سكان الحي قد توزعوا في دائرة كزرع نما عبر مساحة منخفضة نجحت في الاحتفاظ بقطرات مائية إضافية جادت بها السماء، بدلا من أنحرف صوبُ الدرب الضيق الذي يرتمي به بيتنا الطيني عليلا، جذبي الفضول إلى حيث الدائرة التي نجحت في استقطاب العدد الكبير من سكان الحي.

حالما توقفت جلهني صوت من الخلف .. هو صوت ألفتَه أذناي .. إنه قريب

من قلبي:

- يُعدّون العدة لإطلاق الكهرباء إلى حيننا يوم الغد حسب زعمهم ... همس بها بوجعة جاري في أذني.

لفت نظري غير بعيد لافئة علقت حديثا، حُطت عليها عبارة بخط رديء:

- قضايا المواطن الأساسية من اهتمامات المجلس الجديد.

تحتها منشور أُلصِقَ على لوحة عريضة .. تتالت به أسماء يتصدّرُها اسم مسعود بالأنوار. اختنقت الكلمات في فمي . استحال وجه مسعود الوسيم الملائكي إلى شيطان بشع، راح ينفثني نارا حارقة . وأنا هاربٌ وهي تأخذ بتلابيبي . استجمعت قواي لإطفائها . ما قدرت . حاولت وحاولت . رويدا، رويدا خارت قواي .. انهرتُ .. سقطتُ على الأرض.

عناق أبدي

" إن أعظم اكتشاف لجيلي ، هو أن الإنسان يمكن أن يغير حياته ، إذا ما استطاع أن يغير اتجاهاته العقلية "

(وليام جيمس)

(1)

كان الصباح مشرق الوجه، و شمس هذا اليوم الشتائي تسلل منها شعاع محتشم باهت ، اخترق زجاج النافذة الصغيرة متسرّبا عبر طبقة كثيفة لزجة، تسطحت على مساحته. انتشر الشعاع عبر فراش مسعود الذي لا يزال فيه و ما تحرر منه بعد، رغم إلحاح زوجته فطومة.

كان قد استيقظ مع الفجر كعادته ليؤدي صلاة الصبح، ثم عاد ليندس في الفراش ... مستسلما لأفكار عديدة بعضها أشاع في نفسه حبورا و رضا عن النفس، و قد يتوسع في بعض اللحظات ليشمل كل من عرفهم. في داخله حكمٌ مطلقٌ بأن الخير لا يزال موجودا في الأغلبية من بني آدم وسيبقى النبراس الوحيد لإضاءة الدروب أمامهم. في لحظات أخرى تغزو دماغه خواطرٌ أخرى سوداء تحيل رضاه ذاك إلى نوع من التردد، يجعله يشك في حكمه المطلق الذي أصدره.

(2)

مسعود ليس فلاحا عاديا أرغمته أميته على امتهان الفلاحة، لأن باب التوظيف مغلق في وجهه، أو أن ميدان الحرف الأخرى أو الخدمات يتطلب مستوى تعليميا معيناً، وليس من أولئك الذين اقتنعوا بضرورة العودة إلى الأرض باعتبارها المصدر الدائم للثروة، أو النبع المستمر الضامن للعيش اللائق.

مسعود ورث حرفة الفلاحة أبا عن جد . حينما نشأ و ترعرع و وعى ما يحيط به وجد نفسه دون أن يدري لصيق الأرض، يمارس الفلاحة بجانب أبيه ... ما سأل. كل الذي يذكره من أيام طفولته تلك أن أباه الذي رحل عن هذه الدنيا منذ عشر سنوات و والدته التي لا تزال ترزق و تعيش معه، و أخته الكبرى المتزوجة حاليا و تساعد زوجها بدورها في النشاط الفلاحي يعملون يدا واحدة في قطعة من الأرض حينذاك.

حينما بدأ يعي هذا العالم و ما يجري في المحيط القريب منه و هو يدرج، لاحظ أفراد العائلة والأقارب علاقاتهم مع الأرض دائمة. انضم إلى المجموعة تلقائيا، و ما فتئت التلقائية أن تحولت عبر الأيام إلى ممارسة واعية . تكيف بموجبه في علاقة حميمة مع الوسط الفلاحي بشيئنا . علاقة وئام و وفاق. و ما خطر بباله يوما أن يعرف منشأ هذه العلاقة، و عما إذا كانت ضرورية، و هل مكتوب عليه مواصلتها؟

نشاط يومي و حركة لا تهدأ يشارك فيها كل واحد من العائلة منذ طلوع الشمس إلى مغيبها كل يوم، ما عدا يوم الجمعة . إقامة سدود نباتية حول قطعة الأرض . تقسيم المساحة المعدة للاستغلال إلى مساحات صغيرة مربعة أو مستطيلة أو مثلثة، تُوصلُ بسواقي محكمة يجري بها الماء لسقيها . زرعُ كلِّ مساحةٍ بنوع من المزروعات أو الخضار . إنعاشُ بذور معينة في مساحات أخرى و غرس شجيرات في غيرها .إعداد مساحات أخرى لأنواع معينة تنمو و تثمر في الفصل الموالي . حركة لا تهدأ ، خلية نحل. ترسخ لدى أفرادها أن الحياة بدون حركة فناء و عدمٌ .. وكل حركة فيها بركة.

غير أن محور هذه الزراعات كلها هو إنتاج التبغ .. تبغ تُعرف به المنطقة وطنية مخصص لإنتاج الشمة، و لا يصلح حسب المستهلكين و رأي المتخصصين لإنتاج السجائر لقوّته، إنتاج وحيد مقبول في مركز الشراء الوحيد المنشأ لهذا الغرض منذ ما قبل الحرب الكونية الثانية.

(3)

النوع الوحيد من الزراعة الذي كانت السلطات الاستعمارية تشجع على إنتاجه، و تغري الفلاحين بالقروض البسيطة المسترّة بعد البيع أضعافا مضاعفة . أثناء تقديم المنتج لمركز الشراء في منتصف فصل الخريف ، ما يتبقى من نزر قليل للفلاحين يكون مؤونة لهم و لعائلاتهم في الفصول الباقية من السنة، متمثلا فيما يشترونه من قمح يُؤتى به على ظهور الجمال في قوافل تصل المنطقة من الزيبان ، والأوراس، إضافة إلى نوع آخر من الغذاء يعتبر أساسيا و لا تستغني عنه أية عائلة في المنطقة مهما كانت حالتها الاجتماعية هو التمر، حيث يُبقي منه الفلاحون لأنفسهم بعد جنيه كمية معتبرة. ومن لا يملك نخيلا يقتني منه غذاء العائلة، أو مقابل أتعابهم من العمل في مزارع و أغواط¹ يملكها أغنياء تلك الفترة.

وقد يُنتج بعض الفلاحين شيئا من الخضرة القليلة التي تجود بها التربة الفقيرة من المواد العضوية و بكميات بسيطة بساطة الحياة يومذاك و متطلباتها المعيشية، حيث ينقلونها إلى سوق البلدة الأسبوعي، و يبتاعون بثمرها بعض لوازم الحياة البسيطة الضرورية.

¹ - أغواط . مفردا غوط . الغوط : بستان من النخيل في أرض رملية منخفضة .

لَمَّا شَبَّ مسعود كان والده يكلفه بهذه المهمة حتى يعفيه بعض الوقت من العمل المرهق، حيث يجمع له من تلك المحاصيل البسيطة البعض ، يتوجه بها إلى السوق ، فيقضي جزءاً غير يسير من النهار تكويه شمسُ الضحى الصيفية بسياط نارها الحارقة، و يَلْسَعُه القُرُّ في فصل الشتاء. قد يتيسر له البيع في بعض الأيام و قد يتعسر في غيرها فينزل السعر إلى الربع أو أقل. ما يللمه من دريهمات ينفقه في ابتياع بعض المواد الضرورية للعائلة كالزيت و السكر و الشاي خاصة.

(4)

ما كانت الدار التي ورثها مسعود عن أبيه واسعة، و ما تمكّن هو بعد من توسيعها أو إضافة بعض الغرف الأخرى إليها و عددُ أفراد الأسرة ليس قليلا حتى يتناسب وسعة الدار . عائلة مكونة من تسعة أفراد: مسعود و زوجته فطومة و الوالدة و ستة أبناء نصفهم بنين . ثلثا المجموع يتابعون الدراسة وأكبرهم الصادق ذو الأربعة عشر عاما الذي نال من التعليم غيرَ ورقة مرمية باحتشام في خزانة وُجِّهَتْ للأب عن طريق البريد، نصها التالي:

" ابنكم الصادق مطرود من المؤسسة بسبب تجاوزه العمر القانوني للتدريس و تخلفه في الدراسة والتحصيل العلمي."

عدد أفراد العائلة مرتفع و تحت ضغط المطالب الحياتية اليومية لهذا العدد المتنامي، و بتأثير التحسن المعيشي للإنسان في بلد نال حرите ... يسعى جاهدا إلى تحسين حياة مواطنيه. الكل ينشد العيش الكريم . وجد مسعود نفسه مكرها محاصرا بطلبات لم تألفها نفسه، وما قدر على الاستجابة لها برمتها ، ولتلبية بعضها وجد الحل في التخلي نهائيا عن زراعة التبغ و تعويضه بمزروعات و خضر يطلبها

السوق يوميا، و عائداتها مرتفعة إلى جانب أنواع أخرى من المزروعات الصناعية التي انتشرت بفعل عوامل عديدة مستحدثة و ذات عائدات وفيرة ... مطلوبة في كل وقت طول السنة كالبطاطا والكاوكاو والشمندر السكري.

في السوق اليومية التي يطلق عليها سكان المنطقة - سوق العصر - يكون مسعود في مقدمة من يعرضون إنتاجهم الفلاحي الوفير . بتوالي الأيام اشتهر بكثرة الإنتاج و توفره و بتزويد السوق بإنتاج مرغوب فيه من الخضار و الفواكه. و قد يفاجأ بزبائن وافدين عليه و قد قدموا من قرى مجاورة أو مدن غير بعيدة راغبين منتوجاته .

كثر الدخل و تحسنت الحالة الاقتصادية و المعيشية للعائلة، و تفتحت العيون أكثر و تضاعف الطلب و هفت النفوس إلى مطالب أخرى ما كانت لتخطر على بال مسعود أو أحد أفراد العائلة لو بقي الدخل محدودا. قد اقتنع بجلبها و لو ظاهريا إلى أسرته إرضاء لهم .

وتحلو له الحرفة فيزداد رضا عن نفسه، و يتصور أنه محظوظ ليس بالوارثة فحسب و إنما رغبة وتعلقا بها. تتجند العائلة أكثر حتى المتدربون ما أن يغادروا مدارسهم حتى يلتحقوا به فورا وينكبوا على العمل. و اكتملت فرحته و فرحة العائلة لما تسلّم عقد الملكية في حفل رسمي لقطعة أرضية من مجموعة قطع برمجت للاستصلاح، و قرضا لشراء شاحنة صغيرة نفعية.

قالت له والدته وهو يدخل ضاحكا و يضع بين يديها عقد الملكية وصك القرض، يلثم يدها وصوته متهدج:

- بعينيّ هاتين شاهدت اليوم شبابا متعلما حصل على أعلى الشهادات آثر الفلاحة عن غيرها من الحرف و موظفين تخلّوا عن الوظيف نهائيا و تسلموا عقود الملكية مثلي، بفضلك يا أعز الناس وبفضل والدي رحمه الله ضمنت لنفسي و لهذه العائلة المستقبل النير و المضمون. أدركت أنني دوما في الطريق المستقيم ... الدرب السوي الذي يجب أن يسير فيه الجميع.

- لم تخطئ يا ولدي في حياتك .. دوما أنت في الطريق السوي، إنما اسمعني يا ولدي و عَ قولِي هذا، إن العائلة كما ترى ضاقت بها هذه الدار التي تركها لك والدك. ليس من الحكمة أن تخبئ رأسك في الرمال كما تفعل النعامة هروبا من الواقع . انتبه جيدا هو مشكل واقعي و يطرح نفسه بقوة، أنت ملزم بالبحث عن الحل، لا أحد يحلّ محلّك، واجهه بشجاعة .

(5)

في اجتماع بمقر المندوبية الفلاحية ضمّ كل فلاحِي المنطقة، مسعود يومها كان جالسا بالصف الأمامي مما سمح له برصد كل التحركات و اللقاءات الضيقة و التنصت على الكثير مما قيل في شأن المساعدات التي قد تقدم للمتملّكين الجدد بصفة خاصة. بعد الاجتماع مباشرة انفرد به الحاج مبروك ذاك الفلاح القديم وممثل الفلاحين الخواص في المنطقة، والمشهور بشساعة أراضيه وعقاراته وبوفرة منتوجات أرضه وبجودة دواجنه. يشرف عمليا على كل شيء أبنائه الثلاثة بمعية عشرة عمال أجراء يستبدل في كل مرة نصفهم دوريا. اشتهر إنتاجه لكونه يُسوّقه في خارج المنطقة. الرأي عنده أن المنتج الجيد أهل الحَضَر أولى به.

اقترب الحاج مبروك من مسعود، برفق غير معهود منه ربت على كتفه و همس في أذنه:

- ما رأيك يا ابني مسعود فيما سمعته في هذا الاجتماع، و الوعود الكثيرة و المغرية للفلاحين أمثالك ؟

- وعود يبدو لي أنها صادقة يا حاج. المصداقية نستمدّها من إيمان الجميع بأهمية الأرض و خدمتها. نحن نعيش هذه المصداقية يا حاج. نلمسها بأيدينا، نحني ثمارها، هل هناك من يشكّ بعد ؟

- الوعود يا ولدي ظاهرها صادق، غير أن الخفايا علمها عند الله وعند مَنْ أطلقوها. يبدو يا حاج أن لديك ما تريد قوله لي، هلا أفصحت عنه ؟

- هل صدّقْتهم يا مسعود أن القرض الذي كلموكم عنه تنجرّ عنه فوائد بسيطة لا تضرّ بأحد من المنتفعين به ؟ و لا يتطلب الأمر إجراءات إدارية معقدة و ضمانات ؟
- بل هي الحقيقة يا حاج. سلّ مَنْ استفاد قبلنا سينبئك بالخبر اليقين، الاتصال بهم لا يكلفنا مشقة.

- ستري يا مسعود بأن ما تأخذونه منهم باليمين يستردونه منكم مضاعفا بالشمال.

(6)

في تلك الليلة ما هدأ بال مسعود ولا غمض له جفن. مع إشراقة اليوم الجديد، كان مسعود عند ابن عمه جلول الموظف بالبنك معيدا عليه ما دار بينه وبين الحاج. عقب الجلسة القصيرة التي ما زادت على ثلث الساعة، جلول ودع ابن عمه مسعود مكررا له:

- تأكد يا ابن عمي أن النية سليمة فيما وعدتكم به. القرض لصالحكم لا تتردد .
عمك الحاج أول من استفاد من هذا النوع من القروض. كرر عمك الحاج الطلب
هذه السنة لنيل قرض آخر .

الصباح مشرق في هذا اليوم الشتائي. تسلمت أشعة الشمس الدافئة غمرت
المنطقة بالحياة والحياة. و خيوط الشعاع الفضية تكسرت على السطح اللزج
المشبع بالبخار، متوزعة في فوضى الغطاء. دخلت فطومة فسبقها صراخ الأطفال
الصغار، اقتربت متلهفة رغبة في معرفة ما أخره عن النهوض، امتدت يدها مزيجاً
عن وجهه الغطاء.

- مالك يا مسعود ما غادرت الفراش للتو؟ أنت بخير حيرتنا و الله ؟
- بخير و الحمد لله، أبقاني بالفراش موعداً لفتح البنك. لعلمك يفتح أبوابه على
الساعة التاسعة . وعلى أية حال ها أنذا أنهض، إذ عقربا الساعة يقتربان من
الساعة الثامنة والنصف.

حينما هم بالخروج داهمته والدته بسؤال:

- ألا تزال يا ولدي مصراً على رفض القرض ؟
- لا و الله يا أمي، سأكون من أوائل المستفيدين، عرفت حقيقة الكلاب التي تأكل
من القصعة ولا تشبع، ترفض أن تتخلى و لو عن الفتات لغيرها. الغريب أنها لا
تعترف بالوفاء والعرفان بالجميل.

المرافئ المغلقة

" تريدنا الحكمة شجعانا لا نبالي بشيء .تريدنا أشداء مستهزئين ،

لأن الحكمة أتتى ، ولا تحبّ الأتتى إلا الرجل المكافح الصلب

(نيتشه)

عندما داهمته الزوبعة الرملية قرب جدار المقبرة، رفع يديه. غطى بهما وجهه وعينه. أحنى رأسه فوق صدره، اتقاء تسرب بعض حبيبات الرمل إليهما، غريزة حفظ البقلة تقوم بعملها آليا.

... إذا ما تسربت بعض الحبيبات إلى عينيه، فإنه يدرك أنها تحدث له خدوشا مؤلمة داخلهما .. دموع تسيل لعدة دقائق . ثم إن لزوجة الإفرازات تقوم بوظيفتها وينتهي كل شيء، ذلك ما قاله الطبيب الهندي الاختصاصي في مرض العيون، مؤكدا قوله:

- لا تحش . لا يوجد خطر . عينك سحيتان بالدمع . الدموع غالبا دليل سلامة العين . لا يزال يذكر ذلك اليوم الربيعي قبل عقد من الزمن و الطبيعة الصحراوية في أوج غضبها . زوابع رملية شرسة انقضّت على المنطقة . شلت كل حركة . يومها كان جالسا قرب جده الكفيف الذي أدركته المنون منذ سنوات، حينها كان يطالع كتابا بمتعة يقاسم مؤلفه أفكاره، لحظتها توقف عند فقرة محتواها هزّه من الأعماق ، أبى باعتزاز إلا أن يقرأها على جده:

" نعمة البصر عطاء أكرم الله به الإنسان . لنحافظ عليه . الوقاية خير من العلاج . كان يقرأ بمتعة . عيناه تارة تستقران عند جملة ما فيعيدها للمرة الثانية و الثالثة، و تارة يركزهما على وجه الجذ مستشعرا مدى ما يقرأه لدى هذا الجد الطيب ، المقعد

رهين المحبين ، الفاقد لنعمة البصر منذ ثلاثين عاما ، المتمتع بالفطنة و الفراسة و نور البصيرة.

- هذا كلامٌ كتبٍ و أوراق يا ولدي . فاه بها الجد بشيء من السخرية و بنوع من المرارة.

- لكنها الحقيقة يا جدي.

- عبّر مراحل التاريخ تجد الإنسان سطرَ لنفسه قناعات و سلوكات قنّنها منذ أزمان بعيدة موعلة في القدم . خطّط له تنظيمات . رسّخ له عادات .. تقاليد ، ارتضاها الناس ، ربما تجد أن بعض المخلوقات الأخرى غير الإنسانية تشاركه هذا السلوك، لكنه سلوك غريزي يا بني ... قد تقرأ وتقرأ الكثير من المواضيع التي تهزّك فتتفاعل معها وما أكثرها ممّا هو خيرٌ ومّا هو شرٌّ . النكبات التي تصيب معمرتنا هذه في كل حين، ألا تهزّنا حينما نتتبعها تاريخيا؟ أليس الجفاف يا ولدي غول مخيف مثلاً ؟ إنه وحش يشع يقضي على الأخضر واليابس.

قرأت الكثير لما كنت في عمرك و نعمة البصر موجودة، و أكيد أنك قرأت وستقرأ أن الله نسبته إلى حجم المعمورة ثلاثة أرباع. أخبرتنا الكتب أن التوازن الغذائي والفيزيائي يحفظ للإنسان حياته. قرأنا في الكتب أن الطبيب إنسانٌ رهيف الحس، يتعامل مع البشر ، أي بشر بقلبه ، موظفا معارفه وعقله ، ينسى نفسه في سبيل خدمة الإنسانية . قرأنا وقرأنا . قرأت و ستقرأ . كلام كثير في الكتب لكن واقعيا لا . مآسي تحدث كل يوم . عشرات المرضى يُنبئونك و ينبئونك بعبث الأطباء بالمرضى . يا ابني لِمَ نذهب بعيدا و أنا أمامك ضحية من ضحايا العبث و

الإهمال . مناحي الحياة يا ولدي لا حصر لها وأخطئ البشر لا عدّها . ممارسة البشر كثيرا ما تقف عائقا أمام ازدهار المعرفة ونشرها واستفادة البشرية بها.

* * *

عندما لفتّ الزوبعة قرب جدار المقبرة رفع يديه وغطّى بهما وجهه . تصاعدت الأوراق والقصاصات المبعثرة هنا وهناك إلى الأعلى . لطمت ذراعيه ورقبته وظاهر يديه، في حلقات حلزونية مندفة إلى الأعالي . تلك الأوراق المبعثرة والقصاصات دليله في العثور على بُقع الباعة المتجولين في السوق الأسبوعية . ترشده إلى ماهية البائع .. أوراق ملسله وردية .. أوراق حرشاه .. أكياس .. كل نوع من الورق له نكهة خاصة يُفصح عن وظيفته .. يرشده إلى نوعيه البضاعة .. فالمكان الذي أقام به البائع.

تعوّد أن تقوده رجلاه إلى ساحة السوق المهجورة بعد صلاة الجمعة مباشرة . ترشده تلك الأوراق المبعثرة المفتتة إلى بقع البائعين . السوق مستطيلة يتقابل على طولها صفان من الباعة تاركين وسط السوق للعربات المحملة بالخضار والبضائع الأخرى. أيضا للزبائن القادمين من أحياء المدينة أو القرى المجاورة، بل ومن بلدات بما فيها عاصمة الولاية . سوق هذه المدينة مشهورٌ عند القاصي والداني ، شهرة اكتسبها عن جدارة منذ أوائل القرن. المناطق المحتضنة لهذه المدينة تغدق عليها بكل ما تجود به الأرض من خيرات.

السوق الأسبوعية هذه معرضٌ زاخرٌ لأنواع عطشاءات التربة السخية المسقية بعرق الإنسان الذي تيقن نهائيا بأن حياته مرهونة بمدى ارتباطه بالأرض، و بمدى التصاقه بالتربة.

تقوده الأوراق المبعثرة ، وبقايا النباتات ، و الخضار إلى بقع الباعة. يغرز أصابعه في الطبقة الترابية يحركها يمينا ، يسارا، أسفل ، أعلى . يضمّها إلى بعضها يفحص ما علق بالأصابع . يفتحها ، تتسرب حبات التراب تباعا ، يعيد الكرة ويعيد ، يقوم بعملية غربلة ، قد تستقر فوق راحة اليد قطع نقدية صغيرة أو قطعة كبيرة تكشف بقعة البائع و نوعية البضاعة التي يتعاطاها.

هي عملية صيد أسبوعية تدرّب عليها . كانت في البداية كريهة ... مذلة، مرور الأيام تدربت عليها أنامله الصغيرة ، أنامل اكتسبت دربة خاصة و دقيقة في التحسّس .. في المقارنة و التعرف على الأشياء العالقة بينها و فوقها.

أكثر الباعة يلازمون الأرض . يجلسون عليها متجاورين أثناء عملية البيع . طبيعة الريف تفرض ذلك . الأرض هي الرقعة التي يحلو عليها كل تحرك و كل نشاط إنساني . يضعون النقود المتأتية من عمليات البيع في علبة معدنية ، أو في صندوق و رقي صغير أو تحت طية كيس.

أصابعه اكتسبت دربة في البحث عن القطع النقدية التي تكون قد تسربت إلى الأسفل . السوق حركة و التعامل بالنقد أخذا وعطاء قد لا يتيح للبائع وضع القطع النقدية في مكان حفظها بدقة .

كان يزاومه في هذا التقصّي وتلك الغربلة بعضُ الأحداث الطائشين .هي عملية تتطلّب الصبر وتحمل نظرات الفضوليين الكُثُر ، واستفسارات البعض منهم الملبّسة عسلا و باطنها سم ، و أسئلة أخرى عن حسن نية . أحداث راقتهم الفكرة

بعض الأيام ، سرعان ما انقطعوا عنها، ربما وجدوا مصادر أخرى للنقود أسهل منالاً.

ازدادت الزوبعة الرملية قوة ، أحسّ بشيء ما يجذبه من جيبته الممزقة نحو الجدار المرتفع ... جدار يحمي الأموات داخل المقبرة من عوامل الطبيعة و من عبث البشر . يعلوه سياج . أعمدته الحديدية المديبة من الأعلى أشبه بسيوف مشرعة لفرسان أشداء أثناء عملية حراسة مشددة لقصر إمبراطوري عريق. بقايا النباتات الجافة، الأوراق التي فقدت شكلها الأصلي . قصاصات كلها تعبت بها الرياح القوية فترتطم بجدار المقبرة ، فترتد متطايرة صوب كل الاتجاهات . حببيات التراب الملوثة المحملة بذرات روّث البهائم و بوّها و حتى فضلات الإنسان تتسرب إلى أذنيه مستوطنة داخلهما. ما مرّت غير أيام معدودات على تنظيفٍ لهما في المركز الصحي .. حببيات قدرة مقتحمة منخريّ أنفه عالقة بالشعيرات الدقيقة الداخلية.

عينه اليمنى كادت تفقد الرؤية . امتلأت ذرات ترابية . العين اليسرى كلما همّ بفتحها ، كانت الحببيات لها المرصاد . اختلس نظرة سريعة مسّحاً للمنطقة القريبة. العاصفة غيرت المعالم . سوّت وجه الأرض . أزالته منه المرتفعات . أخفت منه المنخفضات. محت منه كل أثر . رفعت كل دليل يحدد مكان هذا البائع أو ذاك.

تابع طريقة في السوق المهجور. جرّته قدماه نحو مدخل درب ضيق كانت بعض أبواب الدكاكين العتيقة به مفتوحة . أثله مروره لاحقته أصوات متداخلة:

- في يوم عاصف كهذا و ما التزم بيته . عجباً لبعض البشر في هذا الزمان الغريب .
- هو عصر المادة، يُخرج الموتى من قبورهم.
- لو استقر في بيته لأتاه الرزق من حيث لا يعلم.

الريح تلطم وجهه. أقدار تُزكم أنفه . صعوبة في التنفس اعترته . حبيبات
التراب القذرة انزلقت إلى حلقه. كتم آهاته لما لاحظ أحدهم يمرّ قريباً منه. تلكاً في
مشيته . عنّ له الصراخ ، ما أمهله الزوبعة التي أخفت كل المعالم . أسرع لبيتلعه
جوفُ أحد الدكاكين المفتوحة.

لما كان يغادر البيت في طريقة لأداء صلاة الجمعة تمسّك به ابنه ذو العشر
سنوات مُلِحّاً و مكرراً:

- أبي لا تنس ما طلبته منك . تلاميذ قسمنا سيقومون برحلة إلى مدينة تيمقاد
الأثرية. طلب المعلم من كل تلميذ مئة دينار. أسكتته أخته ذات الثماني سنوات:
- مدرستنا عما قريب ستحتفل بيوم العلم، سنُنجز عدة نشاطات . سيدتي طلبت
من كل تلميذة خمسين ديناراً للمساهمة في شراء لوازم الأنشطة. أرجوك يا أبي
امنحني هذا المبلغ. رفيقاتي بالأمس أغلبهن أحضرن المبلغ.
صوت الأم غير بعيد ينضمّ:

- المطبخ كما تعرف يا إبراهيم لا تلقى الفئران غيه ما تقتات به.

* * *

في زاوية من زوايا الدكان العتيق الذي احتفى فيه من هَوْل العاصفة
الهوجاء التي ما فتئت تزاد ضراوة، سمعه الحاضرون يردد:
رحماك يا رب ،وحدك تعرف ما نحن عليه، بيت انعدم به ما تقتات منه حتى
الفئران هو بين انعدمت به الحياة . رحماك يا رب.

* * *

توغل في الشارع الرئيسي ذات يوم حيث الحركة في أوجها . الدكاكين مفتوحة . البضائع المختلفة مرتبة و معروضة وفق الذوق والجمال . الباعة يقتنون ما طاب لهم و ما رغبوا فيه. السيارات و عربات النقل بشتى أحجامها و منقولاتها تُعطي حركية لمشهد الشارع. دمء الشباب يومها تجري في عروقه فؤارة . اعترته رغبة عارمة في فعل شيء ما . في قرارة نفسه ارتأى أن هذا العالم في حاجة إلى إعادة تشكيل . شهادة البكالوريا التي تحصل عليها بعد تضحية كبيرة وطول عناء و حرمان العائلة الفقيرة من ضروريات كثيرة، تيسيرا عليه كي يدرس و ينجح ؛ شهادة أحسن يومها أنها رفعتة من الحضيض إلى العلا . من الغبن و الذل إلى العزة. مشاعر الكرامة و الكبرياء غمرته وهو يدلف مقرّ إحدى الشركات العامة بالمدينة. ما شجّعه على التوجه إليها دون غيرها ، شهرتها والحوافز المادية المغرية التي تمنحها للعاملين بها آخر كل سنة . حاليا لما يتذكّر تلك الشركة التي أفلست في أول امتحان يهبّ إليها فيه نظام السوق الحرّ . يومها الملف الكامل تعلوه الشهادة يمه بثقة و اعتزاز إلى رئيس دائرة التوظيف:

- سيدي سأكون دما جديدا في الشركة . سأكون لكم سندا قويا و فعالا. ثقتي قوية في أنني قد أكون أيضا السبب أنا وأمثالي في تغيير أشيئ كثيرة بها. و دّعهِ رئيس دائرة التوظيف بعد قبول الملف منه. بابتسامة تنمّ عن كثير من دهاء:

- كم أنا مسرور بك و بأمثالك من هذا الجيل الجديد . فعلا الشركة تفتقر إلى أمثالكم . هي في حاجة ماسّة إلى طاقات جديدة في كل المناحي . كن واثقا بانضمامك إلينا عما قريب . سنّصل بك كتابيا، أكيد أن عنوانك بالملف موجود .لا تكلف نفسك مشقة القدوم إلينا . في أقرب فرصة يكون اتصالنا بك.

تكررت الملفات هنا وهناك . الوعود مغرية . الأمانى بدون حدود . مدير وحدة البلاط التي أقيمت حينذاك التقى به في مدخل الشارع العام المؤدي إلى وسط المدينة ، انضم إليهما جاره محمود الذي لا يملك مستوى معرفي أو حتى مبادئ في القراءة و الكتابة و الرياضيات ، لا يدري من ساعده ، ورغم ذلك هو جاره وقريب إلى قلبه، لا يضمن عليه بالمنصب الذي هو به بوحدة البلاط .

* * *

بعد دراستنا للملفك وجدنا من الصعب قبولك في الوقت الراهن معنا. شهادة البكالوريا اختصاصك فيها رياضيات و نحن في حاجة إلى اختصاص شعبة الكيمياء.

* * *

العاصفة في الخارج وحش ثائر . أثر البقلة بداية كغيره ممن غصّ بهم المكان ، لكن تحامل على نفسه فكان في الخارج ، سرعان ما لطمت الريح وجهه . حشت منخريه بما تطاير من أتربة وبقايا قذرة . رفع نظره الكليل حينها إلى الصومعة حيث صوّت المؤذن يعلو إلى عنان السماء مُعلنًا حلول وقت صلاة العصر رائقا ، عذبا ، جذابا إلى العوالم التورانية.

تذكر قول جده الحريص دوما على أداء الصلاة في وقتها:

- المصالح هي التي تقود الناس يا ولدي . المشاعر ، العواطف ألفاظ للاستهلاك لا تؤمن بها كثيرا . قد تُغلق في وجهك كل المرافئ التي تقصدها . قد تُوصد الأبواب أمامك . حينها سل نفسك ماذا قدمت و ماذا لم تقدم . هي سنن الحياة هكذا يا ولدي .

الجدّ خبر الحياة . ضحك كثيرا وقتها من كلام جده . رأى فيه الشاؤم واليأس . كلام شيخ مسن ، هرم ، قعيد البيت . حُرِمَ نعمة البصر . انعزل عن حياة بكل زخها. تابع طريقه بخطوات متعبة ، يجر رجله في عياء و انكسار. ابتلعه زقاق حلزوني ضيق استقرت وسطه بحيرة من مياه آسنه، تغذيها مياه الفضلات التي تعاونت قاطنات الدّرب على إلقائها بطرق وأساليب مختلفة . وسط البركة كانت ثلّة من الأطفال الصغار تعبت بالمياه الوسخة .

ابتلعته الأزقة و دروب الحي العتيق. أصوات طفليه تلاحقه ، تطارده ، تقترب منه أكثر:

- مدرستنا تنظم رحلة سياحية و علمية لتلاميذ المدرسة . مئة دينار فقط.
 - مدرستنا تحضر للاحتفال بعيد العلم. المعلمة طلبت خمسين دينارا لكل تلميذة.
 - لا تنس يا أبي ، هي رحلة هامة . كل التلاميذ سجّلوا و دفعوا.
 - لا تنس يا أبي. كل التلميذات سجّلن و دفعن.
- وهو يقترب من بيته كانت يده مستقرتين في جيبي سرواله البالي ، وبعض الأصابع غاصت في الثقوب.

أقوى من الأقنعة

" من أكثر الأخطاء التي يرتكبها الإنسان في حياته
...كانت نتيجةً لمواقف كان من الواجب فيها أن يقول لا ...فقال
نعم !!! "

(1)

أطرق عامر، فعانقت نظراته التربة بشقوقها و تجاعيدها الكثيرة، و حببات
التربة النافرة عن بعضها في ترمّد. مجرد زوبعة ضعيفة تهبّ قد ترمي بها إلى بعيد
متطايرة في عنان السماء . نقل بصره قائما بعملية مسح ممزوجة بالأسى والحسرة
للأحواض الجافة التربة المشققة . من فجواتها تطل في حبور جماعات نشطة في
حركات سريعة من الحشرات الباطنية، حلا لبعضها قضم الجذور الهشة الأوراق
الظمأى الذابلة.

أنفاسه تتضاعف، وعلى جبينه الشاحب الأغبر تالأّت قطرات من عرق
أخذت تقترب من بعضها لتلتحم وتمتزج مشكلة خيطا فضيا منسابا في حركة
انزلاقية عبر مساحة لوجه جسد مرهق، لم ترجمه عوادي الزمن . أبت معاولة غير
القسوة، تاركة بصماتها بارزة.

الشجيرات ، النباتات ، البقول الطرية ذات الأوراق الغضة مستسلمة في
خنوع ، مطرقة الرأس في ذل وانكسار. أحسّ عامر وكأنّ مسامير صدئة تدق
بوحشية صدره. أطل من عينيه لحظتها بريق مخيف. ارتسمت على شفثيه المرتجفتين
لعنة، ما انفك أن أطلقها مدوية . ردّت صداها الوهاد والأودية.

وقف من مكانه بصعوبة كمريض استوطنت جسمه العلة . بحث عن الدواء هنا و هناك . دق كل الأبواب . وقف أمام كل الأطباء . تلهّف على قراءة الأمل في عيون كل طبيب . حلم بالشفاء على يدي كل واحد منهم . ما نفع الدواء ولا حصل العلاج . و ما تقهقر الداء .

الشجيرات الصغيرة .. النباتات الغضة تنتحب بغير دموع ، فالدموع امتصتها حرارة الجو المرتفعة . أشعة الشمس الحارقة تُبخّر كل رطوبة . النباتات الصغيرة والشجيرات مالت هاماتها . التوت أعناقها . اتكأت على بعضها ، متوددة إلى الأشجار الأكبر منها ملتزمة الحماية ، مستمدة ظلها وبعضا من الرطوبة . اندمج الكل في رقصة الفناء .

شعر عامر بالأرض تتحرك تحت قدميه .. تهتز كجان انتفض وأزاح عن كاهله ما يثقله ، تراءى له وجه شمع يطلق ألسنة طويلة من اللهب الحارق ، تندفع ألسنة اللهب تجاهه بدون رحمة وتجذبه نحو الهاوية المشتعلة ، حاول الفرار . حركات يائسة سعى من خلالها إلى التخلص فما استطاع . الفم مفتوح يصرخ .. يستنجد ولا من يجيب . أخيرا جسمٌ ملقى ينتفض ولا من منقذ .

أعاده إلى وعيه صوتٌ جلبة لقطيع من الأغنام ارتفع ثغاؤه و بقرٌ علا خواره كان يسوقها أحد الرعاة . مسح حبات العرق ، أزاحها عن جبينه . ما لبث أن أدار بجسمه المنهك نحو المخرج بُنيّة مغادرة المكان هاربا من السخط الذي يسكن أعماقه ، وما كاد يخطو عدة خطوات في الدرب الحاذي لقطعة أرضه ، واستسلامه للغبار والأتربة المتطايرة تغزو مساحة جسمه الناضحة عرقا ، بفعل مرور القطيع

حتى ألقى نفسه من جديد ضحيةً لأفكار سوداء تتزاحم في دماغه و قِيمٌ تجذرت في ذهنه:

- التجدد سنّة من سنن الكون .
- الحياة حركية دائمة ، تأبى الروتين والرتابة.
- الحياة في حركيتها وتجدها قد تأخذ في طريقها الإيجابي مثلما تأخذ السلبيّ.
- حتى الزلازل بقدر ما تُنكبُ الإنسان في أعزّ ما يملك، فإنها تمنح القشرة الأرضية تجددًا في مكوناتها شكلا و محتوى.

كان يحدث نفسه بصوت مسموع دون شعور:

- علّمونا أن التربة جزءٌ من الطبيعية الأم ، ومظاهر الطبيعة لا تهدأ . هي متجددة دوما . التربة ثرية بالكنوز، إن الانتفاع بكنوزها يستدعي الالتحام بها .
- الأمن الغذائي مطلب الجميع . الثورة الخضراء حلم الملايين، لن يتحقق المطلبان طالما علاقتنا بالأرض واهنة .. فاترة .. باردة.
- دعك يا عامر من هذه الأفكار البالية. العالم اليوم قرية صغيرة. العولة في كل المناجى فرضت نفسها والوفرة في الإنتاج غزت كل الأسواق القصية منها والقريبة، لماذا تتعب نفسك ؟ أيُّ أمن غذائي تتحدث عنه ؟ و أية ثورة خضراء تحلم بها ؟ إنه خطاب أيام زمان أُشْبِعَتْ به و أمثالك البُلْهاء . أفقُ يا هذا و تعاملْ مع واقع الحياة.

(2)

طلعت الشمس هذا الصباح الصيفي مرسلّة أشعة حارقة كأكثر أوصباح أيام الصيف. للأسبوع الثاني ما عاد عامر يدرك شيئا تبلّد ذهنه . توالى الأيام ثقيلة مملّة. في بداية الأسبوع الأول تزاوجت الأحداث .. الحركة في المزرعة ما هدأت ..

محاولات مُفَعِّمة بالأمل ، حبلى بالرجاء قام بها وحده لإصلاح المحرك، محرك كان ساعده الوحيد في تدفق الماء من بئر عميقة أنفق كل ما كان تحت يده لحفرها، ساعده حينها بعض الفلاحين جيرانه و بعض الأقارب أصحاب القلوب الطيبة الناضرة إلى الحياة بعيون راضية و نفوس مطمئنة و قلوب قانعة مفعمة بالأمل.

تآزرت كل الأيدي والتحمت السواعد و امتزج العرق قاهرا الصخور الصلبة. عوضت الأيدي القوية الأدوات الميكانيكية العاطلة والمعطلة في مزارع مجاورة شاسعة المساحات ، آلات دبّ فيها الفناء و غلّفها الصدأ و خنق الإهمال بها نبضَ الحياة. أسلمتها الأيدي المشلولة إلى عوامل الطبيعة . نفوس استكانت للراحة، وارتضت ذبحَ الوقت على الأرصفة وإنفاقه بدون حدود وبسخاء في المقاهي.

الأيادي الملتحمة استعاضت عن الآلات الضخمة المعطلة في الهواء الطلق، الأيدي القوية هزمت الصخر . فجرت الماء فاندفع قويا مدمدا في جريانه ، صاحبها في تقدمه . استقبله الجميع بفرحة عارمة.

(3)

الأسبوع الثاني أيامه تمرّ كأخيه الأسبوع الأول . الموت يحوم فوق رؤوس النباتات والأغراس . حركة أيام الأسبوع غير عادية في المكان: هذا فلاح كبير السن له من الخبرة ما يؤهله لتقديم نصائح في سقي التربة دون الحاجة إلى استعمال المحرك . ذاك فلاح شاب بثقة اقتحام المجهول و ركوب جواد المغامرة يذلفُ المكان ، سرعان ما انكب مفككا و مركبا هذه القطعة أو تلك، عقب محاولات عديدة يختبر المحرك، المحرك يؤثر الصمت و يرتضي السكوت.

في مستهل كل يوم جديد يبحث عامر عبر ركام الذكريات عن وجوه يعرفها،
و كلما توقف البعض منها قبالة نظر إليها مستوضحا ، مؤثراً إيقاف بعضها محاورا
إياها، فيختار هذا أو ذاك من أهل الاختصاص ؛ لحظتها تتسلل أصابعه الواهنة إلى
الجيب مستطلعة ما يخبئه ، سريعا ما تعود يائسة فيرفع عينيه إلى السماء و يتمتم.

(4)

الحياة تموج حركة .. الكائنات في صراع مستمر من أجل البقاء . الصراع لا
يتوقف وحركة الحياة لا تهدأ . سنة الله في كونه . كان عامرُ الذكرَ الوحيدَ لأبوين
رُزقا خمس بنات قبله . شب معززا مدللاً ، الصغير في العائلة أملهما الوحيد . تجند
الجميع لخدمته و توفير حاجاته، ثم تلبية كل ما يعنّ له. الوالد فلاحٌ بسيط وورث
الفقر أبا عن جد مثلما ورث حرفة الزراعة و الفلاحة. الأم سيدة ماهرة في نسج
الملابس التقليدية و حياكة الزرابي، ورثت الحرفة من عائلتها المتمرسّة فيها. أراد
الوالد عامل أرضٍ ناجحٍ ومزارع فذٌ يحفظ للعائلة استمرار حرفتها هذه المعروفة
بها و المتوارثة، متشبها برقعة الأرض التي تركها الآباء و الجدود أمانة .

أرادته الأم طبيبا ناجحا يقهر الأمراض والعلل المستوطنة في الأكواخ
والأحياء المهمّشة ؛ كانت متلهفة على الاستفادة من طبّه وتطبيبه إيّاها قبل غيرها .
سُعالها لا ينقطع ، يشتدّ عليها بين آونة و أخرى متسببا لها ما يشبه الاختناق.

(5)

أسلم الوالدان الروح لربّهما تفصلهما شهور قلائل عن بعضهما. ما وجد بين يديه حينها غير مبادئ أولية في القراءة و الكتابة و مهارة الحساب و خبرة بسيطة في حرفة الفلاحة. عمّه كان بالنسبة إليه نعم الأب الثاني، أخذ بيده من جديد ساعده حتى تمكّن من التحكم في مهارة الزراعة و الفلاحة، وما لبث أن تركه يصارع الحياة بكل تقلباتها وأهوالها و أفراحها، مراقبا إياه من بعيد غير باخلٍ بالنصح و التوجيه و المساعدة كلما احتاج إليها.

(6)

الشمس أشعتها حارقة ، نارية في هذا اليوم الصيفي. قال له الميكانيكي الأول منذ يومين:

- عدة قطع في المحرك ضروري تغييرها بأخرى جديدة كي يصلح ويؤدي وظيفته بدقة و فعالية .

قال الميكانيكي الثاني في نفس اليوم:

- ما عاد المحرك صالحا يا سي عامر، هلا بحثت لك عن محرك ثان آخر طراز ؟
وقال الموظف الكهل في مصلحة بيع العتاد الفلاحي بلهجة جافة و هو منشغل بمسح نظارته الطبية:

- لا تتصور يا سيد أنّ الحصول على محرك جديد بصيغة الدفع بالتقسيط بالأمر السهل، هناك إجراءات إدارية تتطلب إحضار وثائق مهمّة. وثائق أخرى تُملا بدقة بكل المعلومات الشخصية، ثم يُرفق الملف بقيمة مالية تُعلمك عنها حالما يحضر الملف.

الحرارة تتضاعف . أشعة الشمس تسقط عموديا . النباتات ، الشجيرات تتأوه . الحشرات وطفيليات التربة في عملية غزوٍ شاملة خارقةً الجذور ، ممزقةً للوريقات ، ملتهمة بقايا الثمار . التربة فقدت تماسكها . نفرت من بعضها . الفناء يزحف . وحش لا يرحم .

(7)

أحد أعضاء جمعية فلاحية غطس في أريكة فخمة . أفرغ في جوف بطنه المنتفخ محتوى كأس من ماء معدني بارد . مرّر لسانه على شفثيه الرخوية المكتنزتين قال بحماس أمام جمع من المزارعين والفلاحين:

- الأمن الغذائي يا سادة حُلْمُ الجميع في هذه البلاد . إن تحويل الحلم إلى واقع يتطلب من الجميع حسن التخطيط ، ودقة حصر الإمكانيات البشرية و المادية . واقعنا الجديد يفرض علينا أساليب أخرى في علاقتنا بالأرض . مطلوب من الفلاحين و المزارعين منذ الآن نبذ المفاهيم البالية و أساليب العمل العتيقة . وفيما كان المتكلم يعبّ كأس ماء بارد زُلّال ، لكزّ فلاحٌ عجوز ابنه هامسا له :

- يا بني هذا المتحدث يبدو لي أنه غريب عن الأرض و حرفة الزراعة . التحام الإنسان بالأرض معروفٌ منذ القديم في كل بقاع الدنيا . الأرض سخية مع من يلتحم بها بصدق غير متطفل . التربة تجود بعطائها لمن يعجن عرقه بها .

(8)

بينما كان المزارعون يغادرون المكان و المتحدث إليهم قبل دقائق يمتطي سيارته الفاخرة . أحسّ عامر بالقرف ، كاد أن يقذف بما في جوفه ..سرعان ما غادر

المكان وهو يشعر بانقباض شديدٍ ، تزاхمت في رأسه أفكار سوداء ..تراءى له الزيف
بصوره ..الأقنعة الكاذبة كانت تطلُّ برؤوسها .
وهو يقترب من مزرعته عائداً ، كان الفضلاء الشاسع ..الرحب يحتضنه ..يغمره
بفيض من الانشراح والسرور.. أسرَّ بصوت خافت :
- الحلّ موجود ..موجود ، الله في عونى .

رجلٌ على الهامش

" ليس هناك مَنْ هو أكثر بُؤساً من المرء

الذي اللائقار هو عادته الوحيدة "

(وليام جيمس)

زرعتَ جسدك في هذه المدينة منذ خمسة عشرة عاما ..لما ضاقت بك رحاب
بلدتك وتراءى لك حينها أن الوطن وهمٌ .. بذلوا الكثير من أجل غرس غير ذاك
في ذهنك . في كل مراحل التعليم عملوا المستحيل من أجل إقناعك أن الوطن جنة
الله على الأرض لا يضاهيه وطن آخر . الأعمار بيد الله ، كالعشرات من بني وطنك
والأعداد من بني بلدتك ، كان بالإمكان أيامها أن يجد المارّون صباحاً رأسك مثبتاً
على عمود حديدي وجثتك غير بعيدة.. الكلّ كان يسرع الخطى.. يسابق الزمن ..
أشياء كثيرة كانت في انتظارهم.. مفاجآت ..أحداث ما تعودوا عليها ..سلوكات
مستجدة زرعت فيهم الرعب ..افتكت منهم البسمة ..سحبت منهم الفرح ..

*

حطّطت رحالك بهذه المدينة النائية الباردة ..قطعت البحار لتصل إليها ..قبل
القدوم إليها طفت ربوع الوطن ..قادتك قدماك لكل تجمع عمراني أينما كان
..بحماسة الشباب كان طموحك لا حدود له .. أن يكون لك وجود فاعل على أديمه ..
لما ضاقت بك الرحاب ما اخترت هذه المدينة طوعاً.. وما كان بإمكانك
استخراج المدن المحبوسة في الذاكرة كي تنتقي .. هي مدينة يلفها الصقيع ..يعيش
فيها ..يتمترس فيها ..تراءت لك في البدايات كذلك ..سرعان ما ألفتها وألفتك

..تحولت العلاقة الباردة إلى علاقة حميمة دافئة ..هذه المدينة فتحت لك ذراعها ..أحاطتك بالرعاية ..غمرتك بحنانها وعطفها ..طاب لك المقام فيها ..فتمسكت بها .

※

يومها عند ما أكملت دراستك الجامعية وحملت شهادة التخرج المزخرفة ...المزدحمة بالأختام والإمضاءات وعدت إلى البلدة مزهوا ..الفرح يومها أعاد الحياة للبلدة الوديعه التي تجترأ أيامها الرتيبة ..تلك عاداتها كلما عاد أحد أبنائها بشهادة تخرجه ..ربما أهلها يفعلون ذلك انتقاما من عهد استدماري حرمهم من المعرفة ..ربما يفعلون ذلك تقليدا لبعضهم بفعل العادة ..ربما يفعلون ذلك تشفيا ..بل تحديا للعائلات الميسورة التي لم يحرم أبنائها من المعرفة كيفما كانت العهود التاريخية ...ربما تلك ..ربما هذه ..ربما هي مجتمعة .

والدتك يومها في أسعد أيام حياتها والمباركات يأتين زرافات ووحدانا ..والشيخ الوالد يشعر بالفخر والاعتزاز ...كان البعض في البلدة يطرح الأسئلة التقليدية التي تُطرح كلما عاد أحدهم بدبلومه :

- هل سيجد عملا يا ترى ؟
- مَنْ سبقوه وما أكثرهم اكتظت بهم المقاهي وشبعت الحيطان منهم
- لن يسلموه عملا بهذه الشهادة .
- حتى التدريس يشترطون تسوية وضعية الخدمة الوطنية .
- يشترطون على الشاب الخبرة أيضا.
- العمل والمناصب للفتيات ..الأبواب مفتوحة هن .
- أنت تعرف لمن يُعطى العمل ..حتى بدون شهادات .

- سيكون - حيطيست - كأمثاله .
- سيفاجأ بالتذليل المعروف المرافق لكل طلبات العمل ..نأسف حاليا لا يوجد عمل لدينا .
- شهادتك تتنافى وخصوصيات مؤسستنا .

*

- في البيت استقبلك سؤال ملئت من سماعه لولا أنه من أعز الناس إليك :
- أما وجدت عملا يا ولدي "
- هل اتصلت ب.... له يد طويلة يمكنه مساعدتك
- لماذا لم تتصل به ؟ ما المانع يا ولدي ..الناس بالناس والناس بالله
- توالت الأيام رتيبة ..ثقيلة ..الأسئلة تتناسخ ..تتوالد
- هل وجدت امرأة تليق بمقامك ..تصلح زوجة لخريج الجامعة ؟
- خريج الجامعة مرغوب ..لا ترفضه أية فتاة ..أهلها يرغبون فيه
- اقصد الدار الكبيرة تربت يداك ..الزوجة .. العمل ..المال هي الحياة هكذا يا صاح !

*

- ما انفك صوت داخلي يقتحم عليك وحدثك أيامها كلما خلوت لنفسك
- ..وما أكثر خلواتك ...انقطاع عن كل البشر ..حتى أنك طردت والدتك كم مرة
- ..الوالدة التي لا ترى وجودها إلا من خلالها ..وأنت لا ترى قيمة لحياتك من دونها ودون والدك الطيب ..الصوت الداخلي يخاطبك :
- فضلاء الحياة رحب ..لماذا تسجن نفسك في هذه البلدة المغلقة؟

- طفت الوطن من أقصاه إلى أقصاه ..باحثا لك عن دور فيه فرفضك .
- تموت كمدا وهماً ..إن بقيت ..العمر واحد ..فترة الشباب لن تتكرر .
- وما من دابةٍ في الأرضِ إلا على الله رزقُها.
- سافرْ تجدْ عوضاً عما تفارقهُ * وانصبْ فإن لذيد العيش في النصب
- إنني رأيتُ وقوف المله يُفسدهُ * إن سال طابَ وإن لم يسَلْ لم يطبِ □

*

خمسة عشر عاما مرّت كالعلم ..زرعت جسدك في هذه المدينة الجميلة ذات
الحضن الواسع والصدر المنشرح والقلب الحنون ..استقبلتك بفرح ..جادت عليك
بكل ما تملك .. لما انفرط عقدُ من العمر بها ..لبّيت نداءات ملحة تترجّاك
الزيارة ..عجوزان عزيزان أوشكا على الرحيل يتلهّفان لرؤيتك ..لبّيت النداء
..كانت فرحة الشيخين كبيرة ..ألفيت الحياة آيلةً بالتدريج إلى عهدها .لكن الجراح
في القلوب ما اندملت بعد .مسحة الحزن على الوجوه الشاحبة آثرت البقاء .

الأسئلة ما خمدت ..تكاثرت وتسارعت :

- بالتأكيد وجدتَ عملاً هناك وإلاّ ما هذه الشياكة .
- سمعنا أن فرص العمل متوفرة بما فيه الكفاية .
- الكل يجد مبتغاه ..من يحمل الشهادة ومن لم يحملها .
- ذوو الشهادات الجامعية يجدون العمل بسهولة ..أليس كذلك ؟

² - الإمام الشافعي

- أخبرنا بصدق كيف هي تلك البلاد؟
- بلغنا أنك في وضعية جيدة وقدمتَ من أجل البحث عن زوجة تصطحبها معك إلى هناك .
- النساء هناك جميلات وثرِيَّات ..لماذا لم تتزوج من هناك ؟
- كنتَ آنئذٍ تستمع باهتمام لتلك الحوارات من شباب حيكَ بالبلدة وتضحك وتردّ :
- ليس الأمر بهذه البساطة يا أصدقائه .

*

- في جلسة حميمة ساد فيها الفرح بادرَتك الوالدة الطيبة :
- السنون تجري يا ولدي ..والعمر يتقدم بنا معاً ..كفأك وحدة .
- أنت في حاجة إلى أنيس ..الأمر ما عاد يقبل التأخير أضاف الوالد وكأنها استمدت الشجاعة من كلام الوالد واصلت :
- إبراهيم ابن خالتك رفيق طفولتك ..نديك في العمر رزقه الله ابنا وبناتا كأنهما القمر ما شاء الله ، اللهم متّعه بهما ..علي ابن عمّتك تزوج منذ سنة ..رزقه الله ابنا بهي الطلعة ..توكّل على الله واحدٌ حذوهما .
- واصل الوالد :
- الحياة يا ولدي واحدة ..لن تتكرر ..الشباب مرحلة واحدة لن يعود. الزواج نصف الدين ، كلاهما يُكمل الآخر .
- بنت الحلال الله يبارك يا ولدي موجودة ..هي رهن إشارتك ..أضافت الوالدة .

لحظتها اعتدل الوالد في جلسته ..أسند ظهره إلى جدار الغرفة وكأنه يستمدّ منه العون ..حنحن بصوت مسموع وكأنه يُوحى لِمَن معه أنه لا يزال السيد صاحب الأمر والنهي :

- ما رأيك يا ولدي في فاطمة ابنة جارنا سي أحمد الذي ما لمسنا منه إلا المودة والحسنى منذ تجاوزنا ..بنت دمثة الأخلاق ..حسنة السيرة ..متعلمة مثلك يا ولدي . أنت تعرفها لما كانت صغيرة ..كبرت الآن ..الشباب في البلدة يتلهّفون عليها ..تقدّم لأهلها العديد ورفضتهم ..قلبي يقول لي ستقبل بك عريسا لها ..إذا رغبتها يا ولدي سأتولّى الأمر بنفسى غدا إن شاء الله . والدك كان يتحدث بحماسة .

آنذاك انتصبتُ أمام عينيك أسوارٌ عالية ..ارتسمت أمام ناظريك مسافات ومسافات ..فاطمة ابنة الحاج أحمد ..الحاج الذي يملك ما لا يُحصى من عقارات البلدة ويجوز أسهُما خارجها في قطاعات أخرى ، قلت لنفسك : من المضحك أن تقبل بي فاطمة بنت الحسب والنسب زوجا لها .

- إيه يا فاطمة !.. هل حقا قد تصبحين زوجتي ؟ فاطمة ابنة الحاج أحمد ذاك الميسور من قبل ومن بعد ..الرجل الذي سلخ والذي أكثر أيام عمره مسخراً له كغيره من أبناء البلدة البسطة الطيبين ..هل حقا تقبل ابنته فاطمة الدلوعة زوجا لها وأبوها رفض استقبالها يوم تخرّجت من الجامعة بعد إلحاح والذي بالذهاب إليه ..

لحدّ الساعة أنت لا تدري لِمَ رفض استقبالك لأنك ابن ابراهيم الإنسان الطيب البسيط الذي أفنى عمره في خدمته وأمسّه كحاضره دوماً يعيش الكفاف والقناعة وما تجرّأ أن يطالب بوضع أحسن ؟ أم لأنك تجاوزت المألوف فتعلمت

وتحصلت على أعلى الشهادات مثلما تعلم أبنائه..تحديث الظروف وتجاوزت الخط
الأحمر الذي لا يجب أن يتجاوزه أبنائه طبقتك ؟

*

ما صدق رفاق الطفولة أن تحظى بفاطمة زوجة .عارض أهلها سيما أبوها
الحاج أحمد .هي أصرت على الارتباط بك ، تم كل شيء في أقل من أسبوع ..كانت
ترافقك إلى هذه المدينة الودود .

*

*

*

- ليست مدينتي ولن تكون مهما بقيتُ فيها ومهما أصرتَ أنت ..ولست مدينتك
مهما داريت ..لم البقاء وأيام العمر تنفلت منّا ؟ قالت الزوجة بغضب والعبرات
تنحدر على مساحة وجهه كان وردة نضرة أخاذه ، تغيرت سحنته وذبلت نضارته .

المرأة ما نامت تلك الليلة وهي تستحثك على العودة إلى الديار ..تارة
بإغرائها الذي لا تقدر على مقاومته ، وتارة بهدوئها الحبيب إليك ، وتارة بثورتها
التي تؤثر حياها إلا الصمت الذي تبغضه هي . كنت متعبا وكانت هي متعبة صباح
تلك الليلة ..في ذاك الصباح البارد كانت الحقائق مهيئة والمرأة متأهبة للرحيل ..
وجهها شاحب وقواها خائرة وهي مصرة على الرحيل ..لحظتها احتضنت ابنتكما
الوحيدة ذات الأربع سنوات فأشبعته تقبيلًا ، أحاطتك بيديها الصغيرتين .ألصقت
خدها بحدك .ببراءة قالت :

- بابا ..بابا هيا معنا لا تبقي هنا وحدك .

احتضنتها أكثر .حاولت أن تردّ دمعين انفلتتا . ما رفعت عينيك نحو المرأة
التي جذبت البنت بقوة وغادرت المكان .

وحيدا بقيتَ .سقطت عيناك على الأرضية الباردة ..وحيدا بقيت في تلك
المدينة البعيدة . عندما تغيب كل الوجوه في ليل المدينة البارد ، وجهك الوحيد
يواجه سكّون الوحدة المرعب .تستنجد بالذاكرة . تستعرض خريطة الوجوه ..
تستعرض الأطياف .. تتوقف بك الذاكرة ..تعيش لحظات من الفرح ..مع البراءة
..مع الدفء الروحي .تشعر بالنشوة .

- لماذا تركتني وحيدا ؟ كيف دبّرت أمر رحيلها دون أن تُعلمني إلّا في آخر لحظة ؟
كيف يوافقها والدها ويرسل لها المال دون الاتصال بي ؟ لماذا حرمتني زوجتي من
حق الأبوة ؟ أهى مدينة بشعة إلى حدّ القرف كما كانت تقول ؟ هي مدينة كباقي
المدن ..أمدنُ الوطن هناك حقّا تحسّنَ وضعها كما كانت تقول باستمرار؟ أنا لستُ
جحودا ..الاعتراف بالفضل لأهله من الخصال الحميدة ..هي المدينة التي آوتني
وأعطتني كل ما تملك يوم أن حللتُ بها فارّا من الحشّاشين الجدد ،وبعد أن ضاقت
بك الفضلاءات هناك .. أ أنكرُ فضلها ؟.

* *

- ليست مدينتي حقا قالها .

أردف :

- قضيتُ فيها قبل أن ترافقني هذه المرأة عشرة أعوام ..نعم عشرة أعوام وخمسة أعوام
وهي معي .كيف أقضي بها هذه المدة وليست مدينتي ؟ ألم يقولوا : إن مَنْ عاش مع
قوم أربعين يوما أصبح منهم ؟ .. هل أنا أصبحت منهم فعلا ؟ دائما جاري جاك
يكرّر على مسامعي : أعتربك بمثابة ابني .أنت إنسان طيب .. ميشيل الذي عملت
وأعمل معه منذ أن حللت بهذه المدينة حارسا في معمله ، آثرني على غيري من بني

جلدتي. قَرَّبني أكثر إليه حتى من ذاك البرتغالي الذي سبقني في العمل عنده سائقا .أهي حقا ليست مدينتي ؟ لا ..لا إنها مدينتي ..هل أغلبية قاطنيها أصليون ..متجذرون بها أبا عن جد ؟ أم مثلي منحدرين من هنا وهناك ؟ وجوه تنوّعت أشكالها وألوانها انزعت في تربتها ..وجوه أخرى تماثلها تأتي تباعا إليها.. وجوه لا حصر لها ألتقي بها يوميا ، اختلفت سحناتها ..ألوانها ..قاماتها .. ، كيف ترى نفسها في هذه المدينة ؟ ماذا يشعر أصحابها تجاهاها ؟ أهي مدينتهم ؟ أم يشعرون أنهم دخلاء عليها ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا آثروا البقاء فيها ؟

وجوه جديدة ..متجددة ..أصحابها في سيرهم ..في حركاتهم ..في قضاء مآربهم ، تلاحظ أنهم سعداء متوافقون مع أوضاعهم الجديدة ..منسجمون مع ريثم الحياة ..خمسة عشرة عاما ..سدس قرن من أعزّ أيام العمر سعدتُ فيها في هذه المدينة ..بل في مدينتي هذه .

*

ليس ثَمّة مَنْ يُؤنس ..وحيدا في لياليك الباردة الموحشة ..تستوطنك الوحدة ..المرأة التي كانت هنا منذ أيام تؤكد حضورها بين الجدران ..تبعث الحياة هنا وهناك ..تشيع الدفء والحنان رحلتُ ..البنية الزهرة الملائكية التي زرعت الأمل في نفسك ..هي ظلالٌ تتحرك وفراشةٌ جميلة تثبت وجودها في كل لحظة ..ها هي أوراقها ملقاة كما تركتها ..أقلامها التي كلما كانت بجانبك تخط بها خطوطا كيفية ..تخرّبشُ بها خربشاتٍ تراها جميلة تعجبها ، تشركك معها في ذاك الإعجاب .

- لماذا نخدع نفسك ؟ مهما بقيت فيها ، ليست مدينتك ولن تكون .

ذَكَرْتُكَ بِنَعِيمِ الْبَلَدِ وَجَمَالِهِ . حَدَّثْتُكَ عَنِ الْبَحْرِ وَمَا يَدْرُهُ ..عَنِ الشَّمْسِ
وَدَفْعِهَا فِي كُلِّ الْفُصُولِ ..عَنِ السَّوَاوِحِلِ وَجَمَالِهَا وَمَا تَزْخُرُ بِهِ عَنِ الْجِبَالِ وَسَحَرِهَا
..عَنِ الصَّحَرَاءِ وَأَهْلِهَا الطَّيِّبِينَ وَعَنِ بَاطِنِهَا وَظَهَرِهَا وَمَا تَخْبِئُهُ مِنْ كُنُوزٍ ..عَنِ
الْهَضَابِ وَمَا عَلَيْهَا ..عَنِ الْأَمْجَادِ ..عَنِ الْبَطُولَاتِ ..عَنِ التَّارِيخِ الْمَشْرِقِ ..عَنِ ...
وَهِيَ تَتَأَهَّبُ لِلْمَغَادِرَةِ ، يَدُهَا تَقْبِضُ عَلَى وَثَائِقِ السَّفَرِ أَلْقَتْ لَكَ تَذَكُّرَكَ ،
بِيَدِهَا الثَّانِيَةِ جَرَّتِ الْبُنْيَةَ الَّتِي كَانَتْ تَصْرُخُ وَتَمُدُّ يَدَهَا الطَّلِيقَةَ لِحَوْكِ . رَمَقْتَ الْمَرْأَةَ
بِنَظَرَةٍ نَارِيَةٍ . قَبْلَ أَنْ تَتَوَارَى عَنْكَ قَالَتْ :

- أَنْتِ أَمْرٌ مَيِّتُ الْإِحْسَاسِ ..مَسْلُوبُ الْإِرَادَةِ ..تَسْتَخَفُّ بَيْنَاتِ النَّاسِ ..أَنْتِ ..أَنْتِ .
كَانَتْ أَصَمَّ حَقًّا لِحَظَّتِهَا ..كَانَتْ مَسْلُوبُ الْإِرَادَةِ ..عَيْنَاكِ تَسْمَرْتَا فِي الصَّغِيرَةِ
الَّتِي كَانَتْ تَمُدُّ يَدَهَا الصَّغِيرَةَ لِحَوْكِ ..صَرَخَتْهَا كَانَتْ مُدْيَةً مَغْرُوزَةً فِي الْفُؤَادِ ..مَا
سَمِعْتَ مَا قَالَتْ الْمَرْأَةُ ..مَا وَعَيْتُ مَا فَاهَتْ بِهِ .

*

ذَاتَ يَوْمٍ فِي لَحْظَةٍ صَفَاءٍ وَوِثَامٍ قَلَّتَ لَهَا :

- خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا قَضَيْتُهَا فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ الَّتِي عَلَّمَتْنِي مَعْنَى الْحَيَاةِ وَأَذَاقَتْنِي النَّعِيمِ
..هَذِهِ الْمَدِينَةُ الَّتِي جِئْتُهَا فَارًّا مِنَ الْمَوْتِ ..أَنْتِ تَعْرِفِينَ يَا عَزِيزَتِي ذَلِكَ . قَدْ أَهْدَرَ
الْحَشَاشُونَ الْجَدَدَ دَمِي هُنَاكَ . دَوَّنُوا اسْمِي فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْمَعْلَقَاتِ الَّتِي كَانَتْ تُلْصَقُ
عَلَى جُدُرَانِ كُلِّ أَحْيَاءِ الْبَلَدَةِ لِيَلَّا ..بَلْ حَتَّى نَهَارًا .. أَصْدَرُوا الْفَتَاوِيَّ فِي حَقِّي مِثْلَمَا
أَصْدَرُوهَا فِي غَيْرِي ..كُلُّ مَنْهُمْ كَانَ يَفْتِي بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَالتَّكْفِيرِ وَالْقَتْلِ . يَا
إِلَهِي مَاذَا فَعَلْتُ وَأَنَا الشَّابُّ ابْنُ الرَّجُلِ الطَّيِّبِ الْفَقِيرِ الَّذِي كَانَ طَوِيلَ عَمْرِهِ أَجِيرًا
نَظِيفًا لَدَى وَالِدِكَ ؟ الشَّابُّ الْمُتَخَرِّجُ حَدِيثًا مِنَ الْجَامِعَةِ غَايَتُهُ الْوَحِيدَةُ الْحَصُولَ عَلَى

عمل لائق يكفل له دخلا مقبولا يبي به حياته المستقبلية ويساعد به والديه
الكبيري السن وإخوته الثلاث الأقل منه عمرا.. لا مطمح له لا في النيابة ولا في
الولاية .. ذنبي الوحيد أنني ما انضمت إليهم .

حاورتهم كثيرا في الأمر.. كررت وألححت أن يتركوني وشأني .لا شأن لي
بالسياسة وحتى لو أردتُ فلستُ من طينة أهلها .ما تركوا سبيلي .حاصروني زمانيا
ومكانيا .ضيّقوا عليّ الخناق ..حتى في بيوت الله .حاصروني في كل حركاتي :
- انضمّ إلينا يا هذا ! ..انضمّ إلينا يا سي ..وإلا!

- نُعوّل عليك كثيرا في معركتنا التي شرعنا فيها ..انضمّ إلينا ..بانضمامك تكون
ضمنتَ الجنة وأرضيتَ ربّ العلا . وكنت أسعى أن يكون ردي هادئ مقنعا غير
صدامي :

- انضمامي إليكم معناه معاداة غيركم .لستُ عدواً لكم بقدر ما أنا لستُ عدوا
لغيركم ..أنا صديق الجميع .

- هو النفاق بعينه ..والمنافقون لعنهم الله في كتابه الكريم ونحن دستورنا كتاب الله
سنطبقه على المنافقين .من لم ينضمّ إلينا فهو مع الطاغوت .
- اسمع يا هذا إن لم تكن معنا فأنت ضدنا !.

* *

أيامٌ صعبةٌ هي.. ولولا ذاك الرجل الطيب ابن خالتي الذي أنقذني بأن بعث
إليّ بوثيقة الإقامة عنده واستقبالي والتكفل بي إلى أن تحصّلتُ على العمل الذي
أزاوله حاليا ..لكنّ من الهالكين في تلك الأيام .

- هي مدينة لا تشبه مدنتنا .مدينة يسكنها الصقيع ، فيها نساكنُ الأشباح ، من خريطة الوطن البعيدة نسترجع الذكريات ، نستنجد بالذاكرة ..أين روحُ البلد ؟ أين دفءُ الأهل والأحبة ؟ الحياةُ أسمى من أن تتحول إلى أكل وشرب وملبس ومحلقة في الوجوه الغريبة التي ارتسمت عليها قارات الدنيا بكل فسيفسائها . تقول ذاك كلما وقفت على شرفة عمارتنا الرمادية وهي تنظر بعيدا نحو الجنوب .

* *

ليس ثمة من يؤنس وحدتك ..تُوهمُ نفسك أنك في انتظار صوت يقتحم عليك المكان .. صوت يعيدك إلى الدفء ..يعيد الروح إلى المكان ..يبعث الحياة فيه من جديد الوجهُ الأليفُ .. دافئ القلب ، دافئ الجسد ، لكنه طائر يعشق الرحيل ..يحنُّ إلى مسقط الرأس .

الأقلام قبالتك متناثرة ..أوراقٌ ممزقةٌ ..أخرى عليها خربشات وتلوينات غير منسجمة ..تذكرُ السفر بجانب السرير فوقها الفاكس الذي وصلك بالأمس .ذيلَ بحريشةٍ من خربشات ألفتها وهي حبيبةٌ إليك .

تباريح

" لا بدّ من الحب في اتصال الإنسان بالإنسان .إن
هذا الحبّ هو الوسيلة الوحيدة المُمكنة
لاستمرار حياة الإنسان ."
(تولستوي)

مدّت البنية يدها الصغيرة التي ألهبها الصقيع . كانت تمسك بأطراف
أصابعها كيسا أسود تلوّح به يمينا يسارا ..أعلى أسفل .كان جالسا أمام احد المقاهي
عيناه تمسحان الساحة التي تكدّس فيها البائعون من كل الأعمار .تتابعان المارين في
البداية بتركيز ..بتقييم ..ثم بفتور ..البائعون من كل الأعمار ..منهم الذي افترش
الأرض وبضاعته أمامه ..ومنهم الحامل لها ، يطوف بها بين الممرات الضيقة داخل
الساحة وخارجها .

كان جالسا منذ أن غادر بيته على الساعة السابعة صباحا .قادته رجلاه إلى
هذا المقهى الذي تعود الإتيان إليه .مقهى بعيد عن بيته ..يأنس برّواده أيما إيناس ..لا
يعرف عنهم شيئا ولا يعرفون عنه شيئا ..يشعر بالراحة فيه عندما يكون به .يجنّ إليه
عندما يغيب عنه بعض الأيام ..لا يدري لم هو مرتبط بهذا المقهى ؟ هل لوجود
السوق الشعبي وأغلب رواده من الناس البسطاء الطيبين في المكان ؟ أَلِلحركة
والضوضاء وممارسة الحياة على حقيقتها وسلوك الناس المتسم بصدق دون تصنّع

وتزويق وبعْدٍ عن ازدواجية الشخصية ؟ ألبعدِ المكان عن حيّه ولا أحد مّن يعرفهم أو يعرفونه يقدم إلى المكان ؟ قد تكون هذه الأسباب مجتمعة تبعث في نفسه الراحة للبقاء ساعات .

* *

الساعة الحائطية في أعلى صومعة المسجد الذي يتصدر الساحة تدقّ . تعلن الساعة التاسعة صباحا . أشعة الشمس تتسلل رويدا رويدا . تبعث في المكان شيئا من الدفء . تكتظ السوق أكثر . تتضاعف الحركة . ترتفع أصوات البائعين والبائعات . على ظهرها كانت تحمل محفظتها المفتحة بكتبها ودفاترها وأدواتها المدرسية .. بيدها اليسرى تقبض على لفة من أكياس . مدّت يدها الصغيرة اليمنى التي ألهبها الصقيع .. بمسكة بأطراف أصابعها كيسا أسود .. اقتربت منه .. قالت بصوت خافت فيه رنة استعطاف :

- الكيس بدينار واحد عمّي بدلا من دينارين .. اشتر مني الله يخلّيك .

باغتته بخطابها . كان ببلاهة يتابع حركة المكان دون وعي لما كان يجري .. كلّ بصره .. كان شبه غائب . أخرجته إلى واقعه . نظر إليها نظرة غضب . أوشك أن يقذف في وجهها جملته المعتادة التي ألفها منذ أن أقعدوه عن العمل .. نكاية في زوجته التي لم تُنزل من سقف طلباتها حتى وهو متقاعد ... والمنحة غير المرتّب .. يتخيّل إليه أحيانا أنه لما يقذف بهذه الجملة .. إنما يقذفها في وجه زوجته .

- لا .. لست في حاجة .. لا أشتري .

ما تجرأ لحظتها . كأن قوة خفية ردعته عن أن يقذف بجملته .. عن أن ينتفض كعادته . توقفت نظراته عند البنية التي تنوء بحمل محفظة ثقيلة على ظهرها .. نظراتها

كانت تستعطفه ..تلاحق أصابعه وهي تنزلق إلى الجيب ..نظراته تحوّلت إلى ومضات متلاحقة تمسح وجهها الشاحب ، ثم تتابعت منزلقة على بقية جسدها النحيل الذي كانت تستره أسمال بالية ..حتى استقرّت عند قدميها اللتين كانتا تفترشان صندلا بلاستيكيّا .كانت عيناها تتلهفان لما ستحملة الأصابع التي انزلقت داخل جيب السروال .استقرّت عيناه من جديد على الوجه الطفولي الشاحب ..أحسّ في تلك اللحظة أن شيئًا داخليا يدفعه إلى هذه البنية ..يدفعه إلى معرفة شيء عنها ..كم عمرها يا ترى ؟ أهى في الثامنة ؟ أم أقلّ ؟ أم أكثر ؟ حالتها تنبئ على عيشها الصعب ..منّ يدفعها إلى ارتياد الأسواق في هذه السن ؟ منّ يدفعها إلى امتهان البيع في هذه السن وهي طرية العود ؟ كيف تُوفّق بين هذا والدراسة ؟

* *

وانتبه إلى تباطؤه حالما لمح في عينيها بؤادر غضبٍ وهي تقول له :

- هل تشتري مني كيسا أم لا ؟ ..أنا ذاهبة .

بادر متلمّسا رضاها :

- أشتري منك ..فقط أنا أبحث في جيبي عن الصرف ..انتظري قليلا ..لماذا أنت قلقة ؟

- قلقة حتى لا يضيع الوقت مني ..لا بدّ أن أبيع بعض الأكياس قبل دخولي المدرسة الساعة العاشرة .

* *

لا يدري بالضبط ما الذي دفعه إلى التعاطف مع البنية لما وضع في يدها

الدينار واستلم منها الكيس .شملته راحة لذينة لا يدري كنهها ..حالما لاحظ سكونا

بريثا يسيطر على وقتها وشيئا من الثقة وقد أفلحت في مهمتها ..وتمادى في حميمته
مستجلبا أكثر ما يمكن من رضا نفسها .ابتسم قائلا :
- حقا هو كيسٌ جيدٌ كما قلتِ ..أفضل بكثيرٍ مما يبيعه الآخرون .
ابتسمت والثقة في النفس تعصدها قائلة :
- دائما أشرت من البائع أحسن الأكياس حتى وإن كانت أغلى ثمنا .
مدّ يده من جديد داخل جيبه ..متعمّدا إبقاءها ثواني وهو يتملأها أكثر ..سرح
به الفكر ..جرّته الذاكرة إلى الماضي ..إلى عشر سنوات مضت ..كانت تملأ حياتهم
جميعا ..وردة إنسانية عبقة تؤنس الجميع ..هي آخر العنقود ، الوحيدة من بين الأبناء
الخمسة ..واحة جميلة ..ظليلة ..بعثت الدفء والحنان والتماسك داخل العائلة
كانت متوسطة الطول بالنسبة إلى عمرها ..ممتلئة الجسم ..رقيقة التقاطيع ..ذات وجه
قمحي باسمه دوما .عينها نجلان ..خداها بارزان متورّدان ..شعرٌ قسطلبي يتوج
رأسها ..ثور في وجه أي إنسان مهما كانت مكانته وعلاقته بها ، يتجرأ على لمس
ظفيريّتها ..كانت حياتنا ..كانت النور ..في عزّ حيويّتها ..في سعادة الكلّ بها ..
كانت آخر العنقود ..في التاسعة من عمرها تدرس بالسنة الثالثة ..بعناد تُصرّ
على أن تكون محفظتها مملوءة بكتبها ودفاترها وأدواتها وهي متجهة إلى المدرسة
..حتى الدفاتر والكتب التي لا تحتاجها في دوامها ذاك .. كان ذلك قبل عشر سنوات
ذات يوم شتائي ممطر ..كانت تحمل على ظهرها محفظتها المنتفخة رفقة رفيقاتها ..كنّ
في مرح ..كنّ فراشات يختصرن الحياة في بهائها ..كنّ واقفات صباح ذلك اليوم
الشتائي الممطر البارد على حاشية الطريق تحسّبا لقطعه ..بغته انزلت تلك السيارة

الملعونة التي كان سائقها الشاب يطوي بها الأرض طياً ..دهستها دهسا هي ورفيقة

لها - مالك يا عمي ..هل ستشتري مني أيضا؟

- نعم يا بنيتي ..خذي ها هما دينارين ..أعطيني كيسين آخرين .

ظهر البشر اكثر على الوجه البريء ..وافترت الشفتان عن ابتسامة لطيفة

أخاذه .رفع بصره إلى وجهها الملائكي، ألفاه ينم عن الشكر والامتنان .مدت إليه

الكيسين واستدارت لتبتعد .استوقفها متلهفا :

- بُنيتي ما اسمك ؟

- اسمي لطيفة يا عمي .

ردد بصوت خافت : إنك لطيفة والله يا بنتي .

- ألا ترين يا بنتي لطيفة أن تهتمّي بدراستك أفضل . الدراسة تنفعك لما تكبرين

وهي أحسن وأفيد من بيع الأكياس .

وكانها فهمت ما يريد ،قد سمعت مثل هذا من غيره .استدارت مبتعدة وهي

تقول له :

- شكرا عمي ..أنا أدرس حتى أتعلّم ولما أكبر أعمل لأعالج أمي المريضة .أبيع

الأكياس حتى أشتري الخبز لإخوتي الصغار .

تنهّد لحظتها بحرقه ..لا يدري لماذا ..سقط نظره على فنجان القهوة الذي به

بقية ..رفعه إلى شفّتيه ..كان السائل باردا .. دقات الساعة المقابلة تعلن العاشرة

..تذكر أنه موعد دخولها المدرسة لتتعلّم ..تسأل : هل وفّرت ثمن الخبز لإخوتها ؟

بصوت خافت خاطب نفسه :

- يكفيني أنني أراها بين الفينة والأخرى في هذه السوق أو هذا المكان .

التشطي

" يلوم الناس ظروفهم على ما هم فيه من حال
..ولكني لا أؤمن بالظروف ، فالناجحون في هذه الدنيا
أناسٌ بحثوا عن الظروف التي يريدونها ، فإذا لم يجدوها
وضعوها بأنفسهم ."

(برنارد شو)

عقد أعيان البلدية اجتماعا تحدثوا فيه مع رئيس الدائرة عن أمور المدينة
وما حولها من قرى ومدامر ، فكان أول المتدخلين دون استئذان رجل ذو لحية طويلة
بيضاء ، قال بلهجة مؤنبة :

- انتصرنا على العدو أثناء حرب التحرير بفضل تمسكنا بديننا الحنيف وانضوائنا
تحت لوائه فنصرنا الله ..وما نحن فيه الآن هو بسبب ابتعادنا عنه ..عودوا إلى دينكم
يا قوم وسينصركم الله على أنفسكم وعلى ما أنتم فيه من الذل والهوان .
لحظة أن احتد الرجل ذو اللحية البيضاء أكثر في كلامه ، رفع أحد الحاضرين
يطلب نقطة نظام :

- من فضلك السيد رئيس الجلسة : لتكن التدخلات في صلب الموضوع .
صاح رجل توج رأسه بعمامة صفراء دافًا أرضية القاعة بعصى غليظة :
- أنعم الله علينا بأراضٍ خصبة وبمخزون من المياه لا ينضب ..ازرع فيها ما تبغي ،
اغرس في تربتها ما يطيب لك ..تعطيك الذهب ..تجود عليك بالخير والنعمة
أضعافا مضاعفة ..هي اليوم بورٌ.. أرادوا لها ذلك . فتياننا اليوم بالعشرات بعضهم

قصّدا بلديات مجاورة . وجدوا الترحاب ..مُنحوا القطع الارضية . استفادوا من الدعم الفلاحي ، استقرّوا ، استصلحوا ، أنتجوا ..البعض من فتياننا هجروا المنطقة إلى غير رجعة . آخرون يعيشون الاغتراب في عقر دارهم ..أنعم الله علينا بالأرض الخصبة والماء الوفير والسواعد الشابة المتعلمة .

أكمل بحماس الجالس قبالتة :

- مسؤول الدائرة الفلاحية ، كلّما وفد عليه فتياننا أفرادا أو جماعات اهتزّ وكأنه أصيب بمسّ من جنون ، يرفض ملاقاتهم والتحدث إليهم ، وقد يصادف أحدهم أو البعض منهم فيصدّهم صدا عنيقا وبفضاضته المعهودة يخاطبهم :

- للألف مرّة أكّدنا لكم ، بأن عملية مسح الأراضي الصالحة تجري على قدم وساق ..عملية التحريّ في الطلبات ودراسة الملفّات لا تقلّ عنها سرعة ..إنها تتطلب وقتا كافيا ، بحيثكم هنا لا جدوى من ورائه ، سنُخبركم في الوقت المناسب ، أخبروا بهذا بعضكم البعض .

طلب أحدهم الكلمة ويبدو من هيئته أنه موظف بسيط المسؤولية ..صرخ

بجدّة وغيّض :

- إنجاز المرافق الخدماتية تبرز يوميا هنا وهناك في البلديات المجاورة لنا وبعيدا عنا أيضا ..مرافق تُنجز وتُدشن في كل مناسبة ..مدينتنا يشقها طريق محوري وطني ..المارّ به ليلا بمركبته يشعر وكأنه يقطع طريق دشرة معزولة ..الإضاءة العمومية تكاد تنعدم به ..لا يتجدد ما يُبلى من تجهيزاتها ولا يُصلّح ما يتعطل ..الأزقة والشوارع الخلفية عششت الحشرات الضارّة بها ، تطاردنا العقارب في مواسم الحرارة وليالي الصيف القائظة ، شبكة المياه ممتدة عبر جانبي الطريق الرئيسي وعبر الأحياء الحديثة التي

تنبت فيها القصور والفيلات الفردية الفخمة كالقصر ، تطوقها ليلا عقود من المصابيح التي تنوّعت لونا وشكلا ، تمتد في شوارعها الواسعة قنوات المياه التي تتجدد باستمرار ، ينساب داخلها ماء زلال لا ينقطع ..

انعدمت مرافق الحياة أين نقطن في عمق المدينة وقلبيها العتيق ، دخلنا الثابت المتواضع يذهب معظمه في تأمين مستلزمات ضرورية حُرِّمنا منها وغيرنا ينالها في يسرٍ وقد لا يدفع مقابلها شيئا.

ارتفعت الأصابع من هنا وهناك تريد التحدث والبوح بالهموم ..تكلم رجل يبدو أنه في منتصف العمر ، بعد أن أصدر آهة :

- رئيس البلدية يتعالى عن التحدث مع أي مواطن ويستقبل غير زمرة ومَن له مصالح معهم .

- ويح مَنْ يطرح عليه قضيته عندما يلتقي به عَرَضاً ، تسمع أذناه ما تكره من سبٍّ وشتمٍ وإذلال ، وقد يتوسّع السبّ والشتم إلى كلِّ السكان الذين ما فتئوا ينجّسون عليه جلساته الحميمة بزياراتهم المزعجة وطرح قضاياهم التافهة ..

أضاف أحد بسطة التجار .

* * *

كان رئيس الدائرة ما ينفك يثمن كلام كل واحد من المتدخلين بالهمهمة أو عن طريق إيماءة الرأس ، إيهاما للحاضرين بالاهتمام بما يطرحونه بواسطة التدوين على دفتر أمامه ، ونفس التدوين كان يقوم به أحد الكتّاب المقربين إليه .

حنحن شيخ كبير في الخلف واعتدل في جلسته ، رافعا رأسه لحظات نحو سقف القاعة المخملي ، وكأنه يستمدّ منه الجرأة ولملمة الأفكار . استأذن في الكلام فاتجهت إليه الأنظار . ساد الصمتُ القاعة. قال :

- عدد السكان عندنا يزداد بوتيرة عالية لا تتناسب مع ما هو متوفر بين أيدينا من موارد ..ارتفاع كهذا جميعنا يدرك عواقبه في انعدام المرافق والخدمات المختلفة و محدودية المداخليل وخلق المبادرات الفردية والجماعية .

قاطعهُ ذو اللحية البيضاء بحدة وغطى عليه بصوته الجمهوري :

- اتق الله يا رجل ..ألا تخجل من الله ومن نفسك عندما تتدخل في ذات الله عزّ وجلّ وفي قدرته وتسييره لهذا الكون ؟ أليس هو القائل :((ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم .)) ارتفاع النسل يا حمقى ، يا جهلة كله خير وبركة لهذه الأمة . هو قوّة إضافية لها تُخيف به أعداءها وتزرع الرعب في نفوسهم ..كلامك هو كلام أعداء الله وأعداء هذه الأمة الذين نجحوا في بثّه في عقولكم الخاوية ، في نفوسكم الضعيفة التي استكانت واستسلمت للإذلال والإهانة ..ها أنتم كالسكارى وما أنتم بسكارى تنفثون سمومهم وتبتنون أقوالهم ، عودوا إلى دينكم تائبين طائعين لله ، واعملوا بما جاء في كتابه الكريم .

أكمل المتحدث الأول :

- حاجات السكان ضرورية ، بعضها تعرفونه ونحن نذكره في اجتماعنا هذا تباعا ، وبعضها قد لا نتذكره والمواطن يشعر به .

صرخ أحدهم :

- ما رأيكم في تكوين لجنة نحصر فيها الحاجات الأساسية ؟

تطلّع الحاضرون جميعا صوب رئيس الدائرة ..رئيس الجلسة ، وما أن همّ بالكلام حتى غادر الاجتماع الرجل ذو اللحية البيضاء غاضبا دون استئذان وهو يحوقل ..قال رئيس الدائرة وقد بدا عليه نوعٌ من الضيق والانزعاج في البداية :

- هذه القضايا وتلكم الحاجات اليومية لسكان المنطقة ممّا تعرفونها وممّا لا تعرفونها هي شغلنا الشاغل ، بلغناها ونبليغها شفاهيا وكتايا دوريا إلى المسؤول الأول بالولاية وإلى مساعديه كلّ في قطاعه ، وما فتننا نُذكرُ بها في كل مناسبة ..أُثمن حضوركم المكثف ووعيككم وطرحكم للقضايا بكيفية حضارية ؛ أنا منزعجٌ بعض الشيء منكم إذ وكأنكم تُشعرونني أنني مقصّرٌ في حقّ هذه الجهة ، أو كأنني لا أؤدّي وظيفتي وفّق ما هو مطلوب ..إذن ما هو دورنا إن لم نبلّغ وإن لم نتخذ مبادرات في عين المكان .

تداخلت أصوات المعقّين .أجمعت على تهدئة المتكلّم وطمأنته وتثمين دوره منذ أن حلّ بالمنطقة ، ابتسم بدوره وبدا عليه الارتياح. مباشرة أخذ يضمّ الأوراق إلى بعضها وكأنه يُوحى إلى الحاضرين أن الجلسة انتهت .

فجأة وقف أحد الحاضرين ينتسب إلى إحدى جمعيات المجتمع المدني وأطلق طلبه بإصرار :

- يجب تكوين لجنة تحصر القضايا ، إضافة إلى لائحة توصيات .

همس المتدخل الثاني في الاجتماع للجالس بجانبه :

- لقد أضعنا وقتنا الثمين هذا الصباح .مقولةٌ معروفةٌ مؤداها : إذا أردتَ قتل مشروع ، كوّنْ له لجنة .

إصرار

" غالباً ما يكون النجاح حليفَ هؤلاء الذين

يعملون بجراً ، ونادراً ما يكون حليف

أولئك المترددين الذين يتهيبون المواقف وتنازعها ."

(جواهر لال نهرو)

كان صوتها هادئاً ..حنونا ..دافئاً ، لكن به لَكْنَةُ رجولية تشي بالحزم ..وهي

تجلس في بداية الصف الخاذي لصفِّي ، يفصلنا الممرّ .قالت :

- يعيب عليك بنات جنسي ..أعضاء جمعيتنا النسوية انخيازك للجنس الذكوري .

ارتسمت على شفتي ابتسامة لا أدري مأتاها ولا كيف جاءت ، أو الداعي إليها

؛ ووجدتها لحظتها تتغير سحتها وتغمر الحُمرّة وجهها، كأن الابتسامة استقرّتها ..

وجهها الذي يُنبئ بعمر يطوي العقد الرابع .قبل أن أجيب أردفت بحدة :

- أنتم في جمعيتكم التي تحمل شعار الفكر والإبداع ، تُقصّون المرأة من حقّها في

التألق إلى جانبكم .تُلغون إبداعها .

وأنا أُصدمُ من جرأة الأئى ودرجة اتهامها ، قلتُ بدهشة :

- كيف اتّضح لكُنّ ذلك بربك ؟

- لنا تجارب معكم الرجال ، في كل المسابقات التي أعلنتم عنها ..الرُتب الأولى دوما

يحوزها الجنس الذكوري ..أنظروا حولكم ، المرأة اقتحمت كل الميادين ..تواجهت في

كل القطاعات ..لا تقلّ مستوى معرفيا ..ولا تنعدم الكفاءة عندها عن كفائتكم

معشر الرجال

في تلك الآونة انفتح باب القاعة ، دلفت منه ثلاث نساء يرافقهن أحد المسؤولين ، سرعان ما أخذن مكانهن في المنصة الرئيسية .عمّ القاعة الصمتُ .اشرأبت الأعناق .بعد النشيد الوطني ، افتتح المسؤول الجلسة ..عرّف بالوفد ..وضّح الهدف من الملتقى .. ختم كلمته :

- سعيدُ أنا بتقديمي إليكم رئيسة الجمعية الوطنية السيدة : "س" المتحصّلة على الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة السربون بباريس .
لحظتها والارتياح والنشوة يجلّان محيّا الحاضرات ، اختلستُ نظرة جانبية نحو جارتي ..كانت عيناها تُعلنان التحديّ والفخر .لزمْتُ الصمت إلى حين .

الوجد الزائف

" إن الاتجاه الذي يبدأ مع التعلم سوف

يكون من شأنه أن يحدّد حياة المرء في المستقبل ."

(أفلاطون)

في محطة الحافلات الرئيسية ..تفاجأتُ به قُبالتها وهي تنزل من الحافلة
أفردها بابتسامة أخاذة .جذبها من يدها ..تواريا عن الأنظار .اندسّا بين حافلتين
هرمتين مهجورتين ..ألصق كتفه بكتفها ..سرتُ حرارةً توغّلت في كل المسام .بلهفة
الشوق قال مؤكّدا :

- انتظرتكِ على أحرّ من الجمر منذ الصباح الباكر .

- رسالتكِ وصلتني ليلة البارحة ..أكّدتَ لي فيها حبّك وإخلاصك لي ..عاتبتي عن
عدم لُقياك ..ها أنذا أمامك ..بين يديك ..لقاه اتنا ستركّر ..لا تقلقْ .

أطلّ رفيقه مقتربا ..انزعج ..تغيّرت ملامحه .غمزت هي الرفيق ..أشارت إليه
أن يقترب أكثر :

- تعال معنا ..تقدّم ..نحن رفاق أحبّاء ..بدون إحراج .

كانت فاتنة جدّابة ..أخاذة وجهها كوجه الربيع .تهتّز الأفتدة لِمراها ..تتقطّع
الأنفاس لطلعتها .أحدُ الذين يعرفون عنها الكثير ..ضرب كفّا بكفٍّ ..بمرارة ردّد :

- جنى عليها جمالها الأخاذ ..ضيّعت الغالي والرخيص وضيّعت شباب المنطقة معها

..

وهو يجذبها إليه أكثر ..حاولت الانفلات الكاذب منه ..صدّها رفيقه ، وهو

يعيدها إلى بيت الطاعة قال الملتصق بها :

- كيف أقنعت والدتك بالخروج من البيت والحجىء إلى هنا؟

انطلقت منها قهقهة فاضحة :

- ككل المرّات ..رفيقاتي كثيرات أقنعتُها بأنى فى زيارة إلى إحداهنّ

أردفت بغُنجٍ :

- يبدو أنكما لا تعلمان بعدُ أن كيدنا عظيمٌ .

أحياء يتنكرون للشمس

" الماضي لا يموت أبدا ، فهو حيٌّ فينا ..
وهو أقدمُ مرشد في حياة الأفراد والأمم ..
وما روح الأحياء إلا مؤلفَةٌ من أفكار الأموات ."

(جوستاف لوبون)

من السنوات الخمس التي قضاها مجاهدا في فضاءات سلسلة جبال "إيدوغ" ، ومن كل المعارك التي خاضها مع رفاق كثيرين بعضهم لا يزال حيا يُرْزَق ..هناك لحظات مضيئة بقيت ساطعة شفافة في ذاكرته ..لحظات كانت جميلة يلتئم فيها الشمل بعد الفراق ..بعد البلاء في المعارك الشرسة مع العدو ..عقب العناء في العودة من الحدود الشرقية أثناء الدخول بشحنات السلاح ..بعد اجتياز خط الموت المكهرب بأقلّ الخسائر .

كؤوس الشاي الأخضر المنعنع ..فناجين القهوة ذات الرائحة المميّزة المستحلبة من قهوة الأسد الشهيرة يومذاك ..تمتدّ لها الأيدي الخشنة ..أشجار الفلين والزيتون تظلل الجميع ..ترتسم المدينة تحت السفح ..تمتدّ في انكسار ..مياه اليمّ تتسرّب تحت رجليها الواهتتين ألسنته الثائرة الزبدية تلحق قدميها العاجزتين ..يؤاسيها ..ترفع رأسها في ثقلٍ ..ترنو إليه في حنوٍ ..تندفع دموعها ..سرعان ما تُلقِي برأسها من جديد عند " وادي القبة " .

أحد الرجال وهو يرتشف قهوته ، رفع رأسه في شموخ وكأنه أسدٌ مغوارٌ ، أجال بصره في المرتفعات القرية والبعيدة ..في الوهاد ..في الروابي ..في المنخفضات

..في اليمّ الممتدّ وشواطئه الذهبية .ثم صوّب نظره بعيدا ..بعيدا .. بصوت هادئ
استرسل وكأنه يواصل حديثا انقطع :

- الجمال متعة ..انسجام مع النفس الباطنية ..انسجام مع خالق هذا الكون الجميل
اللامحدود . يا رجال ...القبض على الجمال في هذا الوطن الغالي ليس بالأمر
السهل ..لا يتأتّى إلّا بهذه ..

كان يشير إلى مسدّسه الأوتوماتيكي - مات 49 - الذي افتكّه من أحد
ضباط جيش العدو في معركة شرسة ..رفع مسدّسه عاليا ..أقسم :

- أيها الرجال ..هذا الجمال الفَتّان الذي نتشي به ..يهزّنا ..يفتننا رغم متاعنا
وانشغالنا الكلّي فيما هو أهمّ ..إنّ لم يكن من نصيبنا بعدّ ، فهو من نصيب أبنائنا
وأحفادنا . وقبض على حفنة من التراب ..أطال لثمها . ثم رفع رأسه مشدّدا قبضته
عليها أكثر ..وكانه في حالة تعبٍ .. واصل :

- نعهذك أيها التربة الطاهرة بأننا سنروي أعماق أعماقك بعرقنا ..سنضمّخ
حبيباتك بدمائنا الزكية ..سنفتكّ هذا الجمال الرّبّاني منهم .

ثم التفت إلى الرجال الذين تخلّووا عن الفناجين والكؤوس ..وهو يزأر :

- أيها الرجال ..العهد الذي بيننا أن نعيد التاج إلى هذا الوطن الذي كان يحلّله قبل
قرنٍ ونيف .ومنّ قضى منا يواصل غيره المسيرة . الأيادي وقتها كانت تلوّح بعلامة
النصر . الحماس سرى في كل الأوصال ..العيون شخصت إلى العلا ..تستمدّ العون
والمدد .

* * * *

وضع الموظف الشاب يده على كومة كبيرة من ملفات تكدّست أمامه ،
باشمئزاز خاطب صديقه الجالس قبالة :
- آه يا صديقي لولا هذه الملفات المقرّفة التي أتعبتني ولا تزال لخرجنا معاً لبرهة من
الوقت نحتسي مشروباً منعشاً.

ثم ألقت نظر زائره إلى كومة اكبر من الأولى غطّاها الغبار ..غيّر طولُ إيداعها
في خزانة حائطية لوّن الوثائق بها ..واصل وكأنه يلقي بحمل ثقيل :
- يا صاح ..هذه مئات الملفات لمجاهدين يطلبون رخصاً لمقاهي ..لرخص كراء
سيارات أجرة ..لأكشاك بيع الجرائد والسجائر ..الكثير تحصّل على هذه الرخص
وهو يعاود الطلب ..تثور القيامة كلما تناهى إلى أسماعهم أن رخصاً جديداً ستوزع
..إصرارٌ مقيت ..إمّا أن الرخص الجديدة تنال الكلّ وإلاّ لن توزع ..

* * * *

من تلك السنوات الخمس ..محطّات مضيئة لا زالت تسعفه بها الذاكرة
عندما يتنكر الأحفاد ..لحظات قدسية شفافة تعيده إلى محراب التجلّي ..تعيده إلى
أطياف الراحلين .. تحت ظلال أشجار الزيتون والفلين ..تعيده إلى صوت شهيد
وهو يزأر بصوته الجهوري .. فتسمعه القمم والوهاد والربا ..يُقسم ويعاهد :
- القبض على الجمال أيها الرجال في هذا الوطن ليس بالأمر اليسير ..هذا الجمال
الفتان الذي نتشي به ..يهزّنا من الأعماق ..يسحرنا ..يفتننا ..إنّ لم يكن من نصيبنا
، فهو من نصيب أبنائنا وأحفادنا ..العهد الذي بيننا أن نُعيد التاج المغصوب إلى
هذا الوطن .

الفهرس

03.....تصدير

05.....مقدمة

1 - مجموعة أخاديد على شريط الزمن 10

12.....كلمة العدد -

13.....إهداء -

14.....حصاد السنين -

22.....عندما تختق الفضيلة -

29.....السر -

38.....يوم الجمعة -

42.....الانتظار -

48.....السم القاتل -

57.....عائشة -

62.....حتى الصغار يحزنون -

69.....بائع متجول -

75.....أخاديد على شريط الزمن -

84.....لقاء في العيادة -

92.....المأساة -

106	- الوجه البشع
110	- الذكرى
115	- ليس ابني
122	- القدر الساخر
131	- أمام المنصة
136	- الأرض تنتحب
142	- خيوطُ من العرق
147	- خمس قصص قصيرة جدا

2 - مجموعة القرص الأحمر : 158

160	- المتاهة
167	- حُلْمٌ يتحقق
174	- أيامُ حُبلى
183	- القرص الأحمر
189	- المشروع
194	- الشيخ والظلّ
204	- النور يلاحق الظُّلّة
210	- الدَّرْبُ الوعر
215	- ... وآه يا زمن

- 226..... - حتّى العصافير أعلنت الحداد.
- 233..... - ذئابٌ في المنعطف.
- 243..... - دائرة الفراغ.
- 249..... - خمسُ قصصٍ قصيرةٍ جدًّا.

3 - مجموعة الشموخ: 259

- 261..... إهداء.
- 262..... الشموخ.
- 267..... الحلم والأسوار.
- 278..... لصوصٌ من نوعٍ آخر.
- 285..... الحلم في العيون الصغيرة.
- 293..... اليأس.
- 302..... السَّقوط في الوحل.
- 315..... ليلةٌ في فندقٍ عاصميٍّ.
- 322..... عزفٌ على أوتارٍ مقطوعةٍ.

4 - مجموعة الدفء المفقود: 337

- 339..... - الرسّام.
- 345..... - عمّي حمة.

- 353..... - شيءٌ لا يُقاوم
- 357..... - موتُ الشَّحاذ
- 368..... - في دُجى الليل تنمو الأشواك
- 375..... - اللعبُ بالمكشوف
- 382..... - الدفءُ المفقود
- 394..... - الرّجلُ الأنيق
- 407..... - في دروب الفردوس

5 - مجموعة ظلال بلا أجساد: 425

- 421..... - إهداء
- 422..... - زمن الخوف
- 427..... - الرحيل
- 436..... - أشواك على الدرب
- 445..... - عناقٌ أبديٌّ
- 453..... - المرافئ المغلقة
- 462..... - أقوى من الأقنعة
- 470..... - رجلٌ على الهامش
- 482..... - تباريح
- 487..... - التشظّي

- إصرار 492
- الوجد الزائف 494
- أحياء يتكرون للشمس 496

بشير خلف

- كاتب وقاصٌّ، وإطار تربوي متقاعد.. بدأ الإبداع الأدبي منذ سنة 1972 .
- نشرت له مجلات: " آمال " و"الثقافة " الكثير من إنتاجه القصصي. وكذلك مجلة " الرؤيا"
- لاتحاد الكتّاب الجزائريين، ومجلة " الأديب " لصاحبها المرحوم ألبير الأديب ببيروت. نشر في أغلب الصحف الوطنية.. لا يزال يكتب ويبدع ، وينشر في المواقع: ديوان العرب ، الحوار المتمدن ، ضفاف الإبداع ، مجلة أصوات الشمال، الأدب العربي.
- له مدوّنة رابطةها التالي: (سُوف أوراق ثقافية) .

صدرت له المؤلفات التالية :

- 1 - أخاديد على شريط الزمن (في عدد خاص عن وزارة الثقافة سنة 1977)، ثم في سنة 1982 عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 2 - القرص الأحمر - مجموعة قصصية - (عن ش. و. ن. ت 1986) .
- 3 - الشموخ - مجموعة قصصية - (عن الجاحظية 1999).
- 4 - الدّفء المفقود - مجموعة قصصية - (عن الجاحظية سنة 1999) .
- 5 - ظلالُ بلا أجساد - مجموعة قصصية - (وزارة الثقافة 2007)
- 6 - الكتابة للطفل بين العلم والفن - دراسة - (وزارة الثقافة 2007)
- 7 - الجمال فينا وحولنا - دراسة - (وزارة الثقافة 2007)
- 8 - الجمال رؤيةٌ أخرى للحياة - دراسة - (وزارة الثقافة 2007)
- 9 - الفنون لغة الوجدان - دراسة - (وزارة الثقافة 2009)
- 10 - الفنون في حياتنا - دراسة - (وزارة الثقافة 2009)
- 11 - وقفات فكرية.. حوارٌ مع الذات، ووخزٌ للآخر. مقالات (وزارة الثقافة 2009)

- 12 - مرايا.. حديث في الثقافة والجمال والفنون . (عن مديرية الثقافة بالوادي 2012)
- 13 - مؤسسات ثقافية - مقالات - (عن وزارة الثقافة 2013)
- 14 - حوارات في الفكر والثقافة والأدب والتربية مع وسائل الإعلام (عن مديرية الثقافة بالوادي : 2015).
- 15 - على أجنحة الخيال - مقالات - (جاهز للطبع) - مُودَع لدى وزارة الثقافة
- 16 - المجتمع المدني وحقوق الإنسان (جاهز للطبع) - مُودَع لدى وزارة الثقافة
- 17 - ثقافة الحوار مع الذات ومع الآخر (جاهز للطبع) - مُودَع لدى وزارة الثقافة

مؤسسات ثقافية

- ☐ عضو عامل في اتحاد الكتّاب الجزائريين منذ 1973 .
- ☐ عضو مؤسس وعامل في الجمعية الوطنية الثقافية " الجاحظية " 1990.
- ☐ يرأس حاليا الجمعية الثقافية الولائية : رابطة الفكر والإبداع بولاية الوادي .



كان صمت تلك الليلة الموالية للمأساة غريبا عن القرية الهادئة .. الوديعه
 .. ملأ الحزن القلوب كما امتلأت الحناجر صمتا .. ووريت البنية ذات الربيع التاسع
 التراب عصر ذلك اليوم .. تطايرت صباحه أشلاء .. اختلطت الأعضاء المتناثرة
 بوريقات الكراسيات .. وريقات دُونت بها خلاصات بأنامل غضة تطايرت .. صاحبها
 لحظتها انحنى بنية التقاط ولاعة ذهبية اللون .. جذابة الشكل وُضعت بإتقان
 بمحاذاة مدخل الجار الثري صاحب المؤسسة .. قدمت البنية كعادتها .. تدق الباب
 كي تترافق مع رفيقتها وندتها ابنة صاحب المنزل الثري .. تطايرت أشلاء
 .. تضمخت وريقات الكراريس بدمها الطاهر الزكي .. بدهشة الطفولة .. أطبقت
 على الولاة الذهبية اللون .. وولاة وُضعت بإحكام .. وُصِلت بجسم رهيب تحت
 التراب .. مصيدة كانت معدة بإحكام لجسم آخر غير جسم البنية .
 تطايرت البنية أشلاء .. صعب يومها لملمة الأطراف .. العضلات
 المتناثرة .. رحلت البراءة وهي تجهل لماذا تطايرت أشلاء .. رحلت وما تدري شيئا
 عن الأجسام الرهيبة التي تزرع تحت وجه التربة ..
 (من قصة زمن الخوف .. المجموعة الخامسة)

بشير خلف

